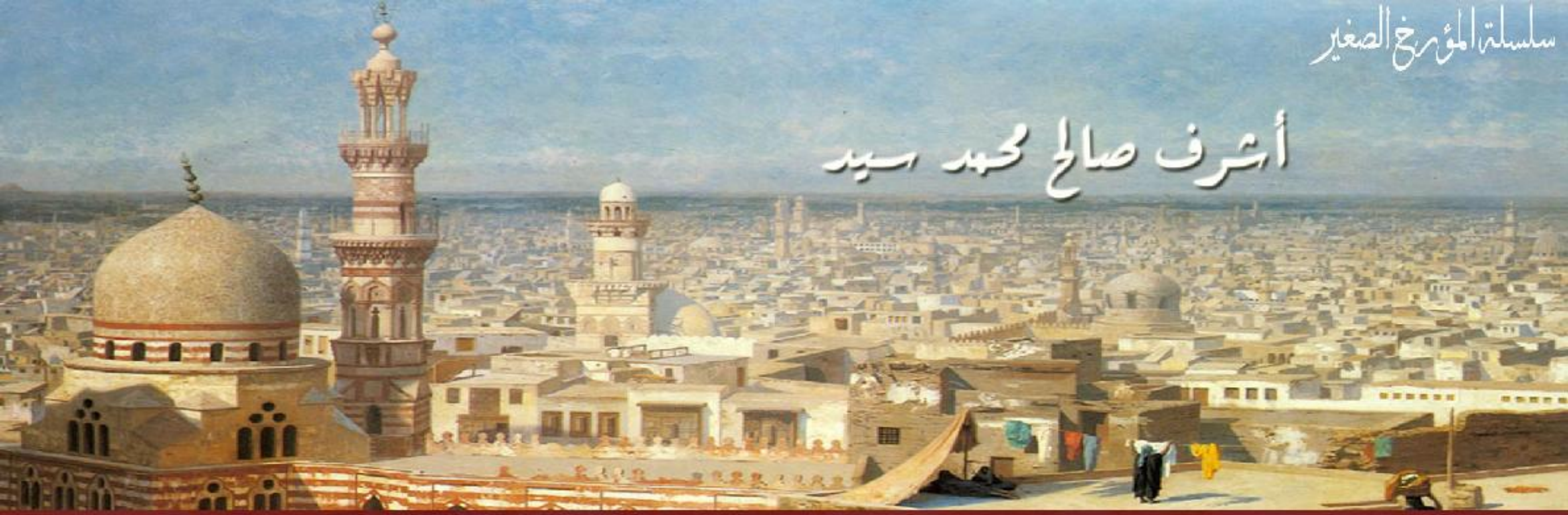
سلسلة المؤرخ الصغير

أشرف صالح محمد سيد



أيام المحروسة

من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية



1431

2010

دار الصداقة للنشر الإلكتروني

أيام المحروسة

من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية

يصدر هذا الكتاب في ذكرى مرور أكثر من ١٠ قرون

على سقوط الدولة الإخشيدية

٩٦٩ – ٢٠١٠

دار الصداقة للنشر الإلكتروني
دار متخصصة في النشر الإلكتروني على شبكة الإنترنت
مركز الصداقة الثقافي – فلسطين
www.alsdaqa.com

alsdaqa2004@hotmail.com

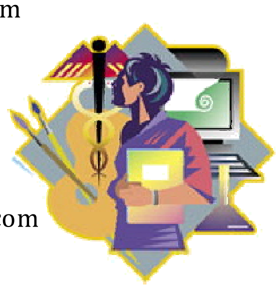
الفهرسة أثناء النشر

٩٥٣ صالح ، أشرف
أيام المحروسة: من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية/ أشرف صالح محمد سيد.- ط ١.- فلسطين: دار الصداقة للنشر الإلكتروني ، ٢٠١٠.
٢٤٦ ص: إيض ملونة ؛ (سلسلة المؤرخ الصغير ؛ ٧).
- الناشر: دار الصداقة للنشر الإلكتروني (فلسطين)
www.alsdaqa.com
١- العنوان ٢- مصر - تاريخ - فتح مصر
٣- مصر - تاريخ - العصر الأموي ٤- مصر - تاريخ - العصر العباسي
٥- مصر - تاريخ - العصر الطولوني ٦- مصر - تاريخ - العصر الإخشيدي
٧- مصر - آثار إسلامية

الطبعة الإلكترونية الأولى
فلسطين ٢٠١٠

Publisher:
Alsdaqa E-Publishing House (Palestine)
www.alsdaqa.com
E-Mail: safad27@hotmail.com
Tele Fax: 0097082882311

التجهيزات الفنية
الأستاذ محمد سعودي
E-Mail: mhamdy_1@yahoo.com



٧

أيام المحروسة

من الدخول العربي حتى التجربة الإخشيدية

بحث وإعداد

أشرف صالح محمد سيد

رئيس تحرير دورية "كان" التاريخية
عضو هيئة التدريس بالجامعة الاسكندينافية-النرويج
عضو إتحاد كتاب الإنترنت العرب
عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
عضو لجنة الكتاب والأدباء بالمجلس العالمي للصحافة
عضو جمعية الإنترنت العالمية
عضو جمعية المحافظة على التراث المصري

دار الصداقة للنشر الإلكتروني
Alsdaqa E-Publishing House

الطبعة الإلكترونية الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

" لا أدري ما الذي انتهى إليه الحال بالنسبة لقضية هامة وعامة أثيرت منذ أعوام وهي قضية إعادة كتابة تاريخنا وتصحيح ما أحاط وقائعه وأحداثه من تلفيقات وزيف، فالثابت أن تاريخنا المدون حتى الآن في كثير من حقبه لا يزال يعاني من الغموض ومن ضعف الإثباتات والحقائق القائمة على الوعي العلمي والفهم، والإدراك الواقعي مما يفقده دلالته وقيمته "

الكاتب الصحفي مصطفى غنيم

جريدة الأخبار– القاهرة

[العدد ١٣٨٦٧/ ص ١٦] ١٣/١٠/١٩٩٦م

فهرس

الإهداء

إلى أســـتاذي أ.د.أحمــــد فـــؤاد ســــيد؛
أســتاذ التــاريخ الإســلامي بكليــة الآداب
جامعة عين شمس، وفـاءً لأسـتاذي الـذي
تعلمت على يديه أولى خطوات البحـث في
مصـــادر تـــاريخ مصـــر الإســـلامية

رحمه الله وأثابه عنا خير الثواب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعدة عقود لم يكن المصريون يطلقون علي عاصمتهم اسمها التاريخي الذي اختاره لها جوهر الصقلي وعلماء الفلك المصاحبون له فيما قرأنا عن تاريخ بناء وتسمية القاهرة المعزية بهذا الاسم، بل ظل المصريون وحتى مطالع القرن العشرين يطلقون عليها اسم المحروسة، وقد ظهر هذا الاسم "مصر المحروسة" منذ عهد المماليك بعد تحصين القاهرة، حيث أطلق عليها القاهرة المحروسة. وقيل لأنها محروسة بطبيعة موقعها الجغرافي، حيث يحدها من الشمال البحر المتوسط، ومن الشرق جبال البحر الأحمر، ومن الغرب الصحراء، وفي الجنوب جنادل وشلالات تمنع الإبحار في النيل. وربما أطلق عليها هذا الاسم تيمنًا ورجاءً بأن يحرسها الله عز وجل من أعدائها وحاسديها والراغبين في الكيل لها. وقد اختفي اسم المحروسة بالتدريج وصارت القاهرة هي"مصر" بإطلاق اسم الكل علي الجزء، أو ربما إشارة لمركز الحكم والسلطة واعتباره رمزاً للوطن بأكمله.

وقد حدد المؤرخون تاريخ مصر الإسلامية من عام ٢١هـ/ ٦٤١م وحتى عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م بنهاية دولة المماليك وتحويل مصر إلى إمارة عثمانية. ويقسم هذا التاريخ إلى ثلاثة حلقات [الولاة والطولونيين والإخشيديين – الدولة الفاطمية – الأيوبيين والمماليك]، لكل حلقة منها طابعها المميز مع وجود صلات قوية تربط بينها جميعاً.

وتروي هذه الصفحات قصة عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين، والتي تبدأ مع دخول عمرو بن العاص لمصر عام ٦٤١م وحتى سقوط الدولة الإخشيدية سنة ٩٦٩م. حيث تميز هذا العصر بانتشار الإسلام في مصر، وكذلك تبعية مصر في صورة أو أخرى للخلافة الإسلامية على الرغم من قيام الدولتين الطولونية والإخشيدية كدول مستقلة لها خصائصها وشخصيتها.

وفي ثنايا هذا الكتاب، سبعة مباحث من عمر مصر في العصور الوسطى، وهي فترة تزيد عن ثلاثة قرون، تعرضت مصر خلالها لتغيرات عظيمة في النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية، بدايةً من علاقة مصر بالعرش البيزنطي وتلك الأسباب التي عجلت بالقضاء على الحكم البيزنطي ومهدت السبيل لدخول العرب إلى البلاد، وموقف الأقباط من الفتح الإسلامي. ثم بداية عصر الولاة في مصر بانتهاء الفتح الإسلامي، حيث وصل عدد الولاة منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين (٣٢) واليًا في مقابل ثمانية وسبعون (٧٨) واليًا في الفترة الممتدة من العصر العباسي حتى قيام الدولة الطولونية.

مع إلقاء الضوء على مسار رحلة الإسلام واللغة العربية داخل مصر، ومظاهر الحريات التي تمتع بها الأقباط، وما تعرضوا له من مضايقات معنوية ومالية، مما كان له أكبر الأثر في إشعال ثورات متعددة في وجه الجنرالات الأمويين والعباسيين. ووصولاً إلى قيام الدولة الطولونية في مصر على يد أحمد بن طولون أول سلسلة الحكام البارزين الذي حكموا مصر على فترات متقطعة، حيث استقل بمصر عن الخلافة العباسية وكون إمبراطورية واسعة تمتد إلى الشام وحدود الدولة البيزنطية شمالاً، وإلى النوبة جنوباً، وإلى برقة غرباً، وتخوم العراق شرقاً.

وانتهاءً بقيام ثاني الدول المستقلة في مصر "الدولة الإخشيدية" على يد محمد بن طغج الإخشيد، الذي حاول محاكاة أحمد بن طولون في مظهره ومواكبه وبلاطه، إلا أنه لم يرزق من مواهبه أي شيء، وانقضت السنوات دون أثر. ومع ذلك فإن الدولة التي أقامها الإخشيد في مصر، أتاحت للشعب المصري أن يعيش فترة من الزمن في هدوء واستقرار، بعيداً عن الفوضى والفتن التي انتابت الخلافة العباسية.

إن هذا الكتاب حلقة جديدة في سلسلة المؤرخ الصغير، قصدنا فيه تحقيق أهداف السلسلة بتوفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين، بأسلوب أكاديمي يتوافق مع متطلبات البحث العلمي.

وأخيراً قبل أن تقرأ هذه الصفحات تذكر؛ نصف المعرفة أكثر خطورة من الجهل.

أشرف صالح محمد سيد
mr.ashraf.salih@gmail.com

فندق هوليداي ان – شرم الشيخ
١٥ فبراير ٢٠٠٩

Egypt before Arab Conquering



مصر قبل الفتح العربي

"لو سألنا أيًا من الأباطرة الـرومان عن العلاقة الـوثيقة التي تربـط مصر بالإمبراطورية.. لأجاب على الفور: القمـح والنقـود"

المؤرخ جونز A.H.M. Jones

"إن مدينتنا (رومـا) لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تقيم أودها، دون ثروة مصـر"

الخطيب الروماني بلينيوس

مصر قبل الفتح العربي

مصر والعرش البيزنطي - الأسباب التي عجلت بالقضاء على الحكم البيزنطي: أسباب دينية [الإمبراطور دقلديانوس – النزاع حول طبيعة المسيح – المقوقس واضطهاد المسيحيين]، أسباب اقتصادية [نظام الضرائب ونظام الحماية]، عسكرية [النظام الإداري الجديد]، أسباب اجتماعية [انبعاث القومية وظهور القبطية]

من المعروف في بادئ الأمر أن مصر كانت إحدى الولايات التابعة للدولة الرومانية وذلك منذ سقوطها عقب معركة أكتيوم البحرية[١] Battle of Actium سنة ٣١ ق.م وانتصار القائد أوكتافيوس – الذي أصبح الإمبراطور فيما بعد – على انطونيوس وكليوباترا ملكة مصر. ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية الكبرى إلى قسمين، كانت مصر من أراضي الإمبراطورية الرومانية التي عرفت باسم إمبراطورية الروم، وفي عهدهم عانت مصر من الاضطراب الإداري في البلاد، وانهيار الروابط الإدارية بين رجال تلك الإدارة وعمالها. ومنذ القرن السابع الميلادي أصبحت مصر جزء من الدولة البيزنطية والتي رغم الإصلاحات التي قامت بها داخل مصر، إلا أن البلاد ظلت فريسة للضعف والانحلال لأن الإصلاحات كانت بهدف استقلال مصر لمصالح بيزنطة.

فتعد فترة الحكم البيزنطي لمصر امتدادًا للحكم الروماني لها، فما اصطلح على إطلاق اسم "بيزنطة" عليه في التاريخ ليس إلا الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية التي أعاد الإمبراطور دقلديانوس تنظيمها، لبث الروح فيها بعد أن كانت الخلافات الداخلية تمزقها، وتؤثر عليها سلبياً. لذلك نجد أن فقهاء تاريخ النظم القانونية لا يدرسون الفترة البيزنطية في فصل مستقل، بل يضمونها إلى فترة الحكم الروماني، تأسيسًا على أن تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما، وشرقية عاصمتها القسطنطينية، ليس إلا أمرًا تنظيميًا يخص

---

(١) عقب مقتل يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م تعاون أوكتافيانوس (الذي عُرف فيما بعد باسم أوغسطس) والقائد ماركوس أنطونيوس (كان من أعوان قيصر) على القضاء على قتلة قيصر وأتباعهم. ثم دب النزاع بين هذين الرجلين واشتد الخلاف بينهم وبلغ نهايته عام ٣١ ق.م عندما تمكن أوكتافيانوس من هزيمة أنطونيوس وكليوباترا في معركة أكتيوم Actium البحرية التي ضمت بعدها مصر إلى الإمبراطورية الرومانية. وعاد أوكتافيانوس إلى روما وغدا سيد الموقف، وكان عليه أن ينظم تلك الدولة التي أنهكتها الاضطرابات والحروب الأهلية والتي ترامت أملاكها شرقاً وغرباً. أنظر: شحاتة محمد إسماعيل، دراسات في التاريخ الروماني.- القاهرة ١٩٨٤، ص ١٤٦.
أشرف صالح محمد سيد، تيبيريوس ثاني الأباطرة الرومان.- الطبعة الإلكترونية الأولى.- بيروت: شركة الكتاب العربي الإلكتروني، ٢٠٠٨. هامش (٨) ص ١٣.

الإمبراطورية ذاتها، ولا يؤثر على الولايات التابعة لها ومنها مصر.(٢) بينما يتجه فقهاء التاريخ العام والتاريخ الاجتماعي إلى دراسة هذه الفترة كفترة مستقلة، نظرًا لما تتمتع به من تحول هام في الفكر الديني في مصر، من الديانة المصرية القديمة التي ظلت سائدة آلاف السنين، إلى المسيحية، التي كان أباطرة الرومان يقاومونها أشد مقاومة. ولكن مع اعتلاء الإمبراطور قسطنطين العرش (٣٢٣ – ٣٣٧م)، والذي كان أول إمبراطور مسيحي، فقد اعترف بهذه الديانة الجديدة وسمح باعتناقها، وأوقف اضطهاد معتنقيها.(٣)

والواقع أن؛ كلا الفريقين على صواب، ذلك أن النظم القانونية التي كانت سائدة لم يصبها تعديلات جوهرية في الفترة البيزنطية، إلا بعض التطوير الذي كان يدخله من حين إلى آخر أحد الأباطرة على النظم دون إخلال بالفكرة الأصلية فيها. وبالنسبة للفريق الثاني فقد أدى انتشار المسيحية إلى أثار كثيرة، خاصةً في العلاقة بين الكنيسة الشرقية والغربية، وظهور المذاهب، والانقسامات الكثيرة، وترسيخ الأفكار الدينية التي ساهمت فيها الكنيسة المصرية بالكثير.(٤)



الإمبراطورية البيزنطية
في أقصى اتساع لها خلال القرن ٦م

THE BYZANTINE EMPIRE IN THE SIXTH CENTURY

University of Pennsylvania (www.arthistory.upenn.edu)

(٢) راجع: شفيق شحاتة، التاريخ العام للقانون في مصر القديمة والحديثة.– القاهرة، ١٩٦٣. عبد المجيد الحفناوي، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية.– الإسكندرية (٤٩٩صفحة). فتحي المرصفاوي، تاريخ القانون المصري، القاهرة ١٩٨٢.

(٣) السيد الباز العريني، مصر البيزنطية.– القاهرة، ١٩٦١. ايدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي/ ترجمة عبد اللطيف أحمد علي.– الطبعة الأولى.– بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٣. مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي.– الطبعة الأولى.– القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٦. (٣٥٨صفحة).

(٤) ناصر الأنصاري، المجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية.– الطبعة الثانية.– القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧.ص ٨٨

أما الأسباب التي عجلت بالقضاء على الحكم البيزنطي والتي ساعدت مصر على الدخول في حوزة العرب فهي كالتالي:

الأسباب دينية

لقد كانت مصر قبل الفتح العربي كغيرها من الولايات الرومانية تدين بالدين الوثني إلى أن ظهرت دعوى السيد المسيح عليه السلام، وتسربت المسيحية للبلاد وانتشرت سريعًا اعتبارًا من القرن الأول الميلادي، واعتنقها كثير من المصريين الذين رفضوا عبادة الأباطرة رفضًا شديدًا، وقابل الأباطرة ذلك باضطهاد المسيحية في مصر واضطهاد كل من يعتنق الدين المسيحي، ووصل الأمر إلى أن بعض الأباطرة ألزموا المصريين بتقديم القرابين للآلهة الوثنية.

وبلغ الاضطهاد ذروته على عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥) الذي أصدر مراسيم تحث على تعذيب واضطهاد المسيحيين، وحرق الأناجيل والكتب الدينية، ومنع المسيحيين من التجمع أو القيام بأي صلوات أو طقوس دينية، وقتل الرجال والنساء والأولاد الذين رفضوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية.[٥]

ولما كان وقع الاضطهاد شديدًا على المسيحيين في مصر نظرًا لكثرة ما سفك من دمائهم في عهد ذلك الإمبراطور، فاتخذت الكنسية في مصر من سنة ٢٨٤م وهو تاريخ تولية دقلديانوس الحكم بداية للتاريخ القبطي، وسمى عصره بعصر الشهداء لكثرة من قتل في زمنه.

ولم تهدأ موجهة الاضطهاد ضد المسيحيين عمومًا وأقباط مصر بوجه خاص إلا عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الكبير (٢٧٥ – ٣٣٧م) بالمسيحية، وأصدر مرسوم ميلان الشهير الذي أطلق حرية العقيدة للمسيحيين.[٦] ثم أحرزت المسيحية نصرً آخر في عصر الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٤٦ – ٣٩٥م) الذي أعلن فيه أن المسيحية دين رسمي للدولة.

(٥) فقد رأى دقلديانوس الذي كان قائداً بلقانياً من أصل ريفي، أن الأوقات العصيبة التي تمر بها الإمبراطورية تتطلب القيام بإجراءات حاسمة، فعمل على إصلاح النظام الاقتصادي، كما رفع الإمبراطور إلى مكانة مقدسة على الطريقة الشرقية؛ من حيث العرش المرتفع، والتيجان، والثياب الأرجوانية، ودعم دقلديانوس البيروقراطية بجهاز من الشرطة السرية والمخبرين، كما فرض عقوبات تصل إلى حد التعذيب على المخالفين، وعمل على الحد من امتيازات المدن التي كانت تتمتع في أرجاء الإمبراطورية بما يشبه الحكم الذاتي، وغدت جميع المدن بذلك خاضعة للحكم المركزي، حتى فيما يتعلق بشئون الكنيسة صارت الكلمة النهائية للإمبراطور. أنظر:
نورمان كانتور، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية / ترجمة قاسم عبده قاسم.- الطبعة الخامسة.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧. (الجزء الأول، ص ٤٣)

(٦) استعاد النصارى خلال حكمه حرية التعبد وأصبحت الكنيسة النصرانية شرعية، وتعتبر الكنيسة الأرثوذكسية قسطنطين قديسًا. وعن قسطنطين الإمبراطور المسيحي راجع: نورمان كانتور، المرجع نفسه، ص ٦٢- ٧٢.

الجدير بالذكر؛ أنه حدث نزاع بين المسيحيين أنفسهم حول طبيعة المسيح، ففي حوالي منتصف القرن الخامس للميلاد اشتد الخلاف في الفكر المسيحي حول تفسير طبيعة المسيح، فقال البعض بأن للمسيح طبيعة واحدة، وهذا هو المذهب المونوفيزيتي وذلك هو ما ذهبت إليه كنسية الإسكندرية. في حين قال فريق آخر بأن للمسيح طبيعتان؛ إحداهما إلهية والأخرى بشرية، وهذا هو المذهب الملكاني، وكان ذلك الرأي هو رأي الكنسية في القسطنطينية.(٧)

ولما اشتد النزاع، عُقد مجمع ديني في خلقدونية عام ٤٥١م(٨) تحت إشراف السلطة الإمبراطورية وضم جميع الأساقفة في الإمبراطورية، وقرر هذا المجمع الأخذ بمذهب الطبيعتين (بشرية – إلهية)، وأنكر المجمع مذهب الطبيعة الواحدة الذي تقول به كنسية الإسكندرية.ولكن المسيحيون في مصر على رأسهم بطريق الإسكندرية رفضوا الاعتراف بما أقره المجمع وأطلقوا على أنفسهم"الأرثوذكس" أي أتباع الدين الصحيح. أما أتباع الكنسية البيزنطية فقد عرفوا باسم "الملكانيين" لإتباعهم مذهب الإمبراطور، ذلك الأمر الذي عرضهم لموجة اضطهاد عنيفة منذ أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد، حيث واجه المصريين الاضطهاد بالهرب إلى الأديرة والمعابد أحيانًا، فقد بلغ منذ قسوة الاضطهادات أن كان يُلقى بهم أحيانًا في مواقد الحمامات العامة لتكون لحومهم وعظامهم وقودًا لنيرانها.(٩)

---

(٧) الذين يستخدمون تعبير (الطبيعتين) اللاهوتية والبشرية، لا يتكلمون عن طبيعة النفس وطبيعة الجسد، إنما عن طبيعة واحدة بشرية فى المسيح. راجع:

"طبيعة واحدة وطبيعتين" ضمن كتاب البابا شنودة، طبيعة المسيح، متاح عبر الموقع الرسمي لكنيسة الأنبا تكلاهيمانوت القبطية الأرثوذكسية: (http://St-Takla.org)

(٨) هو المجمع المسكوني الرابع، ويُعتبر من أهمّ المجامع، إذ إنّ الكنيسة قد أكدّت في قراراته إيمانها بوحدة شخص المسيح وبـ(الطبيعتين في المسيح)، الطبيعة الإلهيّة والطبيعة الإنسانيّة. وقد نجم عن هذا المجمع انشقاقٌ أدّى إلى ابتعاد الكنائس الشرقيّة التالية: القبطيّة والأرمنيّة والسريانيّة عن الشركة مع الكنيستين الرومانيّة والبيزنطيّة. راجع:

كتاب مجموعة الشرع الكنيسة أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة/ جمع وترجمة وتنسيق الارشمندريت حنانيا الياس كساب.- منشورات النور ١٩٩٨. ص ٣٦٤ – ٣٦٥.

(٩) استخدم الأباطرة الرومان مع النصارى عموماً ومع شعب مصر على وجه الخصوص كافة ألوان التعذيب الوحشي من حرق وجلد، وصلب وسلخ، ونشر ورجم، وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان، وضرب بالسيوف وإلقاء إلى الوحوش المفترسة، وسجن وغيرها، مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة. بعد أن كانوا يعمدون إلى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدنًا بأكملها بما في ذلك الكنائس، وكان بطارقة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها وقوداً لهذه المجازر الرومانية.

وللإطلاع على شهادة بعض الأساتذة المتخصصين عن الاضطهادات التي كان يعاني منها الأقباط (نصارى وفلاسفة ويهود) على يد قوات الاحتلال الروماني والبيزنطي (٤٧ق.م) وقبل الفتح الإسلامي، راجع:

جمال عبد الهادي، فتح مصر ٢٠هـ/ ٦٤١م .- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٩. ص ١٩ – ٢٨.

وقد استغل كسرى الثاني (٥٩٠ – ٦٢٨) - ملك الدولة الساسانية في بلاد فارس- فرصة اضطراب الإمبراطورية البيزنطية، حيث غزا الفرس مصر واستولوا على مدنها شمالاً من الإسكندرية حتى أسوان جنوبًا. لكن المصريون لم يرحبوا بالفرس وزادت الأوضاع سوء على سوء، حتى نجح الإمبراطور هرقل(٥٧٥ – ٦٤١) في طرد الفرس من آسيا الصغرى والشام ومصر جميعًا، واستعاد أملاك الدولة البيزنطية.(١٠)

عمل الحاكم الجديد "هرقل" على إيجاد حل للمشكلة الكبرى التي اعترضت سبيل العلاقات بين مصر والقسطنطينية؛ وهي المشكلة المتمثلة في الخلاف الديني حول طبيعة المسيح، وقد وضع هرقل صيغة للتوفيق بين قرارات خلقدونية والمذهب المونوفيزيتي، دون حساب لعناد المصريين، الذين لم يرضوا بذلك وعاد الاضطهاد الديني مرة أخرى. وأدى عناد هرقل إلى أنه أرسل إلى مصر حاكمًا يجمع في قبضته بين الزعامتين الدينية والسياسية، بمعنى أنه يكون حاكمًا إداريًا على مصر من قبل الإمبراطور، وفي نفس الوقت بطريرقًا ورئيسًا لكنيستها.

وكان هذا الرجل قيرس Cyrus – والذي عُرف في المصادر العربية باسم المقوقس – وقد اشتهر بالصلابة والميل إلى العنف، ولذلك لاذ بطريرك الأقباط(١١) بنيامين بالفرار من الإسكندرية قبل وصول المقوقس إليها، واتجه البطريرك إلى وادي النطرون ومنه فر إلى طيبة بالصعيد. ولم يخطئ المصريون في ظنهم، فقد تطرف المقوقس في اضطهاده للمصريين للتخلي عن مذهب الطبيعة الواحدة، وبلغ الأمر به أنه قبض على الأب مينا – شقيق البطريرك بنيامين – وأمر بنزع أسنانه وكي جسمه بالنار ليجبره على التخلي عن مذهبه المونوفيزيتي. ولما ازداد الرجل إصرار على التمسك بعقيدته، وضعه في جوال ملئي بالتراب وألقى به في البحر. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاضطهاد أن ازداد المصريون كرهًا للحكم البيزنطي واشتد عداؤهم له ورغبتهم في التخلص منه.

---

(١٠) يعتبر هرقل بحق من أعظم الأباطرة البيزنطيين، فعلي الصعيد الحربي أستطاع استعادة كل الولايات الرومانية التي كان الفرس قد استولوا عليها، حتى وعلي الرغم من الخسائر الجسيمة التي تكبدها أمام حروبه ضد المسلمين، فإنه استطاع بعبقريته إيقاف جيوش الفتح الإسلامي عند آسيا الصغرى، كما كسر جيوش الخلافة في حملتها لغزو قرطاج. زد على ذلك؛ أنه أكمل عملية صبغ الدولة الرومانية بالطابع اليوناني بفرضه اللغة اليونانية لغة رسمية للإمبراطورية بعد أن كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية، حيث أصدرت كل المراسيم الإمبراطورية في القرن السابع وكل المذكرات الرسمية باللغة اليونانية، واختفت الألقاب اللاتينية وحلت محلها الألقاب اليونانية.

(١١) البطريرك: Patriarch هي كلمة يونانية مكونة من مقطعين (بارتي) أي أب و(أرشي) بمعني رياسة فيكون المعني الكلي رئيس الآباء.ويعتبر الآباء إبراهيم و اسحق و يعقوب بطاركة في العهد القديم. ويطلق على عصرهم (عصر الآباء البطاركة)في العهد القديم. من أولى مسؤوليات البطريرك هي إعطاء البركة الأبوية ، كما فعل يعقوب مع أبنائه الاثنا عشر في العهد القديم. أما مكتب البطريرك فيسمى البطريركية. راجع: الموسوعة الكاثوليكية على الرابط:
(http://en.wikisource.org/wiki/Catholic_Encyclopedia_(1913)/Patriarch)

الأسباب الاقتصادية

باتت النواحي الاقتصادية في مصر أكثر سوءًا فكانت مصر بمثابة سلة الخبز التي تمد بيزنطة بالموارد والمؤن، فمصر مجرد مخزن للغلال وأهل مصر مجرد أدوات لإنتاج القمح للإمبراطورية،[١٢] وواجه المصريون التزامات ضريبية كبيرة في الوقت الذي أعفى منها كبار الملاك مما أثار شكوى الفلاحين وتذمرهم، فقد كان المصري مطالبًا بكثير من الضرائب المستحقة عليه ويأتي على رأسها ضريبة القمح التي كانت تعد أهم الضرائب، وكانت هناك ضرائب على الماشية والأملاك العقارية وما فيها من متاع، وضرائب على أنواع الحرف المختلفة، وكان على الداخل إلى مصر والمتنقل بين أنحائها أن يدفع ضريبة مقررة، بالإضافة إلى الضرائب على السلع والتركات وعتق الرقيق وقرابين المعابد.

هذا وازدادت الحالة الاقتصادية في مصر سوءًا، فقد أهمل نظام الري، ولم يجد أغلب المصريين مخرجًا من محنتهم إلا الهروب إلى المعابد في الصحراء، وفر كثير من الزراع وتركوا أرضيهم دون زراعة، بينما زيدت الضرائب على من بقى فاضطر كثير منهم إلى التنازل عن أراضيهم لأصحاب النفوذ من الملاك والأثرياء كي يعيشوا تحت حمايتهم، وأطلق على هذا النظام "نظام الحماية"، مما أدى إلى ظهور الأبعاديات الإقطاعية التي يمتلكها كبار الأسر والحكام من الأجانب الذين لا ينتسبون إلى البلاد، وتحول الفلاحين إلى مأجورين لصاحب المِلك وأصبحت البلاد في القرن السابع على نظام الإقطاعيات.[١٣]

ولا أدل على ذلك من أن قمح مصر الذي كانت روما تعتمد عليه لإطعام أهلها لم يعد يكفي، وكان لابد لها من استيراد قمح إفريقية مضافاً إلى قمح مصر منذ أوائل القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي.[١٤]

---

(١٢) يقول المؤرخ جونز A.H.M.Jones " لو سألنا أيًا من الأباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التي تربط مصر بالإمبراطورية .. لأجاب على الفور: القمح والنقود". وهذه العبارة البليغة تصف طبيعة العلاقة القائمة بين مصر والإمبراطورية الرومانية سواء عندما كانت روما القديمة على ضفاف نهر التيبر هي حاضرة الرومان، أو بعدما انتقلت إلى روما الجديدة " القسطنطينية" على شطآن البسفور. راجع:

رأفت عبد الحميد، "مصر والعرش البيزنطي"، ضمن كتاب مصر وعالم البحر المتوسط / إعداد وتقديم رؤوف عبّاس.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٦. ص ٧٥ – ١٠٣.

(١٣) كان ذلك أشبه بمن يلقي بنفسه في النهر هرباً من الأسد فيتلقفه التمساح. أنظر:

محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠. (ج١، ص٢).

(١٤) سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.- الطبعة الثانية.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة لكتاب، ١٩٩٤. ص ١

Milne, J. Grafton, A History Of Egypt Under Roman Rule.- 3rd Edition.- London: Methuen & Co., 1924. P.60

الأسباب العسكرية

لقد عمل التقسيم الإداري لمصر على إضعاف السلطة الدولية فكانت مصر مقسمة إلى:[(١٥)]

- الإسكندرية: "كانت من أهم الأقسام وترتبط بالدولة".
- شرق الدلتا.
- غرب الدلتا.
- مصر الوسطى: "وتشمل الفيوم".
- مصر العليا: "وتمتد حتى آخر حدود مصر الجنوبية".

وقد كان يحكم كل إقليم أمير يطلق عليه "الدوق" [(١٦)] يكاد يكون مستقل بإقليمه، ويجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، وهو أعلى شخصية دينية بالإقليم. وقد ترتب على هذا التقسيم الإداري لمصر أن أصبح لكل إقليم جيش خاص ليدافع عن الإقليم وأصبح الجيش إقليمي، وكان الجيش يجند من المصريين ولم يكن له من الصفات العسكرية الحظ الوفير، حيث عدم وجود الروح بين الجنود وكانت مهمة الجيش مساعدة الجباة على جمع الضرائب، والقضاء على قطاع الطرق. وكان يسمح لأفراد الجيش بالاشتغال بالزراعة والتجارة بالقرب من بلادهم، وكان من الطبيعي أن يشارك الجيش آلام الشعب بسبب الحكم البيزنطي.[(١٧)]

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن عدد جنود الجيش البيزنطي في مصر كان يُقدر بنحو ثلاثين ألف جندي، غير أن هذا العدد على كثرته، تنقصهُ الوحدة والانسجام، ويفتقد جنوده روح القتال والمغامرة بعدما اقتصر دورهم في مصر منذ أعوام طويلة على القيام بأعمال الشرطة، يرهبون الزراع والصناع لانتزاع ما يُقدَّر عليه من ضرائب هنا أو يتصدون لثروة صغيرة وتذمر محدود هناك.[(١٨)]

---

(١٥) سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.- الطبعة الثانية.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨. (سلسلة تاريخ المصريين ١٤، ٢٣٤صفحة).
مقالات من الكتاب متاحة بموقع المركز الألماني للثقافة والحوار: (http://www.zfkd.org)

(١٦) الدوق (Duke): هو الشخص النبيل ، وهو أقل رتبة من الملك أو الملكة، و يحكم دوقية. جاء اللقب من الكلمة اللاتينية Dux Bellorum، بمعنى القائد العسكري، وقد استعملته الشعوب الجرمانية، والمؤلفون الرومان للإشارة إلى قادة حربهم. وتُدْعَى زوجة الُدوق دوقة، ويحظى أكبر أبناء الدُّوق بلقب لورد.
Sir Frank M. Stanton, Anglo-Saxon England.- Third Edition.- London: Oxford UniversitPress, 1971.

(١٧) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.- القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

(١٨) موسوعة تاريخ مصر: مصر الإسلامية/ تحرير هشام الجبالي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ١٩٩٤. ص ٤٧٣ – ٤٧٤.

الأسباب الاجتماعية

كانت الأسباب الاجتماعية من العوامل التي عجلت بالقضاء على الحكم البيزنطي ومهدت السبيل للفتح العربي. فقد كانت الإسكندرية مدينة يونانية أجنبية، كانت قد تميزت بالبذخ والثراء على العكس من بقيت أجزاء البلاد التي كانت أقاليم زراعية.[١٩] فبدأت السلطة البيزنطية تفرض سلطانها على الإسكندرية ومنف وحصن بابليون، وكان رجال الجيش يجمعون الأموال بالقوة.[٢٠]

يقول ديهل "في أوائل القرن السادس للميلاد كانت الحالة في مصر خطيرة، ففداحة الضرائب التي فرضها الرومان قد أفقرت البلاد وأوجدت سخطاً شديداً، واقترنت الأزمة الاقتصادية بأزمة اجتماعية، وكانت الرشوة وفساد الحكم تزيد من هذا السخط".[٢١]

وهكذا؛ تعاونت جميع الأسباب على إضعاف مصر فأهملت الأرض والتجارة وانتشر القحط، وقد صحب هذه الأحوال يقظة الروح القومية التي تجلت في ازدهار اللغة القبطية، واندثار اللغة اليونانية،[٢٢] وبذلك هُيأت البلاد في أوائل القرن السابع الميلادي لهذا الحدث العظيم وهو فتح العرب لمصر وانتقال السلطة من أيدي البيزنطيين إلى العرب.[٢٣]

---

(١٩) عن موقع الإسكندرية ووضعها في العالم المتأغرق، راجع هذه الدراسة الممتازة:

لطفي عبد الوهاب يحيى، مقدمة لحضارة الإسكندرية: دراسة في حضارة البحر الأبيض.- الطبعة الأولى.- الإسكندرية: مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٥٨. (٧٠ صفحة)

(٢٠) وعن المجتمع المصري قبل الفتح العربي. راجع:

هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤. (الجزء الأول، ص ٣٥ – ٦٥).

(21)Ch. Diehl, “**L'Egypte chrétienne et byzantine**”: in Histoire de la nation égyptienne.. T. 03. L'Egypte ptolémaïque, 323-30 avant Jésus-Christ. L'Egypte romaine. L'Egypte chrétienne et byzantine, by Gabriel Hanotaux.- Paris : Plon, 1933. P.454

(٢٢) فقد تزايد استعمال اللغة القبطية في تحرير العقود القانونية وغيرها من الوثائق، بل وجد بين أقطاب الكنيسة مَن كانوا يجهلون اليونانية. راجع:

هـ.آيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي/ ترجمة عبد اللطيف أحمد علي.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٣. ص ١٩١.

(23)Helen Chapin Metz, ed. Egypt: A Country Study. Washington: GPO for the Library of Congress, 1990. (available in 21 September 2009 at: http://countrystudies.us/egypt/)

أحمد عبد الرازق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية: من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩. ص ١٨.

March of The Arabs to Egypt



مسير العرب إلى مصر

"جاءت المسيحية لمصر وانتشرت، فاعتنقها من اعتنقها، وبقى من بقى على الوثنية، ولم يقل عاقل ولا مجنون لمن تنصر إنك قد فقدت وطنك بتنصرك!! ثم جاء الإسلام، فأسلم من أسلم، وبقى من بقى على نصرانيته، فلماذا يريدون أن نفقد وطننا بإسلامنا؟! "

الشيـخ محمـد الـغزالي رحمه الله

"نجد من يقول أن المسلمين احتلوا مصر من المسيحيين، بالرغم من أن مصر لم يحكمها حاكم قبطي على الإطلاق"

الأديب الدكتور يوسف زيدان

مسير العرب إلى مصر

عمرو بن العاص وفتح مصر – مسير الحملة إلى مصر – معركة عين شمس " هليوبوليس"– حصار حصن بابليون – معاهدة بابليون الأولى – فتح الإسكندرية – معاهدة بابليون الثانية – فتح برقة هدنة البقط – شخصية المقوقس– حريق مكتبة الإسكندرية

بعد أن تسلم المسلمين القدس سار عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وذهب كلاهما نحو الشمال، وقد أرسل عمرو مدد للعرب المحاصرين لقيصرية، أما عمر فقد أقام في دمشق. ولعل عمرو بن العاص قد أفضْ برأيه في فتح مصر منذ كان مع الخليفة في بيت المقدس، ولكن الخليفة رأي أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد.[(١)] ولما ظفر العرب انتهت الحرب أو كادت، عاد عمرو إلى عرض رأيه، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة، وقال له أن أريطيون Ariteon حاكم الروم على بيت المقدس قد لاذ بمصر، وأنه كان يجمع فيها جنود الدولة وعلى العرب ألا يضيعوا الوقت بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل الأمر، ولتصبح مصر بعد أن يتملكها العرب قوة المسلمين، وعوناً لهم لكثرة خيراتها، وقاعدة آمنة لفتح الأندلس وما وراءها.[(٢)]

وكان اجتماع القائد بالخليفة في الجابية بقرب دمشق وذلك في خريف ٦٣٠م وكان العرب لا يزالون على حصار قيصرية وقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير للمسلمين ولكنه ظن أن عمرو يقلل من شأن ما يلقاه من الصعوبة في فتحها، وكان في ذلك الوقت لا يستطيع أن يضعف من الشام بأن يبعث منهم جيشًا كافيًا لفتح مصر. فلما طلب عمرو أن يسير إلى مصر بجيش من (٣٥٠٠) أو (٤٠٠٠) رجل وعده عمر أن يفكر في الأمر فإنه كان لم يستقر على رأي في ذلك. ثم عاد عمرو بن العاص إلى قيصرية، فبعث الخليفة بكتاب وراءه يقول له فيه إنه قد رضي بغزو مصر [(٣)]، وتقدم إليه أن يجعل الأمر سرًا وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيرًا هينًا. وإن كان بعض المؤرخين قد ذكروا روايتين متناقضين حول مسيرة عمرو إلى مصر فعلينا أن نناقشهما قبل الحديث عن الفتح:

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية المصرية في مصر القديمة: من فجر التاريخ إلى الفتح العربي.– الطبعة الثانية.– القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩. ص ١٩٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب: تاريخ الدولة العربية.– الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت. (الجزء الثاني، ص ٢١٢)

(٣) أحمد تمام، مقال بعنوان " فتح مصر.. أرض الكنانة"، موقع إسلام أون لاين، منشور بتاريخ ١ يناير ٢٠٠٠ على الرابط: (http://www.islamonline.net)

الرواية الأولى:

إن عمرو بن العاص سار لفتح مصر من تلقاء نفسه مما أغضب الخليفة الذي كتب له يوبخه ويأمره بالرجوع إن أتاه كتابه قبل فتح مصر، وجاء الكتاب إلى عمرو وهو في العريش، وفيه يقول الخليفة: "من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص، أم بعد فإنه بلغني أنك سرت، ومن معك إلى مصر، وبها جموع الروم وإنما معك نفر يسير، فإذا جاءك كتابي هذا، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع".[٤]

الرواية الثانية:

تذكر الرواية؛ أن عمرو بن العاص ما أن تلقى موافقة الخليفة حتى جد بالمسير في جوف الليل فلما عاد عمر بن الخطاب إلى الحجاز، وعرض على أهل الحل والعقد بها قراره بفتح مصر، قال له عثمان بن عفان محذرًا "أنه يخشى تعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يُدرى تكون أم لا". وآثار ذلك مخاوف الخليفة حيث كتب إلى ابن العاص كتابًا جاء فيه:" إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامض لوجهك".[٥] وقد لحق رسول الخليفة بهذا الكتاب جيش عمر قبل دخوله حدود مصر ولكن بن العاص تباطأ في استلامه حتى يصل إلى مكان يستريح فيه، فلما وصل للوادي الصغير عند العريش أخذ الكتاب وقرأه، ثم التفت إلى أصحابه من حوله قائلاً:" أنحن بمصر أم بالشام؟ فقالوا له: نحن بمصر، فقرأ عليهم كتاب الخليفة، ثم قال نمضي في سبيلنا".

ولكننا لا نأخذ بهذه الآراء؛ فلا يستطيع عمرو بن العاص أن يتحرك من تلقاء نفسه، وهو القائد العربي الذي تعلم النظام والطاعة، كما أنه يعلم من هو ابن الخطاب، ويدرك أنه الخليفة القوى الحق.[٦] وللرد على الرواية الثانية نقول: إن عمر بن الخطاب قد اشتهر بآرائه السديدة منذ عهد الرسول، وأنه لا يمكن أن يكون أمره بفتح مصر عفويًا أو موضع تردد، وهو الخليفة المشهور بدقته.[٧]

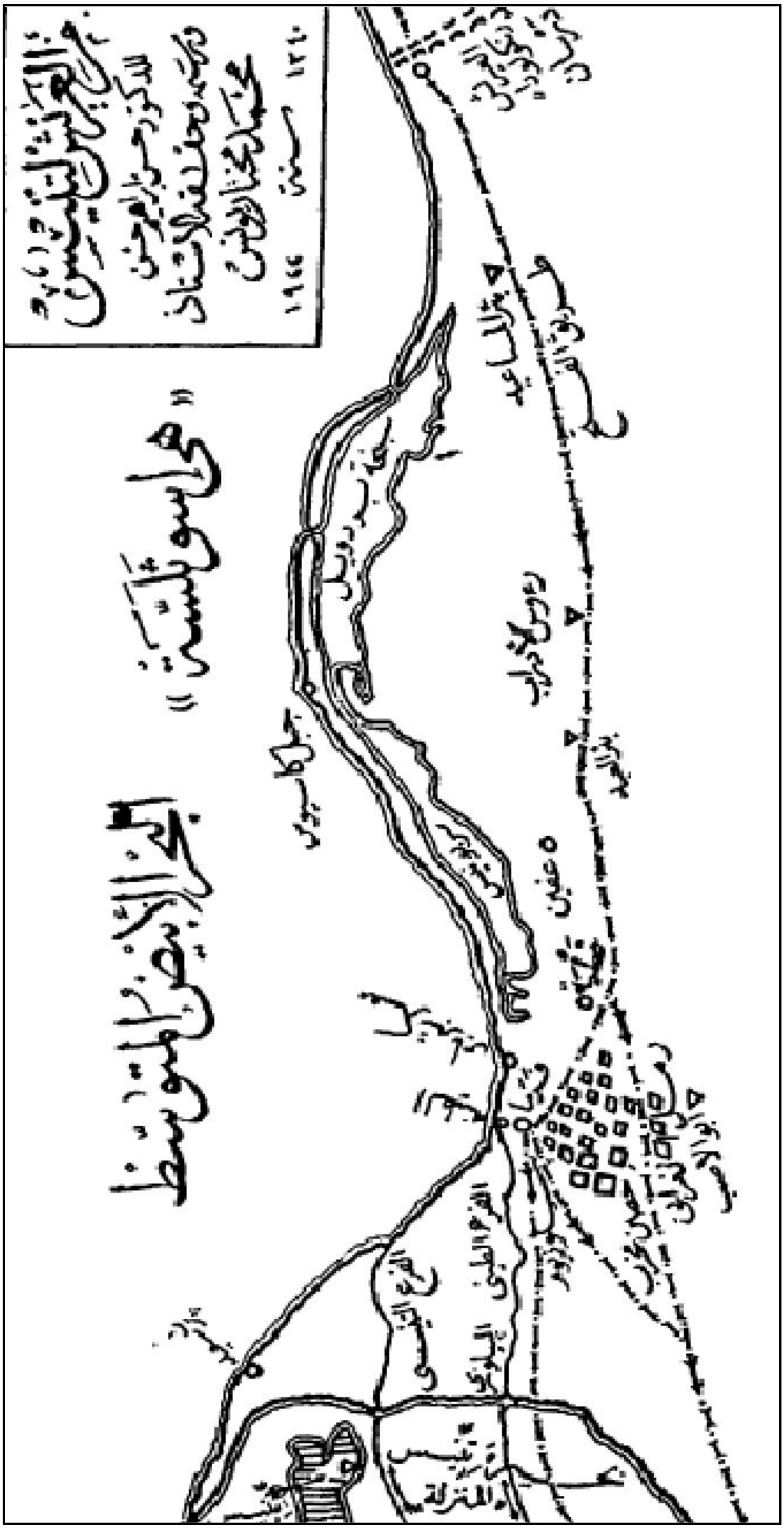
---

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار / تحقيق محمد زينهم ومديحه الشرقاوي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧. (الجزء الأول، ص ٧٩٦)

(٥) نفس المصدر، ص ٧٩٧.

(٦) قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (أسلم الناس و آمن عمرو بن العاص) [سنن الترمزى / المناقب عن رسول الله / رقم الحديث ٣٧٧٩] وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح فعن طلحة بن عبيد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن عمرو بن العاص من صالحي قريش) [سنن الترمزى / المناقب عن رسول الله / رقم الحديث ٣٧٨٠].

(٧) راجع موقف عمر بن الخطاب من فتح الأمصار:
عباس محمود العقاد، عبقرية عمر.- القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٨٨. ص ١٣٤ – ١٣٦.


البحر الأبيض المتوسط

الواقع أن عمر بن الخطاب كان لابد أن يأمر بفتح مصر لأن العرب في تلك الفترة كانوا قد أزالوا حكم الأكاسرة ونجحوا في الاستيلاء على الشام وفلسطين وكانت الضرورة الحربية تحتم فتح مصر لتأمين حدود الشام، وأيضًا إن مصر والشام غالبًا ما خضعت لقيادة موحدة لأن كلاهما يكمل الآخر ومن الصعب وجود حدود مانعة فاصلة بين البلدين (مصر والشام) كما أن كل منهما يقع على طريق التجارة بين الشرق والغرب وتربطهما علاقات تجارية حربية مشتركة.(٨)

ونضيف أن العرب كانوا على علم تام بثراء مصر وخصوًا وجود علاقات تجارية في أيام الجاهلية، ومنهم عمرو بن العاص الذي يذكر كثير من المؤرخين أنه قام بزيارة مصر في الجاهلية. فيذكر ابن عبد الحكم أنه أثناء إحدى رحلات عمرو التجارية لبيت المقدس صادف أحد رجال الدين المصريين الذين أتوا لزيارة بيت المقدس، وقد دعاه هذا الرجل لزيارة مصر بعد أن ساعده عمرو، وبالفعل وافق عمرو بن العاص واستجاب لدعوته، مما مهد له السبيل للوقوف على الطرق المؤدية إلى تلك البلاد ومعرفة أهم معالمها.(٩) ويذكر أن العرب كانوا على يقين من عناء مصر من الحكم البيزنطي والعداء الديني، وأن الأقباط في مصر سيقفون على الحياد بينهما، إن لم يكونوا عونًا للعرب!

والراجح؛ أن يكون عمرو قد سبق بفكرة الإسراع لفتح مصر ولعله سعى أيضًا ليكون قائد الحملة، وذلك لعلمه بشئون مصر وليكتسب ميدان جديد يثبت فيه نشاطه، كما أنه من الراجح أن عمر بن الخطاب أرسل كتاب إلى عمرو بن العاص يأمره بضرورة العودة في حالة عدم اجتيازه لحدود مصر خوفًا من عدم قدرة الجيش وعدم مواصلة السير في المدة التي اعتبرها الخليفة كافية لمواصلة اجتياز الحدود.

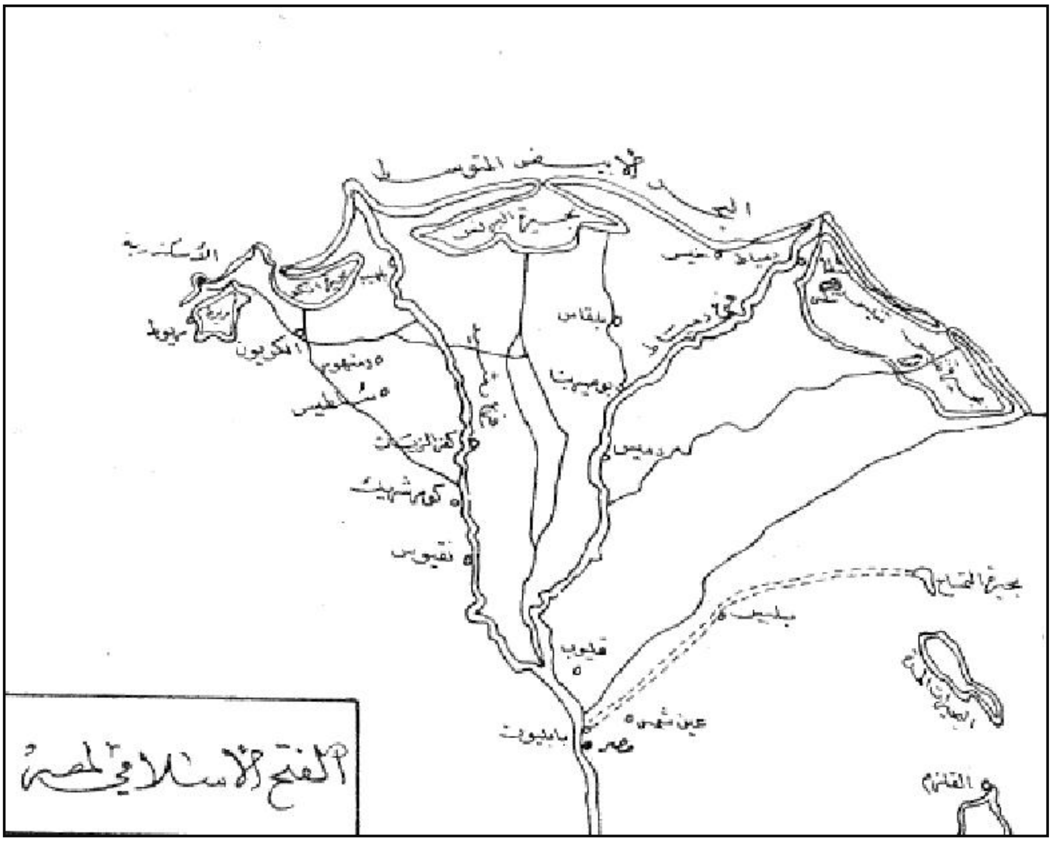
مسير الحملة إلى مصر

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين في نحو أربعة آلاف جندي أواخر عام ١٨هـ/ ٦٣٩م ووصل إلى العريش واستولى عليها من غير مقاومة لضعف حصونها وعدم وجود حامية رومانية بها، حيث احتفل مع جنده بعيد الأضحى. ثم غادر العريش إلى داخل مصر مخترقًا الطريق الوحيد الذي كان يسلكه المهاجرون والفاتحون و التجار والحجاج منذ أقدم العصور، وهو الطريق الذي يربط مصر بالشام.

---

(٨) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

(٩) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها/ تحقيق محمد الحجيري.– الطبعة الأولى.– بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦. (نسخة إلكترونية / عبر الموسوعة الشاملة www.islamport.com)



خريطة توضح سير الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص[١٠]

ووصل جيش عمرو بن العاص إلى مدينة الفرما، وهي مدينة قديمة ذات حصون قوية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط وكانت بمثابة مفتاح مصر آنذاك نظرًا لإشرافها على الطريق القادم من الصحراء والممتد إلى نهر النيل، وكانت بها حامية كبيرة من الروم البيزنطيين فكانت أول مقاومة يقابلها المسلمون في مصر فاضطروا إلى تشديد الحصار عليها أكثر من ستة أشهر حتى سقطت. وباستيلاء عمرو بن العاص على الفرما فَقد الروم قاعدة أساسية من قواعد وجودهم في مصر، ولقد أعقب سقوط الفرما سقوط مدينة بلبيس بعد حصار ومناوشات استمرت شهرًا انتصر العرب المسلمون على الروم وانسحبت حامية المدينة بما انضم إليها من حامية الفرما إلى حصن بابليون.[١١]

(١٠) نقلاً عن: جمال عبد الهادي، فتح مصر ٢٠هـ/ ٦٤١م .- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٩. ص٤

(١١) اتفق المؤرخون على أن هذا الحصن قد استمد أسمه من اسم المدينة المصرية المجاورة التي كان يطلق عليها بابليون (عاصمة البلاد في ذلك الوقت) والتي يرجح أن اسمها المصري القديم (برحابى أن أون) أو مكان الإله حابى في مدينة هليوبوليس.

واصل عمرو بعد ذلك زحفه حتى و صل أم دنين وهي قرية صغيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل، واستطاع عمرو الانتصار على جند الروم في قرية أم دنين واستولى عليها حيث كانت معقلاً هامًا شمال حصن بابليون، ثم رأى عمرو بن العاص أن من الخير ألا يترك جنوده دون عمل حتى يصل المدد المطلوب من الخليفة، فعبر النيل للضفة الغربية، ثم زحف إلى الفيوم للحصول على المؤن اللازمة لجنده وفي أثناء ذلك بلغه نبأ وصول الإمدادات الإسلامية فعدل عن فتح الفيوم وعاد أدراجه للاتصال بالمدد، فوجد أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسل له أربعة آلاف جندي على رأس كل منها صحابي جليل قومه عمر بن الخطاب بألف رجل حيث قال في كتابه: "إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف" [١٢]، وبذلك بلغ عدد القوات الإسلامية ثمانية آلاف بوصول هذا المدد.

معركة عين شمس "هليوبوليس"

هذه المعركة – التي ذكرها بتلر[١٣] باسم هليوبوليس- كانت في الأزمنة القديمة إحدى مدن مصر الكبرى واسمها (أون). وكانت المدينة تصلح لإمداد الجيوش بالمؤنة، ولهذا اتخذها عمرو مقراً وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال.

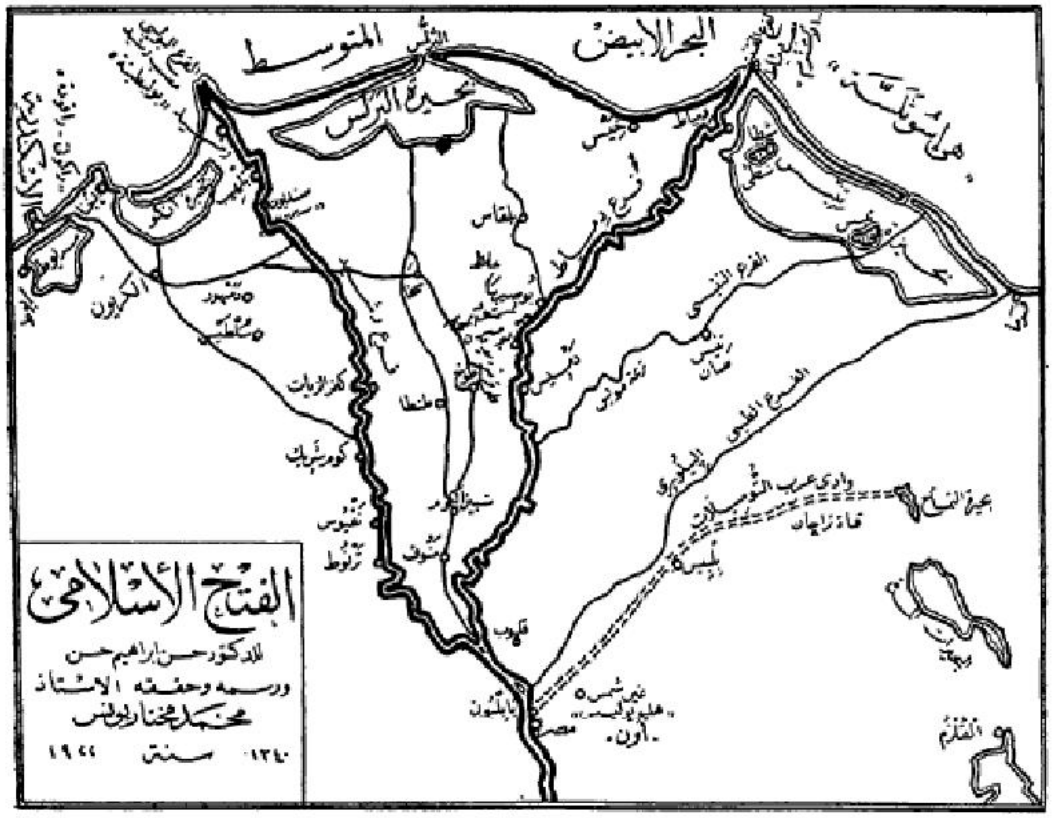
وسار عمرو من هليوبوليس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التي كانت إلى الشمال الشرقي من الحصن وانتشروا في السهل، كان ذلك في الصباح الباكر ثم حدث اللقاء بين الروم والعرب في مكان وسط بين معسكري كل منهم عند الموضع الذي اسمه اليوم ميدان العباسية[١٤] هذا ولم يكن عند الروم علم بمكيدة العرب (عمرو) حيث أنه أرسل تحت الليل كتيبتين: إحداهما إلى أم دنين، والأخرى إلى مكان واقع إلى الشرق في ثنية الجبل (بقرب الموضع الذي فيه قلعة القاهرة). فكان سير الروم على ذلك بين كمينين من العرب، وبعد قتال عنيف دارت الدائرة على القوات البيزنطية وهزم الجيش البيزنطي.[١٥]

(١٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها/ تحقيق محمد الحجيري.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦. (نسخة إلكترونية / عبر الموسوعة الشاملة www.islamport.com)

(13) A.J. Butler, The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of Roman Dominion, Oxford, 1902.

(١٤) مقال بعنوان "عمرو بن العاص.. فتح مصر بعد حصار طويل لحصن بابليون"، متاح بتاريخ ٢١ سبتمبر ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.alarabiya.net/articles/2009/09/18/85246.html)

(15)Stanley Lane-Poole, A history of Egypt in the Middle Ages.- Fourth edition.- London: Frank Cass & Company limited, 1968. P.5



وبانتصار المسلمين في معركة هليوبوليس أصبح المسلمون يتحكمون في منطقة واسعة شمال وجنوب حصن بابليون، ونقلوا معسكرهم إلى شمال وشرق هذا الحصن، في المنطقة التي عرفت فيما بعد بمدينة الفسطاط، وأخذ عمرو بن العاص يعيد تعبئة قواته استعدادًا للاستيلاء على هذا الحصن.

حصار حصن بابليون

كان هذا الحصن يقع على الضفة الشرقية للنيل[١٦]، ويتمتع بكافة أسباب المنعة والقوة، وكان هذا الحصن منيعاً على العرب فلم يكن لهم علم بحيل الحصار، وليس معهم من عدته شيء، كما أنهم إذا كانوا قد غنموا بعض آلات الحرب في غزاة الفيوم ومن حصن تراجان في منوف، إلا أنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها، ولا علم لهم بطرق إصلاحها إذا هي اعتراها

(١٦) بُنى هذا الحصن للحماية العسكرية الرومانية ليكون خط الدفاع الأول لبوابة مصر الشرقية، و قد اختير هذا الموقع لأنه يتوسط مصر بين الوجه البحري والوجه القبلي، وبذلك يسهل على الرومان السيطرة على أي ثورات تقوم ضد حكمهم في الشمال أو الجنوب. يعرف الحصن الروماني بقصر الشمع أو قلعة بابليون وتبلغ مساحته حوالي نصف كيلومتر مربع ويقع بداخله المتحف القبطي وخمس كنائس قبطية ودير[الكنيسة المعلقة – كنيسة أبي سرجة – كنيسة مارجرجس – كنيسة الست بربارة – كنيسة قصرية الريحان – دير البنات الراهبات]. ويرجع إطلاق اسم قصر الشمع على هذا الحصن إلى أنه في أول كل شهر كان يوقد الشمع على أحد أبراج الحصن التي تظهر عليها الشمس ويعلم الناس بوقود الشمع بانتقال الشمس من برج إلى أخر.

الفساد، ولكن قوة الحصن ومنعته لم ترهب المسلمين بل عقوا العزم على فتحه فقاموا بحصاره وقسم عمرو جنوده فرق (أقسام) حول الحصن وتناوب كل مسلم مع الآخر الهجوم على الحصن ورميه بالمجانيق.(١٧)

وبعد شهر من الحصار الذي بدأه المسلمون أدرك المقوقس(١٨) أنه لا جدوى من المقاومة فعرض على أعوانه الرغبة في أن يعقد صلحًا مع العرب، وانتقل إلى جزيرة الروضة ليدخل في مفاوضات سرية مع عمرو بن العاص لإنقاذ الموقف المتدهور. فأرسل إلى عمرو يسأله في الصلح وكانت رسالة المقوقس فيها أسلوب الترهيب والتهديد والتخويف أي تخويف المسلمين من قوة الروم. فكانت رسالته تقول: "قد أقمتم بين أظهرنا شهرًا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيدكم، ونحن نطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به".



حصن بابليون

(١٧) المَنْجَنيقُ، ويُكْسَرُ الميمُ: آلةٌ تُرْمَى بها الحجارَةُ، الجمع: مَنْجَنيقاتٌ ومجَانِقُ ومجَانيقُ. (القاموس المحيط)

(١٨) أحاط التناقض باسم الوالي الروماني الذي تلقى العرب ثم صالحهم على تسليم البلاد، فمَن هو المقوقس وما حقيقة الأمر فيه؟ أهو روماني أو مصري؟ وهل هو من رجال الحرب أو من رجال الدين؟ وهل كان محبوباً في شعبه أو كان مبغضاً إليه؟. راجع:

العقاد، عمرو بن العاص.- القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦١. ص ٦٧

ولكن عمرو بن العاص كان حازمًا فرفض وأرسل إليه يقول: "ليس بيني وبينك إلا ثلاث خصال: إما أن تدخل في الإسلام، وإما أن تعطي الجزية وتكون آمنًا على نفسك من القتل، وإما تقاتلنا ونقاتلك". فلما جاءت رسل عمرو إلى المقوقس بهذا الجواب، أراد أن يتعرف على أحوال المسلمين قبل أن يرسل برده إلى عمرو فأرسل إلى رسله يسألهم عن العرب المسلمين فقالوا له:" إن هؤلاء القوم لا طاقة لنا بهم، فإن الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة، وليس لأحدهم رغبة في الدنيا يجلسون على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا يعرف السيد من العبد".[١٩]

ويبدو أن المقوقس أراد أن يطيل أمد المفاوضات حتى يأتيه مدد من الروم فأرسل إلى عمرو بن العاص يقول له:" أرسل إلينا أحد من عقلائكم حتى نتكلم معه، ما يكون فيه أمر الصلح بيننا وبينكم". فأرسل إليه عمرو عشرة من الصحابة وكبيرهم عبادة بن الصامت. إلا أن المفاوضات التي استمرت فترة بين رسل عمرو والمقوقس لم تنجح، فعاد العرب المسلمون التشديد على الروم داخل الحصن مما اضطر المقوقس إلى طلب الصلح مع المسلمين وعقد الجانبان معاهدة بينهما.

معاهدة بابليون الأولى ١٩هـ

وقد أورد الطبري نص هذه المعاهدة بين العرب والأقباط سنة ١٩هـ ووافق عليها الخليفة والتي بمقتضاها أصبح المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية، ولكن المقوقس علق شرط إبرام هذه المعاهدة[٢٠]على موافقة هرقل إمبراطور الروم عليها، الذي رفض الموافقة على المعاهدة وغضب على المقوقس وأرسل يستدعيه إلى القسطنطينية حيث عزله عن ولاية مصر باعتباره خائناً،[٢١] وأرسل إلى جند الروم البيزنطيين يطلب منهم الاستمرار في مقاومة المسلمين ويعدهم بالمدد.

بلغ العرب رفض الإمبراطور للصلح فاستأنفوا القتال، وزاد في حماستهم نبأ وفاة هرقل إمبراطور الروم ٦٤١م وانهيار الروح المعنوية للروم داخل الحصن فأخذوا يستدعون للهجوم على الحصن، وقامت مجموعة من المسلمين وعلى رأسهم الزبير بن العوام بالصعود إلى الحصن

(١٩) عبد السلام العشري، عمرو بن العاص فاتح مصر.- الطبعة السابعة.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥. (سلسلة مشاهير العرب [٢]، ص ٧٥- ٧٦).

(٢٠) اشترط المقوقس شرطين؛ أولهما أن تبقى حرية الاختيار للروم في مصر بين قبول شرط الصلح أو الخروج من أرض مصر، وثانيهما أن تبقى الكلمة الأخيرة في الصلح للإمبراطور هرقل، فإن رفضه " كانوا جميعاً إلى ما كانوا عليه" أي عادوا إلى القتال.

(٢١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية/ نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي.- الطبعة الخامسة.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨. ص ١٠٠.

وكبروا فكبر معهم المسلمون جميعًا، فظن الرم أن المسلمين دخلوا الحصن من ثغرة فيه، فعرض قائد الحصن التسليم للمسلمين على أن يؤمن من فيه من الروم على أنفسهم، وأن يقبلوا الشروط التي سبق أن عرضها بن العاص على المقوقس.[٢٢]

والحقيقة أن سقوط حصن بابليون كان نقطة تحول في مسار القتال بمصر، إذ بسقوطه وقع في أيدي المسلمين أكثر من نصف البلاد وكانت بلاد الصعيد تدين لمن يقع في يده ذلك الحصن المنيع، وقد بادر عمرو عقب سقوط حصن بابليون بالزحف على الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية آنذاك وأشد مدنها تحصينًا وقوة.

فتح الإسكندرية

كانت مدينة الإسكندرية من أكبر مدن مصر كلها، وكان كل من العرب والروم يدركون أهمية الإسكندرية، فالروم يعلمون جيدًا أنه إذا ضاعت الإسكندرية ضاعت مصر معها للأبد، كما أن العرب يعلمون أنه إذا لم يستولوا على الإسكندرية فإنه قد ضاعت فائدة مصر.

ولذلك سار عمرو بن العاص لمحاصرة الإسكندرية، وأثناء الطريق استولى المسلمون على سلسلة الحصون الممتدة بينها وبين حصن بابليون، وأراد عمرو بذلك تأمين خطوطه الخلفية إذا ما طال حصار المدينة، ووصل عمرو إلى الإسكندرية وأخذ في مهاجمتها، إلا أن موقع المدينة واتصالها المباشر بالأسطول الروماني البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط الذي كان يزودها بالمؤن والعتاد جعل فرصة اقتحامها صعبة بالنسبة للمسلمين، وعلى قدر استبسال العرب كانت مقاومة البيزنطيين عنيدة مما دعا عمر بن الخطاب أن يرسل مستفسرًا ومستبطئًا الفتح ومما قاله عمر بن الخطاب لعمرو بن العصا في الكتاب الذي أرسله له يقول فيه:" أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنتين".

ولهذا الاستبطاء معناه التاريخي الجليل في فهم خطط المسلمين صدر الإسلام، وفهم التردد الذي بدا من الخليفة يوم أن عرض عليه عمرو مسيره إلى مصر لفتحها بعد فتح فلسطين. فإن هذا الاستبطاء دليل على أنه لم يتردد في تسيير الجيش إلى مصر استهوالاً لخطب الروم، أو استعظاماً لفتحها على جيش المسلمين، ولكنه تردد على سنته في اجتناب الغزو إلا لدفع خطر، أو اتقاء عدوان منتظر، ولولا ذلك لكان استبطاؤه الفتح بعد استهواله إياه من أعجب الأمور.[٢٣]

---

(٢٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦. (سلسلة صفحات من تاريخ مصر (٣٤) ، ص ١٤٧ - ١٤٨)
إبراهيم العدوي، مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام.- القاهرة: هيئة الآثار المصرية، ١٩٩٢. ص ٤٣
(٢٣) عباس محمود العقاد، عمرو بن العاص.- القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦١. ص ٦٩- ٧٠.

معاهدة بابليون الثانية "معاهدة الإسكندرية":

عندما أتى كتاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، بدأ المسلمون يشددون الحصار على المدينة، ويستنهضون الهمم لاقتحامها، وفي أثناء ذلك تغيرت الأوضاع في القسطنطينية، حيث أدى موت هرقل إلى إعادة النظر في الموقف، فذهب المقوقس لمقابلة عمرو بن العاص يطلب الصلح فاستجاب العرب وعقدت معاهدة ثانية في بابليون اصطلح على تسميتها بمعاهدة بابليون الثانية ٦٤١م، وقد نصت هذه المعاهدة على:

(١) تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرًا يتمكن فيها البيزنطيون من الجلاء عن مصر.

(٢) أن يمكث العرب المسلمون في مواضعهم مدة الهدنة ولا يسعوا إلى قتال الروم.

(٣) ألا يتعرض المسلمون إلى الكنائس بسوء.

(٤) أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

(٥) أن يحتفظ العرب بمائة وخمسين من الجند البيزنطيين، وخمسين من غير الجند كرهائن ضمانًا لتنفيذ العقد الذي تم الاتفاق عليه.

وعلى أساس هذه المعاهدة خرج الروم (البيزنطيين) من الإسكندرية، وبذلك صارت مصر واحدة من ولايات الخلافة الإسلامية، ليزداد موقف العرب بفتحها ثباتاً وتزداد دولتهم بضعف بيزنطة وقهرها قوةً.(٢٤)

في الواقع؛ لم يتمسك الروم بمعاهدة الإسكندرية طويلا، إذ بدأت الدولة البيزنطية تفيق من أحداثها الداخلية في عهد الإمبراطور قسطانز الثاني حفيد هرقل، الذي أرسل إلى الإسكندرية أسطولاً كبيرًا لإجلاء العرب عن مصر إجلاءً تامًا وذلك في سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م. وتم استيلاء الجيش البيزنطي على الإسكندرية وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد الوجه البحري، وتحرج مركز العرب في مصر وكان واليها إذ ذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان. وقد بعث أهل مصر إلى عثمان يسألونه أن يرسل عمرًا لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم، وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى عمرو بن العاص في هذه المرة على الإسكندرية عنوة وقتل قائد جيش الروم، وهكذا تم فتح العرب لمصر.(٢٥)

---

(٢٤) موسوعة تاريخ مصر: مصر الإسلامية/ تحرير هشام الجبالي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ١٩٩٤. ص ٤٧٩.

(٢٥) سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.- متاح بتاريخ ١٠ سبتمبر ٢٠٠٩ بموقع الهيئة القبطية الأمريكية / مكتبة الإنترنت الإلكترونية (www.amcoptic.com)

فتح برقة

وبعد فتح مصر أراد العرب تأمين هذا الفتح، فسار عمرو بن العاص إلى برقة غربي مصر ففتحها وفرض عليها ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام.(٢٦) ثم غزا طرابلس وكان يفكر في غزو بلاد المغرب كلها لكن الخليفة رفض ذلك، فلقد كان عمرو بن الخطاب يتخوف من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة شرقًا وغربًا. وحسناً فعل أمير المؤمنين، لأن تغلغل عمرو بن العاص في جوف تلك الأراضي الواسعة والأقطار الشاسعة بجيشه القليل وعدته الضعيفة قد يستنفد قوته من غير أن يفوز بطائل، لاسيما والروم لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنون من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة في حين انشغال عمرو بغزو هذه البلاد.(٢٧)

هدنة البقط

كانت برقة(٢٨) بمثابة خاتمة المطاف للعمليات الحربية التي قام بها عمرو بن العاص باستثناء الحدود الجنوبية لوادي النيل، فقد أرسل عمرو "عبد الله بن سعد بن أبي صرح" إلى بلاد النوبة بحملة ولكنها فشلت في ذلك الوقت لأن النوبة كانت مملكة قوية، ولذلك أمره عمرو بالرجوع. لكن في خلافة "عثمان بن عفان" عاد "عبد الله بن سعد" ثانية لغزو النوبة عام ٣١هـ، حيث قام قتال عنيف وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة سنة ٦٤٣م بين مصر وملك النوبة عرفت باسم "البقط(٢٩)"، وكانت هذه الهدنة أشبه بمعاهدة سياسية وتجارية بين مصر وبين مملكة النوبة المسيحية وكان من أهم شروطها:

(١) ألا يعتدي أحد على الآخر وأن يسمح النوبيين للعرب بالمرور داخل أراضيهم.

(٢) أن تؤدي النوبة إلى مصر عددًا معينًا من الرقيق كل سنة في مقابل أن ترسل مصر قدرًا من القمح والشعير والعدس والملابس والخيل والخمور وغيرها إلى النوبة كل سنة أيضًا.

---

(٢٦) ألفريد ج.بتلر، فتح العرب لمصر / ترجمة محمد فريد أبو حديد.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦. ص ٤٤٥.

(٢٧) حسن إبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص، ص ١٨٦.

(٢٨) شكلت برقة بعد الفتح الإسلامي محطة للجيوش الإسلامية وللمسافرين في الطريق إلى المغرب العربي والأندلس، وقد ذكر اليعقوبي في القرن العاشر استقرار بعض أبناء القبائل العربية حول مدينة برقة في الجبلين المطلين عليها من الشرق والغرب، وقد ذكر الإدريسي في سنة ١١٥٤ مواطن القبائل المستقرة ببرقة بعد مائة سنة من بداية هجرتها إلى برقة.راجع:

الموسوعة الحرة ويكيبيديا- مادة " Cyrenaica " (http://en.wikipedia.org/wiki/Cyrenaica)

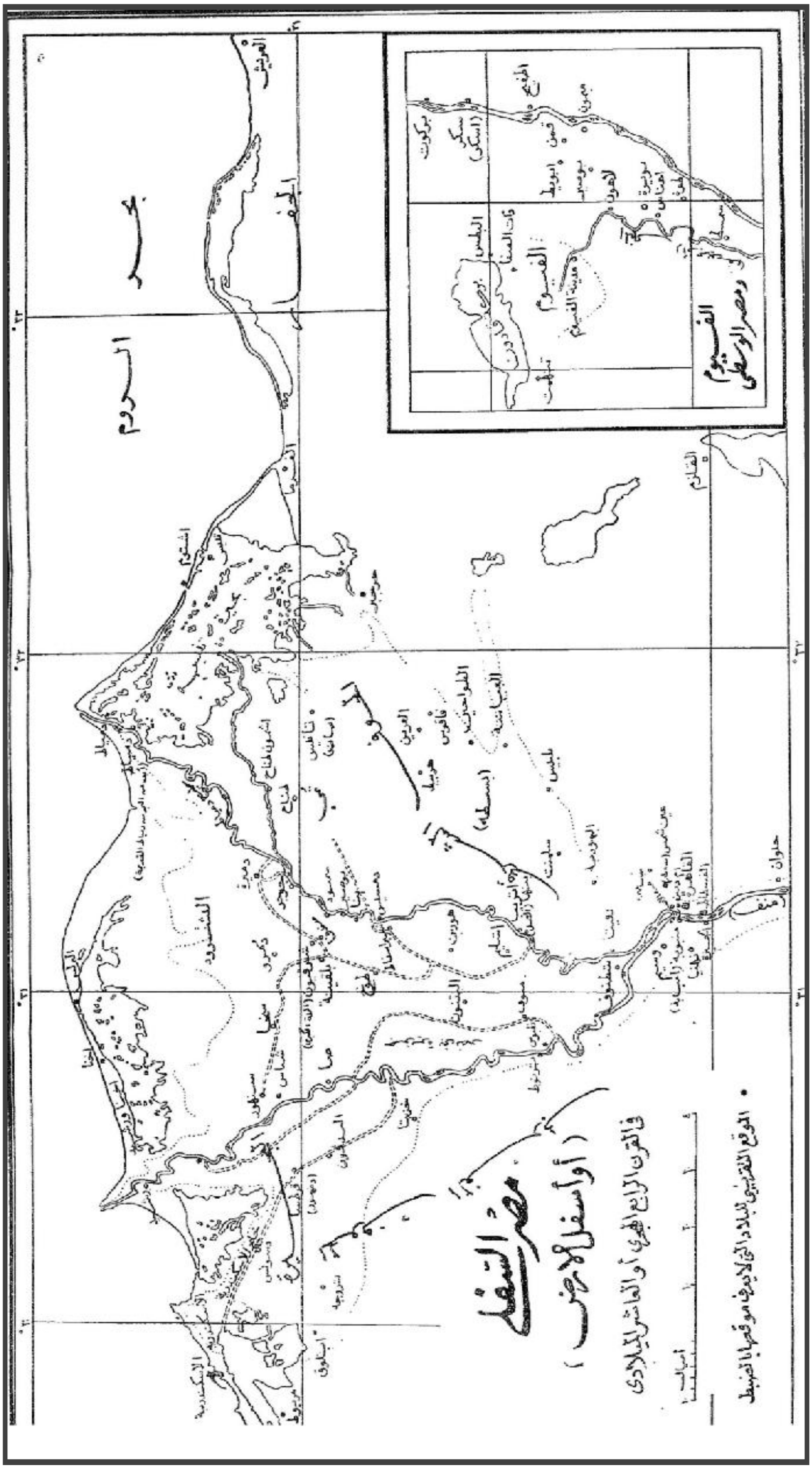
(٢٩) الراجح أنها من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق، وقيل أنها كلمة مصرية قديمة تعني العبد، وقيل أنها كلمة عربية بمعنى قطعة أو فرقة.

وقد تم تجديدها في أيام الخليفة المأمون العباس (٨١٣ – ٨٣٣م) بعد أن تم استبعاد نص إرسال الخمور لتنافيه مع الشريعة الإسلامية.(٣٠)

كانت بلاد مصر في أثناء هذا آخذة في الاستقرار والاطمئنان تحت حكم عمرو بن العاص، فقد كان عادلاً في حكمه لين الجانب لرعيته. وقد أرسل إلى الخليفة وصفًا لمصر جاء فيه: "مصر قرية غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان يدر حلا به ويكثر فيه ذبابه تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته وطما في درته فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم، فإذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء. والذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل."(٣١)

(٣٠) حرمت الشريعة الإسلامية الخمر تحريما مطلقا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} سورة البقرة ٢١٩ ، { يا أيها الذين أمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولوا} سورة النساء ٤٣، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ❊ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} سورة المائدة ٩٠– ٩١.

(٣١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة إلكترونية متاحة بموقع نداء الإيمان / المكتبة الإسلامية على الرابط: (http://www.al-eman.com/islamlib/viewchp.asp?BID=181&CID=3)
ألفريد ج.بتلر، فتح العرب لمصر / ترجمة محمد فريد أبو حديد.– الطبعة الثانية.– القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦. ص ٤٤٨ – ٤٤٩.



نقلاً عن: سيدة الكاشف، الإخشيديين

شخصية المقوقس [٣٢]

ارتبط الفتح الإسلامي لمصر بشخصية من أشد شخصيات التاريخ غموضاً، رغم كونها الشخصية المحورية في قصة الفتح، فعن طريقه خرجت مصر رسمياً من حوزة دولة الروم البيزنطية إلى حيز السيادة العربية، وكان هو المتحدث الرسمي عن مصر في المفاوضات والتعاقدات التي تمت مع قائد الفتح عمرو بن العاص، ومع ذلك اختلفت المصادر العربية الإفرنجية حول شخصية المقوقس اختلافاً كبيراً، حتى طمس الخلاف على شخصيته الحقيقية وأحالها مسخاً مبهمًا مجهول الاسم والنسب والهوية، وكأنه ورقة جافة طوحت بها العواصف إلى مكان سحيق. وفي ذلك يقول عباس محمود العقاد: "يندر أن توجد في العالم كله سيرة خلافية من هذا القبيل"، وهو يلقي شطراً من اللوم على المؤرخين الناسخين، وشطرا آخر على مؤرخي العصور الحديثة الذين يقحمون أهواءهم فيما يكتبون، ويتناولون مسائل التاريخ الخالية بخصومات الأيام الحالية، وينظرون إلى الفتح العربي وكأنهم ينظرون إلى فتح يحدث هذه الأيام.

أما عن مؤرخي العرب، رغم قربهم من وقائع الفتح، فإنهم لم يقدموا لنا شيئاً كثيراً عن شخصية الرجل، واكتفوا بالإشارة إلى لقبه "المقوقس" دون إسهاب عن شخصيته، والأمة التي كان ينتمي إليها، هل كان مصريًا بالجنس أم بالإدعاء، وهل كان مسيحيًا على مذهب الكنيسة المصرية الأرثوذكسية "اليعقوبية" أم كان ملكيا خلقدونيا على مذهب الدولة الرومية، أم كان منافقاً يبطن اليعقوبية ويظهر الملكية؟

ولم يكن المؤرخون الإفرنج القدامى والمحدثون، بأسعد حظًا من أضرابهم المسلمين، فقد تضاربات تفسيراتهم لشخصية المقوقس حتى جعلوا من شخصين: أحدهما المقوقس ويمثل قبط مصر، والآخر"قيرس" ويمثل الدولة البيزنطية دينيًا وسياسيًا وعسكريًا. ومنهم مَن قال إنه البطريق "بنيامين" رأس الكنيسة المصرية زمن الفتح، وقال آخرون بل هو البطرق "فيروش" رأس الكنيسة الملكية المناوئة للكنيسة الوطنية، ومنهم مَن أراح رأسه من صداع البحث فأنكر وجوده على الإطلاق!.

وبحصر أقوال المؤرخين المسلمين عن المقوقس، يتبين منها أنهم ذهبوا مذاهب شتى في تحديد شخصية الرجل: [٣٣]

(٣٢) جمال بدوي، دراسة بعنوان "شخصية المقوقس".- جريدة أخبار اليوم.- السبت ١٠أبريل ١٩٩٩. ص ٢٣

(٣٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦. (سلسلة صفحات من تاريخ مصر (٣٤) ، ص ١٢٦- ١٣١)

- البلاذري، في فتوح البلدان: إن المقوقس صالح عَمْرًا ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه هرقل، وأنه اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا، فأقره عمرو ومَن معه على أمرهم الأول "أي صلح بابليون".
- وقال الطبري، في الأمم والملوك: فلقيهم هناك "أمام الحصن" أبو مريم جاثليق [٣٤] مصر ومعه الأسقف، بعثه المقوقس لمنع بلادهم، ووصف المقوقس بأنه صاحب الإسكندرية.
- وعنه أخذ ابن الأثير فقال في كتابه "الكامل في التاريخ" فأخذ المسلمون "باب اليون" وساروا إلى مصر، فلقيهم هناك "أبو مريم"جاثليق مصر ومعه الأسقف، بعثه المقوقس لمنع بلادهم "أي حمايتها من العرب" فوجد أهلها معدين لقتاله، فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهدنة مدة، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: "لقد لقينا ملككم الأكبر هرقل فكان منه ما بلغكم (إشارة إلى هزيمته في الشام) فقال المقوقس لأصحابه: صدق.
- وقال ياقوت في معجم البلدان: إن أمير الحصن كان وقت الفتح "المنفور" من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني الذي كان ينزل الإسكندرية.
- وقال ابن خلدون في العبر: إن المقوقس كان من القبط.
- وقال ابن دقماق في كتابه "الانتصار لواسطة عقد الأمصار": كان المقوقس رومانيًا، وأنه نائب هرقل.
- وروى المقريزي في الخطط: ثم أحاط المسلمون بالحصن وأميره يومئذ "المندفور" الذي يقال له"الأعيرج"من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني، وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو في سلطان هرقل، غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون. وتابع المقريزي ابن عبد الحكم في إبقاء المقوقس إلى زمن فتنة "إيمانويل قائد الأسطول الرومي الذي استعاد الإسكندرية عام ٢٥هـ كما تابع المقريزي ياقوت في وصفه المقوقس بأنه ابن قرقب اليوناني، وأضاف بأنه كان للقبط بطريق في الإسكندرية اسمه "أبو ميامين" وأن المقوقس صالح العرب، لكن هرقل أرسل إليه يقبح رأيه.
- وقال الواقدي: إن ملك القبط كان يومئذ المقوقس ابن راعيل.

(٣٤) الجاثليق: لفظ يوناني معناه (العمومي) ويقصد به الرئيس الديني الأعلى، وهو لقب بطارقة الكنـائس النسـطورية في الشام والعراق وأرمنيا، ولم يعرف هذا اللقب في مصر، ويقابله حاليا (البطريرك). راجع: موسوعة قنشرين للكنائس والأديرة (http://www.qenshrin.com/church/church.php)

- وقال أبو المحاسن في النجوم الزاهرة: إن بنيامين كان بطرق القبط في الإسكندرية، وأن أمير الحصن يومئذ "المندفور" الذي يقال له "الأعيرج" من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني، وكان ينزل الإسكندرية وهو في سلطان هرقل، غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون، ونقل عن "ابن كثير" أن جاثليق مصر كان أيامريامين.
- أما السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" فلم يخالف ما قاله أبو المحاسن.

وبتحليل هذه الطائفة من المراجع العربية يتبين أننا أمام عديد من الأسماء التي نُسبت إلى المقوقس منها الأعيرج أو الأعرج وأبو مريم وابن قرقب اليوناني، ولم يتفقوا على المذهب الذي كان ينتمي إليه، أو الأمة التي يمثلها.

وعلى نفس الوتيرة من الاختلاف والتضارب، اختلطت أقوال المؤرخين المسيحيين، وكان أقربهم إلى زمن الفتح "سعيد بن البطريق [٣٥] "، فقال عن المقوقس إنه كان ملكيا في الظاهر، يعقوبيا في الباطن، وأنه كان عامل الخراج على مصر من قبل الدولة البيزنطية، فلما احتل الفرس مصر، اقتطع لنفسه ما كان تحت يده من أموال، ولذا كان يحاذر أن يقع في يد هرقل فيقتله، فاحتال على الروم وأقنعهم بقوة العرب. كما تحث المؤرخ "سعيد بن البطريق" عن ظروف الكنيسة الملكية زمن الفتح، فقال إن "سرجيوس" بطريرك الإسكندرية لما سمع أن المسلمين غلبوا الروم وفتحوا فلسطين وأنهم سائرون إلى مصر، ركب البحر وهرب إلى القسطنطينية، فبقى كرسي الإسكندرية بعده بلا بطريك ملكى سبعًا وتسعين سنة، ولما هرب صُير بعده "كورش" – أي فيرس – بطريكا على الإسكندرية وكان مارونيًا على دين هرقل.

وعن حوادث الفتح أثناء حصار بابليون قال: "وكان عامل الخراج بمصر رجل يدعى المقوقس، وكان يعقوبيا مبغضا للروم، إلا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالته لئلا يقتله الروم". ثم يسرد الحوار الذي دار بين وبين عمرو بن العاص حول شروط الصلح، وأنه قال لعمرو: "أما الدخول في دينكم فهذا ما لا يمكن، وأما الصلح فقد رضيت أنا ذلك لنفسي ولأصحابي القبط "، وامتنع الروم أن يجيبوا إلى الصلح وقالوا: لا نفعل ذلك أبداً.. وإنما فعل المقوقس هذا مكرًا منه وخديعة حتى أخرج الروم من الحصن .. ثم رضي بالصلح ليسلم له ما أخذ من مال.

(٣٥) عاش ما بين ٢٦٣ – ٣٢٨ هـ فشهد العصرين الطولوني والإخشيدي، وكان طبيباً مشهوراً إلى جانب كونه كاهنًا على مذهب الدولة الرومية حتى صار بطريقًا على الإسكندرية تحت اسم "اوتيخوس" أو "أوتيخا" وله كتب كثيرة في الطب والتاريخ.

ونستطيع أن نستخلص من أقوال ابن البطريق أنه كان هناك شخصان: أحدهما البطريرك الملكى كورش أو فيرس، والثاني المقوس الذي كانت له سلطة التفاوض مع الفاتح العربي، ويتهمه ابن البطريق بأنه تواطأ مع العرب تخوفاً من الحساب والعقاب.

وتستطيع أن تكتشف التخبط في أقوال ابن البطريق إذ نسب إلى المقوقس أنه رضي الصلح عن نفسه وعن أصحابه "القبط"، وكيف يتفق ذلك مع كونه ممثلاً للدولة الرومية التي تبغض القبط ولا تعترف بحقهم في تقرير مصير البلاد!.

أما المؤرخ الثاني الذي تعرض لحوادث الفتح؛ فهو "ساويرس بن المقفع" [(٣٦)] أسقف الأشمونين، مؤلف كتاب "سير الآباء البطاركة" [(٣٧)] قال ابن المقفع عن المقوقس: "ولما ملك هرقل أقام الولاة في كل موضع، وأنفذ إلى مصر "قيرس" ليكن والياً بطريكًا، فلما وصل إلى الإسكندرية، أعلم الأب بنيامين ملاك الرب به، وأمره أ نيهرب هو من معه من هنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم، فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقز، أنفذ ملك المسلمين الخليفة سرية مع أمير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص، فنزل عسكر المسلمين بقوة عظيمة في اليوم الثاني من بؤونة، وكان الأمير عمرو قد هدم الحصن، وأحرق المراكب بالنار، وأذل الروم، ومَلك بعض البلاد، حتى وصلوا إلى قصر مبني بالحاجرة بين الصعيد والريف يسمى "بابليون"

(٣٦) ولد ساويرس حوالي عام٩١٥م من والد لقب بالمقفع، وكنيته أبى البشر. كان ساويرس يتقن علوم الكتاب المقدس، وألف فيها باللغة العربية العديد من الكتب منها: (كتاب الدر الثمين في إيضاح الاعتقاد في الدين) وترجمها جميعها بجهده الذاتي من اللغة القبطية إلى العربية، دون أن يسبقه إلى ذلك أحد. فقد جمع ساويرس بين العلوم الدينية، والعلوم الدنيوية، فعرف الفلسفة التي كانت مزدهرة في الإسكندرية، وعلوم الكلام التي قرأها في مصادرها، ولأن ساويرس كان يتقن اللسان العربي الوافد عمل في وظائف إدارية وفى الدواوين. ومن هنا نكتشف مدى الجهد الشاق الذي بذله ساويرس لينقل إلى اللسان الوافد منجزات اللغة المصرية التي كانت أكثر تطوراً في صوتياتها، وقواعدها وكتابتها، ومحتوى ألفاظها الحضارية، والدينية والأدبية. فكان ساويرس واضعاً لأول قاموس للترجمة يستعين به على ترجماته، لم يُعثر بالطبع على هذا القاموس. وقد تدرج ساويرس في الوظائف، أيام حكم الأسرة الإخشيدية حتى أصبح كاتبا ماهرا، وكانت رتبة الكاتب آنذاك رتبة مهمة في الجهاز الإداري للحكام الوافدين، وبعد أن ترقى إلى أعلى المناصب الرسمية تخلى عن وظيفته، ليترهبن في أحد الأديرة.

(٣٧) يقول المؤرخ البريطاني بتلر أنه يوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ معروفة: واحدة في المتحف البريطاني وهي من القرن الخامس عشر، وواحدة نم القرن الرابع عشر في مكتبة باريس، والثالثة أقدم منهما وهي هند مرقص سميكة باشا – مؤسس المتحف القبطي بالقاهرة- وترجع إلى القرن العاشر الميلادي. وقد اعتمد بتلر في دراسته لشخصية المقوقس على ما جاء في كتاب ساويرس، رغم اعترافه باستحالة قراءة الكتاب لنقص في الإتقان.

يذكر أن؛ الكاتب والمحقق عبد العزيز جمال الدين قد قام بجمع المخطوط وتحقيقه، وأصدر كتاب تاريخ الآباء البطاركة: ساويرس بن المقفع في أربعة أجزاء، لأول مرة طبعة القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦.

أنظر: مقال بعنوان (بعد ١٥ سنة عبد العزيز جمال الدين يحققه)، جريدة العربي، العدد ١٠٠٨. نسخة إلكترونية على الرابط: (http://www.al-araby.com/docs/article1195.html)

فضربوا جميعًا خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم". وإلى هنا لا نجد ذكرًا للمقوقس حتى إذا بلغ في حديثه فتح الإسكندرية قال: "فلما ملك عمرو المدينة ورتب أمورها، خاف الكافر والي الإسكندرية، وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم، أن يقتله عمرو، فمصّ خاتمًا مسمومًا فمات لوقته... ولما كتب عمرو عهد الأمان لبطريرك النصارى بنيامين، عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم، بعد غيبته ثلاث عشرة سنة، منها عشر سنين لهرقل الرومي الكافر، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية، لابسًا إكليل الصبر وشدة الجهاد.

ويستخلص العقاد من شهادة المؤرخ القبطي ساويرس(٣٨) أنه أخرج لنا المقوقس في صورة تناقض جميع الصور التي يظهر فيها خائنًا متواطئًا مع العرب، فإنه قتل نفسه خوفاً منهم أن يدمروا عليه الإسكندرية، وكان الفرح بهم من جانب الحزب المصري في الكنيسة برئاسة البطريق بنيامين الذي عاد إلى كرسيه آمنا بعد موت المقوقس وخروج الروم منها.

أما أبو صالح الأرمني؛ فهو من مؤرخي القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي المسيحيين، فقد أشار إلى المقوقس في معرض كلامه عن أحد الأديرة بالصعيد أن هذا الدير

(٣٨) كتاب ساويرس قلما يعرفه الباحثون والطلاب في تاريخنا الوسيط، ولعل ذلك يرجع إلى أن عنوان الكتاب هو (تاريخ البطاركة) فظنه الباحثون أنه لا يهتم بتاريخ مصر. استقى ساويرس معلوماته وأخباره مما وجده في الأديرة المختلفة، ومما وجده في أيدي النصارى، ويذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة في ترجمة الوثائق القبطية واليونانية. وأنه استعان ببعض القبط ممن كان لهم دراية باللسان القبطي أو اليوناني. وقد شارك في كتاب تاريخ البطاركة من أتى بعد ساويرس من الكتاب والأساقفة، ولكن الكتاب ينسب إليه، ربما لأن ساويرس كان أول من جمع سير البطاركة وترجمها من اليونانية والقبطية ورصد الوقائع التاريخية المعاصرة لهم. ويتناول المخطوط تاريخ مصر منذ الاحتلال الروماني في القرن الأول الميلادي، وحتى حكم الخديوي عباس أوائل القرن العشرين، حيث توقف ساويرس عند المعز لدين الله الفاطمي، واستكمل المخطوط بعده مؤرخون آخرون بتكليف من أبناء الكنيسة المصرية ما يعنى أن الكتاب يؤرخ لأطول فترة من تاريخ مصر، عشرين قرنا أو يزيد. كذلك يقدم وجهة نظر قبطية للتاريخ المصري منذ دخول العرب مصر وحتى أوائل القرن العشرين. ويفصل ساويرس للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدها العصر الذي اصطلح الباحثون على تسميته عصر الولاة الذي يبدأ بدخول العرب لمصر وينتهي بتأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون. والأهم من ذلك عرض ساويرس لعلاقة البطاركة المصريين بولاة مصر وأمرائها وخلفائها وعلاقة البطاركة بالنوبة والحبشة وشمال أفريقيا والشام. ويتناول الكتاب تمتع الأقباط بالحرية الدينية والاحتفال بأعيادهم وبناء وتجديد كنائسهم وعلاقتهم بالمسلمين في مصر وغيرها من البلدان وموقفهم من الحكومات الإسلامية المتعاقبة وكذلك أفاض ساويرس عن انتشار الإسلام في مصر وأعطانا أرقاما بعدد المصريين الأقباط الذين تحولوا إلى الإسلام، والأقباط الذين شغلوا مواقع هامة في ظل السلطة الإسلامية وخاصة المالية والإدارية. كذلك أفاض في الحديث عن ثورات المصريين ضد السلطات وأهمها ثورة البشمور، كما انفرد بالتأريخ لمدينة الإسكندرية بشكل أوسع بكثير عما كتبه غيره من المؤرخين المسلمين والأقباط، ويشير إلى أن الإسكندرية كانت منذ الاحتلال اليوناني حتى حكم الإخشيديين تعتبر جزءا مستقلا عن مصر حتى في القضاء.

عبد العزيز جمال الدين، تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين: من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦.

كان يؤوي الأب بنيامين متخفيًا، في ملك هرقل الخلقيدونى المذهب، و"جريج بن مينا" المقوقس بمصر. وقال أنه وجد في كتاب "الجناح" أن أسقف الروم بمصر كان يسمى "فيرس". والطريف من هذه الشهادة أنها تنسب المقوقس إلى جذور مصرية تحمل اسم "مينا".

ويؤكد هذا الأمر شهادة أبو المكارم سعد الله بن جرجس في القرن الثاني عشر، إذ قال عن إقليم البحيرة "إن أرضه كانت مزروعة كروماً جميعاً لامرأة جريج بن مينا مقوقس الروم". ويستنبط العقاد من ذلك أن تسمية المقوقس باسم جريج بن مينا تؤكد مصريته، لأن التسمية بأسماء ملوك مصر الأقدمين لم تكن معهودة في أسماء الرومان أو الروم.

يضاف إلى ذلك؛ ما نقلته "المجلة القبطية" (٣٩) في تعليق على مخطوطة جداول البطاركة: أن في أيام الأب بنيامين أن ملكت العرب أرض مصر وكان دخلوهم في ثاني بؤونة سنة ٣٣٣، وكان المقوقز بن مينا الهيراطيقي نائب هرطاقة هرقل بالديار المصرية، يطلب ويضطهد الأقباط وظفر بأخيه مينا "أخي بنيامين" وأنزل به عقوبات عظيمة ومزقه. وهذه الكلمات – في رأي العقاد – لا ترجح شيئاً كما ترجع انتماء المقوقس إلى مصر، وأنه نشأ في بيت يسمي أبنائه باسم "مينا" وهو تقليد وطني لم يؤثر مثله عند أحد من الرومان الشرقيين أو الغربيين.

ويبدو الغموض الذي أحاط بشخصية المقوقس وكأنه أثار شهية الباحثين والمستشرقين، فأدلوا بدلوهم بعد تمحيص النصوص الشحيحة التي توافرت لديهم عن حوادث الفتح. فقال المؤرخ فون رانكى: "إن المقوقس كان والياً على مصر، وإنه من القبط". وقال دى جويه:"يظهر أن مؤرخي العرب خلطوا أحيانا بين المقوقس وقيرس بطريك الإسكندرية مع أنهما شخصان مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين". وقال ملن (٤٠): "إن المقوقس هو جريج بن مينا الذي ذكره يوحنا النوقيسى – المؤرخ الذي عاصر حوادث الفتح – وقال عنه أنه كان والى آثريب (بنها) وأنه هو الذي أدلى بمقاليد مصر إلى العرب". أما ستانلى لينبول(٤١)؛ فقد مال إلى رأي "ملن" في اسم جريج بن مينا، ولكنه قال إنه كان من القبط. وقال الأستاذ برى (٤٢) إنه كان والياً على عموم الديار المصرية وكان من القبط. وقال جبون: "إن المقوقس كان مصريًا وثريًا ونبيلا"، وهذا نفس ما ذكره ايرفنج : "إن المقوقس من عنصر مصري (قبطي) من مرتبة الأمراء أو النبلاء، وأنه كان منافقًا عظيمًا، وكان يعقوبي المذهب (أرثوذكسي) ".

---

(٣٩) العدد الثالث من السنة الثالثة.

(40) Milne, J. Grafton, A History Of Egypt Under Roman Rule.- 3rd Edition.- London: Methuen & Co., 1924

(41) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages .- London: Methuen & Co., 1901. (Vol. VI.) The Arab Conquest, P. 639 – 641.

(42) Bury, J. B. (John Bagnell), A history of the later Roman Empire from Arcadius to Irene, 395 A.D. to 800 A.D.-London:Macmillan,1889.

وفي عام ١٨٨٨م نشر المستشرق أميلينو بحثًا في المجلة الآسيوية لخص فيه رأيه على النحو التالي:

- إن المقوقس كان يسمى جورج بن مينا وابن فرقب وينبغي أن يكتب ابن فرقب "الفاء الأولى".
- إن المقوس كان قبطي الجنس من جهة واحدة، إن لم يكن من جهتين، وكان في خدمة الإمبراطور هرقل، وكان في الأصل مكلى المذهب. إنه كان بطريركا ملكيا ولا يمكن أن يعلم تاريخه إلا من خلال الحدس والتخمين.
- إن لفظ المقوقس كان كُنية مشتقة من "كوكيون" باليونانية، وهو اسم نوع من النقود، واعتمد بتلر هذا الرأي وقال إن اللفظ الحبشي لهذه الكلمة هو المقوقس "بفتح القاف الثانية" وأن هرقل نقل "قيري" إلى مصر من بلاد القوقاز، فلا يبعد أن يكون قد لُقب في مصر بالقوقاسى، وهو "أقوقاسيوس" باليونانية، و"بكوخيس" بالقبطية، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حُرفت في نقلها إلى العربية فصارت "مقوقس" أو قدمت عليها الميم للنسبة.

وبشأن الخلاف حول المقوقس وقيرس قال: إن قيرس لا بد أن يكون قد ترك مصر سنة ٦٣٩، ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل "قيرس"، وبعد أن رجح أميلينو في مقاله كون المقوس ملكيا، عارض نفسه فقال: إذا كان هذا صحيحاً فكيف يتأتي لمؤرخي القبط الذين كتبوا تواريخهم بالعربية آلا يقولوا شيئاً عنها؟!

أما بتلر فقد اعتمد على ما رواه ساويرس أسقف الأشمونين من أن المقوقس كان ملكيا، ورفض مقولات غيره بأنه كان يعقوبيا. وهناك اعتراض على هذا التشدد من جانب بتلر في رفضه شهادات المؤرخين المسيحيين الآخرين بأن المقوقس كان يعقوبيا، فإذا سلم بتلر بأن أوتيخا "سعيد بن البطرق" الملكى المذهب قد جعل المقوقس يعقوبيا لكي لا تقع على الملكين تبعة عمله، فلم لا يظن أيضًا أن ساويرس اليعقوبي المذهب، قد جعله ملكيا لأنه خان البلاد وصالح العرب.

وإذا كان المقوقس رومانيا ملكيا محباً للروم لا يخشى سوءا إذا احتفظ بمصر فلماذا التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصلحه لهم وهو ملكى؟ وكان اليعاقبة يعتبرون مجرد الاشتراك مع المكليين في أي عمل خيانة عظمى لا تغتفر! وإذا كا المقوقس ملكى المذهب، وأنه هو الذي نكل بالقبط عشر سنين، فكيف يعقل أن يكون القبط في صفه، وأن تتركه الروم وشأنه، ولم ينقض الصلح مع القبط بينما استمر الروم في الدفاع عن البلاد إلى النهاية؟!

الحقيقة أن؛ بتلر وغيره من المؤرخين لم يوفقوا في وصفهم للمقوقس بأنه كان ملكيا، وأصحاب هذا الرأي يميلون إلى القول بأنه قبطيا يعقوبي المذهب من أصل يوناني، عينه هرقل لما رأى فيه الحزم والنبل واحترام القبط له، ومما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الأفعال، وإن كان ملكيا في الظاهر، لكنه اعتنق المذهب اليعقوبي سراً كي لا يعلم بذلك هرقل فينتقم منه. وإذا قيل أن البطريرك بنيامين فر من وجه المقوقس نفسه حين علم بعودته إلى مصر، فلا يبعد أ ن يكون المقوقس نفسه هو الذي أشار على بنيامين بالالتجاء إلى أحد الأديرة كي ينجو من ظلم الروم.

والظاهر أن؛ المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة ما يكفل له وقف هذه المذابح التي قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة أمره فيمثل به هرقل، لأن الروم كانوا يقتفون أثر من اشتهر بمخالفة مذهب خلقدونيا، أو عرف بالميل إلى اليعاقبة أعداء هذا المذهب. ولا يبعد أن يكون قيرس والمقوقس شخصين مختلفين، فكان للأول السلطة العسكرية، وللثاني السلطة المدنية، وكان قيرس ملكيا متعصبا لمذهبه، فقام بهذه الاضطهادات في جميع أنحاء الديار المصرية، ولم يكن للمقوقس تلك المذابح البشرية والاضطهادات المريعة، فلما رأى المقوقس توغل العرب في قلب مصر، وأن البلاد واقعة لا محالة في أيديهم، وأن سلطان الروم أقرب إلى الزوال، اتجه بقلبه وقالبه إلى العرب، وعمد إلى ممالأتهم هو والقبط، لأنهم كان لهم نفس طموحه.

وهناك رأي آخر؛ بأن المقوقس كان كبير أقباط مصر وربما كان يتولى بعض شئون الحكومة، فلما دخلها الفرس واختفى رجال الدولة البيزنطية، تولى هو الأمر تحت إشراف الفرس، وفي أيامهم أتى رسول النبي محمد ﷺ فلم يجد مَن يتحدث إليه إلا كبير القبط هذا، فأحسن استقباله ورد ردًا لطيفًا وبعث بهدية إلى النبي. ولما استعاد الروم مصر، وجدوا هذا الرجل قابضًا على حزمة الأمور المالية والإدارية، فتركوه على هذه الناحية لأنه لم يكن يهمهم من مصر إلا الجباية وكان الرجل خبيرًا بها، واكتفوا بإرسال قواد عسكريين لبابليون والإسكندرية، ثم أرسلوا الأسقف "قيرس" ليعالج الخلاف المذهبي بين الأقباط والبيزنطيين، فأساء "قيرس" إلى المصريين فنفروا منه وعلى رأسهم المقوقس الذي أصبح مستعداً للتفاهم مع أي قوة يمكن أن تخلص الأقباط من الاضطهاد البيزنطي.

فلما أقبل العرب وتخاذل الروم وتوزعت جهودهم وتوالت عليهم الهزائم؛ تصدى المقوقس لإيجاد مخرج، وتكلم مع العرب باسم الأقباط – دون البيزنطيين – وكانت هناك فرق قبطية في الجيش البيزنطي المدافع عن مصر، فأتمرت بأمره وانضم إليه الرهبان ومن إليهم من

أهل البلاد، وعرف الرجل كيف يحصل من العرب على عهد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر في طاعة العرب.

وبعد؛ هل انجلت شخصية المقوقس وسط هذا الركام من الأقوال والتفسيرات المتضاربة؟ إن كل ما قيل من آراء هي فروض يغلب على بعضها صفة الترجيح على البعض الآخر، ولم تصل إلى درجة الحقيقة التاريخية الثابتة، ولا يستطيع باحث جاد أن يقطع بصحة بعضها وإنكار البعض. ولا تزال شخصية المقوقس في حاجة إلى مزيد من الضوء يجلو غموضها، وينير الطريق أمام الباحثين لمعرفة هذه الحلقة المفقودة من تاريخ مصر في العصر القبطي.(٤٣)

(٤٣) بالرجوع إلى مخطوطات وكتابات قبطية موجودة في دير أبو مقار، والذي كان يحتفظ فيه بتاريخ حياة كل بطريرك قبطي، وبالإضافة إلي بعض المخطوطات القبطية التي تم العثور عليها في عصور حديثة نسبيا في بعض الأديرة وقام علماء تاريخ أوربيون بتدقيقها وترجمتها، ومنها تاريخ حياة الأنبا شنودة الذي نشره العالم أملينو وهو عن أصل قبطي كتب في القرن السابع الميلادي؛ ومخطوطة عن حياة الأنبا صموئيل المعترف الذي كان راهبا بدير القلمون ومعاصرًا للمقوقس، يمكن أن نوجز النتائج التي أمكن استخلاصها من هذه الكتابات وهي:

كان المقوقس بطريركا دخيلا وتعين من قبل الإمبراطور هرقل ليحكم مصر. أن اسمه كان قيرس/ قورش وفي بعض المراجع سيروس Cyrus وهو من أصل يوناني وأتي من مدينة فاز بالقوقاز وأن أهل الإسكندرية أطلقوا عليه 'قفقاسيوس' أي القوقازي وأن هذا اللفظ اليوناني نقل إلي اللغة القبطية وأصبح 'قفقيوس' ومنه أخذ الاسم العربي 'المقوقس'. أنه بقي في عمله عشر سنوات، وقد حاول إرغام الأقباط أثناءها لقبول صيغة إيمان هرقل، وقد وصف الأنبا بنيامين البطريرك القبطي مدة هذا الحاكم بأنها عشر سنين كان هرقل وقيرس يحكمان فيها مصر،ولا نغفل هروب الأنبا بنيامين من وجه المقوقس.

يقول دي هينون في كتابه 'من مينا إلي فؤاد الأول': 'من كان هذا المقوقس الخائن علي وجه التحديد؟ أكان الأسقف الملكي قورش؟ أو شخصية أخري؟ وهل لا يجوز أن يكون شخصية خيالية لا وجود لها علي الإطلاق؟' في حين فيقول جاستون فييت المستشرق الفرنسي في كتابه 'مختصر تاريخ مصر' : 'يطلق المؤرخون العرب اسم المقوقس علي الرجل الذي نظم الدفاع عن مصر ضد الغزو العربي ثم وقع معاهدة التسليم معهم، وهذه التسمية غامضة. ومن المتواتر أنه قورش البطريرك الملكي الذي كان الإمبراطور هرقل قد عهد إليه بالإدارة المدنية أيضا'.

ومن المؤكد أن المقوقس لم يكن قبطيا وبالتالي لم يكن 'عظيم القبط' بل كان حاكما أجنبيا علي مصر وأنه كان مفروضا من قبل الإمبراطور البيزنطي ويظهر أن دوره انتهي بعد دخول العرب مصر ولم يعد يذكره التاريخ، علي عكس الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الحقيقي الذي استمر التاريخ يذكره حتى نياحته في٨ طوبة (يناير) ٦٦٢م.

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن قيرس حزن علي خيانته لمصر وتسليمها للعرب ومرض بالدوسنتاريا ومات يوم أحد الشعانين في مارس ٦٤٢م، ودفن في كنيسة أبو يحنس بالحبالين بالإسكندرية، ويلاحظ أن هذه الكنيسة كانت في ذلك الوقت ملكية يونانية مما يؤكد كونه غير قبطي. راجع:

مقال بعنوان " المقوقس مَن هو؟ وهل كان عظيم القبط؟"، منشور في وحدة المعرفة " Knol " ٧ / ١٢/ ٢٠٠٨:
(http://knol.google.com/k/beroo/almqoks-who-is-was-alqubtgreat/2yh2c1y6nn13/5)

Edith L. Butcher, The Story of The Church of Egypt.-reprint of 1897 edition.- New York : AMS Press Inc, 1975.(Volumes I and II)

سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر: حكايات الدخول.. رحلة الانصهار.- القاهرة: كتب عربية، ٢٠٠٦.

حريق مكتبة الإسكندرية (٤٤)

إنَّ البحث في موضوع إحراق مكتبة الإسكندرية عبر التاريخ يجابهه صعوبات كبيرة نتيجة قلة المصادر وندرتها وتناقضها في بعض الأحيان، واحتوائها على تفاصيل قابلة للطعن فيها من قبل بعض المؤرخين. وقد تعرضت مكتبة الإسكندرية لعدة حرائق في مراحل تاريخية متعددة، ولعل أهم جدال وقع حين تم اتهام المسلمين بحرق هذه المكتبة وتحميلهم زوراً مسؤولية تأريخية لفنائها وانقراضها ! وهذا الاتهام له علاقة بالصراع بين الإسلام والصليبية بدرجة أعلى بكثير من كونه مجرد مسألة تأريخية، حيث أنَّ الأدلة والقرائن تدل على نفي ذلك وتبرئة المسلمين من هذه التهمة.

تأسيس مكتبة الإسكندرية

أسس بطليموس الثاني الملقب فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧) ق.م مكتبة الإسكندرية، وهي جزء من المتحف الذي بناه بطليموس الثاني نفسه حوالي سنة ٢٨٠ ق.م أو تم بنائه مِن قِبل أبّيه بطليموس الأول الملقب سوتر (حَكَمَ ٣٢٣-٢٨٥/ ٢٨٣ ق.م). ويبدو أنه قد تم بناء مجمع كامل يتكون من متحف ومعبد وثني ومكتبة، حيث يشير قاموس الكتاب المقدس إلى أن المكتبة كانت جزءاً من معبد وثني يسمى السيرابيوم Serapeum ، والسيرابيوم هو معبد وثني، فهو هيكل الإله "سرابيس" وهو إله مكون من امتزاج الإله أوزيرس بـالإله أبيس ! ويظن بعضهم أنه خليط من زيوس الإله اليوناني، وأوزيرس إله العالم الآخر عند المصريين القدماء! وتشير الموسوعة البريطانية إلى أن المتحف بُني قرب القصر، فيكون المتحف والمعبد والمكتبة كلها قد بنيت قرب القصر الملكي.

وتذكر الموسوعة البريطانية أن هناك مكتبة فرعية "daughter library" تم تأسيها في معبد السيرابيوم Serapeum من قبل بطليموس الثالث الملقب اورجيتس سنة ٢٣٥ق.م ، إذن هناك مكتبتين الأولى رئيسية تابعة للمتحف والثانية فرعية تابعة للمعبد الوثني. وذكر الأستاذ عزت اندراوس نقلاً عن كتاب بارسون الموسوم "مكتبة الاسكندرية: مجد العالم الهيليني: بزوغها وآثارها ودمارها" أن أول أمين لمكتبة الإسكندرية هو ديمتريوس الفاليري حوالي سنة ٢٨٤ ق.م ، وذكر أيضاً بقية أسماء أمناء المكتبة كالتالي:(٤٥)

---

(٤٤) نبيل الكرخي، دراسة بعنوان "إحراق مكتبة الإسكندرية بين الأقباط والمسلمين والأرثوذكس".- موقع الباحث الإسلامي نبيل الكرخي.- سبتمبر ٢٠٠٩: (http://nabilalkarkhy.net)

(٤٥) إسراء محمد عبد ربه، مكتبة الإسكندرية الملكية.- دورية كان التاريخية.- العدد الأول: سبتمبر ٢٠٠٨. ص ٢٩ – ٣٤. (www.historicalkan.co.nr)

١-ديمتريوس	الفاليرى	(حوالى٢٨٤ق.م)
٢-زينودوتسى	الأفسى	(٢٨٤-٢٦٠)
٣-كاليماخوس	البرقاوى	(٢٦٠-٢٤٠)
٤-ابوللونيوس	الرودسى	(٢٤٠-٢٣٥)
٥-اراتواسثينس	البرقاوى	(٢٣٥-١٩٥)
٦-ارستوفانيس	البيزنطى	(١٩٥-١٨٠)
٧-ابوللونيوس	ايدوجرافوس	(١٨٠-١٦٠)
٨-اريستارخوس	الساموتراقى	(١٦٠-١٤٥)

غير إنَّ هذه المعلومات تتضارب مع ما ذكره أرنولد توينبي في كتابه تاريخ البشرية، وهو أن فاراتوستينس القيريني كان أمين مكتبة المتحف في الإسكندرية (٢٧٦ ـ ١٩٤)ق.م أو (٢٦٤ ـ ٢٠٢) ق.م ، وهذا الاسم غير موجود مع الأسماء التي ذكرها بارسون في كتابه. وأول إشارة تاريخية لمكتبة الإسكندرية هو في وثيقة يهودية في حوالي ١٨٠-١٤٥ ق.م في رسائل ارستياس Aristeas.

رواد مكتبة الإسكندرية

مدرسة الإسكندرية هي مدرسة فلسفية وأدبية، ومعظم أفرادها هم من الوثنيين رغم أن بعض أفراد هذه المدرسة قد أعتنق المسيحية. وكانت مدرسة الإسكندرية معقلاً للاتجاهات الوثنية بخلاف مدرسة أثينا التي شاع بها الجو الديني وانتشرت بها الصوفية وذاع التأمل والنسك فيها.

أول حرق لمكتبة الإسكندرية

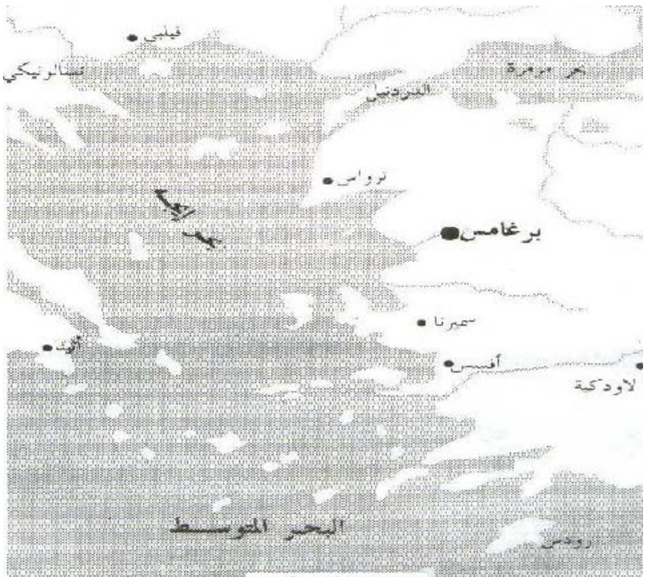
أول حريق أصاب المكتبة كان في سنة ٤٨ق.م من قبل يوليوس قيصر حينما قدم إلى الإسكندرية لمساعدة كليوباترا ضد أخيها، فتمت محاصرته مع أسطوله في المنطقة القريبة من القصر الملكي حيث كان يوجد المتحف، فقام قيصر بإشعال النار في أحواض السفن للإضرار بسفن غريمه بطليموس الرابع عشر أخو كليوباترا، فامتدت النار إلى المخازن القريبة ومن ثم اتسعت لتصل إلى المتحف وتحرق المكتبة. ويرى البعض أن ما يقارب الـ (٤٠٠) ألف وثيقة قد احترقت في المخازن القريبة من موقع المعركة دون أن تصل إلى بناية المتحف! ونحن نعرف أن قيمة وأهمية الكتب والوثائق التي أتلفت أكثر بكثير من جدران بناية المتحف.

ثاني حرق لمكتبة الإسكندرية

المؤرخ كيليوس Gellius المتوفى سنة ١٨٠م، ذكر وهو يتحدث عن المكتبات أنه في حرب أوكتافيوس Octavian ضد انطونيو Anthony وكليوباترا Cleopatra في الإسكندرية، تم إحراق (٧٠٠) ألف كتاب. وهذا الأمر يكشف عن أنَّ مصير كتب مكتبة برغاموس التي نقلت إلى الإسكندرية هو الحرق سواء على يد يوليوس قيصر أم على يد اوكتافيوس (عُرف فيما بعد باسم أغسطس قيصر).

كتب مكتبة برغامس تحترق مع مكتبة الإسكندرية

قالت مسز أ . ل . بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية (صدر في ١٨٨٩م: الجزء٦ ص ١٤٨ الهامش) :" لا مشاحة أن مكتبة الإسكندرية القديمة قد كان قد احرقها أوغسطس قيصر أول إمبراطور روماني وضع يده على مصر، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى تجددت هذه المكتبة إذ نقلت مكتبة برغامس إليها فصارت أشهر من الأولى وانفع". وقد ذكرنا أن مكتبة الإسكندرية قد احترقت في حرب أوغسطس قيصر (اوكتافيوس) مع انطونيو وكليوباترا، ولكن قول مسز بتشر بأن مكتبة برغامس قد نقلت إليها بعد ذلك يبدو أنه قول غير صحيح ، فهناك مصادر أخرى تذكر أنَّ مكتبة برغامس وعددها (٢٠٠) ألف كتاب نقلت إلى مكتبة الإسكندرية في عهد كليوباترا، وكانت كليوباترا معاصرة ليوليوس قيصر، وهو أخو جدة أوغسطس قيصر لأمه. ويتبادر إلى الذهن التساؤل عن السبب الذي جعل المخازن في ميناء السفن تحتوي على العدد الهائل من الوثائق التي ذكرناها والتي تلفت بسبب الحرب بين يوليوس قيصر وبطليموس الرابع عشر؟ الظاهر أن تلك الوثائق التي تلفت هي كتب مكتبة برغامس التي نقلتها كليوباترا لتضيفها إلى مكتبة الإسكندرية ، ولكن الحرب التي اشتعلت أدت إلى تلفها قبل أن تصل إلى المكتبة ، ثم أمتد الحريق إلى بناية مكتبة المتحف نفسها.



خريطة لموقع برغامس

هناك رأي يقول بان كتب مكتبة برغامس(٤٦) كانت هدية من أنطونيو إلى كليوباترا، وقد أحرقت فيما بعد في أحداث سنة ٣٩١م. ولكن هذا الرأي لا يكشف عن سبب وجود هذا

---

(٤٦) برغامس (أو برغاموم) : موقعها : كانت برغامس مدينـة في [ميسيا] الولايـة الرومانيـة القديمـة في أسـيا الصـغرى في وادى كايسوس على بعد ثلاثة أميال من النهر، وعلى بعد نحو خمسة عشر ميلاً من بحر ايجـه. وكـان نهـر كايسـوس صـالحاً للملاحـة للمراكب الوطنية الصغيرة. وكان سلينوس وكتيوس رافدين من روافد نهر كايسوس، وكان أولهما يجرى داخل المدينة، أما الثاني فكان يلتف حول أسوارها. وكانت المدينة القديمة تقوم على التل المحصور بينهما، كما كان يقوم عليه أيضاً الأكروبوليس والمعابد الرئيسية ومسارح المدينة التي أقيمت في وقت متأخر.

تاريخها : كان سكان المدينة الأوائل هم سلالة المستعمرين من اليونان، ومنذ عام ٤٢٠ ق.م. سكوا عملتهم الخاصـة بهـم. قـد أودع فيها ليسيماخوس الذي امتلك المدينة ٩,٠٠٠ وزنة من الذهب، وعند موته استغلها فيليتاروس (٢٨٣ ــ ٢٦٣ ق.م.) في تأسيس أسرة مستقلة من الملوك الأتاليديين، وكان أول ملوكها هـو أتـالوس الاول (٢٤١ ـــ ١٩٧ ق.م.) وكـان ابـن أخ فيليتاروس. ولم يكتف اتالوس بترصيع المدينة بالمباني الجميلة حتى أصبحت عـروس مـدائن الشـرق، ولكنـه أضـاف إلى مملكتـه أقاليم ميسيا وليديا وكاريا وبمفيلية وفريجية. وكان إيومينس الثاني (١٩٧ ــ ١٥٩ ق. م) أشهر ملوك تلك الأسرة، وقد بلغـت المدينة أوج عظمتها في عهده، وقد شجع الآداب والفنون، فكان بالمدينة مكتبة تحتوى على ٢٠٠,٠٠٠ مجلداً أهداها أنطونيـوس فيما بعد كليوباترا. وكانت الكتب مصنوعة من الرقوق التي تسمى في اللغات الأوربية البرشمان (Parclment) اشتقاقاً مـن اسم المدينة التي اشتهرت بصناعتها. وكان أشهر مباني المدينة مذبح زيوس الذي كان ارتفاعه أربعين قدماً ويعتبر مـن عجائـب العالم القديم. وعند موت أتالوس الثالث آخر ملوك تلك الأسرة، وفي ١٣٣ ق. م. سلم مملكته للحكومة الرومانية، القوة العالمية الصاعدة في ذلك الوقت. وحاول ابنه أرستونيكوس أن يحتفظ بالمملكة لنفسـه، ولكنـه انهـزم في ١٢٩ ق. م. وهكـذا تأسسـت الولاية الرومانية في أسيا ، وأصبحت برغامس عاصمة لها لمدة أربعة قرون. وبقيام ولاية أسيا الرومانية، بدأ سك عملـة جديـدة في برغامس استمرت في التداول حتى القرن الثالث بعد الميلاد، الذي امتدت إليه أيضاً عظمة المدينة.وكانـت برغـامس مسـقط رأس جالينوس العالم الشهير الذي كان أول من اكتشف أن الأوعية الدموية تحمل دماً لا هواء كما كان المعتقد من قبل.

ديانتها : كانت برغامس معابد جميلة اللآلهة الأربعة الكبار : زيوس، وديونيسـيوس وأثينـا وأسـكليبوس. وكـان يفـد إلى المعبـد الأخير المرضى من كل جهات أسيا، وفي أثناء نومهم في فناء المعبد، يعلن الإله للكهنة الأطباء عن طريـق الأحـلام العلاجـات اللازمة لشفائهم من أمراضهم. وكان مجال الخداع فسيحاً، وكانت هناك مدرسة للطب ملحقة بالمعبد. كانـت برغـامس أساسـاً مركزاً دينياً للولاية، وكان يطلق عليها اسم النيكوروس المثلث الذي يعني أن بالمدينة ثلاثة معابد بنيت للأباطرة الرومـان حيـث كان يُعبد الأباطرة فيها باعتبارهم آلهة. وكانت سميرنا المنافسة لها، مركزاً تجارياً، ويتعاظم ثروتهـا، أصـبحت المركـز السياسـي، وعندما أصبحت سميرنا العاصمة، ظلت برغامس المركز الديني للولاية. وكالكثير من مدن أسيا الصغرى، كانـت هنـاك جاليـة يهودية كبيرة فى برغامس، وقد أصدر شعب المدينة في ١٣٠ م مرسوماً في صالح اليهود. وقد اندمج الكثيرون مـنهم في المجتمـع اليوناني بدرجات متفاوته، حتى حمل البعض منهم أسماء يونانية.

المسيحية فيها: وصلت المسيحية إلى برغامس في زمن مبكر فقد كانت فيها إحدى الكنائس السبع المذكورة في سفر الرؤيـا، وقـد استشهد فيها أنتيباس (رؤ ٢ : ١٣) فكان أول شهيد مسيحي تعدمه الدولة الرومانية. كما نقرأ في نفس الفصل أنه كـان فيهـا كرسى الشيطان، ولعل ذلك إشارة إلى المعابد التي كانت تقدم فيها العبادة للأباطرة الرومان، ومن هنا اشتد الصراع بين الدولـة الرومانية والمسيحية وفي العهد البيزنطي ظلت برغامس مركزاً دينيـاً حيـث كانـت مقـراً لأسـقفية. وقـد سـقطت المدينـة في يـد السلاجقة في ١٣٠٤ م، وفي ١٣٣٦ م استولى عليها سليمان بن أورخان سلطان الأتراك العثمانيين.

وتسمى المدينة التركية حالياً باسم برغاما (وهو النطق التركي لاسمها القديم) وهي مدينـة كـبيرة بهـا العديـد مـن المسـاجد الجامعة، وكان أحدها في الأصل كنيسة القديسة صوفيا من العصر البيزنطي. والمدينة الحديثة تقوم فوق أطـلال المدينـة القديمـة، وإن كانت أقل منها اتساعا. وقد قام هرهومان بالتنقيب في أطلالها من ١٨٧٩ ــ ١٨٨٦ م لحساب الحكومة الألمانية فكشف عن مذبح زيوس الذي توجد أفاريزه في القسم الخاص ببرغامس في متحف برلين الشرقي، كما كشف عن المسرح والسوق والملعب والعديد من المعابد. وقد اشتهرت المدينة قديماً بأطيابها وفخارها وورقها، أما الآن فإن أهم سلعها القطن والصوف والحشـيش والفالونيا والجلود. راجع: (http://katamars.avabishoy.com/bible/dictionary/2/146.htm)

العدد الهائل من الكتب والوثائق في مخازن قرب الميناء والتي احترقت في حرب يوليوس قيصر مع بطليموس الرابع عشر! كما أنَّ هذا الرأي المذكور لا يذكر الطريقة التي نجت بها تلك الكتب من حريق اوكتافيوس المذكور آنفاً. فإذا كانت مكتبة برغامس قد نقلها انطونيو حقاً فهناك احتمال أنها أحرقت على يد أوكتافيوس في حربه ضد انطونيو وكليوباترا. عموماً فقد قام أوغسطس قيصر نفسه بإعادة إعمار المكتبة سنة ١٢ق.م.

ثالث حرق لمكتبة الإسكندرية

وتذكر الموسوعة البريطانية أن زنوبيا ملكة تدمر استولت على مصر سنة٢٦٩م، وقامت بتدمير المتحف سنة ٢٧٠م، وكذلك المكتبة. ونحن نعلم أن المكتبة هي جزء من المتحف، ولا بد أن تكون المكتبة قد تعرضت هي أيضا للتدمير أو النهب والسرقة على أقل تقدير. ويبدو أن حرق المكتبة قد حدث أثناء حرب زنوبيا مع الإمبراطور أورليان Aurelian الذي احتل الإسكندرية بعد هزيمة زنوبيا فيها، حيث ذكرت الموسوعة البريطانية أن المكتبة والمتحف دمرا أثناء الحرب الأهلية في عهد الإمبراطور أورليان في أواخر القرن الثالث الميلادي، مع العلم أن الإمبراطور أورليان قد مات سنة ٢٧٥م.

رابع حرق لمكتبة الإسكندرية

قال الأستاذ عزت اندراوس:"الحريق الثاني كان في عهد الإمبراطور أورليانوس٢٧٣م ، حيث دمر جانبًا كبيرًا من المدينة بعد اضطرابات من جانب المسيحيين، وتكرر الأمر في عام ٢٩٦م". حيث يبدو من خلال هذا النص أن هناك حريقاً رابعاً قد حدث سنة ٢٩٦م وأحدث تدميراً بالمكتبة هو أيضاً ـ بحسب العبارة المذكورة ـ وتشير بعض المصادر إلى أن الإمبراطور دايكليَّشن Diocletian الذي تولى الحكم سنة ٢٨٤م حاصر الإسكندرية لمدة ثمانية شهور سنة ٢٩٦م للقضاء على تمرد آتشيليس Achilleus ودوميتيوس دوميشانوس Domitius Domitianus وقتل الآلاف نتيجة لذلك. وفي سنة ٣٠٥م اصدر الإمبراطور دايكليَّشن Diocletian أمراً بتحطيم المسيحية وكذلك بحرق كل كتب المعادن في مكتبة الإسكندرية، فهو إذن تدمير جزئي لكتب المكتبة.

خامس حرق لمكتبة الإسكندرية

أمر الإمبراطور جوفيان Jovian (٣٦٣ ـ ٣٦٤ م) ونتيجة لرغبة ملحة لزوجته بإحراق المعبد والكتب التي في ، أي في مكتبته، مكتبة المعبد.

سادس حرق لمكتبة الإسكندرية

حطم مسيحيون مكتبة المعبد الوثني في اضطرابات سنة ٣٩١م، أي في نهاية القرن الرابع الميلادي في زمن الإمبراطور ثيودسيوس الأول الذي أصدر أمراً بالقضاء على الوثنية، فقام بطريرك الإسكندرية ثيوفليوس بجمع غوغاء المسيحيين والهجوم على معبد السيرابيوم ومكتبته ودمروها، ويبدو أن التحطيم شمل المتحف ومكتبته أيضاً.

مكتبة الإسكندرية مهجورة

قال المؤرخ أورسيوس أنه حوالي سنة ٤١٦م رأى مكتبة الإسكندرية شبه مهجورة، غير أن الأستاذ عزت اندراوس حاول أن يثبت أن مكتبة الإسكندرية بقيت مستمرة في الوجود حتى الفتح الإسلامي، فقال:" أما عن وجود مكتبه الإسكندرية قبل الغزو العربي فقد ذكر المؤرخين بسوزومين وثيئودوريت وروفينوس أنهم شاهدوا المكتبة في القرن الرابع. أما افتونيوس المؤرخ فقال: "وهذه مكتبه السيرابيوم المفتوحة للجمهور نهارًا هي للمدينة كلها دعوة مستمرة للاستقاء من مناهل الحكمة". أما الأنبا كيرلس مقار ذكر أن شابًا اسمه بول أوروز أسبانى رأى مكتبه السيرابيوم بالإسكندرية، وذكر أيضا أن امونيوس الفيلسوف الأسكندرى الذي كتب مؤلفات في السنوات الأخيرة من القرن السادس وصف مكتبة الإسكندرية وذكر أنها تحوى في هذا الوقت على ٤٠ نسخه من التحاليل الفلسفية، ونسختين من المصنفات وهما من تأليف الفيلسوف المشهور أرسطاطليس. وكان أمونيوس هذا معلما ليوحنا الغراماطيقى الملقب بفيليبون الذي يروى عنه المؤرخين العرب أنه حاول مع عمرو بن العاص لينقذ المكتبة من الدمار، فإنَّ الذين رأوها في القرن الرابع الميلادي إنما كانت رؤيتهم لها قبل حرق المسيحيين لها سنة ٣٩١م أي أواخر القرن الرابع الميلادي.

أما امونيوس الفيلسوف الإسكندري فلم يكن يعيش في القرن السادس الميلادي كما ذكر عزت اندراوس بل في الفترة (١٧٥ ـ ٢٥٠ م)، أي في نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الميلادي، فلا يعتد بشهادته لأن تدمير المسيحيين للمكتبة كان في سنة٣٩١م. فالأدلة التي ذكرها الأستاذ عزت اندراوس غير معتبرة ، ولكن يبدو أن جانباً من المكتبة بقي رغم هجوم غوغاء المسيحيين سنة ٣٩١م، ونرجح أن الذي بقي هو مكتبة المتحف وليس مكتبة المعبد الذي تحول إلى كنيسة بعد الهجوم المذكور وتدمير مكتبة المعبد.

منع تدريس الفلسفة

وبعد أكثر من مائة سنة، وبالتحديد في سنة ٥٢٩م أصدر الإمبراطور جستنيان حظر تدريس الفلسفة فخلت أثينا والإسكندرية من مدارسها، ومعنى هذا أن المكتبات ومكتبة الإسكندرية على وجه الخصوص ازدادت خلواً من روادها أكثر من ذي قبل ، ولذلك فلا نتوقع إلا أن تترك مكتبة الإسكندرية بلا رعاية، وبلا ترميم سواء ترميم البناية أو ترميم الكتب فيها. ومن يضمن عدم سرقة الكتب الثمينة منها أو تسريبها خارج المكتبة نتيجة الفترة المظلمة التي تمر عليها من هجران وانعدام للرعاية والمتابعة.

اضطهاد البيزنطيين للأقباط

بدأ الخلاف بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية من جهة، وكنيسة الأقباط من جهة أخرى حينما تم عقد مجمع خلقيدونية سنة٤٥١م، هذا المجمع دعا إلى عقده الإمبراطور مرقيانوس والإمبراطورة بولخيريا بناءاً على طلب أسقف روما، وكانت نتيجة هذا المجمع أنه تبنى عقيدة يعتنقها بابا روما وأسقف القسطنطينية فلابيانوس، تقول بأن المسيح بعد تجسده كان له طبيعتين ومشيئتين، بينما اعتنق بطريرك الإسكندرية ديسقوروس عقيدة أخرى تقول أن المسيح بعد تجسده صار اتحاد اللاهوت بالناسوت في طبيعة واحدة بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. وقد رفض بطريرك الإسكندرية ديسقوروس الاعتراف بقرارات هذا المجمع، فكان أول انشقاق في المسيحية المبنية على التثليث.

يقول القس زكريا بطرس:" كان نتيجة لهذا الانشقاق أن اضطهد قياصرة القسطنطينية الكنيسة المصرية، وذلك لأن أولئك الأباطرة كان من مصلحتهم أن لا يكون هناك انشقاق في إمبراطوريتهم ولذلك حاولوا بشتى الطرق أن يثنوا الكنيسة المصرية عن إيمانها، ولكن باءت محاولاتها بالفشل وأخيراً أرسل أولئك الأباطرة بطاركة من قبلهم إلى الإسكندرية ليحلوا محل البطاركة الأقباط، وعرف أولئك البطاركة المعينين من قبل الملك بالبطاركة "الملكيين"، وطبيعي كانوا من أنصار معتقد مجمع خلقيدونية. وبهذا أصبح في مصر بطريركان أحدهما يختاره الآرثوذكس الأقباط، والأخر يرسله القيصر ليكون بطريركاً للملكيين. وكان الأقباط يرسمون بطريركهم سراً وكان لا يُسمح لهم بدخول الإسكندرية. وظل الحال على هذا الوضع حتى دخول العرب مصر وتخلص الأقباط من سلطة الرومان وبطاركة الروم الملكيين".

فدخول العرب المسلمين إلى مصر حوالي سنة ٦٤٢م كان فيه إنهاء لاضطهاد الأقباط الذي استمر حوالي (١٩٠) سنة متتالية.

اتهام المسلمين بحرق مكتبة الإسكندرية

يحاول بعض المسيحيين ولاسيما بعض الأقباط اتهام المسلمين بحرق مكتبة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي لمصر سنة ٦٤٢م، مستندين في ذلك إلى مصادر ثانوية غير دقيقة. وسنتناول الآن تلك المصادر ونبيِّن عدم إمكانية اعتبارها أو قبولها.

أدلّة الاتهام:

(١) قال عبد اللطيف البغدادي المتوفى ٦٢٩ هـ في الإفادة والاعتبار ص ٢٨ :"رأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها إنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها. وأرى إنه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار المعلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه".

المناقشة:

هذه الرواية مرسلة ولا إسناد فيها، والبغدادي قد عاش في القرن السابع الهجري بينما الحدث المزعوم وهو إحراق المسلمين لمكتبة الإسكندرية يفترض به أن يكون قد وقع في الربع الأول من القرن الأول الهجري! فكيف وصلت هذه المعلومة إلى عبد اللطيف البغدادي بدون أن يذكرها أحد من مؤرخي المسلمين المعاصرين أو القريبين من الحدث ولا من مؤرخي المسيحيين ولا من مؤرخي اليهود ! علماً بأن ثلث سكان الإسكندرية في الزمن الغابر كانوا من اليهود. فتهمة إحراق المكتبة غابت عن تواريخ جميع المؤرخين المسلمين والمسيحيين واليهود قبل القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي، مثل تواريخ الطبري، واليعقوبي، والبلاذري وسعيد بن بطريق، وابن عبد الحكم، والكندي وغيرهم. وكذلك حنا النقيوس الذي كتب عن الفتح الإسلامي ولم يذكر تهمة الحرق المذكورة. وأيضاً فإنَّ افتيكيوس بطريرك الإسكندرية الذي توسع في الكلام عن استيلاء المسلمين على مصر لم يذكر التهمة المذكورة.

وكذلك احتوت رواية البغدادي على خطأين؛ فذكرت الرواية أن أرسطو طاليس كان يدرس في مدرسة الإسكندرية أي المتحف الذي ذكرناه سابقاً، وهذا الأمر غير صحيح، لأن أرسطو طاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢)ق.م لم يحضر إلى الإسكندرية ولا إلى مصر. والخطأ الآخر هو أنها نسبت إلى الإسكندر بنيانه وإنشائه للمكتبة وهو خطأ، لأن الذي بناها هو بطليموس الثاني فيلادلفوس وقيل بطليموس الأول سوتر.

فإذا اخطأ البغدادي في معلومتين تأريخيتين، فلا يستبعد أنه قد اخطأ في المعلومة الثالثة أيضاً. فنجد أنه من غير المجدي الاعتماد على رواية البغدادي هذه في إسناد التهمة للمسلمين بأنهم أحرقوا مكتبة الإسكندرية.

(٢) جاء في (تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الملطي المتوفى ٦٨٤ ص ١٨٠ من طبعة بوك في اوكسونيا سنة ١٦٦٣م) ما نصه: "وعاش يحيى الغراماطيقي إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسه ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوما: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها، فمالك به انتفاع فلا نعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: ما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية. فقال عمرو: هذا ما لا يمكنني أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما وافق كتاب الله ؟ ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله؟ فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة أشهر".

المناقشة:

الظاهر أن أبا الفرج الملطي هذا هو نفسه الأسقف المسيحي اليعقوبي جريجوري (المتوفى ١٢٨٦م)، والرواية تحوي على أخطاء تأريخية منها أنها ذكرت أن يحيى الغراماطيقي قد عاصر الفتح الإسلامي وعاش بعده بينما تذكر المصادر أنَّ يحيى الغراماطيقي كان ميتاً في وقت الفتح الإسلامي لمصر، وهذه أول نقاط ضعف هذه الرواية وعدم مصداقيتها، يضاف لذلك أن أبو الفرج الملطي عاش في القرن السابع الهجري أي بعد حوالي سبعة قرون من الحادثة فهو لا يستند إلى دليل معتبر في إسناد روايته، ولم يذكر أي مصدر يستند عليه في روايته هذه.

وأما تفريق الكتب على الحمامات لغرض حرقها، فهو عمل مخالف لأوامر الخليفة لأن تفريقها على الحمامات يوفر فرصة مهمة لإنقاذها من خلال شرائها ممن يقومون بالحرق، بالإضافة إلى أن من يقومون بالحرق هم مسيحيون يمكن ليحيى الغراماطيقي أن يؤثر عليهم بسهولة لإنقاذ الكتب. والأسهل على عمرو بن العاص هو جمع الكتب في ساحات أو حتى في أماكنها وإحراقها بدلاً من معاناة نقلها وهي آلاف مؤلفة إلى مناطق تواجد الحمامات وهي

مناطق متفرقة. فضلاً عن أن الكتب تصنع عادة من الصحف والأوراق التي لا تصلح لإيقاد مواقد الحمامات، فهي لا تصلح وقوداً لكي يتم إتلافها بهذه الطريقة التي تعرقل عمل الوقود الأصلي للحمامات وتتلفه.

(٣) قال علي بن يوسف القفطي المتوفى ٦٤٦ في كتابه تراجم الحكماء المخطوط في ترجمة يحيى النحوي:" وعاش (يحيى النحوي) إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فأكرمه عمرو ورأى له موضعا وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه وسمع كلامه أيضا في انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله ، وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه، ثم قال له يحيى يوما: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به، فأمر بالإفراج عنه. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة في الخزائن الملوكية وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها. فقال له: ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ فقال له يحيى : إن بطولو ماوس فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن زمرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع من ذلك في مدة خمسون ألف كتابا ومائة وعشرون كتابا ، ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة: أتى بقي في الأرض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة: قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم. فعجب الملك من ذلك وقال له: دم على التحصيل فلم يزل على ذلك إلى أن مات ، وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا ، فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له: لا يمكنني أن آمر بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر ، واستأذنه ما الذي يصنعه فيها ؟ فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ؟ ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى ؟ فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات

الإسكندرية وإحراقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها ، فذكروا أنها استنفدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى وأعجب".

المناقشة:

الظاهر أن يحيى النحوي هذا هو نفسه يحيى الغراماطيقي الذي ذكره الملطي والذي بيّنا آنفاً أنه توفي قبل الفتح الإسلامي لمصر سنة ٦٤٢م. وهذه الرواية التي ذكرها القفطي فيها كذب صريح منسوب ليحيى النحوي وهو ما ورد فيها ، قوله : [(وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا)] ، حيث قد بيّنا كيف أن مكتبة الإسكندرية قد أحرقت ودمرت قبل الفتح الإسلامي حوالي ست مرات! وقد ذكرنا أن تفريق الكتب على الحمامات يخالف أمر الخليفة لأنه يوفر فرصة ثمينة لإنقاذ الكتب من قبل من يعرف قيمتها، ولم يحدثنا التاريخ أنَّ كتاباً واحداً قد أنقذ من الحرق في الحمامات مع أن المدة المفترضة للحرق هي ستة أشهر وهي فترة طويلة جداً.

سبب إيجاد تهمة حرق المسلمين للمكتبة:

من الواضح أنَّ الفترة الزمنية التي ظهرت فيها تهمة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية هي فترة تحول اتجاه الحروب الصليبية من بيت المقدس إلى مصر، فكان ظهور هذه التهمة هو من باب التعبئة الفكرية للصليبيين داخل مصر وخارجها من اجل اقتحام مصر واحتلالها. ومن السهولة معرفة التواريخ التالية وملاحظة ارتباطها بعضها ببعض:

- سنة ١٢١٧م / ٦١٥ هـ الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي برين Jean de Brienne ملك بيت المقدس، وقد أعد لها بابا روما وكان يعين قوادها، وهي أول حملة صليبية تستهدف احتلال مصر.
- سنة ١٢٢٨م بدأ الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك الثاني Frederick II ضد القدس بدون موافقة البابا جريجوريوس التاسع.
- سنة ١٢٣٢م/٦٢٩هـ وفاة عبد اللطيف البغدادي الذي روّج لتهمة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية في كتابه الإفادة والاعتبار.
- سنة ١٢٣٩م بدأ هجوم صليبي يستهدف مصر بقيادة ثيبود دى تشامبين وريتشارد كورنوال Thibaud de Champagne and Richard of Cornwall انتهى باستعادة المسلمين للقدس سنة ١٢٤٤م.
- سنة ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ وفاة علي بن يوسف القفطي الذي روّج لتهمة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية في كتابه تراجم الحكماء المخطوط.

- سنة ١٢٤٨م بدأ الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع St. Louis على مصر.
- سنة ١٢٧٠م بدأ الحملة الصليبية الثامنة بقيادة الملك لويس التاسع St. Lo على مصر.
- سنة ١٢٨٦م/ ٦٨٤هـ وفاة أبو الفرج الملطي وهو الأسقف جريجوري Gregory الذي روّج لتهمة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية في كتابه تاريخ مختصر الدول.

فالمسألة واضحة وهي؛ أن اتهام حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية قد ظهر في فترة تحول الحروب الصليبية نحو مصر، من أجل تبرير ذلك التحول لدى عامة الشعوب الأوربية، وكذلك عند المسيحيين داخل العالم الإسلامي.

مكتبة البطرياركية الآرثوذكسية تكشف سر اختفاء الكتب:

الملفت للنظر أن مكتبه بطريركية الروم الارثوذكس بقيت سالمة من أي تدمير منذ الفتح الإسلامي والى يومنا هذا، والأقباط الآرثوذكس يذكرون هذه الحقيقة ويفتخرون بها، فلماذا لم يدمرها المسلمون لو صح أنهم دمروا مكتبة الإسكندرية ؟! لماذا لم يدمروا مكتبات بقية الكنائس المسيحية؟! فإن قيل لأنها تقع في أملاك مسيحية فهذا اعتراف بأن المسلمين كانوا يحترمون الأملاك المسيحية حين فتحوا مصر، بالإضافة إلى أنَّ معبد السيرابيوم هو أيضاً قد تحول إلى كنيسة مسيحية بعد أحداث سنة ٣٩١م حين دمر المسيحيون المكتبة كما ذكرنا. أي أنَّ حفاظ المسلمين على المكتبة الأرثوذكسية يستلزم حفاظهم على مكتبة المعبد لأنها جميعا تقع في أملاك مسيحية.

وقد جاء في تاريخ مكتبة بطريركية الروم الأرثوذكس أن كتب مكتبة معبد السيرابيوم قد نقلت من قبل الروم البيزنطيين أثناء الهدنة التي سبقت نجاح الفتح الإسلامي لمصر سنة ٦٤٢م، وجاء أيضا أنه في سنة ٧٥٠م قد نقلت نواة مكتبة الإسكندرية وأعيد خزنها في المكتبة البطرياركية المذكورة من قبل البطريارك كوزمو الاول Cosmo I والنص هو: (**We find the Library, or a nucleus of the present Library, in the Caesarium. It was restored to the Orthodox Church under Patriarch Cosmo I**) ، وهذا النص يبرئ المسلمين من التهمة الظالمة التي ألحقت بهم، فمعظم الكتب قد نقلت من مكتبة السيرابيوم من قبل الروم البيزنطيين أثناء الهدنة قبل الفتح الإسلامي. وأما تهمة حرق المكتبة فقد ظهرت في فترة الحروب الصليبية، كمبرر للصليبيين للهجوم على مصر وبقية بلاد المسلمين، كما ذكرنا آنفاً.

والسر وراء استمرار البطرياركية القبطية في اتهام المسلمين بحرق مكتبة الإسكندرية رغم اعتراف البطرياركية الآرثوذكسية بانتقال حوزة كتب المكتبة إليها، هو وجود صراع خفي بين الكنيستين المصريتين الآرثوذكسية والقبطية، وهو امتداد للصراع العقائدي بينهما، هذا الصراع والتنافس أدى إلى إنكار الكنيسة القبطية انتقال كتب مكتبة الإسكندرية إلى مكتبة منافستها أي البطرياركية الآرثوذكسية. لأن اعتراف الكنيسة القبطية بامتلاك منافستها الكنيسة الآرثوذكسية لكتب مكتبة الإسكندرية الشهيرة يعطيها أصالة وعمق تحاول الكنيسة القبطية سحبه منها وإنكاره عليها، بالإضافة إلى محاولة تحصيل بعض المكاسب من خلال ادعاء "مظلومية" مزيفة.(٤٧)

---

(٤٧) أثبت المؤرخ لوتتشيا في كتابه "المكتبة المختفية" أن عمرو بن العاص عندما دخل مصر لم يجد فيها مكتبة من الأصل. وهناك نص للمؤرخ اليوناني إيميانس يقول فيه: "الحي الملكي الذي يحتوي مكتبة الإسكندرية دمر بالكامل عن طريق الإمبراطور أورليان"، وهذه حادثة تدمير موثقة، وهذا يثبت أيضا أن المكتبة أحرقت على مراحل، حيث يعقب كل حريق نقل ما تبقى لمكان آخر. راجع:

قاموس الكتاب المقدس ، مجمع الكنائس الشرقية.- ص١٧٩، ص١٠٣، ص٥٩٧. ومتاح على شبكة الإنترنت: (http://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/Kamous-Al-Engeel-index.html)

الموسوعة البريطانية ، فقرة Alexandrian Museum. (wwwa.britannica.com)

عزت اندراوس، موسوعة تاريخ أقباط مصر/ تحت عنوان (العرب المسلمون حرقوا مكتبة الإسكندرية) من خلال الرابط: (www.coptichistory.org)؛ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية/ ترجمة نقولا زيادة.- الطبعة الرابعة.- بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٣. ص٢٦٧.

Preston Chesser, "The Burning of the Library of Alexandria", available in 23 Oct.2009 at: (http://ehistory.osu.edu/world/articles/ArticleView.cfm?AID=9)

فؤاد كامل، جلال العشري، الموسوعة الفلسفية المختصرة.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣ .ص٦٥ ؛ عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية.- الطبعة الأولى.- ص٤٢٢، ص٦٦، ص٣٥

Ellen Brundige, The Decline of the Library and Museum of Alexandria.- available in 10 Dec.1991 at: (http://www.digital-brilliance.com/kab/alex.htm)

القس زكريا بطرس، تاريخ انشقاق الكنائس.- متاح على شبكة الإنترنت على.- ص١١. نسخة إلكترونية على الرابط: (www.fatherzakaria.com).

الشيخ الأميني، عيد الغدير في الإسلام. (ج٦، ص٢٩٩). ومتاح نسخة إلكترونية في مكتبة شبكة الشيعة العالمية على الرابط: (http://www.shiaweb.org/books/eid_al-gadir/index.html)

Bernard Lewis, The Vanished Library "In response to Lost History of the Lost Library", Reply by Hugh Lloyd-Jones.- Volume 37, Number 14.- available in 27 Sep.1990 at: (http://www.nybooks.com/articles/3517)

نبيل لوقا بباوي،"هل أحرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندرية".- جريدة الأهرام المصرية/ قضايا و آراء.- العدد ٤٢٦٥٤ بتاريخ ١٨ سبتمبر ٢٠٠٣م.

إن باب الاجتهاد ما زال مفتوحًا لتحديد المسئول عن حريق مكتبة الإسكندرية القديمة، وربما تظهر أدلة نقلية تحسم هذه القضية بظهور حفريات لها في باطن أرض الإسكندرية كما حدث في مكتبات العراق القديمة ومكتبة «برجاموم» أو مكتبة «الهيركلانيوم». شعبان خليفة، مكتبة الإسكندرية: الحريق والإحياء.- القاهرة، ٢٠٠٢.(سلسلة كتاب الجمهورية)



الأقباط والفتح الإسلامي لمصر

يذكر التاريخ بأن هناك فراعنة «مصريين قدماء»، بعضهم آمن بالمسيحية عند دخول «مارى مرقص» الرسول مصر، ونفس الحال حدث عند دخول الإسلام مصر، إذن الأصل فراعنة وليس مسيحيين، ولكن لدي بعض التحفظات، منها: ما يذكره التاريخ من أن عمرو بن العاص فتح مصر، هي مصر كانت «مقفولة»!!

قداسة الأنبا مرقص "أسقف إبراشية شبرا "

(بجريدة اليوم السابع ٢٦/١٢/٢٠٠٨)

"فتح الإسلام لمصر كان نوراً بعد طول ظلام"

د.محمد سيد طنطاوي "شيخ الأزهر"

(جريدة الأهرام ١٧ يوليو ٢٠٠٠)

الأقبـاط والفتح الإسلامي لمصر

الفتح الإسلامي" الغزو العربي"- فتح مصر في الفكر العربـي - دوافع الفـتح الإسلامي لمصر- دور الأقباط في دخول العرب لمصر- فـتح مصـر في حوليـات العرب - حال الأقباط إبان الفتح العربي لمصر- الغزو العربي في الفكر القبطي

الفتح الإسلامي "الغزو العربي"[١]

يحكى أنه أوتي إلى الإسكندر الأكبر بأحد لصوص البحر ليحاكمه، فسأله الإسكندر: لماذا تسرق السفن؟ فأجابه القرصان: أنا أسرق بسفينة واحدة وأسمى لصًا، وأنت تسرق بلدانا بأكملها بواسطة أساطيل ضخمة...ويسمونك فاتحًا.

الواقع أن؛ موضوع الفتوحات الإسلامية واحدًا من المواضيع التي أسالت مدادًا كثيرًا، وتم التطرق له بمنتهى الإسهاب، حيث قام المؤرخون القدماء الذين كتبوا عن تاريخ الإسلام، بوصف دقيق لمراحل هذه الفتوحات وللنتائج التي ترتبت عنها وغيرت تاريخ المناطق المفتوحة وللأبد.[٢] لكن ما يعنينا من عملية التوسع الضخمة هذه والتي امتدت في ثلاث قارات وفي فترة وجيزة جدًا، أنها تمت تحت راية الإسلام وبدافع نشر العقيدة الإسلامية وتحرير الناس من أغلالهم وباختصار ملء الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جورًا.

هذا ما يحلوا للمسلمين أن يدعوه لأنفسهم، لكن القارئ المتمعن للمصادر التاريخية يصدم عندما يكتشف أن الحقيقة عكس ذلك جملة وتفصيلا، سواء في الأسباب الحقيقية لهذه العمليات التي اتخذت طابعًا عسكريًا، أو في النتائج التي أدت إليها. وهو ما ينعكس سلبا على تصورنا لهذه العمليات العسكرية والتي يصطلح عليها بـ "الفتح الإسلامي".

وحينما نتساءل عن دلالات مصطلح الفتح[٣] نجده غامضًا، حيث يبدو من شبه المستحيل التفريق بينه وبين الغزو المسلح في التعاريف المتداولة لمعنى الفتح تجعل منه مرادفا للحرب ذات الأغراض الدينية والتي تهدف إلى نشر الدين وتعاليمه. أما الغزو[٤] فهو عبارة عن هجوم مسلح ضد بلد أجنبي يهدف إلى استعمار هذا البلد واستنزاف خيراته واستغلال شعبه، باختصار إنه الاستعمار بكل معانيه.

---

(١) محمد الكوخي، مقال بعنوان "الفتح الإسلامي أم الغزو العربي".- صحيفة الحوار المتمـدن.- العـدد ١٩٦٩؛ يوليـو ٢٠٠٧. (www.ahewar.org)

(٢) ابن عبد الحكم "فتوح مصر وأخبارها"، الكنـدي "الـولاة والقضـاة"، المقريـزي "المـواعظ والاعتبـار بـذكر الخطط والآثار"، ابن تغري بردي "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، الكندي "فضائل مصر".

(٣) الفَتْحُ : النصر. (الصّحّاح في اللغة)

(٤) غَزَا الشيءَ غَزْواً: أَرادَه وطَلَبَه. والغَزْوُ السيرُ إِلى قِتالِ العَدُوِّ وانْتِهابه. (لسان العرب)

يطلق المسلمون على التوسع الذي قادته القبائل العربية ابتداءً من القرن الأول هجري "الفتح الإسلامي"، لأن أهدافه كانت دينية "نشر الإسلام"، لكننا نندهش عندما نجدهم يرفضون تسمية الحروب الصليبية بـ "الفتح المسيحي" رغم أن أهدافها هي الأخرى كانت دينية (رغم وجود أهداف أخرى سياسية واقتصادية كانت السبب الحقيقي لتلك الحروب)، فالأوروبيون قادوا تلك الحروب لتحرير مناطقهم المقدسة (القدس وبيت لحم) من أيدي المسلمين الكفار.

وهذا النقص في النزاهة نجده عند غربيين أيضاً، والذين يسمون غزو أمريكا وإبادة سكانها بالفتح، والذي تم بمباركة الكنيسة المسيحية وتحت راية نشر الديانة المسيحية، رغم أن الجميع يعرف أن الأسباب الحقيقية كانت هي البحث عن الذهب، ويعرف الطريقة البشعة التي عامل بها المسيحيون سكان أمريكا الأصليين. ولعل نقص النزاهة هذا هو ما كان يقصده القرآن في قوله تعالى: "...وكل حزب بما لديهم فرحون.. " [الروم :٣٢]

وحتى نكون قادرين على الحكم على هذا الموضوع بنزاهة، لابد من قراءة المصادر التاريخية بموضوعية وبعيدًا عن العواطف وإملاءاتها، ولابد من البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا التوسع وعن الممارسات التي قام بها الفاتحون المسلمون "الغزاة العرب" والطريقة التي تعاملوا بها مع سكان تلك المناطق.

ومن أمثلة ذلك؛ ما عرفته بلاد مصر من ممارسات للغزاة العرب والذين كانت أغراضهم الحقيقية هي الغنائم وليس دين الله، فالمقريزي يقول: " أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر إن من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته، وإنّ قبطيًا من أرض الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزا فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه، هل تسمعونه يسأل عن أحد قالوا لا إنما سمعناه يسأل عن راهب في الطور، فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه، ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث إلي بما عندك وختمه بخاتمه فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها ما لكم تحت الفسقية الكبيرة، فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذي تحتها، فوجد فيها اثنين وخمسين إردبا ذهبا مصريا مضروبة فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغي على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس...".[٥]

إن ما فعله عمرو بن العاص هنا يدل على الأغراض الحقيقية التي كانت تحرك تلك العمليات العسكرية الواسعة، ألا وهي البحث عن الذهب، ولنا أن نتساءل عن الفرق بين الفاتحين المسلمين "الغزاة العرب" وبين المستعمرين الآخرين خصوصًا إذا قرأنا ما يقوله

(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.- (ج١، ص١٧)

المقريزي بأن "وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم... " فما هو الفرق بين الروم والعرب؟ للأسف الشديد، لا يوجد فرق.

إن النظريات السياسية التي كانت سائدة في الشرق الأدنى عند الفتح الإسلامي والتي سار عليها الفرس والبيزنطيون تعد البلاد المفتوحة، أرضها وأهلها، ملكا للفاتح يتصرف به كما يشاء، ومَن يزرع الأرض من السكان يدفع ضريبة التاج للمالك للأرض شرعًا وهذا يقابل الخراج. ويدفع كل فرد ضريبة على رأسه كرمز لعبوديته وخضوعه للغالب وهي تساوي الجزية. وهذا ما كان سكان العراق يدفعونه للساسانيين، ولما جاء الإسلام ووضعت التنظيمات المالية زمن الراشدين لم تحدث هذه أي تغيير في الأوضاع، فقد فرضت في العراق ضريبتي الجزية والخراج وبقيتا تحملان معناهما القديم من الخضوع للشعب الغالب. أما في إيران ففرضت ضريبة واحدة عامة تدعى مرة جزية ومرة خراجا وهي بدل الاثنين. ومعنى ذلك أن المغلوبين عدوا طبقة واحدة بنظر المسلمين.[٦]

ومن أجل فهم الأسباب الحقيقية لما يسمى بالفتح الإسلامي، لابد من فهم الظروف التاريخية التي سبقت هذه الظاهرة أيام حروب الردة زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهناك يكمن مفتاح الموضوع برمته، فمن المعلوم أن القبائل العربية كانت قد أسلمت بعد فتح مكة وإسلام قريش، لكن إسلامهم لم يكن سوى خضوع لسلطان رجل قوي وهو الرسول ﷺ وليس اقتناعًا برسالته، وما إن علمت القبائل بمرض النبي وقرب وفاته حتى ارتدت عن الإسلام، فما كان من خليفته أبي بكر إلا أن حاربهم وأخضعهم من جديد.[٧]

وقد نشأ عن هذه الحروب وضع قلق على صعيد الأمن الداخلي، إذ كان من الممكن في أي لحظة أن تنفجر المنطقة ويثور العرب على حكم قريش وحلفائها وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل. وقد ورث عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الوضع غير المستقر بعد توليه الخلافة، ولحل هذا المشكل لجأ إلى حيلة قديمة لطالما استخدمت على مر التاريخ لحل مثل هذه الأوضاع الداخلية القلقة وإنهاء حالة الحرب الأهلية في الجزيرة العربية، وهو الدخول في حرب خارجية مع عدو أجنبي لضمان حالة من الوحدة الداخلية، وهو حل استخدم طوال التاريخ لإخماد النزاعات الداخلية.[٨]

---

(٦) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام.- الطبعة الأولى.- بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥. ص ٧١.

(٧) أسعد القاسم، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة،ص ٧٩. (شبكة الشيعة العالمية: www.shiaweb.org)

(٨) فقد قام الإسكندر الأكبر بغزواته الشهيرة لإنهاء الحرب الأهلية التي كانت تعرفها بلاد الإغريق، والزعيم المغولي جنكيزخان هاجم المناطق المجاورة لبلاده لوقف الاقتتال الداخلي بين القبائل المغولية. وفي العصر الحديث قام نابليون بإشعال حروبه في أوروبا لإنهاء حالة الحرب الأهلية والاضطرابات التي أعقبت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

تحكي المصادر التاريخية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي دشن الفتح الإسلامي، حيث ارتأى بعد توليه الخلافة تجنيد القبائل العربية، قريش وغيرها من القبائل الأخرى سواء تلك التي ارتدت أو التي لم ترتد، على قدم المساواة وتوجيه الجميع لفتح فارس وإمبراطورية الروم. ويؤثر عنه في هذا الصدد أنه قال:" إنه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا (في إشارة إلى الصراع بين قريش والقبائل الأخرى) وقد وسع الله وفتح الأعاجم...واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والإسلام إلا امرأة ولدت لسيدها..وقال عمر، لا ملك على عربي...".[٩] وهكذا قام بندب أهل الردة للفتح " فأقبلوا سراعا من كل أوب فرمى بهم في الشام والعراق..." [١٠]

لكن هذا الحل لحالة الحرب الأهلية العربية والذي دفع ثمنه سكان المناطق المفتوحة، لم يقم سوى بتأجيل حالة الانفجار الداخلي، حيث ستؤدي تراكم الثروات التي حصل عليها الفاتحون "الغزاة العرب" إلى ظهور فوارق كبيرة في الثروة، فقد أدى الإجراء الذي أقدم عليه عمر بن الخطاب بترتيب الناس في العطاء على أساس القرابة من الرسول والسابقة في الإسلام، إلى تكديس الثروة في أيدي مجموعة معينة.

ورغم أنه لاحظ بنظره الثاقب، هذه الأمور وقام بمجموعة من الإجراءات للتخفيف من حدة هذه الفوارق، إلا أن عجلة التاريخ كانت أكبر منه ومن إجراءاته "الترقيعية"، فسارت الأمور إلى نتيجتها المنطقية وهي الانفجار الداخلي للمجتمع الإسلامي وظهور ما يعرف بـ "الفتنة الكبرى"، والتي أودت بحياة اثنين من الخلفاء الراشدين، عثمان بن عفان رضي الله عنه والذي دفع ثمن إجراءات عمر، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي حاول أن يوقف عجلة التاريخ ويعود بالزمن إلى الوراء، لكنه دفع حياته ثمنًا لذلك.

وانتهت الأمور في النهاية إلى الأمويين الذين جعلوا من الدولة الإسلامية إمبراطورية استعمارية كبيرة تقوم على استنزاف الشعوب الأخرى واستغلالهم تحت شعارات نشر الدين الإسلامي والجهاد في سبيل الله.[١١]

(٩) الطبري، تاريخ الأمم والملوك.(الجزء الثاني، ص ٣٠٤)

(١٠) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٦٢.

(١١) يُذكر أن الأمويين أبعد المسلمين ـ من الناحية الشرعية ـ عن تولى خلافة رسول الله ﷺ ولكنهم ــ مع هذا ــ قد ارتفعوا إلى مستويات الحكم في البلاد الإسلامية نتيجة للأساليب الفاسدة التي استعانوا بها في هذا المضمار. فلا عجب أن رأيناهم يستعينون بالأساليب الفاسدة أيضا لتثبيت قواعد حكمهم الممقوت. والتي تتلخص في: إتباعهم سياسة الشدة واللين ، والكذب على الله وعلى رسوله وعلى المسلمين. راجع:
نوري جعفر، الصّراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام/ تقديم د. حامد حفني داود.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مطبعة دار المعلم للطباعة، ١٩٧٨. (مطبوعات النجاح بالقاهرة، نسخة إلكترونية: www.rafed.net)

فتح مصر في الفكر العربي [١٢]

عادةً نجد هذه الشبهة تتصدر بعض كتابات المستشرقين، مخالفين بها ما أثبته التاريخ، ومخالفين بها أي روح موضوعية، وهي الاعتراض على وصف مصر بالدولة العربية، وإلغاء هوية مصر وتاريخها من أجل عدة آلاف من العرب قاموا بغزو مصر بقوة السلاح من ١٤٠٠ سنة؟!!

إن الاختلاف حول لفظ "الفتح" أو "الغزو" يتوقف على الجانب الذي نقف فيه، لكن إذا مررنا بالأحاديث النبوية التي تكلمت عن مصر، واخترنا منها هذا الحديث:"إنكم ستفتتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة و رحما، أو قال: ذمة و صهرا" صدق رسول الله ﷺ، والحديث وارد بصحيح مسلم. وبهذا الحديث، فليس لفظ الفتح لعباً بالألفاظ من أحد.[١٣]

في الحقيقة؛ إن المنصفين من المستشرقين قد استخدموا نفس المصطلح"الفتح" في وصفهم لدخول العرب لمصر، ويمكن مراجعة بعض الكتب الشهيرة في هذا المجال مثل:" فتح العرب لمصر" للدكتور ألفرد بتلر،"الدعوة إلى الإسلام" لتوماس أرنولد، "حضارة العرب" لجوستاف لوبون، وغيرهم. والغريب أن المنصفين من كتاب الغرب لم يتجنوا على الفتح العربي بمثل ما نتجنى نحن عليه، وإذا قارنا بين سلوك العرب في مصر، و سلوك أي غازي، يتضح الفرق، والتاريخ يشهد بذلك.

المشكلة ليست في الألفاظ" فتح أو غزو" بقدر ما هي مشكلة في المفهوم، فوصف الفتح بأنه عربي هو وصف مبتسر، بل وعنصري، فالعرب الفاتحين في هذا الوقت لم يكونوا ينظرون لأنفسهم على أنهم عرب يحاربون قوميات أخرى، بل على أنهم مسلمون يحملون رسالة إلى بقية الأمم، ومسئولية هي: "إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد" [١٤].

عند التحدث عن العرب الفاتحين، هل ننسى أنهم صحابة رسول الله ﷺ و هل ننسى أن منهم عمرو بن العاص وعبادة بن الصامت والزبير بن العوام وأبى الدرداء و غيرهم. إن بعض المستشرقين المغرضين يصرون على الوصف العنصري "الفتح العربي"، ليكون هذا مقدمة لشيء أبعد وهو الطعن في الفاتحين، ثم نتبعهم بحسن نية وننسى أننا بهذا نطعن في صحابة الرسول ﷺ الذين حملوا إلينا الرسالة.

---

(١٢) محمد علي، مقال بعنوان "العرب ومصر: فتح أم غزو".- مدونة مسلم من مصر.- منشور بتاريخ ٢١ يوليو ٢٠٠٨. (http://muslim-from-egypt.blogspot.com)

(١٣) ورواه مسلم في صحيحة (٢٥٤٣) وابن حبان في صحيحة (١٥/ رقم٦٦٧٦) وأحمد في مسنده (٥/ ١٧٣) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٠٦) من حديث أبي ذر الغفاري: قال رسول الله ﷺ "إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط".

(١٤) جمال عبد الهادي، فتح مصر، ص ٢٩ – ٣٠.

لقد تعرضت مصر خلال تاريخها الطويل إلى الاحتلال من قوى وحضارات مختلفة (الهكسوس، والآشوريين، والنوبيين والليبيين، والفرس، ثم الإغريق، وبعدهم الرومان) ومع كل هؤلاء، لم يتغير لسان مصر، و لم يعتنق المصريون أديان الغرباء، بل إن من الغرباء مَن عبد آلهة المصريين، مثل البطالمة. لقد دخلت الديانة المسيحية مصر واعتنقها المصريون قبل أن تصبح ديناً سائداً للإمبراطورية الرومانية، وحتى بعد ذلك لاقى المصريون منهم أقسى صنوف الاضطهاد بسبب اختلاف المذهب، ولم يغير المصريون مذهبهم.

ومع الفتح الإسلامي تحرر المصريين من ظلم الرومان، وعاد العدل إلى الأرض، فاعتنق الإسلام مَن اعتنق، و ظل الباقي على دينه إلى يومنا هذا. وصارت مصر عربية الهوية في نهاية المطاف، فقد قبلت مصر الإسلام مصحوباً بالعروبة، التي هي هوية أكثر منها بجنس.

الواقع أنه؛ بتحرير قضية الفتح في النظر الإسلامي فإن التاريخ ليس مرعا ولا هو حجة علي المسلمين يحاكون به أو يحتكمون إليه، وذلك لسبب جوهري هو أن المرجعية في الإسلام هي للقرآن الكريم والسنة أولاً وأخيراً، والسؤال الخطأ هو ماذا فعل هذا الخليفة أو ذاك الوالي بالأقباط أو المسلمين، بينما السؤال الصحيح هو ذلك الذي يتحرى موقف القرآن الكريم والسنة من كرامة الإنسان بعامة ومن غير المسلمين خاصة، ذلك أن التعاليم هي التي تحاكم التاريخ وليس العكس وإلا أسأنا إلي المسيحية مثلاً من جراء فظائع محاكم التفتيش[١٥] أو إبادة الهنود الحمر[١٦] والتفرقة العنصرية في أمريكا الشمالية[١٧] أو مذابح المسلمين في البوسنة[١٨]، والأولي باشرها رجال دين من الكاثوليك، والثانية باركتها وغذتها الكنيسة البروتستانتية، والأخيرة أيدتها الكنيسة الأرثوذوكسية في صربيا واليونان.

وعلى الرغم من ذلك؛ فإننا لا نكاد نجد في تاريخنا ما نخجل منه أو نعتذر عنه، صحيح أنه لم يكن تاريخ ملائكة ولم يخل من مظالم لحقت حينا بالشعب كله من مسلمين فيه وأقباط وأصابت الأقباط في حين آخر، لكن كل تلك البقع السوداء لم تكن سوي شذوذ واستثناءات ندينها ولا ندافع عنها ونعتبرها افْتِئانا علي حق الله قبل أن تكون ظلماً لبعض الناس.

---

(١٥) نشطت محاكم التفتيش في القرنين (١٥،١٦)، وكانت مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم. راجع:
أشرف صالح محمد، أصول التاريخ الأوربي الحديث.- الطبعة الإلكترونية الأولى.- الدوحة: دار واتا للنشر الرقمي، ٢٠٠٩. ص ١٢٧ – ١٢٩. (www.wata.cc)

(١٦) برتولومي دي لاس كازاس، المسيحية والسيف: وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية / ترجمة سميرة عزمي الزين.- منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية (مكتبة المهتدي لمقارنة الأديان: www.al-maktabeh.com)

(١٧) قمت مشكلة التفرقة في القارة منذ القرن (١٧) حيث أدخل الأوربيون الزنوج الذين تم جمعهم من أفريقيا للعمل كعبيد في مزارع القطن والقصب، وعانوا كثيراً من التفرقة العنصرية حتى حصلوا على حق المساواة مع البيض.

(١٨) في ١١ يوليو ١٩٩٥، قام جيش صرب البوسنة باجتياح مدينة سربيرنيتشا شرقي البوسنة، حيث قتلت قواته أكثر من ثمانية آلاف من الرجال والأطفال المسلمين على مدار أسبوع، وذلك في عملية إبادة.

وفي ظل المسار العام للتاريخ، فإننا نسجل أن بعض المسلمين كانوا يحسدون النصارى علي ما كانوا يتمتعون به من جاه وعز، حتى أن أحد الشعراء في عصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله عبر عن ذلك الشعور في قصيدة قال في مطلعها: [١٩]

تنصــر فالتنصــر ديــن حــق *** عليــه زمانـنــا هــــذا يــدل
وقــل بثلاثــة عــزوا وجلــوا *** وعطّـل مـا ســواهم فهـو عُطـلُ
فيعقـــوب الـــوزير أب وهـــذا *** العزيز أبـن وروح القـدس فضـل

بل إن أحد المسلمين كتب تظلم إلي الخليفة قال فيه: "بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسي بن نسطورس(الأول كان نائبه في الشام والثاني كان من وزرائه)، وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتي؟" [٢٠]

وفي كل أحواله؛ فالتاريخ حمال أوجه خصوصًا إذا كنا نتحدث عن رحلة بطول أربعة عشر قرناً بحيث أن كل واحد يستطيع أن يجد فيه بغيته، مع الانتباه إلي أنه ليس كل ما ورد في كتب التاريخ يعد تاريخاً حقيقياً يعتد به، ومن حسن الحظ أن المسلمين ابتدعوا علمًا فريداً باسم "الجرح والتعديل" يمكن الباحث من تقييم عدالة جميع الرواة، ومن ثم تحديد مدي مصداقية كل منهم والوقوف فيما نقل عنه، غير أن أصحاب تلك الكتابات السوداء عن الحكم الإسلامي لمصر يغفلون عملية التحري هذه بقصد أو بغير قصد، ومع الأسف إن نسبة غير قليلة من المؤلفات التي شوهت صورة الفتح والحكم الإسلامي لمصر اعتمدت علي الوقائع المجرحة وبعض المؤرخين المتعصبين، الذين افتقدوا النزاهة والموضوعية.[٢١]



Jimmy Dunn, The Taking of Egypt

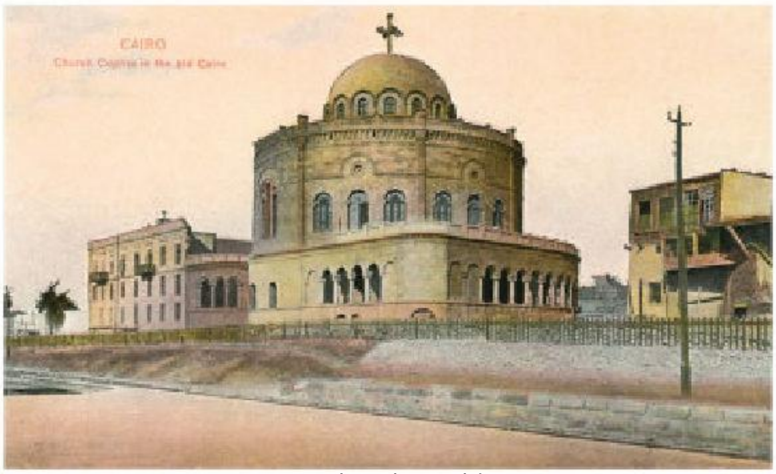
(١٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ.- دار الكتاب العربي، ١٩٩٧. (الجزء السابع، ص ٤٧٦)
(٢٠) المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. (نسخة إلكترونية : www.al-eman.com)
(٢١) فهمي هويدي، مقال بعنوان " قدرنا أن نعيش معاً!" .- جريدة الأهرام.- العدد ٤٠٩٠٢؛ ١ ديسمبر١٩٩٨.

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ سؤال هام وهو ماذا كان يحدث لمصر لو لم يأتها الفتح الإسلامي؟ وهو سؤال ضروري للغاية لمن يريد أن يقيم الفتح الإسلامي لمصر تقييمًا نزيها مخلصا مبرءًا من الأغراض؛ لأن الفتح الإسلامي كان ذا أثر عظيم على مصر، وكان علامة فارقة في تاريخها، والباحث المنصف يرى أنه لو لم يأتِ الفتح الإسلامي لمصر:[٢٢]

(١) لظلت خاضعة للدولة البيزنطية تُعاني من الاضطهاد والظلم، ولهجر أبناؤها أرضها فخربت، ودبت المجاعات وعصفت بأهلها، ولتداولت عليها أيدي الدول الاستعمارية الظالمة يخطفها مستعمر من مستعمر، يذيقونها العذاب ألوانًا، وينهبون خيراتها ويخربونها ليعمروا أوطانهم، ولتجرع المصريون كأس المهانة والذل، ولانتهى بهم الحال إلى بيع أبنائهم وأعراضهم ليسددوا الضرائب الجائرة، واستمر القتل والسجن والتعذيب والفتنة في عقيدتهم إكراهاً لهم على إتباع ديانة غيرهم. لكن الإسلام أتاها فأضاء جنباتها بنوره، وأنقذ أبناءها، كما حماها من الاستعمار قرونًا عديدة نَعِمَتْ خلالها بسماحة الإسلام.[٢٣]

(٢) لحُرِمَ الأقباط من ممارسة شعائرهم الدينية وحقوقهم، ولظل الإسلام قابعًا في الجزيرة العربية ولم يستضيء بنوره أهل أفريقية وبلاد الأندلس.

(٣) لأصبحت مصر بؤرة من بؤر محاربة الإسلام، ولحُرِمَ أبناؤها من ثواب الرباط إلى يوم القيامة.



Coptic Church in Old Cairo

---

(٢٢) راغب السرجاني، أثر الفتح الإسلامي على أوضاع الأقباط.- موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ٥ فبراير ٢٠٠٨ على الرابط: (www.islamstory.com)

(٢٣) قال صاحب القداسة البابا شنودة: "إن الفتح الإسلامي لمصر كان بداية الأمان للأقباط، وإنهاء لعصور الاضطهاد الديني التي عانوا منها تحت حكم الرومان وغيرهم". قالها البابا شنودة أثناء الاحتفال بالعيد الذهبي لكنيسة مار مينا بالإسكندرية في ٢١ نوفمبر ١٩٩٨ والذي تزامن مع مناسبة مرور٢٧ عاما علي توليه كرسي البابوية.

دوافع الفتح الإسلامي لمصر

كان فتح مصر بخطة محكمة ودراسة مسبقة راجع إلى عدة عوامل:

١ - الدافع الديني:

يتمثل هذا الدافع في رغبة المسلمين في الاضطلاع بأعباء الدعوة الإسلامية العالمية، وضرورة أداء أمانة تبليغها إلى العالمين لإبراء الذمة أمام الله عز وجل { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (المائدة: ٦٧).

وقد سبق للمسلمين في عهد الرسول ﷺ دعوة المقوقس إلى الإسلام سلميا، فقد أرسل له النبي ﷺ الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة، وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه أرسل إليه حاطبًا مرة أخرى، وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه كعب بن عدي بن حنظلة التنوخي، فما كان من المقوقس إلا أن اكتفي بالرد الحسن.

لقد اعتقد المسلمون أن مقتضيات الإسلام توجب على المسلمين تحرير الإنسان والديار والثروات من قبضة الروم المغتصبين، سفاكي الدماء ومنتهكي الأعراض، وإن أي تراخ في دفع العدو يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة، خاصةً أن هذا العدو لا يعرف معنى للحياة بدون الغدر وسفك الدماء وامتصاص دماء الآخرين وثرواتهم.[٢٤]

ولما كانت مصر خاضعة للإمبراطورية البيزنطية كان من الضروري مواجهة جند هذه الإمبراطورية على أرض مصر؛ ذلك أنهم يحولون بين المصريين وبين الدخول في الإسلام. لقد تطلع المسلمون إلى فتح مصر بعد ورودها في كثير من المواضع في القرآن الكريم عند التعرض لقصص الأنبياء الأولين،[٢٥] وتبشير النبي ﷺ صحابته بفتحها وتنويهه بجندها، وتوصيته بأهلها خيراً، ومن أجل ذلك كله حرص المسلمون على فتحها.

---

(٢٤) جمال عبد الهادي، فتح مصر، ص ٣٠.

(٢٥) ورد ذكر مصر في القران الكريم تصريحا في خمسة مواقع هي:
{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]. {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١]. {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩]. {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧]. {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف: ٥١]

٢- الدافع العسكري:

كان هذا الفتح طبيعيا لأن مصر هي الامتداد الطبيعي الجنوبي لفلسطين، كما أن فتح ما فُتِحَ من مدن فلسطينية قد أجهد البيزنطيين، ولابد من ضربة قاصمة لوجودهم في هذه الأماكن الجنوبية.ومن ناحية أخرى؛ فإن أرطبون قائد بيت المقدس قد انسحب منها بنظام إلى مصر لإعادة المقاومة، ودفع المسلمين عن الشام ثانية، ولذلك استدعى الأمر مباغتة هؤلاء والإيقاع بهم قبل تزايد خطرهم واستعمال قوتهم.

كما أن الاستيلاء على ما في مصر من ثغور وسفن سوف يمكّن المسلمين من إخضاع مدن الشام الشمالية الواقعة على البحر المتوسط، والتي كانت لا تزال تقاوم المسلمين، ففتح مصر ضرورة حربية ملحة تكميلاً لفتح بلاد الشام؛ لأن الإمبراطورية البيزنطية كانت تسيطر على الشام ومصر وبلاد المغرب، وتلك البلاد -عسكريا- تعد منطقة واحدة؛ إذ أن فتح جزء منها يستلزم فتح الأجزاء الأخرى نتيجة للتعرض للصدام مع عدو واحد يحتلها.

وكذلك كان من الممكن عند إغفال فتح مصر مهاجمة البيزنطيين دار الخلافة عن طريق البحر الأحمر، فتهبط قواتهم إلى ميناء جدة أو الجار، وتتم مهاجمة الحجاز. وكان من دواعي فتح مصر أيضا أن البيزنطيين حاولوا استرداد الشام من المسلمين، وأرادوا عرقلة جهودهم للتوجه جنوبا، وهاجموهم من شمال الشام، فشعر المسلمون أنهم محاصرون بين قوات بيزنطة في آسيا الصغرى وقواتهم في مصر.

أضف إلى ذلك؛ سهولة فتح مصر الذي لن يكلف العرب المسلمين سوى القليل من الأرواح والأموال؛ لقلة التحصينات بها. كما أن معرفة عمرو بن العاص رضي الله عنه لمصر ودرايته بها، وهو القائد المختار لفتح البلاد، وَفَّرَ على المسلمين كثيرا من المعاناة والتكاليف.

زد على ذلك؛ أن أغلب الجند الذين اشتركوا في الفتح كانوا من العناصر اليمنية، وأغلبهم من قبيلتي غافق وعك على وجه الخصوص، وهؤلاء اليمانية مهروا في قتال الحصون الساحلية، واشتركوا مع عمرو في فتح الحصون ببلاد الشام، فهم أقدر الناس على فتح مصر ومعالجة شئونها العسكرية، كما كانوا على دراية ببناء المدن واختطاطها، والإلمام بالزراعة، فهم من هذه الناحية العسكرية أقدر الناس على تفهم أمور مصر ومعالجة شئونها.[٢٦]

---

(٢٦) الموسوعة الإخوانية، مادة فتح مصر.- منشور بتاريخ ٩ أبريل ٢٠٠٨ على الرابط:
(http://www.ikhwan.net/wiki/index.php)
كما أن فتحها كما أخبر عمرو بن العاص يمكن أن يكون للمسلمين عونًا لهم لكثرة خبراتها، ويهيىء قاعدة آمنة لفتح الأندلس وما ورائها. أنظر: جمال عبد الهادي، فتح مصر، ص ٢٩ – ٣١ .
السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب: تاريخ الدولة العربية.- الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة. (الجزء الثاني، ص ٢١٢ وما بعدها).

٣- الدافع السياسي الاقتصادي:

وهو يتعلق بما تَجَمَّع لدى المسلمين من معلومات عن أوضاع مصر السيئة في ظل حكم البيزنطيين، وما تَرَدَّتْ إليه أوضاعها الاقتصادية نتيجة المظالم المادية، والنهب المنظم لثروات البلاد لصالح الغرباء عنها.[٢٧] ويُضَافُ إلى ذلك الصراع الديني المذهبي الذي أَجَّجَ العداوة والأحقاد بين عامة الشعب من القبط، وبين البيزنطيين.

لقد أدرك المسلمون ذلك كله، وأدركوا معه غنى مصر وثراءها، وعلموا أن ضمها إلى بلدان الإسلام يضمن انتعاشا في اقتصاد المسلمين، ويوفر لهم الأموال التي تساعد على مزيد من الفتوح، إضافةً إلى أن مصر كانت مركزا رئيسيا لتمويل بيزنطة بالقمح، ومع انهيار الجيش البيزنطي، وما حَلَّ بمصر من ضعف وانقسام كانت الفرصة مواتية للإقدام على فتح مصر.[٢٨]

الواقع أن؛ اتساع رقعة الإمبراطورية العربية شرقًا وغربًا قللت من شأن العامل الديني، حيث تغيرت سياسة قواد العرب تغييرًا شاملاً بعد اتصالهم بالعالم الخارجي، فتدل وقائع الفتح على أن العرب أخذوا يعملون على التوفيق بين مبادئهم الدينية وغاياتهم العسكرية والاقتصادية، وأن حروب الجهاد لم تعد سببًا للفتح، بل أصبحت نتيجة له.[٢٩]

دور الأقباط في دخول العرب لمصر

يجمع المؤرخون على أن موقف الأقباط من العرب الغزاة كان سلبيًا، بمعنى أنهم لم يعاونوهم ولم يعادوهم، فلا يمكن القول أن الأقباط استقبلوا العرب كمحررين لبلادهم لأنهم يجهلونهم ويجهلون نواياهم.كما أنهم لم يعاونوا الروم إلا بالقدر الذي يضطرهم إليه خضوعهم لسلطة قيصر.[٣٠] كما يمكن تلخيص موقف الأقباط من العرب الغزاة - حسب قول الأب جانو- أنهم لم يقوموا بأي مجهود بوقف الكارثة (الغزو) ولكنهم احتموا خلف أسوار المدن التي لم يجرؤ العرب على اقتحامها وانتظروا هجومهم عليها.[٣١]

---

(٢٧) الموسوعة الحرة: ويكيبيديا، مادة الفتح الإسلامي لمصر.- على الرابط: (http://ar.wikipedia.org)

(٢٨) راغب السرجاني، دوافع فتح مصر.- موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ١٨ يونيو ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.islamstory.com/article.php?id=707)

لم يكن أهل مصر على وفاق مع السلطة البيزنطية التي كانت تحكم بلادهم قبل مجيء العرب، وكان مما سبب ذلك فداحة الضرائب التي كانت تفرضها الدولة البيزنطية عليهم، بالإضافة إلى تسلطها وقسوة حكمها، وكانت تلك الممارسات تشكل إرهاصات متعاقبة مهدت لترحيب الأقباط بالفتح الإسلامي لبلادهم لكونه خلصهم من ظلم البيزنطيين الرومان. ورغم أن هدف المسلمين الأول من فتح مصر هو نشر رسالة الإسلام إلا أنهم لم يفرضوا الإسلام على الأقباط، وهو ما جعلهم محافظين على دينهم حتى هذه الأيام.

(٢٩) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٢٢ – ٢٦.

(٣٠) محمد حسين هيكل، الفاروق عمر.- الطبعة الخامسة.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢. (٢ جزء في مجلد واحد)

(٣١) جاك تاجر، المرجع السابق، ص ٤٧.

لم يطمئن العرب إلى الأقباط ولم يعلنوا توجهاتهم لهم وذلك لجهلهم بلغتي الشعب اليونانية والقبطية، ورغم أنهم لم يكونوا شديدي الوحشية في قتالهم، إلا أن زحفهم لم يخل من أعمال مشينة وحركات قمع دامية. يذكر الأسقف حنا النقيوسي بعض الأعمال الوحشية التي قام بها العرب أثناء زحفهم على المدن المصرية مثل: أمر عمرو بن العاص بالقبض على القضاة الرومان وتكبيل أيديهم وأقدامهم بسلاسل حديدية وأوتاد خشبية وقتلهم ومصادرة أموالهم، كذلك اغتصاب أموال المسيحيين ومضاعفة الضرائب على الفلاحين، والاحتفال بالمرتدين عن المسيحية والقيام معهم بالاستيلاء على أملاك المسيحيين ونعتهم بلقب أعداء الله.[٣٢]

وهناك مَن يرى أن الأقباط أقبلوا على الفتح الإسلامي لمصر بسبب حرية العقيدة وعدالة الضرائب، فالجزية التي تم فرضها على الأقباط عقب فتح المسلمين لمصر كانت تعادل دينارين، وهي ضريبة مقابل الانتفاع بالمرافق العامة التي تنشئها الدولة الإسلامية وكجزء من نفقات الجيوش التي تدافع عن المسيحيين، كما لم يكن يدفعها سوى ٧٥٪ من الأقباط لأنه يُعفى منها النساء والشيوخ والأطفال وغير القادرين، مما ترتب على ذلك مساعدة الجيوش الإسلامية أثناء مسيرها من العريش إلى الإسكندرية.

فقد كان الأقباط يضمرون كرهاً وحقدًا لدولة البيزنطيين، والسبب في ذلك ظلم الضرائب التي وصلت إلى خمس وعشرين نوعاً وفرضوها لتغطية حروبهم الدائمة مع الدولة الفارسية، ويضاف إلى ذلك الاضطهاد الديني الموجه للمسيحيين الأرثوذكس وهم غالبية أبناء مصر الأقباط، ولذا تعهد الأقباط باستضافة المسلمين ثلاثة أيام إذ ما نزلوا عليهم حتى يرحموهم من ظلم الدولة البيزنطية.

لقد كانت كل الأقاليم الواقعة تحت الحكم البيزنطي في حالة من الضياع والفقر ترزح تحت ترسانة من الضرائب، ولم يكن أهل البلاد خاصةً في مصر الطبقة السفلى في النظام الاجتماعي، بينما الطبقات العليا المكونة من الرومان ليس لهم إلا غرض واحد هو ابتزاز المصريين حتى آخر درهم، وهو ما يفسر مساعدة الأقباط للمسلمين في فتح مصر، كما أن تقدير الضرائب كان يتم حسب ظروف الإمبراطورية في العام الذي تقدر فيه، يضعها الإمبراطور مع مستشاريه وفقاً للحروب التي ستدخلها الدولة أو نفقات العمران التي تحتاجها، أو القصور التي سيبنيها الإمبراطور لنفسه، فوصلت الضرائب إلى (٢٥) نوعًا في الدولة البيزنطية.[٣٣]

---

(٣٢) الأب أنطون فؤاد، الأقباط تحت الحكم الإسلامي: الجزء الأول.- موقع كنيسة الإسكندرية الكاثوليكي.- متاح بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٩ على الرابط: (www.coptcatholic.net)

(٣٣) نبيل لوقا بباوي، الأقباط: هل ساعدوا المسلمين في فتح مصر/ تقديم الشيخ علي عبد الباقي.- الطبعة الأولى.- القاهرة ٢٠٠٩. (٢٣٨ صفحة)

الجدير بالذكر؛ أن الأقباط كانوا بمعزل عن الأحداث من قبل الفتح بستة قرون بعد سيطرة الدولة الرومانية وقهرها لأهل البلاد، وهو الأمر الذي بلغ مداه قبل وصول الجيوش الإسلامية علي أبواب مصر بعد محاولات من الحاكم لتغيير ملة ومذهب الأقباط وتحويلهم إلي المذهب الملكاني، وهو ما فشل فيه فشلاً ذريعًا مما دفعه إلي تخريب الكنائس والأديرة الخاصة بالأقباط، وأصبح الجو مهيئًا لاستقبال الوافد الجديد، خاصةً مع وجود العديد من الطوائف والمذاهب التي كانت خارجة علي الكنيسة الأرثوذكسية ووجدت نفسها تتفق مع تعاليم الإسلام، فدخلوه بإرادتهم الحرة خاصةً أن الإسلام كان لا يجبر أحدا علي الدخول فيه، فكان يضع في المقدمة الدخول في الإسلام أو الجزية، أو الحرب.

وكانت شروط الجزية غاية في التيسير، فكان يُعفي منها من يعاني من الفقر أو المرض أو كبر السن، وكانت لا تمثل شيئا بالنسبة لما كان يدفعه الأقباط للرومان، وشعر الأقباط بالأمان مع قدوم القوات الإسلامية بعد أن أدركوا أنهم لا يخططون لإخراجهم من دينهم ولن يرهقوهم بالضرائب الباهظة، والدليل علي ذلك أنه حتى نهاية العصر الفاطمي لم يدخل في الإسلام من أقباط مصر أكثر من ٢٠٪ منهم.[٣٤]

ومما لا شك فيه؛ أن القبط لم يعاونوا الروم في قتال العرب إلا بالقدر الذي يضطرهم إليه خضوعهم كارهين لسلطان قيصر وعماله. ولكن لا شك كذلك في أنهم لم يعاونوا العرب، إلا أن تكون معاونات فردية. أما فيما وراء ذلك، فقد وقف شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف المتفرج شديد التطلع. ولما كان الشعب قد أفسدته العبودية، فكان يتحمل سادته بشيء من عدم المبالاة، ولله الأمر في اجتياح الفرس لبلادهم وخروجهم منها، وفي عودة الرومان إليها ونزوحهم عنها، وفي دخول العرب إليها وبقائهم فيها.[٣٥]

(٣٤) دكتور محمد الششتاوي أستاذ الآثار الإسلامية والقبطية: مجلة آخر ساعة.- العدد ٣٩١٢؛ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

(٣٥) الراهب القس أثناسيوس المقارى، الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها.-الطبعة الأولى. - القاهرة: مكتبة مجلَّة مرقس، ٢٠٠٧. (الجزء الثَّاني: كنيسة مصر، ص ١٦٤)

يقول د. محمد عمارة في سلسلة مقالاته: "الحروب الدينية والأديان السماوية" (الحلقة ١٠) "إن الفتح الإسلامي لمصر جاء لإنقاذ المسيحيين فيها من ظلم المسيحيين الغربيين من الرومان وإعادة ممتلكاتهم وأديرتهم وإطلاق سراح أنبا مصر من السجن وإعادته إلى كرسيه على رأس الكنيسة المصرية". الذي يقرأ هذا الكلام يهيأ له أن قبط مصر اجتهدوا في إرسال الرسائل وكتابة المكاتيب طالبين نجدة العرب مما هم فيه. ولشدة إلحاحهم وكثرة لجاجتهم قررت دولة الخلافة، عملا بحقوق الجيرة والمحبة الأخوية والتضامن الإقليمي، أن تضحي بالغالي قبل الرخيص لتمد لهم يد المساعدة!! وهنا لابد من التأكيد على أن تناحر النصارى مع بعضهم هو أمر معروف، تختلط في أسبابه النزاعات العقيدية والنزعات الوطنية. ولعل ما يتردد في كتابات المؤرخين المسيحيين أمثال يوحنا النقيوسي يعطي فكرة عن عمق تأثير تلك الصراعات على الضمير العام، إذ يكرر أن ما حدث من هزائم ومصائب وإذلال على أيدي العرب فيما بعد كان من قبيل العقاب السماوي بسبب خيانة مبادئ المسيحية واللجوء إلى العنف [إذ ليس عند الله محاباة].

عادل جندي، مقال بعنوان "الثور الناطح والبقرة الحلوب".- جريدة إيلاف.- ١٧/ ٧/ ٢٠٠٤.(www.elaph.com)

فتح مصر في حوليات العرب

تاريخ غزو العرب لمصر غامض في كثير من النواحي؛ وهذا يرجع إلى أن العرب لم يبدءوا في تدوين تاريخهم إلا بعد قرنين أو أكثر.[٣٦] ومن الغريب؛ أن حوليات العرب بشأن فتح مصر، وهي التي تم تجميعها في القرن التاسع، يرد فيها بكثرة التساؤل عن: هل فُتحت "صلحا" أي استسلمت بدون مقاومة، أم "عنوة" أي أُخضعت بالقوة.

والسؤال من ناحية المبدأ لم يكن ينبغي أن تكون له أهمية كبيرة، فمصر قد عرفت أثناء الغزو، كما سجل التاريخ، وكما هو الحال في معظم الغزوات، كل الأشكال: من التحارب والمذابح وأخذ الأسرى والنهب والسلب، وقد انتهى الأمر بمعاهدة صلح فرض فيها الغزاة شروطَهم على السكانِ الأصليين، وتم الصلح في ٦٤١م مع الاستسلام الأول للإسكندرية.[٣٧]

ولكن مجرد طرحِ التساؤل دليلٌ على أن الأمر لم يكن أمر "تحرير"، كما ينفي أكذوبة معاونة القبط للعرب على غزو مصر التي يرددها البعض، فالغالب أن معظم القبط- كما يقول المؤرخ البريطاني بتلر- أخذوا في النهاية موقفا يميل "للحياد" بين العرب وجيش البيزنطيين.

على أي حال؛ لم يكن ذلك النقاش لدواعي الدقة والأمانة "التاريخية"، بل كان يجري في إطار تطبيق الشريعة؛ فبحسب ما كانت منطقة ما تعتبر مأخوذة عنوة بدون معاهدة، أو استسلمت بدون مقاومة كبيرة، كانت التبعات تختلف بشأن السكان وأولادهم وممتلكاتهم وبيوتهم وأراضيهم وكذلك نوع ومقدار الضرائب المفروضة.

ويخصص ابن عبد الحكم فصلين كاملين في كتابه "فتوح مصر" للموضوع، ويبدو أن الإجابات التي أوردها على التساؤل كانت متناقضة بحسب المصدر، والرغبة في الحفاظ على حقوق معينة. فالأقباط مثلا يؤكدون أنها فُتحت صلحًا، من أجل الدفاع عن الحقوق المكتسبة والمنصوص عليها في معاهدات الصلح؛ والعرب يؤكدون أنها فتحت عنوة، لتبرير نتائج "حق الغزو"، أي مزيد من النهب والسلب.

وقال ابن عبد الحكم: [.. أنبأنا (...) أن أبا حيان أيوب بن العالية حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول: لقد قعدتُ مقعدي هذا (أي على كرسي الولاية) وما لأحد من قبط مصر عهد ولا عقد ألا أهل أنطابولس (المدن الغربية الخمس)، فإن لهم عهدا يُوفَي به"... وزاد: "إن شئتُ قتلت، وإن شئتُ بعت". وأخرج عن ربيعة حفيد عمرو: قال:" فُتِحت مصر بغير عهد ولا عقد وأن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شيء نظرا للإسلام وأهله"...]

(٣٦) ستانلى لينبول، سيرة القاهرة.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١.ص٤٥

(٣٧) فتح مصر.- مفكرة الإسلام.- متاح بتاريخ ٥ أكتوبر ٢٠٠٩ على الرابط: (www.islammemo.cc)

ويلخص القضاعي في كتابه "خطط مصر" قصة الفتح حتى يصل إلى [..وتكلموا في أمر الصلح فبعث عمرو بعبادة بن الصامت.. فصالحه المقوقس على القبط والروم على أن للروم الخيار في الصلح إلى أن يأتي كتاب مَلِكُهُم... أما القبط فبغير خيار. قال: وكان الذي انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس من البالغين شريفهم ووضيعهم دون الشيوخ والنساء والأطفال، على أن للمسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم، وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون في شيء منها أبد.... قال الليث أقام عمرو بالإسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر.. ولم يكن بها تخطيط (أي بدون توزيع) وإنما كانت أخائذ من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنوه وبنو بنيه].(٣٨)

لقد أثارت مسألة فتح مصر مناقشات حادة حيث أكد البعض أن البلاد فُتحت بصلح، ورأى البعض الآخر أن البلاد فتحت عنوة، بينما انضم فريق ثالث إلى الرأي الأول ولكن بشيء من التحفظ. وقد رأى نهائيًا بعض الفقهاء أنه من الأوفق أن يصرحوا أن مصر فُتحت صلحًا فيما عدا قرى "سلتيس"، "مازيل"، "بلهيت"، وأيضًا مدينة الإسكندرية التي قاومت الفتح. ويتضح من ذلك أن المسألة لم تحل إلى الآن، والذين يدعون أن مصر فتحت صلحًا رجحوا رأيهم لأسباب حربية وسياسية واقتصادية ولجئوا إلى الفقهاء لإثبات صحة نظريتهم.(٣٩)



(٣٨) عادل جندي، مقال بعنوان "التفسير الجحاوي للتاريخ (٢)".- جريدة إيلاف: يومية - إلكترونية.- منشور بتاريخ ١٧ يوليو ٢٠٠٤ على الرابط: (http://www.elaph.com/ElaphWriter/2004/7/597.htm)

(٣٩) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٦٩ – ٧١.

أوضاع الأقباط إبان الفتح العربي لمصر

كان عدد الأقباط في مصر وقت الفتح العربي ستة ملايين قبطي[٤٠]، وقيل خمسة وعشرين مليوناً أو نحو ثمانية عشر مليوناً فقط[٤١].وعموماً فإن تعداد الأقباط لا يجب أن يمثل أهمية كبرى، لأن عظمة الأمم لا تقاس بعدد أفرادها.[٤٢]

في الحقيقة؛ لقد تعرض الأقباط في مصر قبل الفتح الإسلامي لاضطهادٍ قاسٍ على أيدي البيزنطيين، ومن ثَمَّ رأوا في القوة الإسلامية الداخلة، الأمل بالخلاص مما هم فيه فساندوها، ورحبوا بدخول المسلمين أرض مصر، لكن هذه المساندة كانت صامتة في بادئ الأمر، أي حيادية. وقد شكلت انتصارات المسلمين وإخضاعهم البلاد نصرًا دينيًا للأقباط، حيث غادر البلاد عدد كبير من البيزنطيين، ولما استقرت الأوضاع، وكانت أخبار العهدة العمرية[٤٣] الخاصة ببيت المقدس قد تسربت إلى مصر، لقي الأقباط من الحكم الجديد ما شعروا معه بكثير من الحرية.

ولعل أول عمل قام به عمرو بن العاص بعد استقرار الأوضاع الداخلية؛ هو الإعلان بين الناس جميعًا أن "لا إكراه في الدين"، وأن حرية العقيدة أمر مقدس، فلن يتعرض لأحد في حريته أو ماله بسبب دينه أو مذهبه، وخيَّرهم بين الدخول في الإسلام والبقاء على دينهم، فمَن يدخل في الإسلام يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

الواقع أن؛ عمرًا انتهج سياسة المساواة الدينية بين المذهبين النصرانيين اللذين استمرا في مصر، وتذكر روايات المصادر أن كثيرًا من كنائس الملكانيين فضلوا البقاء في مصر؛ وأن أسقفا ملكانيًا بقي على مذهبه حتى مات ولم يمسه أحد بأذى، وأن البطريرك القبطي بنيامين الذي عاد إلى الإسكندرية بعد أن قضى ثلاثة عشر عامًا لاجئًا متخفيًا خشية أن يُقبَض عليه، أُعِيد إلى مركزه وأضحى بإمكانه أن يقوم بواجباته الدينية وهو مطمئن، وكان يستقطب الناس إلى مذهبه بالحجة والإقناع، واستطاع أن يحصل على بعض الكنائس التي تركها الملكانيون بعد خروجهم وضمها إلى كنائس البطريركية، ولما عاد إلى الإسكندرية قال لأتباعه: "عدت إلى بلدي

---

(٤٠) نبيل بباوي، مقال بعنوان "دلالات وشائج الوحدة الوطنية".- جريدة الأهرام.- العدد ٤١٧٣٧؛ ١٥/ ٣/ ٢٠٠١

(٤١) محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢. ص ١٩٤

(٤٢) الراهب القس أثناسيوس المقارى، الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها، ص ١٨٣.

(٤٣) كتب الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) عندما فتحها المسلمون عام ٦٣٨ للميلاد كتاباً أمنهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم، وقد اعتبرت العهدة العمرية واحدة من أهم الوثائق في تاريخ القدس وفلسطين وأقدم الوثائق في تنظيم العلاقة بين الأديان. راجع:
شفيق جاسر، العهدة العمرية.- مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة: www.iu.edu.sa/magazine

الإسكندرية، فوجدت بها أمنًا من الخوف، واطمئنانًا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم".[٤٤]

وفي الناحية الإدارية؛ خلت بخروج البيزنطيين بعض الوظائف الحكومية التي كان يشغلها هؤلاء، ولأن المسلمين لم يكن لهم عهد بعد بالشؤون الإدارية، وكان يهمهم أن تستمر الإدارة في العمل وأن تجمع الضرائب، بغض النظر عما يختص بالعاملين في الحقل الوظيفي، فقد فتحوا أبواب العمل أمام القادرين والراغبين من الأقباط، والمعروف أن الإدارة الإسلامية الجديدة احتفظت بثلاثة موظفين بيزنطيين في مراكز إدارية كبيرة هي حاكمية مصر السفلى، وتولاها "ميناس"، وحاكمية منطقة الفيوم وتولاها "فيلوخينوس"، وحاكمية الريف الغربي وتولاها "سينوتيوس".

وبفعل هيمنة الموظفين الأقباط على العمل الإداري، أضحت اللغة القبطية اللغة الرئيسية في الإدارة، فحلَّت بذلك محل اللغة اليونانية، وحافظ المسلمون على الأساليب البيزنطية في تدوين الدواوين وجمع الضرائب، فانتعشت الثقافة القبطية مجددًا وأخذت تملأ الفراغ الذي نتج عن الخروج البيزنطي، واعتنى الأقباط بتعلم اللغة العربية لأنها كانت لغة الفاتحين، واحتفظ المسلمون بقيادة الجند والقضاء.

ومن الناحية الاقتصادي؛ كانت مصر تتعرض بين سنة وأخرى لضائقة اقتصادية ناتجة عن انخفاض ماء النيل مما يسبب خللاً في المعادلة الاقتصادية، وقد عانى المصريون كثيرًا من هذه الظاهرة، وأدرك عمرو بن العاص ذلك فخَفَّفَ عن المصريين كثيراً من الضرائب التي فرضها البيزنطيون عليهم، وسوَّى بينهم في أدائها كما أعفى بعضهم منها، فمن المعروف أن الضرائب البيزنطية كانت كثيرة ومتنوعة، وتناولت معظم النشاط الاقتصادي والاجتماعي.

ويذكر في هذا المقام أن الخليفة كتب إلى عمرو بن العاص ليسأل المقوقس في خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالها، فأشار عليه المقوقس بالشروط التالية:[٤٥]

- أن يستخرج خراج مصر في وقت واحد، عند فراغ الناس من زروعهم.
- أن يرفع خراجها في وقت واحد، عند فراغ أهلها من عصر كرومهم.
- أن تحفر خلجانها كل عام.
- أن تصلح جسورها وتسد ترعها.
- ألا يختار عامل ظالم لِيَلِيَ أمورها.

---

(٤٤) محمود القاعود، "راسبوتين الثالث وتزييف حقائق التاريخ" .- مدونة أخبار الكنيسة حول العـالم.- منشـور بتـاريخ ١٥ مارس ٢٠٠٩ على الرابط: (http://churchnewss.blogspot.com)

(٤٥) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. (نسخة إلكترونية، موقع الوراق:www.alwarraq.com)

ونتيجةً لهذه التوصيات رسم المسلمون خطة جباية الخراج، واعتنوا بهندسة الري من حفر الخلجان وإصلاح الجسور، وسد الترع وبناء مقاييس للنيل و إنشاء الأحواض والقناطر. وكان من أثر هذه الإصلاحات أن تحسنت حالة الأقباط وزادت ثرواتهم، واطمأنوا على أرواحهم وممتلكاتهم ومستقبلهم، ونعموا بالهدوء والاستقرار، وازدادت ألفتهم بالمسلمين مع مرور الوقت ودخل كثير منهم في الإسلام.(٤٦)

يقول المؤرخ البريطاني بتلر: "إذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والطمأنينة هو عهد العرب، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين، فأصبحوا وقد فك من قيدهم في أمور الدنيا ، وأرخى من عنانهم، وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق. وقد يُقال إن حكامهم الجدد – أي العرب – قد أدخلوا إلى الأرض ديناً غريباً غير دين المسيح، وهذا حق غير أنهم لم يروا في ذلك إلا عدلاً من الله، إذ جمع الناس على قول واحد ، فقالوا : ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم، فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر".

ويقول الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني في كتاب "وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها": إن كنا نذكر مظالم العرب الفاتحين فلابد - إنصافاً للحقيقة- أن نقول أن هذه المظالم لم تكن عامة أو شاملة خاصة في الفترة الأولي للفتح العربي فقد اكتشف البروفسير جروهمان وثيقتين برديتين يرجع تاريخهما إلى سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢م، مكتوبتين باليونانية، وملحق بهما نص آخر بالعربية، الوثيقة الأولى: إيصال حرره على نفسه أحد أمراء الجند يدعى الأمير عبد الله بأنه استلم خمساً وستين نعجة لإطعام الجند الذين معه، وقد حررها الشماس يوحنا مسجل العقود، في اليوم الثلاثين من شهر برمودة من السنة المذكورة أولاً، وقد جاء بظهر الورقة ما يلي: "شهادة بتسليم النعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصماً عن جزية التوقيت الأول". أما الوثيقة الثانية: فنصها "باسم الله، أنا الأمير عبد الله أكتب إليكم يا أمناء تجار مدينة بسوفتس، وأرجو أن تبيعوا إلى عمر بن أصلع، لفرقة القوطة، علفاً بثلاث دراهم كل واحد منها (بعرورتين) وإلى كل جندي غذاء من ثلاثة أصناف". ويعلق الأستاذ جروهمان على الوثيقتين بقوله: "إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب، قلما نراها من شعب منتصر".(٤٧)

(٤٦) راغب السرجاني، أثر الفتح الإسلامي على أوضاع الأقباط.- موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ٥ فبراير ٢٠٠٨ على الرابط: (www.islamstory.com)

(٤٧) أنطونيوس الأنطوني، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها. القاهرة: دار الطباعة القومية، ١٩٩٦. ص ٦٢- ٦٣.

الغزو العربي في الفكر القبطي

هناك ثلاثة آراء قال بها المؤرخين جميعاً بدون استثناء:[٤٨]

الرأي الأول:

رجح هذا الرأي الغالبية العظمى من المؤرخين وهو القائل بأن الأقباط لم يتدخلوا لصالح أحداً من الطرفين[٤٩]، حيث إننا لا نجد في المراجع القديمة ما يشير إليه بعض المحدثين في أن الأقباط استنجدوا بعمر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم.[٥٠]

كما ذكر المؤرخ البريطاني بتلر هذه الحقيقة فقال: "لم يرحب الأقباط بالفرس ليخلصوهم من الرومان، ولم يرحبوا بالرومان ليخلصوهم من الفرس، ولم يرحبوا بالرومان ليخلصوهم من العرب، كما لم يرحبوا بأي مستعمر ليخلصهم من العرب". "ونستبعد أن يكون القبط قد أظهروا شيئا من المودة للكفار الذين كانت أيديهم ملطخه بدماء إخوانهم في الدين في أنطاكية وبيت المقدس".

الرأي الثاني:

يتلخص في ما ذكرته الأستاذة سناء المصري في كتاب "هوامش الفتح العربي لمصر[٥١]" ففي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى التي تليها كانت جموع الشعب المصري العُزّل من السلاح ترقب بحذر وهلع أخبار المعارك الدائرة بين العرب والروم، ويكاد الخوف من الجانبين يعتصرهم، وذكرى حروب الروم والفرس لم تجف دماؤها بعد، وقد فضلت بعض قرى أسافل مصر (الوجه البحري) الانضمام إلى جيش الروم، تقاتل معهم جيوش الغزو العربي.

الرأي الثالث:

وهو القائل بأن الأقباط قاموا بالدفاع عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم، وسببه أنه أثناء حصار العرب لحصن بابليون الذي استمر ٧ أشهر، كان العرب يرسلون مجموعات مسلحة تهجم على القرى لتوفير الغذاء لأفراد جيشهم الذي يبلغ مابين ٢٠٠٠٠-٢٥٠٠٠ رجل فكانوا يقتلون ويسلبون وينهبون للحصول على ما يريدون. لهذا قال المؤرخ يوحنا النقيوسى- الذي رأى هذه الأحداث بعينيه - أن مصر أصبحت مسرحًا للشيطان.

---

(٤٨) عزت اندراوس، هل رحب الأقباط بالغزو العربى الإسلامى؟، ضمن موسوعة تاريخ أقباط مصر: (www.coptichistory.org)

(٤٩) محمد حسين باشا في كتابه "الفاروق عمر".

(٥٠) سيدة إسماعيل كاشف، عبد العزيز بن مروان.- القاهرة: وزارة الثقافة، سلسلة أعلام العرب (٧٠)، ص١٣٢.

(٥١) سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، ص ٦١.

في الحقيقة؛ لقد هاجم العرب المسلمين مدينة الفرما المصرية (برمون)[٥٢] وبعد قتال ضاري أستمر شهر، سقطت برمون في يد العرب، فهدموا الحصن وأحرقوا السفن وخربوا الكنائس الباقية، مما يؤكد مدى انتقام العرب نتيجةً لما لاقوه من مقاومة استمرت شهر أو شهرين، وكان هذا الانتقام أكبر دليل لمقاومة أهل الفرما من الأقباط، وعدم تعاون القبطي مع هؤلاء الغزاة بل وقوفهم في وجه الغزو.

أما عن مساعدة اليهود للعرب في احتلال مصر؛ فقد اتخذ عمرو بن العاص دليلاً يهوديًا (مرشدا) لغزو مصر، مما أدى إلى سيرهم على غير هدى في الصحراء. وسبب مساعدة اليهود هو أنه أثناء احتلال الفرس للشام كان اليهود يشترون الأسرى المسيحيين من الفرس، وكانوا يعاملونهم معاملة سيئة وقتلوا بعضهم، كما اضطهدوا باقي المسيحيين.

ويذكر المقريزي[٥٣] أن الجيش العربي الإسلامي كان يضم يهودً أسلموا: "وخطة بنى روبيل وكان يهودياً فأسلم وحضر الفتح منهم ١٠٠٠ رجل". ويقول ساويرس بن المقفع في تاريخ البطاركة أن:"اليهود عرضوا خدماتهم على العرب وأعطوهم ما يحتاجونه من معلومات، وبذلوا لهم يد المساعدة في غزوهم سوريا ومصر".[٥٤]

(٥٢) كما سميت (بلوز) لأنها تقع على الفرع البلوزي للنيل. أنشأ هذه المدينة الفراعنة وكان بها أثار مصريه قديمة، وكانت توجد بها في ذلك الوقت كثير من الكنائس والأديرة، وهى مدينة محصنة، ولها أيضاً ميناء يتصل بالمدينة بخليج يجرى في البحر، وقريب منها الفرع البلوزى للنيل الذي يصب في البحر.

(٥٣) الخطط، الجزء الثاني، ص ٧٩.

(٥٤) يرى عبد الحسين تسخيري أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة طهران، أن لليهود فضلاً على مصر والمصريين منذ فتح الصحابي الجليل عمرو بن العاص مصر عام (٢٠ هـ - ٦٩٣م) وحتى الآن، مدعياً أن ٣٠ ألف يهودي حاربوا معه ضد الرومان عند دخوله مصر، وكان لمشاركتهم في الجيش الإسلامي دور كبير في إنهاء المعركة لصالح المسلمين. وقد فند الدكتور أحمد عبد التواب أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس، تلك المزاعم التي وصفها بالسخيفة، وقال إنها لا أساس له من الصحة، وتنم عن جهل كاتبها وعدم معرفته بالتاريخ، نافيا أن يكون اليهود شاركوا عمرو بن العاص حربه ضد الرومان؛ فالتاريخ الإسلامي لا يشير إطلاقا إلى موقف واضح لليهود من الفتح الإسلامي لمصر، والسبب يرجع إلى وقوفهم موقفا سلبيا تجاه ذلك.

وفسر هذا الموقف بحرصهم على عدم إقحام أنفسهم في نزاع بين العرب والرومان، لأنهم خشوا النتائج التي ترتب على مساعدتهم السلطات الرومانية الحاكمة في حال تحقق النصر للعرب، وفي الوقت نفسه خشوا من تأييد الفتح الإسلامي، خوفا من أن يكون النصر للرومان فيتعرضون للاضطهاد، وأضاف أن عدد اليهود ظل ضئيلا في مصر على امتداد تاريخ مصر الإسلامي، مقارنة بعدد الأقباط، فقد كان عد اليهود لا يتجاوز ٢٣ ألف.

حسين البربري، المصريون : صحيفة يومية مستقلة، ١ فبراير ٢٠٠٩. (www.almesryoon.com)

جاء في المصادر التاريخية العربية أن عدد يهود الإسكندرية كان حوالي (٤٠) ألف عندما فتحها عمرو بن العاص، وقد فُرضت عليهم الجزية. حيث كتب للخليفة عمر بن الخطاب يقول: "أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية، بأربعة آلاف سيف، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية". راجع:

قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٧. ص ١٢، ص٢٨ هامش (١)

ويرى الأب بيجول باسيلي أن أهم الحجج والأدلة التي يرددها الكُتاب العرب لتبرير إدعائهم بموضوع ترحيب الأقباط بالفتح العربي يمكن تلخيصها فيما يلي:[٥٥]

- تخليص الأقباط من ظلم الرومان
- سمعة العرب "العدل والرحمة وحسن المعاملة "
- قصة السبعون ألف راهب في وادي النطرون
- ظهور البابا بنيامين بعد نداء عمرو بن العاص
- دين الإسلام قريب من عقيدة الأقباط
- العهود والشروط بين العرب والأقباط
- إكرام العرب لابنة المقوقس "أرمانوسة"

هذه هي أهم الادعاءات والحجج التي يطلقها الكُتاب والمؤرخون العرب كدليل منهم على أن الأقباط قد رحبوا بالفتح العربي لمصر، وكما يقول بتلر: "إنها مسألة يحب المؤرخون العرب الخوض فيها رغم ما يقعون فيه من الخلط والاختلاف، وذلك لأن عهدنا بكُتاب العرب لا يحسنون تفهم التاريخ ولا يدركون نظامه وأحكام الصلة بين حوادثه، وأن أول من كتب تاريخ الفتح العربي من مؤرخي العرب كتبه بعد نحو مائتي عام منه، لذلك لم يكن عجبا ذلك الخلط الذي وقع في الرواية والتشويه الذي أصابها".[٥٦]

الذي يدعي هذا الادعاء – تخليص الأقباط من ظلم الرومان- بلا شك لا يعلم أن الجانب الإيماني والعقائدي لدى الأقباط كمسيحيين يرفض تماما فكرة أو مبدأ اللجوء إلى إنسان ليخلصهم من إنسان آخر، ففي صلوات الأجبيه التي يصليها الأقباط كل يوم، يقول مزمور ١٤٥ من مزامير صلاة الساعة الثانية عشر: "لا تتكلوا على الرؤساء ولا على بني البشر الذين ليس عندهم خلاص تخرج روحهم فيعودون إلى ترابهم في ذلك اليوم تهلك كافة أفكارهم طوبى لمن اله يعقوب معينه واتكاله على الرب إلهه الذي صنع السماء والأرض"

والحقيقة أن؛ أكذوبة الترحيب هذه هي الأكذوبة الشهيرة التي يتذرع بها ويطلقها دائمًا كل مستعمر أو فاتح أو محتل، يكاد لا يشذ عنها أحداً منهم على مدى التاريخ وفي كل مكان، هي ستار شفاف يحاول الفاتح أو الغازي أو المحتل أن يغطي به دوافعه الحقيقية، متوهمًا أنه قد استطاع أن يخفي الحقيقة، وأن يضفي على وجوده صفة الشرعية بأن الأهالي هم الذين استنجدوا ورحبوا به، ولا مانع عنده من أن يلصق بالمواطنين تهمة الخيانة ليسقط عن نفسه جريمة الاغتصاب.

(٥٥) بيجول باسيلي، هل رحب الأقباط بالفتح العربي؟ / مراجعة عبد الكريم بشير .- فرانكفورت، د.ت. نسخة إلكترونية: (www.answersaboutfaith.com)

(٥٦) أشرف عبد القادر، هل رحب الأقباط بعمرو بن العاص.- صحيفة الحوار المتمدن.- العدد ١٤٧٢؛ ٢٥ فبراير ٢٠٠٦.

أما مرارة الإذلال وقسوة الإهانات التي تعرض لها الأقباط، فقد تناول هذا الموضوع الدكتور ترتون في كتابه "أهل الذمة في الإسلام" وذكر العديد من الحوادث والمواقف، ومنها أن عمر بن الخطاب أمر عمرو بن العاص بختم رقاب أهل مصر بالرصاص في وقت جباية جزية الرؤوس.(٥٧)

وبالنسبة إلى قصة السبعون ألف راهب الذين خرجوا من وادي النطرون، وبيد كل واحد منهم عكاز، وتلقوا عمرو بن العاص بالطرانة أثناء رجوعه من الإسكندرية يطلبون أمانة لهم على أنفسهم وأديارهم.(٥٨) فقد ذكر هذه القصة الوهمية المقريزي في كتابه "الخطط"، ولابد أن مؤلفها كان يتمتع بخيال خصب، وقد علق على هذه القصة الأمير عمر طوسون في كتابه "وادي النطرون ورهبانه وأديرته" حيث أن عدد السبعين ألف راهب الذي ذكره المقريزي لا ريب في أن فيه مبالغة كبيرة، فقد روى المعاصرون أنه لم يكن يوجد في هذه المنطقة أكثر ٣٥٠٠ راهب في أواسط القرن السادس الميلادي. وأنه لما كان "دميانوس" بطريركا أغار البربر على وادي النطرون ففر منه رهبانه، وأنه لما زاره بعد ذلك البطريرك بنيامين حوالي سنة ٦٣٠م، أي قبل الفتح العربي بعشرة أعوام، وجد به عدداً قليلاً من الرهبان بسبب العوائق التي كانوا يلاقونها من البربر في سبيل تجمعهم من جديد. بل يؤخذ من هذه الرواية أن عدد الثلاثة آلاف والخمسمائة راهب الذين وجدوا في أواسط القرن السادس الميلادي كان قد نقص كثيراً قبيل الفتح العربي.(٥٩)

زد على ذلك؛ أنه لم يكن من الممكن أن ينتظم سبعون ألف راهب في مسيرة هائلة وبهذا الشكل الذي تصوره لنا هذه القصة، دون أن يحصلوا على موافقة رئيسهم للقيام بهذه المسيرة، فكيف حصلوا على هذه الموافقة؟ بينما تؤكد جميع المصادر أن البابا بنيامين لم يكن موجوداً، لا في الإسكندرية ولا في وادي النطرون ولا في أي مكان آخر معروف، يمكّنه من سهولة الاتصال وسرعته، بهذا الحشد الهائل من الرهبان.

الأمر الطريف؛ أن مؤلف هذه القصة لا يعرف أن موضوع حمل العكاز بيد كل راهب، أمر يتنافى مع التقاليد الرهبانية المعروفة والمستقرة في الكنيسة القبطية،(٦٠) والتي لا تجيز حمل العكاز إلا للآباء الشيوخ فقط، لأنها تسمى "عصا الرعاية".(٦١)

---

(٥٧) وقد ذكر هذا الأمر كلاً من المقريزي، والبلاذري في كتابه فتوح البلدان

(٥٨) محمد عمارة، طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر.- حراء: مجلة علمية ثقافية.- العدد (٦) يناير – مارس ٢٠٠٧.

(٥٩) عمر طوسون، وادي النطرون ورهبانه وأديرته.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦. ص ٤٠

(٦٠) لمزيد من التفاصيل راجع:

سليم نجيب، "الكنيسة القبطية وحياة الرهبنة"، ضمن كتاب الأقباط عبر التاريخ: (www.copticnews.ca)

(٦١) بيجول باسيلي، هل رحب الأقباط بالفتح العربي؟ نسخة إلكترونية: (www.answersaboutfaith.com)

أما بنيامين؛ فهو البابا الثامن والثلاثون (٦٢٥-٦٦٤م):[٦٢] وفي عهده استرد هرقل ملك الروم مصر من الفرس، وأقام أساقفة خلقدونيين (ملكيين) لسائر إيبارشيات مصر، فاختفى البابا بنيامين هو والأساقفة الأرثوذكسيون ودام هذا الاختفاء ثلاث عشرة سنة حاق في خلالها البلاء بأهل البلاد،[٦٣] إذ اضطهدهم الأساقفة الملكيون بغية إكراههم على إتباع عقيدة الطبيعيتين.

وفي هذه الأثناء فتح العرب مصر على يد عمرو بن العاص، فكتب عمرو عهدًا بالأمان نشره في أنحاء مصر يدعو فيه البابا بنيامين إلى العودة إلى مقر كرسيه ويؤمِّنه على حياته، فظهر البابا وذهب إلى عمرو، فاحتفى به وردَّه إلى مركزه عزيز الجانب موفور الكرامة.[٦٤]

في الحقيقة؛ كان البابا بنيامين طوال هذه المدة يختفي في صعيد مصر متنقلاً بين أديرة الصحراء، وفي اختفائه مدة ثلاث سنوات بعد الفتح العربي، الدليل على براءة قبط مصر مما افترى عليهم بأنهم ساعدوا العرب ورحبوا بهم ورأوا منهم الخلاص، إذ لو كان هذا الاتهام صحيحاً لكان ظهور البابا بنيامين من مخبئه عقب الفتح مباشرةً، ولكن بقاءه مختفيا بعد تمام النصر للعرب بثلاث سنوات، وعدم ظهوره إلا بعهد وأمان لا شرط فيه ولا قيد، لبرهان قاطع على كذب هذه الفرية.[٦٥]

وبالنسبة إلى فكرة؛ دين الإسلام قريب من عقيدة الأقباط، حيث أن الرأي السائد عند عامة الأقباط المصريين ورهبانهم الأطهار - في ذلك الوقت- قريباً جداً من رأى الإسلام في السيد المسيح عليه السلام، ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون من المصريين إلى الإسلام دون جدل أو جهد كبير.[٦٦]

هذا أمر بعيد تماماً عن الحقيقة، فلا يمكن أن يكون الأقباط وقت الفتح العربي لمصر، قد عرفوا رأي الإسلام بوضوح ودقة في السيد المسيح، لأن اللغة العربية لم يكن لها وجود ملموس يذكر بين المصريين، فلغتهم جميعًا هي اللغة المصرية (القبطية) لغتهم القومية التي كتبوا وتكلموا

(٦٢) راجع: سيرة نياحة البابا بنيامين الأول الـ٣٨ كما ذكرت في كتاب السنكسار، ضمن تاريخ البطاركة في الكنيسة القبطية: (http://st-takla.org)

(٦٣) لمزيد من التفاصيل راجع:

جميل عارف ، دخول الإسلام مصر .- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب المصري الحديث، ٢٠٠٦. (الفصل الثاني: عندما اختفى بنيامين بطريرك الأقباط المصريين في الصحراء لمدة ١٣ سنة كاملة، ص ٣٥ – ٤٦)

(٦٤) خلاصة تاريخ المسيحية في مصر/ تأليف لجنة التاريخ القبطي.- الطبعة الثالثة.- القاهرة: دار مجلة مرقس، ١٩٩٦. ص ١١٤- ١١٥.

(٦٥) كامل صالح نخله، البابا بنيامين (٣٨)، ص ١٠٨.

(٦٦) حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية: العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي.- القاهرة: وزارة الثقافة.ص٣٦٨

بها، وترجموا جميع كتبهم المقدسة إليها. فقد فرضت اللغة القبطية نفسها كلغة حديث حتى على الفاتحين العرب أنفسهم، وتعلمها الكثيرون منهم. وممن عرفوا بإجادتهم اللغة القبطية، القاضي خير بن نعيم، الذي كان يتكلم للخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية.(٦٧)

أضف إلى ذلك؛ أن الكتابة العربية ذاتها كانت قاصرة جداً ومعقدة، تختلط فيها الحروف بلا تمييز، وتتعدد احتمالات قراءة الكلمات. فلم تكن الأمة العربية عهد كتابة الوحي أمة عريقة في الكتابة، وما كان كتاب النبي إلا صورة من العصر البادئ في الكتابة، ولم تكن الكتابة العربية على حالها اليوم من التجويد والكمال إملاء ورسماً. ونظرة في المصحف، وما يحمل من صور إملائية تخالف ما استقر عليه الوضع الإملائي أخيرا، تكشف لك عما كان العرب علية إملاء، وعما أصبحنا عليه نحن إملاء.(٦٨)

وبخصوص العهود والشروط بين العرب والأقباط؛ نذكر أن وثيقة الصلح التي عقدها عمرو بن العاص رضي الله عنه مع أهل مصر، تمثل إحدى مظاهر التسامح الديني، فقد تمتع المصريون من خلالها بحرية دينية كاملة لم يعهدوها من قبل، وهذا نص الوثيقة:

"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر، الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم"لصوصهم"، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب، فله مثل مالهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يخرج مأمنه أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم أثلاثًا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمته وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا ومعونة على ألا يغزو ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة".(٦٩)

وتبرز هذه الوثيقة ضمان الحرية الدينية، والتعهد بحماية ممتلكات الكنائس والأديرة. (٧٠)

---

(٦٧) أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر.- القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر،١٩٧٠. ص ٥٥

(٦٨) وقد لا يفوتك أن الخط العربي من عصر كتابة الوحي إلى أيام عبد الملك بن مروان لم يكن يعرف النقط المميزة للحروف في صورته الأخيرة، كما لم يكن عرف شكل الكلمات، وبقي المصحف المرسوم ينقصه النقط في صورته الأخيرة. أنظر:

إبراهيم الإبياري، تأريخ القرآن.- القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٩٠. ص ١٣٧

(٦٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مكتبة التراث الإسلامي: (www.al-eman.com)

(٧٠) راغب السرجاني، مصر في عهد عمرو بن العاص.- موقع قصة الإسلام: (www.islamstory.com)

لقد جرت العادة أيام الخلفاء على فرض قيود معينة يلتزم بها غير المسلمين في حياتهم العامة والخاصة، وتعتبر هذه القيود ثمنا يدفعونه لقاء تمتعهم بالعيش في دار الإسلام، ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل المعترف بها، وهي المسيحية واليهودية والمجوسية والسامرية والصائبة، ويعرف أتباع هذه النحل بأهل الذمة،[٧١] والمعتقد أنه ورد في القرآن ما يؤيد هذه القيود في قوله تعالى: { حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } (التوبة: ٢٩)

والظاهر أنه كان من التقاليد المرعية في مدارس الفقه وضع نماذج للعهود والمعاهدات، ومن أمثلتها العهد الوارد في كتاب "الأم" للشافعي (١٨١٠ – ٢٣٠هـ)، تحت عنوان [إذا أراد الإمام أن يكتب كتاب صلح على الجزية]:"وليس لكم أن تظهروا في شيء من أمصار المسلمين الصليب، ولا تعلنوا بالشرك، ولا تبنوا كنيسة، ولا موضع مجتمع لصلاتكم، ولا تضربوا بناقوس، ولا تظهروا قولكم بالشرك في عيسى بن مريم ولا في غيره لأحد من المسلمين، وتلبسوا الزنانير من فوق جميع الثياب الأردية (..) وتخالفوا بسروجكم وركوبكم، وتباينوا بين قلانسكم وقلانسهم بعَلم تجعلونه بقلانسكم، وأن لا تأخذوا على المسلمين سردات الطريق ولا المجالس في الأسواق، وأن يؤدي كل بالغ من أحرار رجالكم جزية رأسه.." [٧٢]

إذن لا داعي لتصديق الهراء الذي يقال أحيانا حول تبرير الجزية باعتبارها مجرد ضريبة تفرض على " أهل الكتاب" في مقابل الدفاع عنهم أو كبديل عن الزكاة الخ؛ فالنقطة المركزية في فقه أهل الجزية (أهل الذمة) هي الإذلال (عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ).[٧٣]

هذه هي نماذج العهود أو القيود، إذا توخينا الدقة في التعبير، وتلك هي الخصال والشروط، فهل لأي قارئ للتاريخ أو دارس لتلك الوثائق، غير منحاز، أن يصفها بغير أنها عهود إذلال وشروط مهانة، إنها تعبير عن وضع شاذ بين طرفين، أحدهما يحمل السيف في يده، والطرف الآخر، وجد ذلك السيف ينهال بقسوة وعنف فوق رقبته.[٧٤]

وأبعد شيء عن الحقيقة والمنطق، أن توصف بأنها بين منقذين متطوعين من جهة، ومستغيثين مرحبين من الجهة الأخرى، أو أنها عهود وشروط بين مجموعتين من الأصدقاء المتعاونين المتحابين.

---

(٧١) ترتون، أهل الذمة في الإسلام/ ترجمة حسن حبشي.– القاهرة: دار المعارف،١٩٦٧. ص١

(٧٢) وقد ذكر الإمام الشافعي أحكام أهل الجزية (أهل الذمة) أيضاً في كتاب الرسالة.

زكريا أوزون، جناية الشافعي: تخليص الأمة من فقه الأئمة.– الطبعة الأولى.– لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٥.

(٧٣) عادل جندي، مقال بعنوان تلك المواد الخطرة على البيئة (الوطنية)!.– شفاف الشرق الأوسط.– منشور بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٦. (www.metransparent.com)

(٧٤) بيجول باسيلي، هل رحب الأقباط بالفتح العربي؟ نسخة إلكترونية: (www.answersaboutfaith.com)

وعن إكرام العرب لابنة المقوقس "أرمانوسة"، يقول القس منسي يوحنا في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية[٧٥]:" كان جيش العرب في فاتحة هذا القرن، حاملاً لواء الظفر في كل مكان، وظل يخترق الهضاب والبطاح، ويجوب الفيافي والبلاد، حتى وصل إلى حدود مصر تحت قيادة عمرو بن العاص، فدخل مدينة العريش وذلك سنة ٦٣٩، ومنها وصل إلى بلبيس وفتحها بعد قتال طال أمده نحو شهر، ولما استولى عليها وجد بها "أرمانوسة" بنت المقوقس فلم يمسها بأذى، ولم يتعرض لها بشرّ، بل أرسلها إلى أبيها في مدينة منف، مكرمة الجانب، معززة الخاطر، فَعَدّ المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة من عمرو وحسبها حسنة له."

فعندما حاصر المسلمون الجنودَ الرّومانَ في منطقة بِلْبِيس، خَشِيَ النساء على أنفسهنَّ من المسلمين، وتصورْنَ أن المسلمين مثل المجرمين الرومان، الذين يغتصبون النساء وينتهكون الأعراض، ولكن أرمانوسة بنت المقوقس طمأنتِ النِّسوة، وقالت لإحدى وصيفاتها: "أنتِ واهمة يا مارية (وصيفتها)! أنسيتِ أن أبي قد أهدى إلى نَبِيِّهِم بنت أنصنا – مارية القبطية – عليها السلام – فكانت عنده في مملكة، بعضها السماء، وبعضها القلب، لقد أخبرني أبي أنَّه بعث بها؛ لتكشف له عن حقيقة هذا الدين، وحقيقة هذا النبيّ، وأنَّها أنفذتْ إليه دَسِيسًا يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نَبِيَّهَمُ أَطْهَرُ منَ السحابة في سمائها، وأنهم جميعًا يَنبعثون من حدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتهم، وإذا سَلُّوا السيف سَلُّوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون".[٧٦]

وقالت عنِ النساء:" لأنْ تخاف المرأة على عِفَّتِها من أبيها أقربُ من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبيِّ؛ فإنهم جميعًا في واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلاميّ في الرجل منهم يكون حاملاً سلاحًا يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته". وقالت لها أرمانوسة أيضًا:" لقد أخبرني أبي أن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العُصارةِ الحَيَّة في الشجرة الخضراء، طبيعة تعمل في طبيعة، فليس يمضي وقت غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي ظلالها".[٧٧]

(٧٥) منسي يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية.- القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٨٣. ص ٣٠٦

(٧٦) مصر في ظل الفتح الإسلامي: رخاء اقتصاديّ وأمان اجتماعيّ وتقدم علميّ.- موقع الألوكة.- منشور بتاريخ ١١ ديسمبر ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.alukah.net/articles/7/1792.aspx)

(٧٧) عبدالحليم عويس، "الفتح الإسلامي لمصر"، المنار الجديد، عدد يناير سنة ١٩٩٨، ص ٦٣ وما بعدها. مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم/ مراجعة درويش الجويدي.- بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٢. ص ٣٦. قصة "اليمامتان"، نشر مهرجان القراءة (القاهرة)، عام ١٩٩٥. بسام العسلي، عمرو بن العاص.- الطبعة التاسعة.- بيروت: دار النفائس، ١٩٨٥. ص٥٢، ٥٣.

وفي معرض حديثنا عن مواقف المسلمين مع الأقباط إبان الفتح الإسلامي، نذكر حادثة سرقة رأس مارمرقس[(٧٨)] عام٦٤٤م حيث عبر أحد البحارة ليلاً إلى الكنيسة، فوجد تابوت القديس مرقس فتوهم أن فيه ذهبًا، فأخذه وأخفاه في المركب، وعندما عزم عمرو بن العاص على المسير، تقدمت المراكب كلها وخرجت من الميناء، ما عدا المركب التي كان بها الرأس، فأمر عمرو بن العاص بتفتيشها، فوجدوا الرأس في تلك المركب مخبئًا، فأخرجوه فخرجت المركب حالاً ، واستحضر عمرو الرجل الذي اعترف بعد وقت بسرقته، فضربه وأهانه.[(٧٩)]

أخيراً؛ رغم كل ما قيل وعرضته هذه الصفحات، فنحن لا ندعي العصمة لأحد إلا لله ولرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فأما الحكام وأولي الأمر، فهم ليسوا بمعصومين، ولكن من حكم فينا بشرع الله فهو العادل، ومن خالف الشرع فهو ظالم لنفسه وأمته وشعبه، وأي ظلم وقع على النصارى على يد حاكم مسلم فالإسلام منه بريء، ورغم هذا لم يعرف تاريخ المسلمين ظلمًا وقع على أهل الذمة واستمر طويلاً، فقد كان الرأي العام – والفقهاء معه – دائمًا ضد الظلمة والمنحرفين، وسرعان ما يعود الحق إلى نصابه.[(٨٠)]

---

(٧٨) القديس مرقس يهودى من سبط لاوى يحمل اسمين : اسماً يهودياً (يوحنا) واسماً أممياً (مرقس) ومرقس هو الأكثر شهرة ، ورغم انه يهودي الأصل إلا أنه وُلد في إقليم أممي في قارة افريقيا ، فهو إذن رسول أفريقي المولد وُلد في القيروان في ليبيا. نشأ مرقس في أسرة كان لكثير من أفرادها صلة بالسيد المسيح : فأمه مريم كانت أحد المريمات اللاتي تبعن المسيح وأيضا من اللاتي ذهبن إلى القبر وكان بيتها مكاناً لصلاة المؤمنين واجتماعهم في عصر الرسل ، وكانت هذه المرأة التقية ذات اعتبار بين المسيحيين الأوائل. وحيث وُلد كان يعيش أبوه وعمه غنيين يشتغلان بالزراعة وأمه موسرة لذلك أحسنت تثقيفه وعلمته اليونانية واللاتينية والعبرية فأتقنها جميعاً وبرع فيها وثقفته دينياً فدرس كتب الناموس والأنبياء. لكن بعض القبائل الهمجية هجمت على أملاك أسرته في القيروان ونهبتها فاضطرت أسرته إلى الهجرة إلى فلسطين واستقرت هناك عندما بدأ السيد المسيح خدمته وهكذا رأى مرقس السيد له المجد وانضم إليه وصار من تلاميذه.

ولا يوجد بيت نال شهرة مثل هذا البيت: فيه غسل السيد أرجل تلاميذه وأعطاهم عهده جسده ودمه الأقدسين ، وفيه اختفى التلاميذ قبيل القيامة، وفيه حل الروح القدس على التلاميذ وتكلموا بألسنة، كما كان هذا البيت العظيم أول كنيسة مسيحية في العالم. وقد أجمع المؤرخين الأقباط في كافة العصور على أن مار مرقس كان من السبعين رسولاً، وفى طقوس الكنيسة هذا اللقب ثابت له [مرقس الرسول (بي ابسطولوس)] وفى عيد القديس في ٣٠ برمودة نجد كل القراءات عن اختيار الرسل وعملهم وكذا في دورة الصليب والشعانين نقرأ أمام أيقونته (لو ١٠) "وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه". راجع:

الأنبا بفنوتيوس، ناظر الإله الإنجيلي القديس مرقس الرسول: القديس والشهيد.- موقع مطرانية سمالوط للأقباط الأرثوذكس.- منشور بتاريخ ٨ مايو ٢٠٠٩ على الرابط: (www.samaloutdiocese.com)

(٧٩) الأنبا شنودة الثالث، مرقس الرسول: القديس والشهيد .- القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٨٧. ص ٧٠ – ٧١

(٨٠) محمد معابيد، الفتح الإسلامي لمصر (١).- مدونة مصر اليوم: (http://meabed-egypt.blogspot.com)

ومن المهم للغاية أن يفهم مَن يحاول تشويه صورة القائد عمرو بن العاص، أن هذا الصحابي لم يكن في حاجة إلى طمأنة البابا بنيامين ولا في حاجة لاكتساب ثقة أحد، لأنه ما فعل ذلك إلا بعد أن انتصر وأحكم قبضته على البلاد تمامًا، وإنما ذلك راجع إلى طبيعة العقيدة التي يؤمن بها عمرو وجنده، فهو داعية إلى الله وإن ارتدى الزي العسكري، وهو داعية إلى الإسلام وإن أمسك في يده اليسرى درعًا وفي اليمنى سيفًا!

لقد كان عمرو بن العاص قادرًا على أن يقضي على المسيحية في مصر قضاء نهائيًا، لولا أنه لو فعل ذلك لأقام عليه أمير المؤمنين الحد لما في دين المسلمين من تقديس لحرمة الدماء! فعمرو بن العاص لم يكن في حاجة إلى نصارى مصر، وإن كان في حاجة إليهم فقد كان مستطيعًا أن يأمرهم بتلبية حاجته بالحال التي كان يأمرهم بها إخوانهم في الدين من الرومان والبيزنطيين.(٨١)

ونقول في هدوء: ألم يكن قادرًا على التعامل معهم كعبيد محاربين ؟! ألم يكن قادرًا على التعامل مع الروم عليهم ؟! ألم يكن قادرًا على تقديم الروم في الحكم ومُصالحتهم؟! ألم يكن يعرف أن نصارى الروم أكثر خبرة ومعرفة بأصول الحكم والحرب والقتال من نصارى مصر فيستخدمهم في الخلاص من نصارى مصر والإبقاء على ما كانت عليه الأحوال من قبل؟!

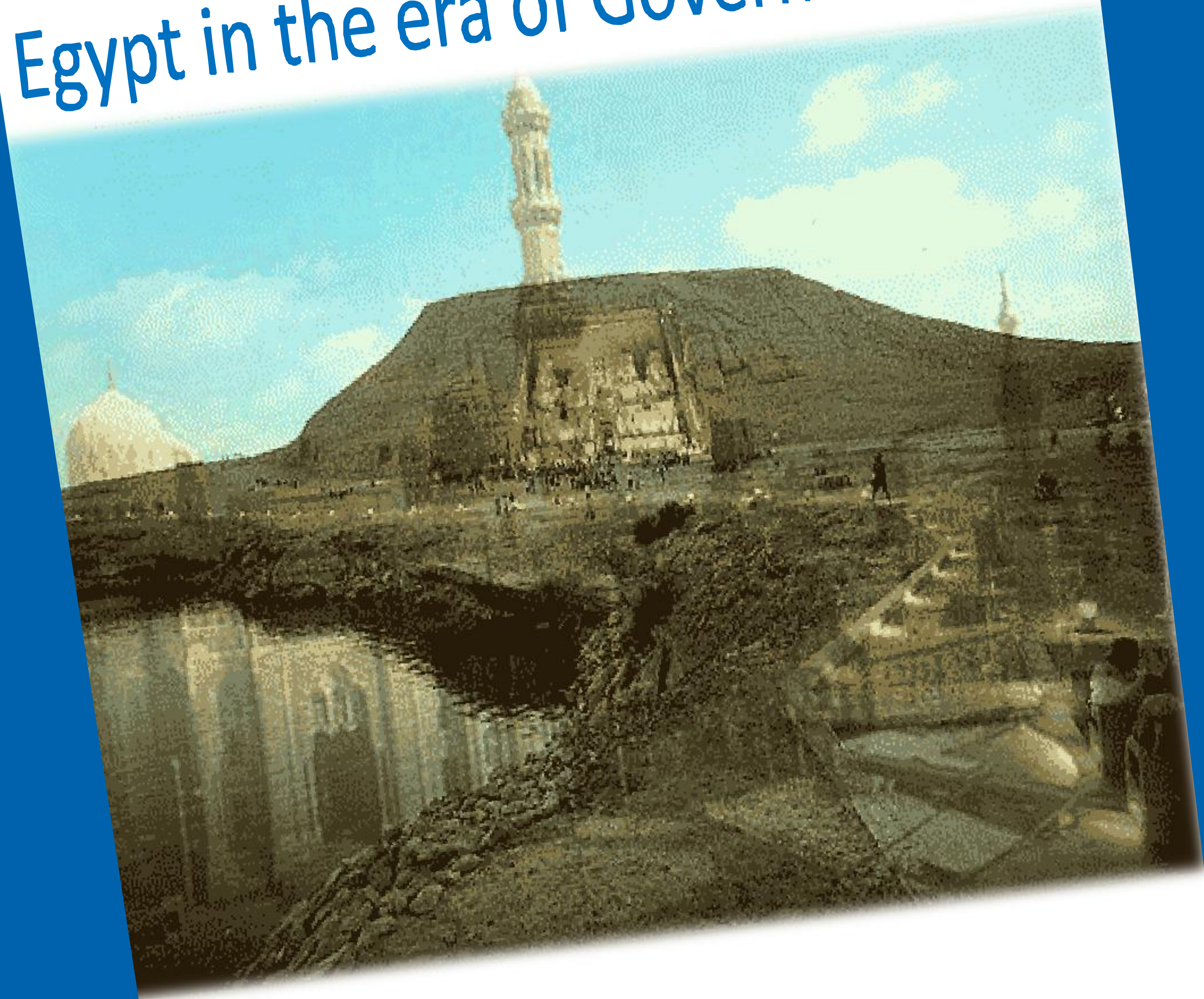
يقول المؤرخ يعقوب نخلة: " كان عدد الروم في مصر ينوف عن ثلاثمائة ألف نفس، فهاجر أغلبهم، ولم يبق منهم إلا من كانت له علاقات ومصالح لا تسمح له بالخروج منها والابتعاد عنها، وانتهز القبط خروج الروم فرصة مناسبة فوضعوا يدهم على كثير من كنائسهم وأديرتهم وملحقاتها، بدعوى أنها كانت في الأصل مِلكًا لهم، وأن الروم نزعوها من يدهم قوة واقتدارًا بسبب ما كان بينهم من الشقاق، ومن ذلك الحين عاش الروم والأقباط بالحُسنى، وانتهت من بينهم النزاعات والمخاصمات، التي كانت تُفضِي إلى قتل الألوف المؤلفة لزوال أسبابها".(٨٢)

---

(٨١) أبو عبيدة، نظرات في تاريخ الأقباط.- منتديات الجامع الإسلامية.- متاح بتاريخ ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.aljame3.net/ib/)

(٨٢) يعقوب نخلة روفيله، تاريخ الأمة القبطية/ تقديم جودت جبره.- الطبعة الثانية.- أوهايو: مؤسسة القديس مرقس لدراسات التاريخ القبطي، ١٩٩٩. ص ٥٥ - ٥٦

Egypt in the era of Governors



مصر في عصر الولاة

"مصر هي قلب الكرة الأرضية من احتلها سيطر على العالم كله"

نابليون بونابرت

"أعلم يا وليدي أن الديار المصرية هي كرسي المملكة، وبها تستطيل على جميع الملوك، فإن كانت بيدك، كان بيدك جميع الشرق".

الملك الصالح أيوب "من وثيقة إلى أبنه تورانشاه"

مصر في عصر الولاة

فترة الخلافة الراشدة [عمرو بن العاص " بناء الفسطاط – جامع عمرو بن العاص – خليج أمير المؤمنين" – عبد الله بن سعد بن أبي السرح – ولاة الفتنة الكبرى] فترة الدولة الأموية [ولاة مصر الأمويون – ولاية عمرو بن العاص – ولاية عبد العزيز بن مروان] فترة الدولة العباسية [ولاة مصر العباسيون – بناء العسكر] – نُظُم الحكم في عصر الولاة [الوالي – صاحب الشرطة – القضاء – صاحب البريد]

يطلق مصطلح "عصر الولاة في مصر" على الفترة الزمنية التي تبدأ من انتهاء الفتح الإسلامي لمصر في سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م وتنتهي بقيام الدولة الطولونية، أولى الدول المستقلة في مصر عن الخلافة العباسية Al-Khilāfah al-‘Abbāsīyyah سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م.

الجدير بالذكر؛ أن العرب نجحوا إبان خلافتي أبي بكر وعمر في تأسيس إمبراطورية ضمت أملاك الفرس في إيران والعراق، كما انتزعوا الشام ومصر من البيزنطيين. وقد بدأ التنظيم الإداري لهذه الإمبراطورية في خلافة عمر بن الخطاب الذي استرشد بتجربة حكومة الرسول في المدينة؛ حينما اتخذها لعاصمة وعين على أقاليم شبه الجزيرة العربية ولاة من شيوخ القبائل. ولكن بعد اتساع دار الإسلام في عهد عمر؛ كان من الضروري تقديم حلول لإدارة دولة مترامية الأطراف، وإن كان عمر أول من دَون الدواوين مفيدًا من الخبرة الفارسية والبيزنطية، فلم يجد مناصًا من الإفادة من النظم الفارسية والبيزنطية بعد صبغها بالصبغة الإسلامية.

لذلك أبقى على التقسيمات الإدارية القائمة وجعل "الكور"أساس التنظيم الإداري في مصر(١)، كما جعل "الرساتيق"عصب التقسيم الإداري في فارس والعراق، أما الشام فكان يخضع لنظام "الأجناد" نظرًا لقربه من الخطر البيزنطي. كما عَين على كل قسم إداري والياً من قبله، وحرص على اختيارهم ممن عرفوا بالاجتهاد والرأي.(٢)

وكان من المعتاد أن يكون في يد والي مصر ثلاث مسئوليات رئيسية هي: جباية الجزية والخراج، وإمامة الصلاة، والشرطة، وفي بعض الأزمنة أستخلف الولاة آخرين على بعض هذه المسئوليات أو كلها، وهذا هو سبب خلاف المؤرخين في عدد الولاة.

---

(١) صفاء حافظ، الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة.– القاهرة: المطبعة الإسلامية، ١٩٩١. (١٤١ صفحة) والكتاب دراسة مركزة عن نظام الإدارة في مدن وقرى مصر في تلك الفترة من خلال المصادر والوثائق البردية.

(٢) عن محاضرات لأستاذي الدكتورمحمود إسماعيل، بعنوان " تاريخ الحضارة العربية الإسلامية" / ألقيت في قسم التاريخ بكلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر ١٩٩٩ – مايو ٢٠٠٠).

فترة الخلافة الراشدة (٢٠- ٢٨هـ / ٦٤١- ٦٥٨م) (٣)

عمرو بن العاص

بعد إتمام فتح مصر، ولي عمر بن الخطاب عمرو بن العاص علي مصر. وعندما استتب له الأمر في الإسكندرية عاد إلي موضع فسطاطه عند حصن بابليون وشرع في بناء عاصمة لمصر الإسلامية بدلاً من الإسكندرية لأن الخليفة عمر بن الخطاب أمره أن يختار عاصمة لا تكون بينها وبينه ماء.(٤) قدم إلي مصر مع عمرو بن العاص عدد كبير من الصحابة، فتلقي عنهم أهل مصر الدين الإسلامي الجديد، ومن هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومسلمة بن مخلد. وقد دامت ولاية عمرو بن العاص الأولي علي مصر حوالي أربع سنوات، حتى عزله عثمان بن عفان، ولكنه سيعود لولاية مصر في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

بناء عاصمة مصر الإسلامية "الفسطاط"

بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٦٤١م، أراد أن يقيم عاصمة للدولة الجديدة ومقراً للحكم، ففكر بدايةً في الإسكندرية، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض الفكرة لقربها من الماء وبعدها عن عاصمة الخلافة الراشدة، فعمد عمرو بن العاص إلي إنشاء عاصمة دولته بالقرب من موقع حصن بابليون حتى تكون بعيدة عن متناول دولة الروم البيزنطية التي كانت تتحكم في البحر المتوسط وفي نفس الوقت قريبة من صعيد مصر.(٥)

---

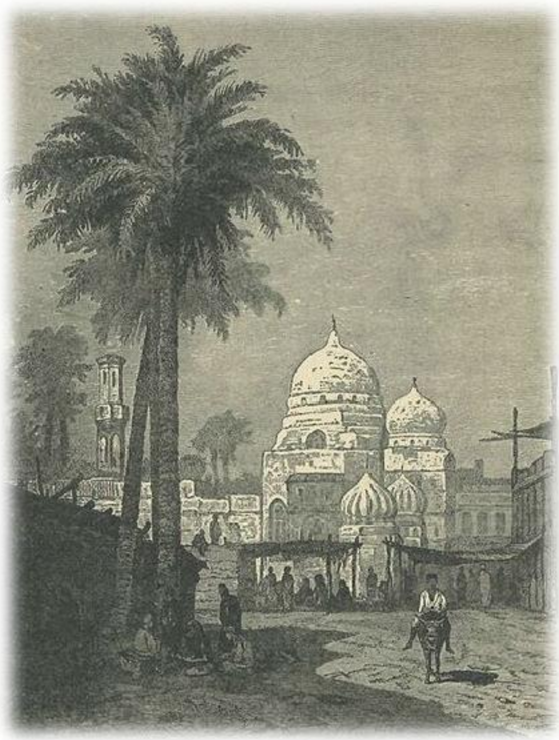
(٣) تم تقسيم عصر الولاة في مصر إلي [فترة الخلافة الراشدة – الدولة الأموية – الدولة العباسية] وذلك بإتباع التقسيم والبيانات الواردة في موقع تاريخ مصر "تاريخ مصر من أجل مستقبل مختلف". (www.egypthistory.net)
هذا الموقع من أحد المواقع الهامة على شبكة الإنترنت، يهدف إلي تعريف الزائرين بتاريخ مصر بدايةً من توحيد مينا لشطري مصر وحتى العهد الحالي. الواقع أن الموقع موصل جيد لكل الأعمال الجادة التي قام بها مؤرخي مصر والعالم وتناولوا فيها تاريخ مصر.

(٤) عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال: مساكن قد كسبناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، قال عمر للرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو أني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ،فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط.
المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / نسخة إلكترونية: (www.al-eman.com)

(٥) حامد سليمان، قصة فتح مصر من القبطية إلى الإسلام: رؤية معاصرة.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ١٩٨٨. ص ٦٣

اتفق معظم المؤرخون علي أن تسمية مدينة الفسطاط يرجع إلي فسطاط[٦] (خيمة) عمرو بن العاص الذي أقامه عند حصاره حصن بابليون. ولقد أقيمت مدينة الفسطاط آنذاك في المنطقة الواقعة الآن بين جامع عمرو بن العاص والكنيسة المعلقة[٧] (حصن بابليون).

و كان مجري نهر النيل في ذلك الوقت يحف بمسجد عمرو بن العاص، و لكنه الآن يبعد عن مسجد عمرو بأكثر من ٥٠٠ متر، لأن النيل ظل يقوم بطرح الطين والطمي علي الجانب الأيمن (الشرقي) فازدادت مساحة الأرض علي الجانب الشرقي فصارت أرضاً جديدة وهي حالياً المنطقة المطلة علي النيل من أول مصر القديمة مروراً بالقصر العيني وجاردن سيتي وبولاق حتى منطقة روض الفرج المطلة علي النيل.



رسم تخيلي للفسطاط القديمة نقلاً عن :

Rappoport, S . History of Egypt From 330 B.C. To the Present Time, Volume 11 (of 12)

(٦)كلُّ مدينة فُسْطاط؛ ومنه قيل لمدينة مِصر التي بناها عمرو بن العاص: الفُسْطاط. قال الزمخشري: الفُسْطاط ضـرْب مـن الأَبنية في السفَر دون السُّرادق وبه سُميت المدينة. (ابن منظور، معجم لسان العرب)

وعن سبب التسمية نشير إلى أن عمرو بن العاص كما يذكر الطبري، وبعد فـتح حصـن بـابليون أراد رفـع الفسـطاط والمسير إلى الإسكندرية ليتمم فتح مصر، فإذا يمام قد فرخ في أعلاه فتركـه علـى حالـه وأوصـى بـه صـاحب الحصـن والقصر. فلما فتح الإسكندرية وأراد الاستقرار بها نهاه عمر بن الخطاب عـن ذلـك وأوصـاه باختيـار موضـع وسـط يتيسر الاتصال به، فلم يجد عمرو أنسب من اختيار الموقع الملاصق لحصن بابليون لحصانته وموقعـه وسـأل أصـحابه: أين تنزلون؟ قالوا: نرجع إلى موقع فسطاطه لنكون على ماء وصـحراء. فعـاد إليهـا ومَصّـرَها وأقطعهـا للقبائـل الـتي معه، فنسبت المدينة إلى فسطاطه، فقيل: فسطاط عمرو.

(٧) سميت بالمعلقة لأنها بنيت على برجين من الأبراج القديمة للحصن الروماني (حصن بابليون) ، ذلك الـذي كـان قـد بناه الإمبراطور تراجان في القرن الثاني الميلادي، و تعتبر المعلقة هي أقدم الكنائس التي لا تزال باقية في مصر.

ولقد سكن الفسطاط أمراء وقواد جيش عمرو بن العاص، وقام بتخطيط المدينة بحيث خصص لكل قبيلة عربية موقع ليسكن فيه الجنود الذين ينتمون لهذه القبيلة، وكان لكل قبيلة بيوتها التي تتكون من طابق واحد ومسجدها الذي تقام فيه الصلوات الخمس. أما مسجد عمرو فهو المسجد الجامع الذي تقام فيه الصلوات الجامعة مثل الجمعة والعيدين، كما يجتمع فيه الوالي لينظر في شئون الرعية و ترفع إليه المظالم و يخطب فيه الوالي كلما استدعي الأمر.



الأطلال الباقية من مدينة الفسطاط
وهي عبارة عن أساسات لمنازل يعود بناؤها إلى ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين

ثم ما لبثت أن اتسعت المدينة واجتذبت عامة الشعب للسكن فيها. وقد ازدانت الفسطاط بالدور و البساتين، و منها دار عمرو بن العاص التي سميت بالدار الكبرى، و دار ابنه عبد الله التي سميت بدار عمرو الصغرى، و دار الزبير بن العوام. كما شيد عبد الله بن سعد بن أبي السرح لنفسه قصراً كبيراً، سمي بقصر الجن لكبره و ضخامته. كما أمر مروان بن الحكم ببناء الدار البيضاء ليسكن فيها أثناء إقامته في مصر. كذلك اتخذ عبد العزيز بن مروان داراً سماها الدار الذهبية سنة ٦٧ هـ غربي المسجد الجامع ، وكان يطلق علي داره اسم المدينة لعظمها.

وقد كثرت بالفسطاط الحارات والأزقة والدروب، التي تعتبر مظهرًا من مظاهر التوسع العمراني والازدهار الاقتصادي، وكان يفصل بين منازل الفسطاط أنواع من الطرقات المختلفة الاتساع والامتداد فأكبرها لا يزيد عرضه عن ستة أمتار، وأضيقها لا يتجاوز مترًا ونصف المتر، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم حارة أو درب أو زقاق، وكانت تسمى بأسماء القبائل التي نزلت بها أو باسم كبار العرب الذين سكنوها أو بأسماء الحرف والصناعات أو أنواع التجارة.

كانت الفسطاط العاصمة الاقتصادية لمصر، حتى بعد بناء العسكر والقطائع والقاهرة المعزية، و ذلك لأن الفسطاط كانت متصلة اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي من خلال نهر النيل. فكانت البضائع ترد إلي الفسطاط من بحر الروم (البحر المتوسط) عن طريق النيل، ومن بحر قلزم (البحر الأحمر) عن طريق الدواب أو خليج أمير المؤمنين. فكانت الأسواق في الفسطاط تعج بالبضائع من بلاد الهند والصين مثل المسك والعود والكافور والدارصيني، ومن بلاد الروم ترد الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. وكانت المراكب تجوب النيل تحمل البضائع نازلة إلي الإسكندرية وصاعدة إلي الصعيد.



الأطلال الباقية من مدينة الفسطاط
وهي عبارة عن أساسات لمنازل يعود بناؤها
إلى ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين

كما أصبحت الفسطاط المركز الرئيسي لحركة النقل المائي، وقد وصفها المقريزي بانخفاض أسعارها عن القاهرة، ووجدت المحال التجارية علي ساحل الفسطاط، حيث تفرغ البضائع مباشرة علي أبوابها. وكان يستحيل نقل البضائع علي ظهور الدواب نظرا لازدحام مدينة الفسطاط، حتى أن الرحالة المقدسي، الذي زار مدينة الفسطاط، تعجب من كثرة السفن والمراكب التي رآها بميناء الفسطاط. كما أن الرحالة بن سعيد، الذي زار الفسطاط، قال" لئن قلت إنني لم أبصر علي نهر ما أبصرته علي ذلك الساحل فإني أقول حقا". وعندما كانت ترسو المراكب الواصلة إليها والمحملة بأصناف الغلات المختلفة، كان الحمالون يقومون بحمل ذلك إلي أماكن التخزين الخاصة بها التي تقوم في عدة أماكن بالقاهرة.(٨)

و لما جاء الحكم العباسي أقام الوالي مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ فسكنها الأمراء والقواد. فلما شيد أحمد بن طولون القطائع سنة ٨٧٠ م / ٢٥٦ هـ، سكنها الأمراء أيضاً، وظلت مدينة القطائع عامرة حتى انقرضت دولة بني طولون، فعاد الأمراء إلي العسكر. وفي عصر الدولة الإخشيدية بنى "محمد بن طغج الإخشيدي" مركزاً لصناعة السفن بساحل الفسطاط.

(٨) "الفسطاط ميناء إسلامي وترسانة"، موقع مصر الخالدة.- متاح بتاريخ ٢ سبتمبر ٢٠٠٩ على الرابط: (www.eternalegypt.org)

فلما جاء الفاطميون أقاموا مدينة القاهرة لسكني الخليفة الفاطمي وقواده وحاشيته، وظل الناس يسكنون مدينة الفسطاط التي ازدادت في العمارة والسكان حتى صارت في ذلك الوقت من أكبر المدن من حيث كثافة للسكان.

و جاءت نهاية الفسطاط سنة ١١٦٨م / ٥٦٤ هـ علي يد الوزير شاور في عهد آخر الخلفاء الفاطميين الخليفة العاضد بالله، فقد عمد شاور إلي إحراق المدينة عن آخرها حتى لا تقع في يد الصليبيين الذين أغاروا علي مصر نتيجة ضعف الخليفة الفاطمي وتنازع شاور وضرغام علي وزارة البلاد. [٩]



الأطلال الباقية من مدينة الفسطاط وهي عبارة عن أساسات لمنازل يعود بناؤها إلى ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين

أمر شاور الناس بإخلاء مدينة الفسطاط و الانتقال إلي القاهرة، فارتحل الناس بأسرهم وما خف حمله وغلا ثمنه ونزلوا بالقاهرة فافترشوا الطرقات وأقاموا في المساجد والحمامات والأزقة. ثم أمر شاور بإحراق الفسطاط عن آخرها، وأرسل لذلك "عشرين ألف قارورة نفط، و عشرة آلاف مشعل نار" وأشعل النار في مساكن المدينة ومبانيها، و ظلت النار مشتعلة فيها (٥٤) يوماً، فخربت كلها ولم يبق منها إلا مسجد عمرو بن العاص.



الأطلال الباقية من مدينة الفسطاط وسط طغيان المياه الجوفية

(٩) شريف عبد المنعم، مقال بعنوان " الفسطاط: جولة مع عمرو بن العاص".- موقع إسلام أون لاين/ تراث وحضارة.- منشور بتاريخ ٨ مارس ٢٠٠٩ على الرابط: (www.islamonline.net)

و عندما دخل صلاح الدين الأيوبي مصر مع عمه أسد الدين شيركوه علي رأس الجيش الذي أرسله نور الدين زنكي لتخليص مصر من فساد وزرائها والخلافة الفاطمية المتهاوية، وبخ صلاح الدين شاور علي إقدامه علي إحراق الفسطاط، وأمر بقطع رقبته لأنه هو الذي استقوي بالصليبيين علي جيش نور الدين، وأغراهم أن يدخلوا مصر ليحولوها إلا إمارة صليبية. ولكن القدر شاء أن ينتصر جيش أسد الدين شيركوه ويصير الحكم بعد ذلك لصلاح الدين الأيوبي.





نماذج من آلاف القطع الخزفية التي تم اكتشافها في الفسطاط [*]

وعندما رحل أموري (عموري) عن مصر، عاد الناس إلي الفسطاط يبنون فيها ما تلف من أبنيتها من جديد،[١٠] فقد ذكرت المصادر التاريخية، أن هذه المدينة هي مركز تصنيع الأسطول الذي أستخدمه صلاح الدين في البحر المتوسط لمحاربة الصليبين، كما حدث في عهد الملك الكامل محمد وولده الصالح نجم الدين أيوب. وكانت هذه السفن تجهز بالأسلحة والمحاربين، ثم كان يتم إرسالها من الفسطاط عن طريق النيل إلي المواني الشمالية مثل الإسكندرية، ورشيد ودمياط.

كان للترسانة أيضاً دوراً حيوياً في بناء المراكب البحرية في عصر المماليك، فقد منع السلطان الظاهر بيبرس الناس من التصرف في خشب السفن وأمر بإنشاء عشرين مركباً. كما كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأخيه السلطان الناصر محمد بن قلاوون من كبار صناع السفن في الفسطاط. ويذكر أن دار صناعة[١١] الفسطاط قد توقفت عن العمل في عصر الناصر محمد ابن قلاوون.

(١٠) سميت الفسطاط منذ ذلك الحين – بعد إعادة بناءها – مدينة مصر التي هي الآن مصر القديمة.

(١١) كلمة (دار الصناعة) هي كلمة عربية تعني دار صناعة السفن، وقد استخدمها الإيطاليون بلفظ Darsena ثم Arsenal حيث شاعت بين باقي لغات أوروبا.

(*) جميع الصورة الواردة عن الفسطاط نقلاً عن: موقع (www.islamonline.net) ملف الفسطاط: تاريخ منسي

في الحقيقة؛ إذا ما بحثنا في تاريخ العرب المسلمين نرى أنهم حين خرجوا من شبه الجزيرة العربية فاتحين ورجال دعوة للدين الإسلامي، وبناة حضارة جديدة، كانوا قد تعودوا على الاستقرار في المدن كمكة والمدينة، وعندما دفعهم الجهاد إلى الخروج من مواطنهم إلى آفاق جغرافية جديدة، كانوا مهيئين لهذه النقلة التاريخية من طور البداوة إلى طور الحضارة، وهذا ما جسده بناء البصرة سنة ١٥هـ ، والكوفة سنة ١٧هـ، ثم الفسطاط سنة ٢١هـ.[١٢]



تصور تقريبي لما كانت عليه القاهرة والفسطاط

(١٢) مقال بعنوان " إنشاء الفسطاط"، موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ٥ فبراير ٢٠٠٨ على الرابط: (www.islamstory.com)

ولمزيد من التفاصيل عن مدينة الفسطاط راجع:

Abu-Lughod, Janet L. Cairo: 1001 Years of the City Victorious (Princeton University Press, 1971)
Antoniou, Jim. "Historic Cairo – rehabilitation of Cairo's historic monuments". (Cited in March 1998) http://findarticles.com/p/articles/mi_m3575/is_n1213_v203/ai_20633899.
David, Rosalie, The Experience of Ancient Egypt.- New York: Routledge, 2000
Eyewitness Travel: Egypt. Dorlin Kindersley Limited, London. 2007.
Ghosh, Amitav, In an Antique Land (Vintage Books, 1994).
Lapidus, Ira M., A History of Islamic Societies.- Cambridge University Press. 1988
Maalouf, Amin, The Crusades Through Arab Eyes.- Al Saqi Books. 1984
Mason, Robert B., "New Looks at Old Pots: Results of Recent Multidisciplinary Studies of Glazed Ceramics from the Islamic World". Muqarnas: Annual on Islamic Art and Architecture (Brill Academic Publishers) XII. 1995
Petersen, Andrew, Dictionary of Islamic Architecture. - New York: Routledge. 1999
Yeomans, Richard, The Art and Architecture of Islamic Cairo. Garnet & Ithaca Press. 2006

جامع عمرو بن العاص ٦٤٢م / ١٢هـ

جامع عمرو هو أول مسجد أُنشئ في مصر وأفريقيا يخرج منه نور الإسلام والإيمان إلى بقية البلدان، كما يعتبر الرابع في الإسلام بعد مساجد المدينة ، والبصرة ، والكوفة. يطلق عليه تاج الجوامع، والمسجد العتيق، ومسجد الفتح، ومسجد النصر، وجامع مصر، وقطب سماء الجوامع.

اختار عمرو بن العاص مكاناً مرموقاً لمسجده، فكان منتصف مدينة الفسطاط العاصمة وهى مدينة مستديرة لم يبن فيها عمرو أية حصون أو قلاع، لأن أهل مصر دخلوا الإسلام عن عقيدة وإيمان ولم ير منهم عداء قط.(١٣) وكانت مساحته وقت إنشائه ٢٩ مترا × ١٧ مترا، ويطل المسجد على النيل من الناحية الشمالية الغربية وهو مكان حديقة " قيسبة بن كلثوم"، وقد عرض عمرو بن العاص عليه أن يعوضه عنها ولكنه تبرع بها ورفض التعويض.(١٤)



(١٣) محمود أحمد، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية.- القاهرة: ١٩٨٣.

(١٤) منال سيد، مقال بعنوان " مسجد عمرو بن العاص قلعة العلم ومنارة الإسلام"، شبكة الإعلام العربية.- متاح بتاريخ ١٤ مايو ٢٠٠٨ على الرابط: (http://www.moheet.com/show_files.aspx?fid=123825)
معلومات عن جامع عمرو بن العاص من كتاب القاهرة للأستاذ شحاتة عيسى إبراهيم، متاح بتاريخ ١٦ سبتمبر٢٠٠٩ على الرابط: (www.egyptarch.com/historicalcairo/islamicmonements)

كانت أرض الجامع يغطيها الحصى، وكان سقفه منخفض مصنوع من الجريد، محمولاً علي دعامات من جذوع النخل. وكان للجامع ستة أبواب، بابان في كل جانب ما عدا جانب القبلة.[١٥] ولم يكن له صحن أو مئذنة أو محراب[١٦]، وبه بئر يعرف بالبستان استخدمه المصلون وقتها للوضوء. و لقد شيد عمرو بن العاص له منبراً [١٧]، و لكن عمر بن الخطاب أمره بإزالته قائلاً له: "أما حسبك أن تقوم قائماً، والمسلمون جلوس عند عقيبيك".[١٨] ويقال أنه وقف علي إقامة قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة، منهم : الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري.[١٩]



وكانت دروس الفقه تعطي في مسجد عمرو، والمستمعون يجلسون في حلقة حول المدرس الذي يجلس مسنداً ظهره إلي أحد الأعمدة. وأشهر من علّم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو بن العاص، ويعتبر مؤسس مدرسة مصر الدينية، إذ أخذ عنه كثير من أهلها.

والبناء الحالي للجامع يختلف تماماً عن بنائه الأصلي، فقد هدم عدة مرات وأُعيد بنائه بعد زيادة مساحته، ومن أهم التعديلات التي أُجريت علي الجامع كانت في عهد قرة بن شريك والي مصر من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ / ٧١٠ م فقد هدمه وزاد في مساحته و أنشأ فيه محراباً مجوفاً و منبراً خشبياً ومقصورة.

(١٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة/ تحقيق إبراهيم علي طرخان.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٦٣. (الجزء الأول، ص ٦٧)

(١٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ . (الجزء الرابع، ص٤)

(١٧) المِنْبَرُ مَرْقاةُ الخاطب، سمي مِنْبَراً لارتفاعه وعُلُوِّه. (لسان العرب)

(١٨) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٩١٤. (الجزء الثالث، ص ٣٤١)

(١٩) موسوعة مساجد مصر: وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (نسخة إلكترونية)

كما زاد في مساحته عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل الخليفة العباسي المأمون، فأصبحت ١١٢× ١٢٠ متراً .وفى عهد الدولة الطولونية وقع في مؤخر المسجد، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته، فأعيد على ما كان عليه وأنفق فيه ستة آلاف وأربعمائة دينار وكتب اسم خماروية في دائرة الرواق.

وفى العصر الإخشيدي نقش أكثر العمد وطوقت بأطواق من الفضة، حتى إذا ما جاء منتصف القرن الرابع الهجري كان المسجد بالغا حده من الزخرف، من تذهيب ونقش وتطويق للعمد. وقد زاره في ذلك الوقت الرحالة عبد الله المقدسي فقال:" أنه أحسن البناء وفى حيطانه شيء من الفسيفساء، يقوم على أعمدة رخام وهو أكبر من جامع دمشق وهو أعمر كل وضع بمصر ".(٢٠)



وبرغم أن الجامع الأزهر هو مسجد، الدولة الرسمي في عصر الدولة الفاطمية إلا أن جامع عمرو بن العاص حظي بالكثير من العناية والرعاية من خلفاء الدولة الفاطمية، فيحكي لنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار الجامع (١٠٤٥م - ١٠٤٧م) في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ووصفه بأنه كان قائماً علي أربعمائة عمود من الرخام، وكان يوقد في ليالي المواسم بأكثر من أربعمائة قنديل، ويفرش بعشر طبقات من الحصير الملون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك و العقود.(٢١)

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.- الطبعة الثانية.- ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩. ص ١٩٩
(٢١) موقع تاريخ مصر: أماكن مصر التاريخية/ جامع عمرو بن العاص. (www.egypthistory.net)

ولكن الجامع لحقت به أضرار كبيرة من جراء الحرائق التي اشتعلت في الفسطاط وأتت علي المدينة بأكملها سنة ١١٦٨م بأوامر من الوزير شاور في عهد الخليفة العاضد، فكان شاور يريد أن يعيق دخول الصليبيين والأيوبيين واستيلائهم علي المدينة.



كما أن الزلزال الكبير الذي وقع في مصر عام ٧٠٢ هج / ١٣٠٣م قد أضر بكثير من مباني القاهرة ومن بينها جامع عمرو الذي تشققت جدرانه وانفصلت أعمدته، فعهد الناصر محمد بن قلاوون إلي الأمير سلار بتعمير الجامع تعميراً شاملاً.

وقد قدم لنا الرحالة الأوروبي بوكوك وصفاً عن المسجد في سنة ١٧٣٧م، قال أنه يتكون من مساحة مستطيلة تتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة، رواق القبلة يتكون من سبعة بوائك والرواق المقابل له من سبعة كذلك. بينما يتكون الرواقين الجانبيين من ستة بوائك لكل منهما.(٢٢)

وفي سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧م أمر مراد بك، حاكم مصر من البكوات المماليك، بإصلاح المسجد وصلي فيه الجمعة الأخيرة من رمضان، فدرج الولاة من بعده علي صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان في مسجد عمرو أو المسجد العتيق.(٢٣)

---

(٢٢) موقع مصر الخالدة: جامع عمرو بن العاص. (www.eternalegypt.org)

يمثل موقع مصر الخالدة شراكة متميزة بين مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي (Cult Nat) وشركة IBM في تجربة غير مسبوقة لصور عالية الوضوح، ونماذج ثلاثية الأبعاد أعيد تكوينها للآثار المصرية، فيعتبر موقع مصر الخالدة هو سجل حي لأرض غنية بالفنون والتاريخ، بالشخصيات والأماكن، بالمعتقدات والأديان. يتم سرد قصص مصر الخالدة باستخدام أحدث التقنيات التفاعلية، بما فيها الصور عالية الدقة، والصور المتحركة، والبيئات التخيلية، بالإضافة إلى الكاميرات عن بعد، والنماذج ثلاثية الأبعاد وغيرها.

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار. – القاهرة: طبعة بولاق، ١٢٩٧هـ. ص ١١٢

ويصف لنا ابن إياس آخر عمارة أجريت للمسجد في العصر المملوكي فيقول في حوادث سنة ٨٧٦هجرية "وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه إلى جامع عمرو بن العاص وكشف عما تهدم من حيطانه وسقوفه وأمر ببنائه من ماله، وشرع في ذلك في الحال.(٢٤) وجاء في نزهة الناظرين:"أن الملك الأشرف أبا النصر قايتباي جدد من جامع عمرو بن العاص بعض جهاته".(٢٥)



وقد وصفه الأثري باسكال كوست سنة ١٨١٨م بأنه كان يتكون من صحن يحيط به أربعة أروقة، يتكون رواق القبلة من ست بوائك والرواق المقابل له من بائكة واحدة بينما يتكون أحد الرواقين الجانبيين من بائكتين والآخر من ثلاث بوائك. وقام أحد الأثريين برسمه سنة ١٨٤٣م ويظهر من الرسم أنه كان متخرباً تماماً.(٢٦) أما في سنة ١٨٤٥ م فقد قام محمد على بتجديد الجامع كله ليصبح ستة بوائك في رواق القبلة وستة بوائك في الجدار المقابل له وستة في كل من الجانبين. ولما جاءت الحملة الفرنسية على مصر جرى على مسجد عمرو ما جرى لغيره من الهدم والتخريب فقد أخذت أخشابه حتى أصبح أشوه مما كان.(٢٧)

(٢٤) موسوعة مساجد مصر: وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (نسخة إلكترونية)

(٢٥) مرعي بن يوسف الكرمي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين / دراسة وتحقيق أميرة فهمي دبابسة.– عمان: جامعة الأردن، د.ت. (رسالة ماجستير غير منشورة، ص ٢٢١)

(٢٦) موقع مصر الخالدة: جامع عمرو بن العاص. (www.eternalegypt.org)

(٢٧) علي مبارك، الخطط التوفيقية.– القاهرة: طبعة بولاق، ١٣٠٥هـ . (الجزء الرابع، ص٨)

أثناء ثورة القاهرة الثانية ١٨٠٠م أنشأ الثوار معملاً للقنابل ومصنعاً لصب الأسلحة، وانتزعوا من المساجد الحديد والخشب، وتطوع الحدادون والنجارون لصنع الأسلحة، وهاجم الثوار المعسكرات الفرنسية.

حمدنا الله مصطفى، تاريخ مصر الحديث والمعاصر.– القاهرة: جامعة عين شمس،٢٠٠٠.ص ٤٩.(غ منشورة)

وكان لجامع عمرو وظائف متعددة إذ لم يقتصر عمله على أداء الفرائض الدينية فحسب، بل كان جامعة تعقد فيه حلقات الدرس على كبار العلماء والفقهاء فهو بذلك يكون قد سبق الجامع الأزهر(٢٨) في وظيفة التدريس بأربعة قرون، إلا أن هناك فرقا بيناً، فبينما كانت دروس جامع عمرو تعطى تطوعا وتبرعا حسبة لوجه الله تعالى، كانت الدروس بالجامع الأزهر بتكليف من الدولة، ولذلك فهي تؤجر العلماء والمدرسين عليها وهى في ذلك أشبه بالمدارس والمعاهد النظامية اليوم.(٢٩)



والفرق الثاني بين جامع عمرو والأزهر، نجده متمثلا في مكان الدرس فانه يطلق على أماكن الدرس في جامع عمرو اسم زاوية وتعرف في الجامع الأزهر باسم حلقة. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن القائمين على التدريس بجامع عمرو من الأئمة والمتصوفين وكبار الفقهاء الذين ينزون في ركن معين فيجتمع التلاميذ والمريدون حولهم، بينما يقوم بالتدريس في الأزهر مدرسون مأجورون يجعلون أعمدة الأروقة مركزا لجلوسهم ويلتف الطلبة في حلقة حول العمود ومن هنا جاء اسم حلقات الدروس.(٣٠)

(٢٨)الجامع الأزهر: (٣٥٩-٣٦١ هـ/ ٩٧٠-٩٧٥م) من أهم المساجد في مصر وأشهرها في العالم الإسلامي، جامع وجامعة منذ أكثر من ألف عام، سُمي بالجامع الأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون.

(٢٩) سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١. (الجزء الأول، ص ٧١ – ٧٢).

(٣٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ . (الجزء الرابع، ص٢٠)

ولذلك لم يجانب ابن دقماق الصواب حين قال أن جامع عمرو بن العاص:" إمام المساجد ومطلع الأنوار اللوامع، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه وواظب على القيام بنواحيه". (٣١)





(٣١)ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٣٠٩هـ (الجزء الرابع، ص ٥٩).

خليج أمير المؤمنين ٢٣ هـ / ٦٤٣م

الخليج هو ترعة كانت تبدأ من نهر النيل وتمتد إلى الفرع البوباسطي للنيل (المسمى الآن فرع دمياط) ومنه يخترق وادي طميلات متجهاً شرقاً إلى البحيرات المرة لينحرف منها جنوباً حتى طرف البحر الأحمر قرب السويس.

في عهد سنوسرت الثالث عام ١٨٥٠ ق.م تم إنشاء أول قناة مائية تربط ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق النيل، سميت هذه القناة قناة سيزوستريس (التسمية الإغريقية لسنوسرت) وانشأ سنوسرت امتدادها واسماها قناة (كبريت)، وقد أدى ذلك إلى ازدياد حركة التجارة مع مصر وبلاد بونت وبين مصر وجزر البحر المتوسط (كريت وقبرص).وقد اختلف المؤرخون في دور سيتى الأول عام ١٣١٠ ق.م في حفر القناة، ولكن الأرجح أنه أعاد حفر القناة في عهده من عام ١٣١٩ ـ ١٣٠٠ ق.م.

أما الملك نخاو الثاني ٦١٠ ق.م أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين، فقد فكر في حفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر وحول هذا الموضوع يقول هيرودوت (القرن الخامس ق.م): "أنجب أبسماتيك نبكوس (نخاو) الذي حكم مصر وهو أول من شرع في حفر القناة التي تؤدي إلى بحر أروتوري (البحر الأحمر)".



وأثناء الاحتلال الفارسي لمصر، ظهرت أهمية برزخ السويس، حيث ازدهرت خطوط المواصلات البحرية بين مصر وبلاد فارس عبر البحر الأحمر، وإبان حكم شاهنشاه داريوش الكبير ملك الفرس من عام ٥٢٢ ـ ٤٨٥ ق.م تم إعادة الملاحة في القناة، وتوصيل النيل بالبحيرات المرة، وربط البحيرات المرة بالبحر الأحمر.

وعندما فتح الإسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ق.م أشرف على تخطيط مشروع القناة سنة ٣٣٥ ق.م لنقل سفنه الحربية من ميناء الإسكندرية وميناء أبي قير بالبحر المتوسط إلى البحر الأحمر عبر الدلتا والبحيرات المرة، كما بدأ تنفيذ مشروع قناة الشمال، إلا أن المشروعين توقفا لوفاته.وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام بطليموس الثاني PtolemyII "فيلادلفوس Philadelphus" عام ٢٨٥ ق.م باستكمال هذه القناة وأصبحت ممتدة من النيل حتى "أرسناو" (السويس حالياً) ولكن البيزنطيين أهملوها فطمرتها الرمال.

وأثناء الحكم الروماني لمصر، وفي عهد الإمبراطور الروماني تراجان Trajan عام ١١٧ق.م أعاد الملاحة للقناة، وأنشأ فرع جديد للنيل يبدأ من فم الخليج بالقاهرة، وينتهي في العباسة بمحافظة الشرقية، متصلاً مع الفرع القديم الموصل للبحيرات المرة. واستمرت هذه القناة في أداء دورها لمدة ٣٠٠ عام، ثم أهملت وأصبحت غير صالحة لمرور السفن.[٣٢]

وعندما فتح المسلمون مصر كان حفر خليج أمير المؤمنين من الأعمال العمرانية العظيمة التي قام بها عمرو بن العاص – رضي الله عنه – في مصر، فعن طريقه تم ربط النيل بالبحر الأحمر بحر القلزم وشبه الجزيرة العربية.

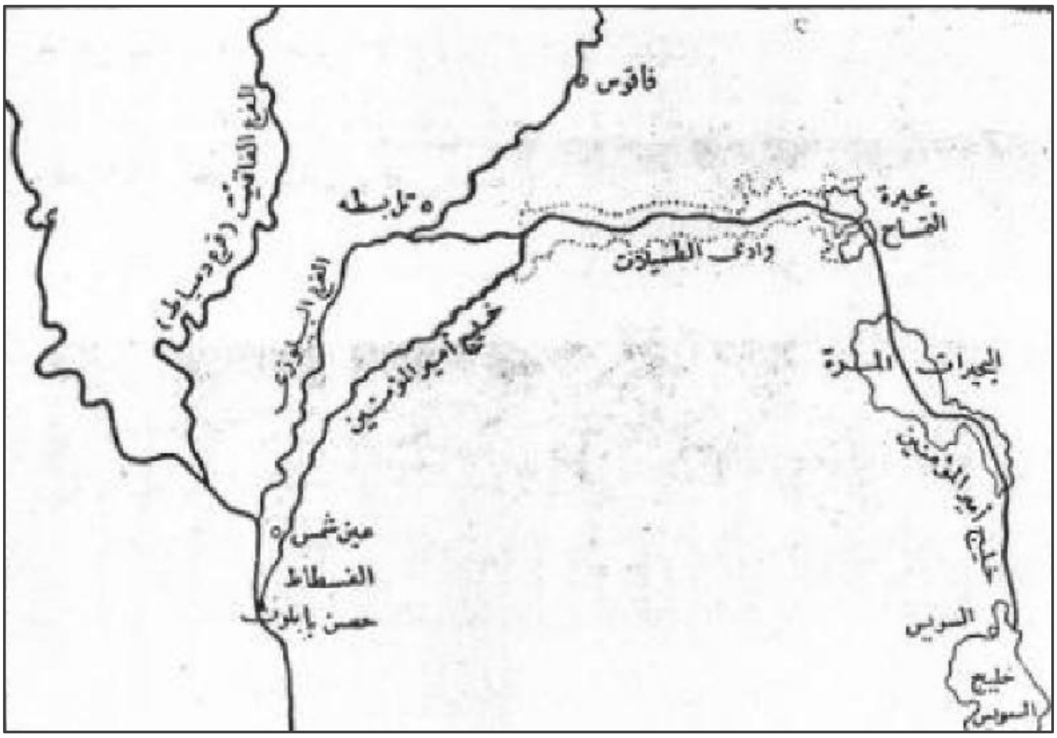
فقد ذكر ابن عبد الحكم في كتابة فتوح مصر والمغرب: أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر، فقدموا عليه، فقال عمر: "يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى في روعي، لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين، والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجًا من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم".[٣٣]

---

(٣٢) الموسوعة الحرة ويكيبيديا: قناة سيزوستريس. (http://ar.wikipedia.org)

(٣٣) موقع قصة الإسلام: مصر في عهد عمرو بن العاص. (www.islamstory.com)

نقل المقريزي عن ابن الحكم أن سبب حفر الخليج ما أصاب أهل المدينة من جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة ١٨هـ (٦٣٩ – ٦٤٠م) وسمي الرمادة لأن الريح كانت تسفي ترابا كالرماد ، واسودت الأرض من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد، فأصاب الناس بالحجاز قحط عظيم.



خليج أمير المؤمنين (٣٤)

فانطلق عمرو فأخبر بذلك من كان معه من أهل مصر فثَقُلَ ذلك عليهم، وقالوا:"نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له:إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون، ولا نجد إليه سبيلاً ". فرجع عمرو بذلك إلى عمر، فضحك عمر حين رآه، وقال:" والذي نفسي بيده لكأني أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم، وقالوا: يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له: إن هذا الأمر لا يعتدل، ولا يكون ولا نجد إليه سبيلاً". فعجب عمرو من قول عمر، وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر علي ما ذكرت، فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة مني حتى تجِدَّ في ذلك، ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله.

انصرف عمرو، وجمع لذلك من الفَعَلَةِ ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذي في حاشية الفسطاط الذي يقال له: خليج أمير المؤمنين سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣م، فساقه من النيل إلى القلزم فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين، وسمي خليج أمير المؤمنين.

(٣٤) نقلاً عن: عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية في مصر، ص٢١٦.

واستمر الخليج طريقاً للسفن إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بردم القناة تماماً، وسدها من ناحية السويس، منعاً لأي إمدادات من مصر إلى أهالي مكة والمدينة الثائرين ضد الحكم العباسي، ومن ثم أغلق الطريق البحري إلى الهند وبلاد الشرق وأصبحت البضائع تنقل عبر الصحراء بواسطة القوافل.[٣٥]

وفي النهاية لم يتبقى منه سوى الجزء الذي يخترق مصر والقاهرة، وكان يبقى جافاً طوال الشتاء ثم يفتح وقت الفيضان عندما يبلغ منسوب مياه النيل في مقياس الروضة إلى ١٦ ذراعاً، وهو ما يعتبر فيضانًا متوسطًا، ليس منخفضًا فيُخشى الجفاف، ولا عاليًا يهدد بإغراق الأراضي. وكان كسر الخليج يعني أن الفيضان قد أوفى وأن الخير سيعم البلاد، لذا كان يقام احتفال عظيم ويكسر السد الترابي المقام عند أول الخليج "فم الخليج" وهو المسمى بالسد البراني إلى جوار قنطرة السد ـ فيجري الماء في الخليج، حتى يصل إلى سد آخر عُرف باسم "السد الجواني[٣٦]" في آخر الخليج[٣٧] والذي لا يفتح إلا في يوم عيد النيروز.

وقد نعى أطلال الخليج أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الساعاتي بقوله:[٣٨]

قف بالخليج فإنه أشهى بقاع الأرض ربعاً

رقصت له الأغصان إذ أثنى الحمام عليه سجعاً

متعطّف كالأيم ذعراً حين خيف فضاق ذرعاً

كان مجرى الخليج يسيري مخترقاً المدينة موازياً للنيل وقريبًا منه، فكانت الضفة الغربية بين النيل والخليج ضيقة ثم اتسعت عندما زحف النيل غرباً،[٣٩] وكان سور القاهرة الفاطمية الغربي يطل مباشرة على الخليج حيث أطلق عليه الخليج الحاكمي أو خليج اللؤلؤة، ثم أطلق عليه خليج مصر أو الخليج المصري.

---

(٣٥) سرد المقريزي التاريخ المفصل للخليج في العصر الإسلامي في كتابه الخطط / الجزء الثاني، ص ٦٩٥ وما بعدها.

(٣٦) كان هذا السد ملاصقًا لقنطرة مقامة على الخليج تُدعى القنطرة الأميرية، فقد بناها أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد أحصى المقريزي في القرن الخامس عشر نحو (١٤) قنطرة مقامة على الخليج، وقد احتفظت منطقة السد الجواني باسم الأميرية حتى الآن.

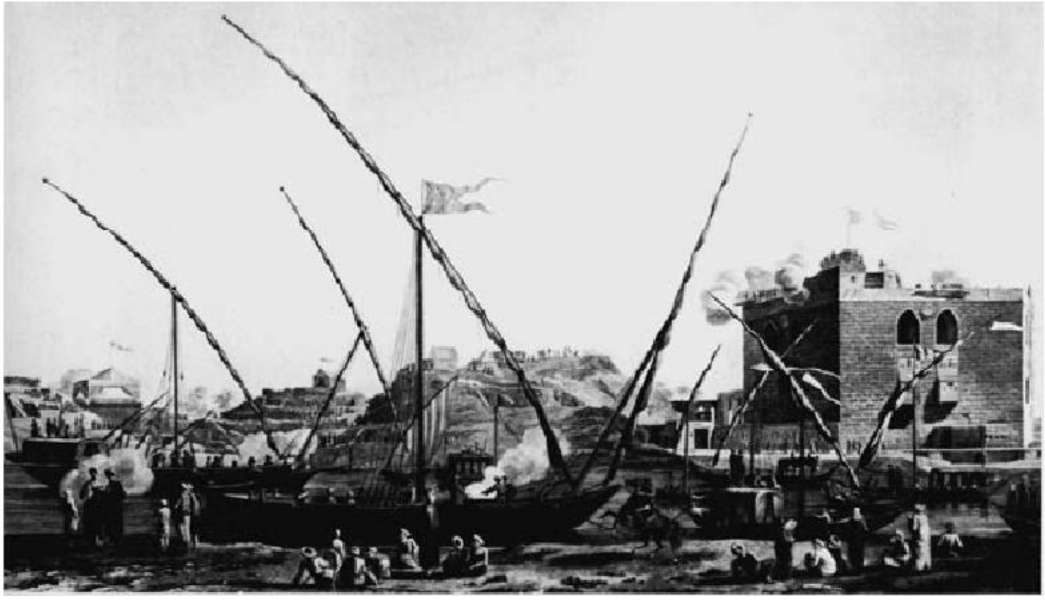
(٣٧) من ناحية المنطقة المعروفة حالياً باسم الوايلي.

(٣٨) محمد المبارك، مقال بعنوان " الانجازات التنموية الرائدة في عصر الخلافة الراشدة".- منشور بموقع صيد الفوائد.- متاح بتاريخ ٣٠ سبتمبر٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.saaid.net/Doat/almubark/1.htm)

(٣٩) الإشارة هنا إلى؛ أن أرض مصر بصفة عامة تميل من الشرق إلى الغرب، من جبال البحر الأحمر إلى منخفضات الصحراء الغربية، لذا تحرك مجرى النيل غرباً عبر آلاف السنين.

في الحقيقة؛ عندما طمرت الرمال هذا الخليج لم تبق منه سوى ترعة صغيرة تمتد من فم الخليج، تجري فيها مياه النيل وقت الفيضان إلى أن تتبدد في صحراء منطقة الوايلي، فأصبح الخليج مقلبًا للقمامة ومكانًا لصرف مخلفات البيوت، وشكل خطراً على الصحة العامة.[٤٠]

وفي عهد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢- ١٩١٤)[٤١] قامت شركة فرنسية بردمه عام ١٨٩٧ أثناء عمليات تحديث مدينة القاهرة، وأصبح أسمه شارع الخليج المصري وأقيم على امتداده خط للترام، وبعد العدوان الثلاثي على مصر [٤٢] تغير اسم الشارع عام ١٩٥٧ إلى شارع بورسعيد.



الاحتفال بفتح الخليج المصري أيام الحملة الفرنسية

(٤٠) الموقع الرسمي لكنيسة مارمينا فم الخليج: تاريخ الدير، (www.marmina-fumalkhalig.org)

(٤١) الخديوي عباس حلمي الثاني (١٤ يوليو ١٨٧٤ الإسكندرية – ١٩ ديسمبر ١٩٤٤ جنيف) ابن الخديوي محمد توفيق بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، حكم مصر من ٨ يناير ١٨٩٢ وعزل في ١٩ سبتمبر ١٩١٤. كان آخر خديوي لمصر والسودان. وكان أكبر أولاد الخديوي توفيق، حاول أن ينتهج سياسة إصلاحية ويتقرب إلى المصريين ويقاوم الاحتلال البريطاني، فانتهز الإنجليز فرصة بوادر نشوب الحرب العالمية الأولى وكان وقتها خارج مصر، فخلعوه من الحكم وطلبوا منه عدم العودة ونصبوا عمه حسين كامل سلطاناً على مصر بدلاً من أن يكون خديوي، وفرضوا على مصر الحماية رسمياً، وقد توفي في منفاه عام ١٩٤٤.

(٤٢) العدوان الثلاثي: هي حرب وقعت أحداثها في مصر في ١٩٥٦م وكانت الدول التي اعتدت عليها هي بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على أثر قيام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس. تعرف أيضا هذه الحرب بحرب الـ ١٩٥٦. وكان من أهم أسباب فشل العدوان الثلاثي على مصر هو شدة المقاومة المصرية و التحام الجيش والشعب ضد العدوان. ونتيجة لذلك زادت شعبية جمال عبد الناصر والخط السياسي لذي كان ينتهجه وازدادت هذه الشعبية أكثر بعد إعلان قيام الاتحاد العربي بين سوريا ومصر كنواة لدولة عربية شاملة ذات نظام لا مركزي والتي أعلنت عام ١٩٥٨.

عبد الله بن سعد بن أبي السرح [٤٣]

عندما تولي عثمان بن عفان الخلافة بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، عزل عمرو بن العاص و ولي عبد الله بن سعد بن أبي السرح علي مصر سنة ٢٤ هـ. و يقال في سبب العزل أن عمرو طلب من عثمان عزل عبد الله بن سعد عن ولاية صعيد مصر، فرفض عثمان وعزل عمرو و ولي عبد الله بن سعد بن أبي السرح ولاية مصر كلها.

اختلفت سياسة عبد الله عن ولاية عمرو بن العاص، فقد تشدد في جمع الضرائب وعامل المصريين بقسوة ترتب عليها أن حرض أهل الإسكندرية دولة الروم علي غزو مدينتهم. فعاد الروم يحتلون الإسكندرية و بعض مدن الوجه البحري، فبعث المصريون إلي الخليفة عثمان بن عفان يطلبون منه تكليف عمرو بن العاص بقتال الروم البيزنطيين، فاستجاب عثمان وأرسل عمرو بن العاص والياً علي الإسكندرية وأمره بقتال الروم، و نجح عمرو في مهمته وطرد الروم سنة ٢٥ هـ / ٦٤٦م.

كما أغار النوبيون علي مصر من الجنوب، فأعد عبد الله بن أبي السرح جيشاً بقيادة عقبة بن عامر وطردهم من حدود مصر ووصلت جيوشه إلي دنقلة من أرض السودان، و بعد قتال شديد انتصر المسلمون علي أهل دنقلة الذين سماهم العرب الأساود. وقد استمرت ولاية عبد الله بن سعد حوالي عشر سنوات، حتى قُتل عثمان بن عفان عام ٣٥ هـ، وقام علي بن أبي طالب بعزل عبد الله و ولي قيس بن سعد بن عبادة.

ولاة الفتنة الكبرى:

- قيس بن سعد بن عبادة
- الأشتر النخَعَي
- محمد بن أبي بكر الصديق

(٤٣) عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي. أسلم قبل الفتح وهاجر، ثم ارتد فأهدر النبي دمه، استأمن له عثمان بن عفان من النبي صلى الله عليه وسلم وكان أخاه من الرضاعة، فأسلم بعد ذلك. شارك عبد الله في الفتوح بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، و ولاه عثمان بن عفان بزمن خلافته إمارة الصعيد، ثم ولي مصر بعدها ، وفي مدة ولايته فتح فتوحاً عظيمة في بلاد النوبة والسودان سنة ٣١ من الهجرة، وعقد عهداً بينه و بين ملك النوبة بأن يؤمّن التجار ويحافَظ على المسجد الذي بناه المسلمون في دنقلة. تولى بناء و قيادة الأسطول الإسلامي في معركة ذات الصواري. وانتصر على البيزنطيين و أغرق ٩٠٠ سفينة من أسطول قنسطنس الثاني. كما غزا إفريقية عدة مرات سنة ٣١هـ ، و٣٣هـ حتى بلغ تونس. و بعد استشهاد عثمان اعتزل عبد الله السياسة و نجا بنفسه من الفتنة ، وخرج إلى عسقلان فظل فيها عابداً حتى توفي بها – حسب إحدى الروايات – سنة ٣٧هـ. وهناك رواية أخرى تذكر وفاة عبد الله ابن أبي السرح ، ودفنه بمدينة أوجلة في ليبيا.

قيس بن سعد بن عبادة [٤٤]

بعد مقتل عثمان بن عفان عام ٣٥ هـ، اضطرب الأمر في كل الولايات الإسلامية ومن بينها مصر، وانحازت فئة إلي معاوية بن أبي سفيان تطالب بدم عثمان وفئة أخري إلي علي بن أبي طالب. وقام علي بن أبي طالب بعزل عبد الله بن سعد من ولاية مصر، و ولي مكانه قيس بن سعد بن عبادة سنة ٣٧ هـ. وكان قيس من أدهي دواهي العرب، استطاع أن يستميل شيعة عثمان الذي كانوا يطالبون بدمه في مصر وعلي رأسهم معاوية بن حديج، ليأمن مكرهم ومكيدتهم، كما استطاع أن يضبط الأمور في البلاد مدة ولايته.

لذلك علم معاوية بن أبي سفيان أنه لن يستطيع أن يستولي علي مصر و يستقوي بها مع الشام ضد علي بن أبي طالب ما دام فيها قيس بن سعد، فأرسل إلي قيس يحاول أن يستميله إلي صفه، فتظاهر قيس أول الأمر بالمهادنة، لكن التظاهر لم ينطلي علي معاوية، فأغلظ له قيس في الرد و قال له في رسالة بعث بها إليه في دمشق: " أما بعد، فالعجب من اغترارك بي يا معاوية و طمعك في، تسُومني الخروج عن طاعة أولي الناس بالإمرة، وأقربهم للخلافة، وأقولهم للحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم إلي رسوله وسيلة، وأوفرهم فضيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلا، وأبعدهم من الله ورسوله وسيلة، ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت إبليس، وأما قولك: معك أعنة الخيل وأعداد الرجال، لتشتغلن بنفسك حتى العدم".

وعندما علم معاوية أنه لن يستطيع أن يستميله، لجأ إلي المكيدة، فأطلق إشاعة في الشام أن قيس بن سعد قد بايعه. وانتشرت الإشاعة حتى وصلت إلي علي بن أبي طالب، فأشار عليه أصحابه أن يقوم بعزل قيس بن سعد عن مصر، مخافة أن يكون الخبر صحيح. وبالفعل قام علي بن أبي طالب بعزل قيس عن ولاية مصر بعد أن دامت ولايته أربعة أشهر وخمسة أيام، و ولي عليها الأشتر النخَعَي.

---

(٤٤) قيس بن سعد بن عبادة -رضي الله عنه-، أبوه هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج، اشترك قيس مع ثلاثمائة صحابي في غزوة سيف البحر بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. وكان قيس يتمتع بالذكاء وحسن التدبير وسلامة التفكير. وكان قيس ملازمًا للنبي صلى الله عليه وسلم (حتى قال عنه أنس رضي الله عنه: كان قيس بن سعد بن عبادة من النبي صلى الله عليه وسلم (بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير. [البخاري والترمذي]. وجاهد قيس مع الخلفاء الراشدين، ووقف مع الإمام علي بن أبي طالب في معركة صفين والجمل والنهروان، ورأى أن الحق في جانبه، وقد ولاه الخليفة علي -رضي الله عنه- حكم مصر، ثم استدعاه منها وجعله على قيادة جيشه. كان معروفًا بالذكاء والدهاء، وكان يقول عن نفسه: لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (المكر والخديعة في النار لكنت من أمكر هذه الأمة). وعاش قيس في المدينة، حتى توفي -رضي الله عنه- في آخر خلافة معاوية رضي الله عنهم أجمعين.

الأشتر النخَعَي (٤٥)

ولي علي بن أبي طالب الأشتر النخعي علي مصر عام ٣٧ هـ، فأرسلت عيون معاوية بن أبي سفيان إليه بالخبر، و كان الأشتر مشهوراً بشجاعته وإقدامه وانحيازه لعليٍّ في موقعة الجمل. فبعث معاوية بن أبي سفيان إليه من يقتله عند قدومه إلي مصر، و بالفعل مات الأشتر بسم دُس له في العسل. وعندما بلغ معاوية وعمرو بن العاص الخبر، قال معاوية – و قيل عمرو – "إن لله جنوداً من عسل".

محمد بن أبي بكر الصديق (٤٦)

بعد اغتيال الأشتر النخعي، ولي علي بن أبي طالب محمد بن أبي بكر علي مصر سنة ٣٧هـ. وكان محمد فتي في الخامسة والعشرين من عمره، قليل الخبرة. كما أنه لم يسمع نصيحة قيس بن سعد عن كيفية معاملة شيعة عثمان في مصر حتى لا يثوروا عليه، لذلك وجد معاوية بن أبي سفيان أن الفرصة مواتية للانقضاض علي مصر، فأرسل جيشاً قوامه ستة آلاف رجل وعلي رأسه عمرو بن العاص إلي مصر لانتزاعها من محمد بن أبي بكر.

---

(٤٥) مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف الفرسان، ولقبه الأشتر (لإصابته برموش عينيه)تابعي، حدَّث عن عمر وعلي وخالد بن الوليد وأبي ذرّ الغفاري. وكان ذا فصاحة وبلاغة، فقئت عينه يوم اليرموك، ثم توجه إلى العراق مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حين قدم كتاب عمر بن الخطاب على أبي عبيدة، بأن يصرف جند العراق إلى العراق. كان الأشتر من أشد المعارضين لسياسة الخليفة عثمان ومن المدافعين عن حقوق المقاتلة في الفيء. اشترك الأشتر في معركة الجمل إلى جانب علي، كما كان على ميسرته في معركة صفين. عاد الأشتر بعد صفين إلى عمله بالجزيرة، فلما بلغ علياً ضعف محمد بن أبي بكر والي مصر، وممالأة اليمانية فيها معاوية وعمرو بن العاص، وجه الأشتر إليها، وكتب إلى أهل مصر، «إني بعثت إليكم سيفاً من سيوف الله، لا نابي الضربة ولا كليل الحد، فإن استنفركم فانفروا، وإن أمركم بالمقام فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي». ولكن الأشتر لم يصل إلى مصر وإنما مات بالقلزم (مدينة قرب العقبة على البحر الأحمر) ويقال إنه مات مسموماً من شربة من عسل قد جعل فيه سم.

أنظر: الأشتر النخَعَي.. حياته وشعره/ مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث، على الرابط: (http://www.tishreen.shern.net/new%20site/univmagazine/VOL272005/Arts/No1/2.doc)

(٤٦) محمد بن أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم القرشي، وأمه أسماء بنت عميس. ولد في كنف ابيه عام حجة الوداع ١٠ هـ حتى توفي أبو بكر الصديق بعد زمن ليس بكثير من ولادته فتزوج علي بن أبي طالب أسماء بنت عميس. تربى محمد في بيت علي ابن أبي طالب كولد من ولده. كان من الثائرين على الخليفة عثمان وكان ممن حاصروه وممن دخلوا عليه يوم قتل وأخذ بلحيته قبل أن يتخلى عن الحصار واعتزال الثوار. سيره علي إلى إمرة مصر في رمضان سنة ٣٧هـ فالتقى بعسكر معاوية وكان عليه معاوية بن حديج الكندي فقاتلهم محمد بمن معه حتى قتل، وتقول بعض الروايات أن محمد بن أبي بكر اختفى في بيت مصرية فأخذه معاوية بن حديج فقتله، وقيل دسه في بطن حمار ميت وأحرقه عليه. وقيل أرسله إلى عمرو بن العاص أمير مصر من قبل معاوية فقتله. ذكر هذه الروايات الذهبي في السير، كما ذكرت في غيره من كتب الأخبار والتاريخ.

أنظر: موقع إسلام ويب/ المكتبة الإسلامية (www.islamweb.net)

وتقابل جيش عمرو بن العاص وجيش محمد بن أبي بكر، ودارت معركة طاحنة كانت الغلبة فيها أولاً لجيش محمد بن أبي بكر الذي كان يقوده كنانة بن بشر. ولكن انضمام شيعة عثمان في مصر بقيادة معاوية بن حديج إلي جيش عمرو رجح كفته، وقُتل كنانة بن بشر. وتفرق جيش محمد بن أبي بكر عنه، ووقع هو في أسر معاوية بن حديج الذي قتله شر قتلة، وأرسل رأسه إلي معاوية بن أبي سفيان في دمشق.

و كان الأمويون و المتشيعون لعثمان يرون أن محمد بن أبي بكر كان من المحاصرين لبيت عثمان بن عفان والمشاركين في قتله، فقتلوه لذلك. وبهذه الصورة تملك عمرو بن العاص مصر مرة أخري من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة ٣٨ هـ.

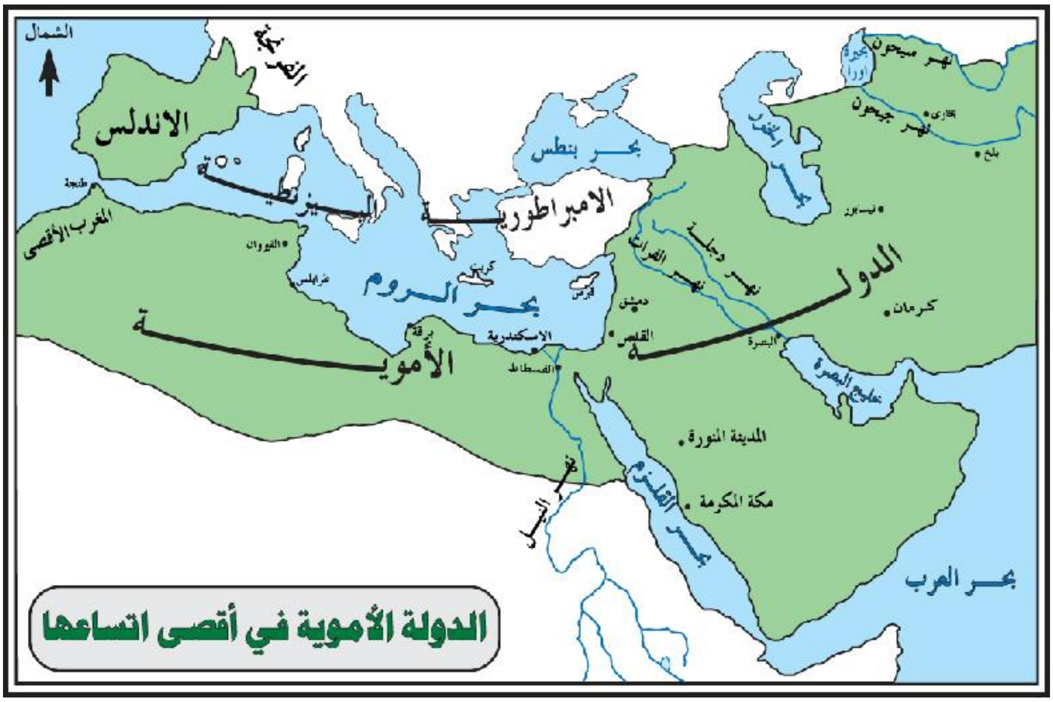
وفي عام ٤٠ هج قُتل علي بن أبي طالب علي يد عبد الرحمن بن ملجم من الخوارج، وهو يدخل مسجد الكوفة ليصلي الفجر. وقد خلفه ابنه الحسن الذي تخلي عن البيعة لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ حقناً لدماء المسلمين. وبذلك اجتمعت الخلافة والبيعة لمعاوية بن أبي سفيان من كل المسلمين.

فترة الدولة الأموية (٤٠- ١٣٢هـ / ٦٦١- ٧٥٠م)

تنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيداً من سادات قريش في الجاهلية. وكان بنو أمية من المتأخرين في دخول الإسلام، إذ أسلم أبو سفيان بن حرب عند فتح مكة، ولكن بعد إسلامهم أبلوا في خدمة الإسلام بلاءً حسناً وكان لهم دور كبير في عدد من الأحداث الجسام. وقد كانت لنشأة الدولة الأموية قصة تاريخية مشهورة، إذ كان التمهيد لبدايتها فتنة شديدة قامت بين رابع الخلفاء الراشدين سيدنا على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما، حين عارض معاوية خلافة على بن أبى طالب بحجة أن علياً تهاون في الدفاع عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد أسفرت هذه الفتنة عن معارك عنيفة بين الجانبين استمرت حتى يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ حين قتل أحد الخوارج الخليفة الراشد سيدنا على بن أبى طالب. وكان من الممكن أن تستمر هذه المحنة طويلاً لولا أن الحسن بن على الذي بويع بالخلافة بعد أبيه رضي الله عنهما تنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان حقناً لدماء المسلمين وتوحيداً لكلمتهم. وقد كان ذلك في عام ٤١ هـ الذي سمى بعام الجماعة، وهو يعد البدء الحقيقي للدولة الأموية التي بدأت بالتحديد حين أخذت البيعة لمعاوية بن أبى سفيان بالكوفة يوم ٢٥ ربيع الأول عام ٤١ هـ وأستمر معاوية في الحكم فترة تزيد على العشرين سنة، ثم ورث الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد مما أحدث فتنة أخرى.

حيث أمتنع عن المبايعة عدد من أكابر المجتمع وقتها، منهم الحسين بن على رضي الله عنهما ووقعت في عهده حوادث وفتن جسيمة استمر أثرها إلى الوقت الحاضر، ومن بعد وفاة يزيد حدثت قلقلة في البيت الأموي بعد مبايعة معاوية بن يزيد، وخرجت الخلافة في بقية الأقاليم من يد الأمويين إلى عبد الله بن الزبير حيث يعتبره معظم المؤرخين خليفة المسلمين في تلك الفترة، إلى أن عادت الخلافة إلى الأمويين عن طريق مروان بن الحكم بن العاص وبقيت الخلافة في نسله إلى أن سقطت على يد بني العباس عام ١٣٢هـ وكان آخر خلفائها مروان بن الحكم. وكان من أشهر الخلفاء عمر بن عبد العزيز الذين يعتبر في التاريخ الإسلامي خامس الخلفاء الراشدين لعدله وسيره على نهج الخلفاء الراشدين، ومنهم عبد الملك بن مروان أبو الجبابرة الأربع، وكان للدولة الأموية الفضل بعد الله في انتشار رقعة الإسلام والجهاد.(٤٧)



خريطة توضح الدولة الأموية في أقصى اتساع لها (٤٨)

---

(٤٧) وعن تاريخ الدولة الأموية راجع:

محمد الخضري، الدولة الأموية.- الطبعة الأولى.- المكتبة العصرية- الدار النموذجية، ٢٠٠٣. (٤١٥ صفحة)

عبد الأمير عبد حسين دكسن، الخلافة الأموية ٥٦- ٦٨هـ/ ٤٨٦-٥٠٧م.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٣.

محمد عبد الحي شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية (٦٠٠- ٧٥٠م).- الطبعة الأولى.- بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧. (٢١٥صفحة)

نبيه عقل، تاريخ خلافة بني أمية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣. (٤٠٠ صفحة)

(٤٨) نقلاً عن مكتبة الخرائط والصور التوضيحية/ موقع تقنيات التعليم بحائل (www.edu-maps.com)

ولاة مصر الأمويون

- **عمرو بن العاص** (٣٨ –٤٣ هـ): وهي الولاية الثانية له علي مصر، الأولي كانت من قبل عمر بن الخطاب، والثانية من قبل معاوية بن أبي سفيان كمكافأة له علي وقوفه بجانبه في قتاله ضد علي بن أبي طالب. وأصبح لعمرو بن العاص ولاية مطلقة في مصر، وسمح له معاوية أن يبقي علي خراج مصر بعد المصروفات ولا يرسل منه شيئاً إلي دمشق.(٤٩)

و في عام ٤٠ هج، اتفق ثلاثة من الخوارج علي قتل علي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان. فنجح عبد الرحمن بن ملجم في قتل علي بن أبي طالب و هو خارج إلي مسجد الكوفة لصلاة الفجر. أما يزيد الذي قصد عمرو بن العاص ليقتله، فقد قتل خارجة بن حذافة ظناً منه أنه عمرو، لأن عمرو بن العاص أصابته وعكة فلم يخرج في تلك الليلة. فنجا عمرو من الموت، كما نجا معاوية بن أبي سفيان.

مكث عمرو بن العاص في ولايته الثانية لمصر حوالي ٤ سنوات وتوفي سنة ٤٣هـ/ ٦٦٣م. وقيل أنه عندما شارف علي الموت جعل يذكر تحالفه مع معاوية ضد علي بن أبي طالب ويبكي. فقال له ابنه عبد الله: أتبكي جزعاً من الموت؟ فقال: لا والله ولكن مما بعده. وجعل أبنه يذكره بصحبته رسول الله ﷺ وفتوحه الشام، فقال عمرو: تركت أفضل من ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله، إني كنت علي ثلاثة أطباق ليس منها طبقة إلا عرفت نفسي فيها: " كنت أول شيء كافراً وكنت أشد الناس علي رسول الله ﷺ، فلو مت حينئذ لوجبت لي النار، فلما بايعت رسول الله ﷺ، كنت أشد الناس منه حياءً ما ملأت عيني منه، فلو مت حينئذ لقال الناس: هنيئاً لعمرو، أسلم علي خير ومات علي خير أحواله، ثم تلبست بعد ذلك بأشياء فلا أدري أعليٌ أم لي. فإذا مت فلا يُبكي عليٌ ولا تُتبعوني ناراً، وشدوا عليٌ إزاري فإني مخاصَم، فإذا أوليتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور و تقطيعها استأنس بكم حتى أعلم ما أراجع به رسل ربي".(٥٠)

توفي داهية العرب عمرو بن العاص في شوال من عام ٤٣ هـ في مصر، ولا يعرف حتى الآن أين دُفن. أما الضريح الموجود في الجهة الشرقية من مسجده، فإن المدفون فيه هو ابنه عبد الله بن عمرو وفقاً لبعض أقوال المؤرخين.

(٤٩) يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية/ ت.محمد عبد الهادي.- القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨.

(٥٠) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها/ تحقيق محمد صبيح.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي،١٩٩١. ص ١٢٣.

- **عتبة بن أبي سفيان** (٤٣ – ٤٤ هـ): وهو أخو معاوية بن أبي سفيان، ولاه معاوية بعد وفاة عمرو بن العاص، و لكنه لم يلبث أن مات عام ٤٤ هـ بعد عام واحد من ولايته.
- **عقبة بن عامر** (٤٤ – ٤٧ هـ): من الصحابة، دامت ولايته سنتين و ثلاثة أشهر، عزله معاوية بن أبي سفيان و ولي مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري.
- **مسلمة بن مخلد** (٤٧ – ٦٢ هـ): دامت ولايته حوالي خمسة عشر سنة، مكث علي ولاية مصر حتى وافته المنية في عهد الخليفة يزيد بن معاوية.
- **سعيد بن يزيد** (٦٢ – ٦٤ هـ): دامت ولايته حوالي سنتين، خلعه عبد الرحمن بن جحدم، والي مصر من قبل عبد الله بن الزبير بن العوام الذي أقام خلافة في مكة بدلاً من الخلافة الأموية في دمشق. وبايعه أهل مصر بعد وفاة يزيد بن معاوية و تخلي ابنه معاوية عن الخلافة.
- **عبد الرحمن بن جحدم** (٦٤– ٦٥ هـ): والي مصر من قبل عبد الله بن الزبير بن العوام، دامت ولايته تسعة أشهر، خلعه مروان بن الحكم الذي وثب علي الخلافة الأموية في دمشق، وسار بجيش إلي مصر وانتزعها من عبد الرحمن بن جحدم وولي عليها ابنه عبد العزيز بن مروان.
- **عبد العزيز بن مروان** (٦٥ – ٨٦ هـ): دامت ولايته حوالي عشرين سنة، اشتهر بفقهه وجوده و كرمه، ضرب الطاعون في عهده أهل مصر، وأصيب هو بالجذام، فاعتزل الناس في حلوان و عمّرها، مكث في ولايته حتى مات.

كان عبد العزيز بن مروان من أحسن وأعدل ولاة مصر في العصر الأموي، والحقيقة أن عبد العزيز بن مروان من الولاة القلائل الذين جمعوا بين الحكم والفقه والشعبية العريضة. وأبنه هو عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين. تولي عبد العزيز ولاية مصر في عهد خلافه أبيه مروان بن الحكم. ولما مات مروان وتولى أبنه عبد الملك الخلافة، أقر عبد العزيز علي ولاية مصر.

والحقيقة أن؛ عبد الملك كان يريد أن تكون ولاية العهد من بعده لابنه الوليد بدلاً من أخيه عبد العزيز، فكتب إلي عبد العزيز يستأذنه في ذلك، فرفض عبد العزيز وأصر أن تكون ولاية العهد له. وقد ظلت ولاية العهد لعبد العزيز حتى توفي قبل وفاة عبد الملك بسنة واحدة، فأصبحت ولاية العهد للوليد بن عبد الملك. وكان عبد العزيز بن مروان ممن أشاروا علي عبد الملك بن مروان أن يضرب

السكة (النقود) بدلاً من النقود الرومية التي كانت مستخدمة حتى ذلك الوقت، فكان ذلك من الأعمال الجليلة للمسلمين. (٥١)

أقام عبد العزيز بن مروان قنطرة علي خليج أمير المؤمنين بطرف الفسطاط كتب عليها اسمه سنة ٦٩ هـ. كما بنى مقياساً للنيل، وزاد في جامع عمرو بن العاص. وفي سنة ٧٣ هـ اتخذ من حلوان مركزاً له وداراً لإقامته بعد أن أصيب بالجذام ونقل معه بيت المال، واهتم بتعمير حلوان وأقام بها المساجد والبساتين والمباني وأهتم بالزراعة، وظل في حلوان حتى توفي سنة ٨٦ هـ، ودفن بالفسطاط.

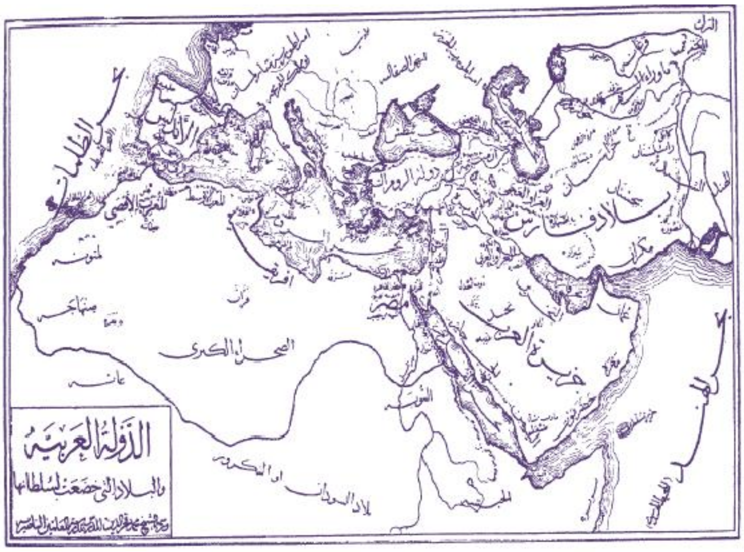
- **عبد الله بن عبد الملك بن مروان** (٨٦ – ٩٠ هـ): ابن الخليفة عبد الملك بن مروان، دامت ولايته ثلاث سنين، ساءت سيرته عند أهل مصر، فعزله الوليد بن عبد الملك و ولي قرة بن شريك مكانه.
- **قرة بن شريك** (٩٠ – ٩٦ هـ): دامت ولايته حوالي ست سنوات، كان مثال الظلم والجور والفسق، كرهه أهل مصر. وقال عنه عمر بن عبد العزيز" الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، و قرة بن شريك بمصر، وعثمان بن حيان بالمدينة، وخالد بمكة ! ، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً، فأرح الناس"، فمات الحجاج و قرة في شهر واحد، وتبعهما الوليد بن عبد الملك.
- **عبد الملك بن رفاعة** (٩٦ – ٩٨ هـ): ولاه الوليد بن عبد الملك، ثم مات الوليد وخلفه أخوه سليمان الذي أقره علي ولاية مصر ، عُرف عنه عفة اليد والعدل في الرعية.
- **أيوب بن شرحبيل** (٩٩ – ١٠١ هـ): ولاه عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة خلفاً لابن عمه سليمان بن عبد الملك، وفي عهده كثرت العطايا للناس وحسنت الأحوال. وعندما توفي عمر بن عبد العزيز وتولى من بعده يزيد بن عبد الملك تركه على ولاية مصر حتى توفي عام ١٠١ هـ.
- **بشر بن صفوان** (١٠١ – ١٠٢ هـ): تولي ولاية مصر من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان، ثم أرسله يزيد والياً علي المغرب ، فولي أخاه حنظلة على مصر بدلاً عنه.
- **حنظلة بن صفوان** (١٠٢– ١٠٥ هـ): عندما ولي الخليفة بشر علي إفريقية، قام بشر بتولية أخيه حنظلة علي مصر سنة ١٠٢ هـ. ثم عزله الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥، فكانت مدة ولايته لمصر ثلاث سنوات.

(٥١) محمد شاهين، السكة وضرب النقود في الدول الإسلامية: موسوعة دهشة (www.dahsha.com)

- **محمد بن عبد الملك بن مروان**(١٠٥ – ١٠٥ هـ): هو أخو الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان، ولاه أخيه علي مصر سنة ١٠٥ هـ ولكنه عندما جاء إلي مصر وجد فيها وباءً، فطلب إعفاءه من الولاية فأُعفي. وبذلك تكون مدة ولايته لمصر شهراً واحداً.
- **الحُرّ بن يوسف** (١٠٥ – ١٠٨ هـ): فيها ثار أهل مصر عليه لأن عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب قد زاد في خراج الأرض. وهذا هو أول ثورة لأهل مصر علي الولاة، فأرسل إليهم جيشاً من العرب و أخمد الثورة بالقوة.
- **حفص بن الوليد** (١٠٨ – ١٠٩ هـ): لم تدم ولايته ٤٠ يوماً، لأن عامل الخراج في مصر عبيد الله بن الحبحاب الذي كان مقرباً من الخليفة، قد اشتكاه، فعزله هشام بن عبد الملك و ولي عليها عبد الملك بن رفاعة الذي تولاها من قبل سنة ٩٦ هـ.
- **عبد الملك بن رفاعة** (١٠٩ هـ): مكث خمسة عشر ليلة ثم توفي، و تولي أخوه الوليد بن رفاعة ولاية مصر سنة ١٠٩ هـ.
- **الوليد بن رفاعة** (١٠٩ – ١١٧ هـ): ولي مصر ثماني سنوات، واستقرت له الأمور، وأحبته الرعية، ووافق النصارى علي عمارة كنيسة يوحنا بالحمراء.
- **عبد الرحمن بن خالد** (١١٧ – ١١٨ هـ): تولي مصر حوالي سبعة أشهر، وعزله الخليفة لأنه كان متراخياً فأغري الروم بالنزول علي شواطئ مصر وأسروا عدد كبير من أهلها.
- **حنظلة بن صفوان** (١١٩ – ١٢٤ هـ): دامت ولايته خمس سنوات. ثار عليه أهل مصر فقاتلهم حتى أخضعهم. وفي عهده حضرت رأس زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه، فطيف بها في الشوارع وعلقت. وكان زيد بن علي قد قتل في حربه ضد الخليفة الأموي. ودفنت رأس زيد في مصر.
- **حفص بن الوليد** (١٢٤ – ١٢٧ هـ): دامت ولايته ثلاث سنوات، ثم استعفي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فأعفاه و ولي مكانه حسّان بن عتاهية.
- **حسّان بن عتاهية** (١٢٧ هـ): دامت ولايته ستة عشر يوماً لأنه خفض رواتب الجند ، فثاروا ضده وأخرجوه من مصر، وولوا حفص بن الوليد مكانه.
- **حفص بن الوليد** (١٢٧ – ١٢٨ هـ): كان الجند قد ولوا حفصاً علي مصر، فلما أرسل الخليفة مروان بن محمد إلي حنظلة بن صفوان ليتولي مصر، قاتله جند مصر وأخرجوه من مصر و استقر الأمر لحفص حتى جاء عام ١٢٨ هـ ، فأرسل

الخليفة الحوثرة بن سهيل ليستعيد مصر. فجاء الحوثرة إلي مصر وقاتل حفص وقتله، وتولي ولاية مصر سنة ١٢٨ هـ.

- **حوثرة بن سهيل** (١٢٨ – ١٣١ هـ): تولي حوثرة ولاية مصر من قبل الخليفة مروان بن محمد، فقاتل الجند والمصريين الذين تجمعوا ليمنعوه من دخول مصر. وأرسل إلي كبار أهل مصر وضرب أعناقهم جزاءً علي ثورتهم. واستقرت له الأمور في مصر مدة ثلاث سنوات حتى أمره الخليفة مروان بن محمد أن يذهب لقتال العباسيين الذين كانوا علي أبواب الخلافة الأموية، فترك مصر وتولى من بعده المغيرة بن عبيد الله.
- **المغيرة بن عبيد الله** (١٣١– ١٣٢هـ): دامت ولايته عشرة أشهر، أحبته الرعية، ولكنه ما لبث أن مات وتولي مكانه عبد الملك بن مروان بن موسي بن نصير.
- **عبد الملك بن مروان بن موسي بن نصير** (١٣٢ هـ): هو أول من أمر باتخاذ المنابر في الجوامع ليخطب من فوقها الخطباء. ثار عليه أهل مصر فقاتلهم وقتل منهم الكثيرين حتى أخضعهم. قدم إليه الخليفة مروان بن محمد فاراً من العباسيين الذين دخلوا دمشق سنة ١٣٢ هـ. وتبعه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، والتقي جيش العباسيين وعلى رأسهم صالح بن علي مع مروان بن محمد وعبد الملك بن مروان والي مصر في بلدة بوصير بالجيزة، و انهزم الأمويون و قُتل مروان بن محمد و أرسلت رأسه إلي الشام. وبذلك زالت دولة بني أمية التي استمرت حوالي قرن من الزمان، وقامت دولة العباسيين.



خريطة توضح الدولة العربية والبلاد التي خضعت لسلطانها[٥٢]

---

(٥٢) نقلاً عن عمرو الإسكندري، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ص ١٦٧.

فترة الدولة العباسية (١٣٢- ٦٥٦هـ / ٧٥٠- ١٢٥٨م)

الحقيقة أن البطش الشديد الذي مارسه الأمويون للقضاء علي ثورات المناصرين لعلي بن أبي طالب والحسين بن علي وتنكيلهم بآل البيت قد أوغر صدور الكثيرين ضدهم، هذا بالإضافة إلي تعصب الأمويين ضد كل من هو ليس بعربي مما أهاج أهل فارس وخراسان ودفعهم للانضمام للدعوة الشيعية ليس مناصرةً لآل البيت وإنما نكاية في الأمويين ورغبة في الانتقام منهم.

لذلك تجمع الناس حول دعاة الشيعة وخاصة ً في بلاد فارس. ثم انتقل لواء الدعوة الشيعية لبني العباس علي يد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، الذي استغل الدعوة الشيعية لحشد الناس ضد الأمويين بدعوي مناصرة حق الشيعة وآل البيت في الخلافة. ونودي بأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أميراً للمؤمنين لدولة بني العباس، وحمل لواء دعوة العباسيين في خراسان أبو مسلم الخراساني الذي أخذ يطوف بسكان خراسان يدعوهم للثورة ضد الحكم الأموي. فاستطاع في خلال أربع سنوات أن يجمع القبائل الفارسية والعجمية حوله.[٥٣]

وفي شوال ١٢٩هـ أصبحت الدعوة العباسية علنية، فرفعت الرايات السوداء رمز العباسيين[٥٤]، واستطاع أبو مسلم الخراساني أن يخضع خراسان كلها تحت حكمه. وبذلك وضع اللبنة الأولي للدولة العباسية. وفي عام ١٣٢ هـ أرسل أبو مسلم الخراساني جيشاً بقيادة قحطبة بن شبيب إلي العراق فاستطاع هزيمة الأمويين وضم العراق لدولة بني العباس الوليدة.

ثم زحف العباسيون نحو دمشق مقر الخلافة الأموية، والتقوا بجيش الأمويين بقيادة مروان بن محمد الذي خرج لهم عند نهر الزاب في شمال العراق، وانتصر العباسيون، وفر الخليفة الأموي مروان بن محمد إلي مصر. ولكنه وقع في يد العباسيين الذين قتلوه ومثلوا به. وبذلك زالت الدولة الأموية وقامت الخلافة العباسية.

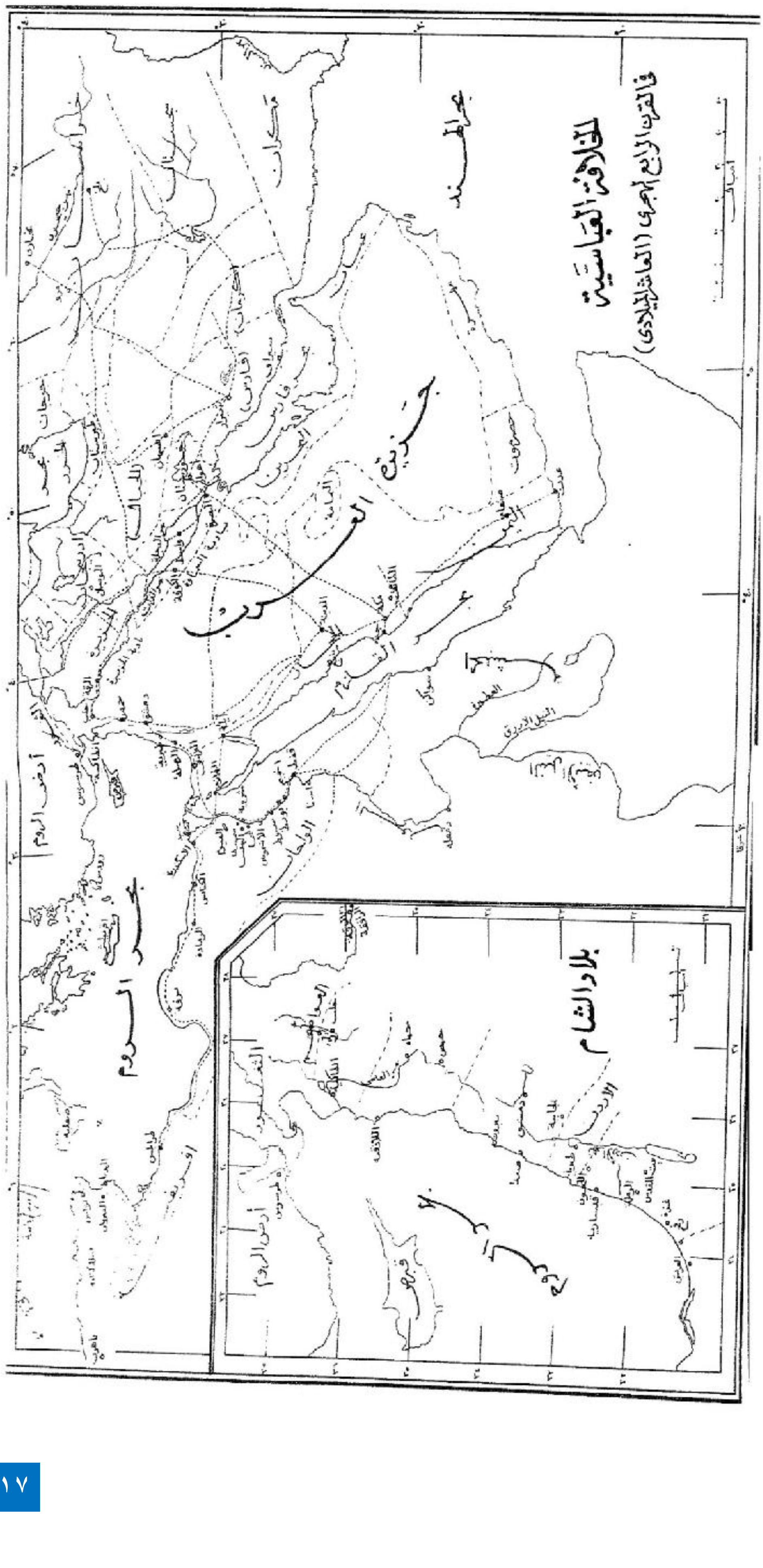
---

(٥٣) لمزيد من التفاصيل راجع:

فتحي أبو سيف، المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال.- الطبعة الثانية.- القاهرة، ١٩٩٩. ص ١٧- ٢٤.

(٥٤) كان شعار الدولة العباسية الراية السوداء، حيث كان اللون الأسود عند العباسيين رمزا للانتصار على الأعداء وكان لهم علم يسمى الظل، وراية تسمى السحاب. إضافةً إلى ذلك كانت للعباسيين أعلام أخرى مفضضة ومذهبة لفترة امتدت حتى عام ٨١٣ م وذلك أيام خلافة المأمون، وقد ألغيت بعد ذلك وأعيد استعمال اللون الأسود حتى نهاية الحكم العباسي على عهد المستعصم آخر خلفاء هذه الدولة. وفي أكثر من رواية كان يذكر أن العباسيين يرتدون ثيابًا سوداء فلهذا لا نستغرب تمسكهم باللون الأسود.

شكري شيخاني، مقال بعنوان: الرايات والأعلام.- منشور بموقع دنيا الرأي.- متاح بتاريخ ٢ أكتوبر٢٠٠٤ على الرابط: (http://pulpit.alwatanvoice.com/content-10591.html)



نقلا عن : سيدة الكاشف ، الاخشيديين

ولاة مصر العباسيون

- **صالح بن علي بن عبد الله بن العباس**(١٣٣هـ): ولي مصر من قبل الخليفة العباسي الأول عبد الله السفاح، بعد أن تتبع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إلي مصر وقتله في بلدة بوصير بالفيوم. مكث في ولايته علي مصر حوالي سبعة أشهر، ثم أمره الخليفة العباسي بتولي فلسطين واستخلاف أحد نوابه علي مصر، فاستخلف أبا عون عبد الملك بن يزيد.
- **أبي عون عبد الملك بن يزيد** (١٣٣ - ١٣٦ هـ): وأثناء ولايته ثار عليه أهل مصر في سمنود بالوجه البحري، فبعث إليهم جيشاً أخمد الثورة. بني مدينة العسكر ليسكنها عساكره. ثم عمرت وأصبحت مدينة لها أسواق ودور كبيرة. دامت ولايته ثلاث سنوات، ثم عزله الخليفة العباسي وولي صالح بن علي مرة أخري.
- **صالح بن علي** (١٣٦ – ١٣٧ هـ): ولاه أبو جعفر المنصور علي مصر فمكث بها، حتى أمره الخليفة بالخروج إلي فلسطين، وولي أبا عون مرة أخرى على مصر.
- **أبي عون عبد الملك بن يزيد** (١٣٧ – ١٤١ هـ): مكث في ولايته ثلاث سنوات ثم عزله أبو جعفر المنصور وولي علي مصر موسي بن كعب.
- **موسي بن كعب** (١٤١ هـ): تولي مصر أقل من عام، ثم عزله أبو جعفر المنصور وولي محمد بن الأشعث.
- **محمد بن الأشعث** (١٤١ – ١٤٢ هـ): دامت ولايته سنة واحدة ثم عزله المنصور وولي مكانه حميد بن قحطبة.
- **حميد بن قحطبة** (١٤٢ – ١٤٤ هـ): ودامت ولايته سنة وشهرين ، ثم عزله أبو جعفر المنصور و ولي يزيد بن حاتم.
- **يزيد بن حاتم** (١٤٤ - ١٥٢ هـ): دامت ولايته حوالي ثماني سنوات. في عهده قامت فتنة الحجاز بقيادة محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويكني بمحمد النفس الزكية، فهو من العلويين. قد ثار ضد حكم أبي جعفر المنصور العباسي وحشد الناس خلفه في الحجاز، وتسربت دعوته لمصر فبايعه أهل مصر، ولكن أبا جعفر المنصور أرسل عيسي بن موسي لإخماد ثورته، فاقتحم عيسي بن موسي المدينة و قتل الكثيرين من جنده. وقتل ابن قحطبة محمد النفس الزكية وقطع رأسه و صلب جسده، وكان ذلك في ١٤ رمضان من عام ١٤٥ هـ.وفي عهد يزيد بن حاتم أيضاً ثار أهل مصر في مدينة سخا، فأرسل إليهم جيشاً فهزموه، فعزله أبو جعفر المنصور وولي مكانه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج.

- **عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج** (١٥٢ – ١٥٥ هـ): دامت ولايته حوالي ثلاث سنوات، ولاه أبو جعفر المنصور بعد عزل يزيد بن حاتم، هو من بني أمية، ولكنه طلب الأمان من بني العباس، فأجابوه.
- **محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج** (١٥٥ هـ): أوصي له أخوه بالولاية قبل موته، فلما مات تولي ولاية مصر بموافقة الخليفة أبي جعفر المنصور. ولكنه ما لبث أن مرض ومات في نفس السنة بعد ثمانية أشهر من بداية ولايته.
- **موسى بن عُلي بن رباح**، (١٥٥– ١٦١ هـ): ولاه أبو جعفر المنصور بناءً علي وصية محمد بن عبد الرحمن، ثار عليه أهل مصر، فحاربهم وكسر شوكتهم، عزله محمد المهدي لما ولي الخلافة بعد وفاة أبيه أبي جعفر المنصور، فدامت ولايته ست سنوات.
- **عيسى بن لقمان**، (١٦١ – ١٦٢ هـ): دامت ولايته خمسة أشهر فقط، ثم عزله الخليفة المهدي.
- **واضح المنصوري**، (١٦٢ هـ): لما ولي مصر، شد علي الناس فشكوه إلي الخليفة العباسي، فعزله، وبذلك دامت ولايته أربعة أشهر.
- **منصور بن يزيد**، (١٦٢ هـ): دامت ولايته شهرين فقط.
- **يحيي بن داود**، (١٦٣– ١٦٤ هـ): دامت ولايته سنة وعدة أشهر، فرح المصريون بعزله لأنه كان شديد البأس، قاسياً.
- **سالم بن سوادة**، (١٦٤ هـ): دامت ولايته حوالي سنة، ثم عزله الخليفة المهدي.
- **إبراهيم بن صالح**، (١٦٥ – ١٦٧ هـ): تقاعس عن التصدي لثورة قام بها دحية بن المعصب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الأموي في الصعيد، فاستفحل أمره، فعزله الخليفة المهدي عن مصر، دامت ولايته ثلاث سنوات.
- **موسى بن مصعب**، (١٦٧ – ١٦٨ هـ): عُرف بتشدده مع الناس، وزاد الخراج علي كل فدان الضعف، وفرض ضرائب علي الأسواق و الدواب، وارتشي في الأحكام، فثارت عليه قيس واليمانية، و انضم إليهم بقية أهل مصر، فلما خرج لقتالهم، لم يخرج معه أهل مصر، فهُزم وقُتل. وهي من أشهر ثورات أهل مصر ضد الولاة في العصر العباسي، يقول ابن تغري في كتابه النجوم الزاهرة:" فكان موسي هذا من شر ملوك مصر، كان ظالماً غاشماً، سمعه الليث بن سعد يقرأ في خطبته: إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها (الكهف ٢٩)، فقال الليث: اللهم لا تقه منها".

- **عسامة بن عمرو**، (١٦٨ هـ): ولي مصر بعد مقتل موسي بن مصعب، حارب الأموي دحية المتحصن في الصعيد، ولكن لم ينتصر أي منهما، وبقي دحية متحصناً في الصعيد.
- **الفضل بن صالح**، (١٦٩ هـ): لما قدم مصر جهز جيشاً من الشام لحرب دحية الأموي، ووجهه إلي الصعيد، فانتصر جيش الفضل وقُبض علي دحية وسيق إلي الفسطاط، فضرب الفضل عنقه و صلب جثته. وبذلك انتهى أمر ثورة دحية الأموي التي استمرت حوالي أربع سنوات. ولكن الخليفة الهادي ابن المهدي عزله عن ولاية مصر وولى علي بن سليمان.
- **علي بن سليمان**، (١٦٩ – ١٧١ هـ): بعد أن ولاه الخليفة الهادي توفي، وخلفه أخوه هارون الرشيد الذي أقره علي ولاية مصر. كان علي بن سليمان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، منع في أيامه الملاهي والخمور، وقام بهدم الكنائس فكلمه القبط في ذلك و أرادوا أن يعطوه مالاً ليدع الكنائس ولكنه أبى. عزله الخليفة هارون الرشيد لأنه سمع أنه يقول أنه أولي بخلافة المسلمين، فكانت ولايته علي مصر سنة وعدة أشهر.
- **موسى بن عيسى بن العباسي**، (١٧١– ١٧٢هـ): هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الأمير أبو عيسى العباسي الهاشمي. ولاه الخليفة هارون الرشيد إمرة مصر على الصلاة بعد عزل علي بن سليمان عنها، فقدم موسى إلى مصر في أحد الربيعين من سنة إحدى وسبعين ومائة وسكن بالعسكر وجعل على شرطته أخاه إسماعيل، ثم عزله وولى عسامة بن عمرو. ثم وقع من موسى هذا أمور غير مقبولة منها: أنه أذن للنصارى في بنيان الكنائس التي كان هدمها علي بن سليمان فبنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالا: هي من عمارة البلاد واحتجا بأن الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمان الصحابة والتابعين. وقد استمر موسى بعد ذلك على إمرة مصر إلى أن عزله الرشيد عنها بمسلمة بن يحيى لأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وخمسة أشهر وخمسة عشر يومًا.[٥٥]

---

(٥٥) عزت اندراوس، موسوعة تاريخ أقباط مصر (Coptic history).– متاح بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٠٨ على الـرابط: (http://www.coptichistory.org/new_page_4428.htm)

- **مسلمة بن يحيى البجلي**، (١٧٢ – ١٧٣هـ): هو مسلمة بن يحيى بن قرة بن عبيد الله بن عتبة البجلي الخراساني أمير مصر.أصله من أهل خراسان وقيل من جرجان وخدم بني العباس وكان من أكابر القواد، ولاه هارون الرشيد على إمرة مصر على الصلاة والخراج معًا بعد عزل موسى بن عيسى العباسي في سنة اثنتين وسبعين ومائة، وقدم إلى مصر في شهر رمضان من السنة المذكورة في عشرة آلاف من الجند وسكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، وجعل على الشرطة أبنه عبد الرحمن فلم تطل مدته على مصر، ووقع في ولايته على مصر أمور وفتن حتى عزله الخليفة هارون الرشيد في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة، فكانت ولايته على إمرة مصر أحد عشر شهرًا وكانت أيامه مع قصرها كثيرة الفتن.
- **محمد بن زهير الأزدي**، (١٧٣هـ): هو محمد بن زهير الأزدي أمير مصر. ولاه هارون الرشيد على إمرة مصر وجمع له بين الصلاة والخراج معًا وذلك بعد عزل مسلمة بن يحيى في شعبان سنة ١٧٣هـ، وقد سكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، واستعمل على خراج مصر عمر بن غيلان، وعلى الشرطة حنك بن العلاء، ثم عزله وولى عمار بن مسلم بن عبد الله الطائي أيامًا، ثم صرفه وولى حبيب ابن أبان أبن الوليد البجلي. ولما ولي عمر بن غيلان خراج مصر شدد على الناس وعلى أهل الخراج فنفرت القلوب منه، وثار عليه الجند وقاتلوه، وحصروه في داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير صاحب الترجمة، فانحط قمر عمر بن غيلان وتلاشى أمره مع الجند وغيرهم. وبلغ الخليفة هارون الرشيد ذلك فعظم عليه عدم قيام محمد بن زهير بنصرة عمر بن غيلان المذكور، فعزله عن إمرة مصر في ذي الحجة من سنة ثلاث وسبعين ومائة، فكانت ولاية محمد بن زهير على إمرة مصر خمسة أشهر تنقص أيامًا. وقد توجه إلى الرشيد فزجره ثم جعله من جملة القواد، وندبه للاستيلاء على مال محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة بعد موته.
- **داود بن يزيد المهلبي**، (١٧٤– ١٧٥هـ): هو داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة المهلبي أمير مصر، ولاه الخليفة هارون الرشيد على إمرة مصر على الصلاة بعد عزل محمد بن زهير الأزدي، فقدم مصر في ١٤محرم ١٧٤هـ وسكن داود العسكر على العادة، ثم أخذ داود في إصلاح أمر مصر، وأخرج الجند الذين كانوا ثاروا على عمر بن غيلان صاحب خراج مصر وكانوا عدة كبيرة. وسكن الحال بديار مصر وأمن الناس واستمر داود على إمرة مصر إلى أن صرفه الرشيد عنها في ٦ محرم سنة ١٧٥هـ فكانت ولايته على مصر سنة واحدة ونصف شهر.

- **موسى بن عيسى**، (١٧٥هـ): ولاية موسى بن عيسى الثانية على مصر هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي، ولي إمرة مصر ثانية من قبل الرشيد بعد عزل داود بن يزيد المهلبي. سكن بالعسكر على العادة وحدثته نفسه بالخروج على الرشيد فبلغ الرشيد ذلك، قال أبو المظفر بن قزاوغلي في تاريخه مرآة الزمان:"وبلغ الرشيد أن موسى ابن عيسى يريد الخروج عليه فقال: والله لا عزلته إلا بأخس من على بابي فقال لجعفر بن يحيى: ول مصر أحقر من على بابي وأخسهم فنظر فإذا عمر بن مهران كاتب الخيزران وكان مشوه الخلقة ويلبس ثيابًا خشنة ويركب بغلاً ويردف غلامه خلفه فخرج إليه جعفر وقال: أتتولى مصر فقال: نعم فسار إليها فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل فقصد دار موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس فلما انفض المجلس قال موسى: ألك حاجة فرمى إليه بالكتاب فلما قرأه قال: لعن الله فرعون حيث قال:" أليس لي ملك مصر" ثم سلم إليه ملك مصر. [٥٦] وبذلك كانت ولاية موسى بن عيسى الثانية على مصر سنة واحدة إلا أيامًا قليلة.
- **عمر بن مهران**، كاتب الخيزران (١٧٥هـ)[٥٧]: لم يذكر عمر بن مهران أحد من المؤرخين في أمراء مصر، ويتفق جمهور المؤرخين على أن موسى بن عيسى عُزل بإبراهيم بن صالح العباسي، ولعل الرشيد لم يرسل عمر بن مهران إلا لنكاية موسى، ثم أقر الرشيد إبراهيم بعد خروج المذكور من بغداد، فكانت ولاية عمر على مصر شبه الاستخلاف من إبراهيم بن صالح ولهذا أبطأ إبراهيم بن صالح عن الحضور إلى الديار المصرية بعد ولايته مصر عن موسى المذكور.

(٥٦) ابن الجوزي: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان/ تحقيق إحسان عباس.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٥.

(٥٧) يقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ:" وفيها عزل الرشيد موسى بن عيسى عن مصر ورد أمرها إلى جعفر بن يحيى بن خالد فاستعمل عليها جعفر عمر بن مهران... فتقدم عمر إلى كاتبه ألا يقبل هدية إلا ما يدخل في الكيس فبعث الناس بهداياهم فلم يقبل دابة ولا جارية ولم يقبل إلا المال والثياب فأخذها وكتب عليها أسماء أصحابها وتركها وكان أهل مصر قد اعتادوا المطل بالخراج وكسره فبدأ عمر برجل منهم فطالبه بالخراج فلواه فأقسم ألا يؤديه إلا بمدينة السلام فبذل الخراج فلم يقبله منه وحمله إلى بغداد فأدى الخراج بها فلم يمطله أحد فأخذ النجم الأول والنجم الثاني فلما كان النجم الثالث وقعت المطاولة والمطل وشكوا الضيق فأحضر تلك الهدايا وحسبها لأربابها وأمرهم بتعجيل الباقي فأسرعوا في ذلك فاستوفى خراج مصر عن آخره ولم يفعل ذلك غيره ثم انصرف إلى بغداد".

- **جعفر بن يحيى البرمكي** [٥٨]، (١٧٥هـ): قال الذهبي:"ولى الرشيد مصر لجعفر بن يحيى البرمكي بعد عزل موسى"، فعلى هذا يكون عمر نائبًا عن جعفر، ولم يصل جعفر إلى مصر في هذه السنة، ولهذا لم يثبت ولايته أحد من المؤرخين. ويقول ابن الأثير في الكامل:" عزل الرشيد موسى بن عيسى عن مصر ورد أمرها إلى جعفر بن يحيى بن خالد فاستعمل عليها جعفر عمر بن مهران".
- **إبراهيم بن صالح بن عبد الله العباسي**، (١٧٦هـ): سكن إبراهيم العسكر ولم تطل أيامه فكان مقامه بها شهرين وثمانية عشر يومًا، حيث مات في ٣ شعبان سنة ١٧٦هـ وقام بأمر مصر بعد موته أبنه صالح بن إبراهيم بن صالح مع صاحب شرطته خالد بن يزيد إلى أن ولي مصر عبد الله بن المسيب.
- **عبد الله بن المسيب بن زهير**، (١٧٦ – ١٧٧هـ): هو عبد الله بن المسيب بن زهير بن عمرو بن جميل الضبي. ولاه الرشيد مصر على الصلاة بعد موت إبراهيم بن صالح العباسي فقدم إلى مصرفي ١١رمضان سنة ١٧٦هـ وسكن العسكر. لم تطل ولايته على مصر، حيث عُزل في شهر رجب سنة ١٧٧هـ، فكانت ولايته على إمرة مصر نحو عشرة أشهر.
- **إسحاق بن سليمان**، (١٧٧ – ١٧٨هـ): هو إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل عبد الله بن المسيب في مستهل شهر رجب سنة ١٧٧هـ. وأخذ في إصلاح أمر مصر وكشف أمر خراجها فلم يرض بما كان يأخذه قبله الأمراء، وزاد على المزارعين زيادة أفحشت بهم،"فسئمته الناس وكرهته"، فعزله الرشيد في شهر رجب ١٧٨هـ فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وأيامًا.

(٥٨) أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك بن جامامش بن بشتاسف البرمكي، وزير هارون الرشيد وحامل خاتم السلطة. اشتهر بمكانته من هارون الرشيد وعلو قدره ونفاذ كلمته. بدأ الرشيد يقلل من نفوذ البرامكة بعد وفاة والدته (الخيزران)، فأصدر أمرا يقضي بإعفاء جعفر البرمكي من حمل خاتم السلطة، موجها بذلك أول ضربة إلى عائلة البرامكة للحد من نفوذها. وفي عام ٨٠٢ هـ وبعد أن أدى هارون الرشيد فريضة الحج، وكتب وصيته المشهورة عاد إلى مدينته الأثيرة التي أحبها وهي(الرقة) ومعه أبناؤه وقادته وحاشيته ومنهم البرامكة، وبعد ليلة سمر رائقة في مخيمه في الرقة، وفي منتصف الليل تحرك رجال الأمن المحيطون بالرشيد، واعتقلوا كل رجال البرامكة وأنصارهم، وهم بالآلاف، وقتل جعفر البرمكي في تلك الليلة، وعلقت جثته على جسر في بغداد، وبقيت معلقة لمدة عامين، وبقي قادة البرامكة في السجن، وعذبوا وأهينوا، ومات كثير منهم في السجن، إلى أن آلت الخلافة إلى الأمين الذي أطلق سراح من بقي منهم، وهم نحو ألف شخص. أنظر:
أندريه كلو، هارون الرشيد ولعبة الأمم/ ترجمة صادق عبد المطلب الموسوي.- الطبعة الأولى.- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥. (٢٦٦ صفحة)

- **هرثمة بن أعين**، (١٧٨هـ): هو هرثمة بن أعين أحد أمراء الرشيد وخواص قواده، ولاه على إمرة مصر لما بلغه ما وقع لإسحاق بن سليمان العباسي مع أهل مصر، وبعثه إليها في جيش كبير وحرضه على قتال المصريين. تلقاه أهل مصر بالطاعة وأذعنوا له فقبل هرثمة منهم ذلك وأمنهم وأقر كل واحد على حاله، وأرسل يعلم الرشيد بذلك. ثم ورد عليه الخبر بعزله عن إمرة مصر وخروجه بالعساكر نحو إفريقية في شوال ١٧٨هـ، فكانت إقامته على إمرة مصر شهرين ونصف شهر.
- **عبد الملك بن صالح بن علي العباسي**، (١٧٨هـ):عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الأمير أبو عبد الرحمن الهاشمي العباسي. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد توجه هرثمة بن أعين إلى إفريقية، ولم يدخلها واستعمل عليها عبد الله بن المسيب الضبى المعزول عن إمرة مصر قديمًا، ولم تطل مدة عبد الملك هذا على ولاية مصر وصرف عنها في سنة ١٧٨هـ وتولى مصر من بعده عبيد الله بن المهدي.
- **عبد الله بن المسيب العباسي**، (١٧٨هـ): هو عبد الله بن المسيب بن زهير بن عمرو بن جميل الضبي. تولى مصر لمدة شهرين، ثم صرف ولزم داره إلى أن مات.
- **عبيد الله بن المهدي العباسي**، (١٧٩هـ): هو عبيد الله ابن الخليفة محمد المهدي ابن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس العباسي الهاشمي. ولاه الرشيد مصر بعد عزل عبد الملك بن صالح عنها، أقام عبيد الله على إمرة مصر، ثم خرج منها إلى جهة الإسكندرية لما بلغه أن الفرنج قدموا الإسكندرية بعد انهزامهم من الحكم بن هشام، واستخلف على مصر عبد الله بن المسيب-سبق ذكره-، فغاب عبيد الله مدة ثم عاد إليها، ودام على إمرة مصر إلى أن صرفه أخوه الرشيد عنها ، فكانت ولايته تسعة أشهر إلا أيامًا قليلة.
- **موسى بن عيسى بن العباسي**، (١٨٠هـ): هذه ولاية موسى بن عيسى الهاشمي العباسي الثالثة على مصر، ولاه الرشيد على مصر بعد عزل عبيد الله بن المهدي، أخذ في إصلاح أمور مصر إلى أن صرفه الرشيد عنها في جمادى الآخرة سنة ١٨٠هـ، فكانت ولايته نحوا من عشرة أشهر.
- **عبيد الله بن المهدي**، (١٨١هـ):ولاية عبيد الله بن المهدي الثانية على مصر،ولم تطل مدته في مصر حتى صُرف عنها في رمضان ١٨١هـ فكانت ولايته سنة واحدة وشهرين تقريبًا.

- **إسماعيل بن صالح**، (١٨٢ – ١٨٣هـ): هو إسماعيل بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل عبيد الله بن المهدي عنها، أخذ في إصلاح أمر الديار المصرية وكان شجاعًا فصيحًا عاقلًا أديبًا. ثم صُرف عنها في جمادى الآخرة سنة ١٨٣هـ، وكانت مدته على إمرة مصر ثمانية أشهر وعدة أيام تقارب شهرًا.
- **إسماعيل بن عيسى العباسي**، (١٨٣هـ): هو إسماعيل بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن العباس العباسي الهاشمي. ولاه الرشيد على إمرة مصر بعد عزل إسماعيل بن صالح العباسي، سكن العسكر على عادة أمراء مصر ودام على إمرتها إلى أن صرفه الرشيد عنها في شهر رمضان ١٨٣هـ، فكانت ولايته على مصر ثلاثة أشهر تنقص أيامًا.
- **الليث بن الفضل**، (١٨٤ – ١٨٧هـ): هو الليث بن الفضل الأبيوردي، ولاه الرشيد على إمرة مصر بعد عزل إسماعيل بن عيسى، مهد أمور مصر واستوفى الخراج ودام على ذلك إلى أن خرج من مصر وتوجه إلى الخليفة هارون الرشيد في رمضان ١٨٤هـ بالهدايا والتحف، فوفد على الرشيد وأقام عنده مدة، ثم عاد إلى مصر واستمر على إمرتها إلى أن خرج منها ثانيًا إلى الرشيد في رمضان ١٨٥هـ. وكان هذا دأبه كلما غلق خراج سنة ونجز حسابها وفرق أرزاق الجند أخذ ما بقي وتوجه به إلى الرشيد ومعه حساب السنة. ثم عزله الرشيد عن إمرة مصر في جمادى الآخرة سنة ١٨٧هـ، فكانت ولاية الليث على مصر أربع سنين وسبعة أشهر.
- **أحمد بن إسماعيل**، (١٨٧ – ١٨٨هـ): هو أحمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس الأمير أبو العباس الهاشمي العباسي. ولاه الرشيد بعد عزل الليث بن الفضل، استمر في الإمارة إلى أن صرف عنها في شعبان سنة ١٨٩، فكانت ولايته على إمرة مصر سنتين وشهرًا ونصف شهر.
- **عبد الله بن محمد**، (١٨٩ – ١٩٠هـ): هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الأمير أبو محمد الهاشمي العباسي المعروف بابن زينب. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل أحمد بن إسماعيل، وسكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، ولم تطل مدته على إمرة مصر وعزل في شعبان سنة ١٩٠هـ، فكانت مدة ولايته على مصر ثمانية أشهر وتسعة عشر يومًا.(٥٩)

(٥٩) ذكر المقريزى في الخطط/ الجزء الثاني: (ثم ولي عبيد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس على الصلاة .. وصرف لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين ومائة).

- **الحسين بن جميل**، (١٩١- ١٩٢هـ): هو الحسين بن جميل مولى أبي جعفر المنصور. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل عبد الله بن محمد العباسي عنها، أخذ في إصلاح أمور مصر، وتشدد في جمع الخراج، عُزل عن إمرة مصر في ربيع الأول سنة ١٩٢هـ، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وسبعة أشهر وأيامًا.
- **مالك بن دلهم الكلبي**، (١٩٢- ١٩٣هـ): هو مالك بن دلهم بن عيسى بن مالك الكلبي أمير مصر. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل الحسين بن جميل عنها، وقد صرفه الخليفة في صفر سنة ١٩٣هـ، كانت ولايته على مصر سنة واحدة وخمسة أشهر تنقص أيامًا. وكان سبب عزله أن الأمين أرسل إليه في أول خلافته بالدعاء على منابر مصر لابنه موسى، واستشاره في خلع أخيه المأمون من ولاية العهد فلم يشر عليه.
- **الحسن بن التختاخ**[٦٠]، (١٩٣- ١٩٤هـ): تولى الإمارة بعد عزل مالك بن دلهم، واستمر على إمرة مصر إلى أن توفي الخليفة هارون الرشيد وولي الخلافة ابنه الأمين محمد بن زبيدة، فثار جند مصر على الحسن، وبينما الحسن في ذلك ورد عليه الخبر بعزله عن مصر فخرج في ربيع الأول سنة ١٩٤هـ، وكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهرًا وثمانية وعشرين يومًا.
- **حاتم بن هرثمة**، (١٩٤- ١٩٥هـ): هو حاتم بن هرثمة بن أعين. ولاه الخليفة الأمين محمد على إمرة مصر، مهد أمورها وابتنى بها القبة المعروفة بقبة الهراء. ودام على ذلك حتى ورد عليه الخبر من الخليفة الأمين محمد بعزله عن إمرة مصر في جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة ونصف سنة تنقص أيامًا.
- **جابر بن الأشعث**، (١٩٥- ١٩٦هـ): هو جابر بن الأشعث بن يحيى بن النقي الطائي. ولاه الأمين على إمرة مصر وكان لينًا. خرج جابر من مصر في جمادى الآخرة سنة ١٩٦هـ، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة تقريبًا.
- **عباد بن محمد حيان**، (١٩٧- ١٩٨هـ): هو عباد بن محمد بن حيان البلخي. ولاه المأمون على إمرة مصر بعد عزل جابر بن الأشعث عنها، قتله الأمين في صفر سنة ١٩٨هـ، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وسبعة أشهر.[٦١]

(٦٠) ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة أن أسمه الحسن بن البحباح، وذكر المقريزي في الخطط أنه الحسن بن التختاح بن التختكان.

(٦١) كتب الأمين إلى ربيعة بن قيس بن الزبير الجرشي رئيس قيس الحوف بولاية مصر، وكتب إلى جماعة بمعاونته فقاموا ببيعة الأمين وخلعوا المأمون، وساروا لمحاربة أهل الفسطاط فخندق عباد وكانت حروب، فقتل الأمين وصرف عباد في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر. (المقريزي، الخطط / الجزء الثاني)

- **المطلب بن عبد الله الخزاعي**، (١٩٨هـ): هو المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي. ولاه المأمون على مصر بعد عزل عباد بن محمد عنها والقبض عليه، كان في أيامه اضطراب بمصر وفتن وحروب قائمة في كل قليل بديار مصر، فإن أهل مصر كانوا يوم ذاك فرقتين: فرقة من حزب الأمين محمد الخليفة وفرقة من حزب أخيه المأمون. فقاسى المطلب هذا بمصر شدائد مع أنه لم تطل مدته وعزل في شوال سنة ١٩٨هـ، فكانت ولايته على إمرة مصر نحوًا من سبعة أشهر ونصف شهر وقبض عليه وحبس مدة طويلة بإذن المأمون.
- **العباس بن موسى**، (١٩٨– ١٩٩هـ): هو العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي. ولاه المأمون على مصر بعد عزل المطلب عنها، ولما ولي مصر قدم ابنه عبد الله أمامه إلى مصر خليفة له عليها فقدم عبد الله إلى مصر ومعه الحسن بن عبيد بن لوط الأنصاري ومحمد بن إدريس– أعني الإمام الشافعي – رحمه الله. وسكن عبد الله العسكر على العادة، وتشدد على أهل مصر فبغضوه وثاروا عليه ووافقهم جند مصر فقاتلهم عبد الله المذكور غير مرة فهزموه وأخرجوه من مصر، ثم عمدوا إلى المطلب بن عبد الله وأخرجوه من حبسه وأقاموه على إمرة مصر في محرم سنة ١٩٩هـ، ولما بلغ العباس ما وقع لابنه عبد الله، قصد الديار المصرية حتى نزل بلبيس فمات بها مريضاً في جمادى الآخرة من سنة ١٩٩هـ، ويقال: أن المطلب دس عليه سمًا في طعامه فمات منه. وأما ابنه عبد الله فقد قتله الجند، فكانت مدة إقامته خليفة عن أبيه شهرين ونصف شهر. وأما ولاية العباس على مصر أيام ناب عنه ابنه و زمان قتاله مع أهل مصر فكانت كلها حروبًا وفتنًا. ولعل العباس لم يدخل مصر ولا حكمها.
- **المطلب بن عبد الله**، (١٩٩– ٢٠٠هـ):ولاية المطلب الثانية، لأنه لما قامت جند مصر والرعية على عبد الله بن العباس والحسن بن عبيد وأخرجوهما من مصر وقيل بل قتلوا عبد الله بن العباس المذكور ولوا عليهم المطلب هذا بعد أن أخرجوه من السجن فاستولى على مصر ورفق بالرعية وأجزل لهم أعطياتهم وأحسن إليهم فانضم عليه خلائق من الجند ومن أهل مصر وغيرهم فاستفحل أمره بهم وقويت شوكته وأخرج من كان بمصر من أصحاب العباس وابنه عبد الله. ولما بلغ المأمون ذلك لم يجد بدًا من أن يقره على إمرة مصر لشغله بقتال أخيه الأمين. ثم عزله في مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠هـ.

- **السري بن عبد الحكم**، (٢٠٠هـ): هو السري بن الحكم بن يوسف بن المقوم مولى من بني ضبة.تولى مصر بإجماع الجند وأهل مصر، وأخذ في إصلاح أمور مصر وقراها. وقد عزله الخليفة المأمون، وقيل: إنه هو الذي خرج من مصر واستعفي لأمور صدرت في حقه من الجند والرعية، وقيل: إن الجند قبضوا عليه بأمر الخليفة.
- **سليمان بن غالب**، (٢٠١هـ): هو سليمان بن غالب بن جميل بن يحيى بن قزة البجلي الأمير أبو داود. وقع بينه وبين الجند وحشة فوثبوا عليه وقاتلوه، ووقع له معهم وقائع وحروب كثيرة آلت إلى عزله عن إمرة مصر، فصرفه المأمون عنها وأعاد على إمرة مصر السري بن الحكم ثانية، فكانت ولاية سليمان هذا على إمرة مصر خمسة أشهر.
- **السري بن الحكم**، (٢٠١- ٢٠٥هـ): تولى مصر من قبل الخليفة المأمون، ولما ثبتت قدمه في إمرة مصر أخذ يتتبع من كان حاربه وعاداه في أول ولايته، فمسك منهم جماعة وأخرج جماعة، ومهد أمور مصر وأصلح أحوال أهل البلاد وأباد أهل الحوف. وأستمر على إمرة مصر إلى أن توفي بها في جمادى الأولى من سنة ٢٠٥هـ. كانت ولايته على مصر في هذه المرة الثانية ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يومًا.[٦٢]
- **محمد بن السري**، (٢٠٥ - ٢٠٦هـ): هو محمد بن السري بن الحكم بن يوسف الأمير أبو نصر الضبي البلخي. ولي إمرة مصر بعد وفاة أبيه السري بن الحكم، وقد مرض ولزم الفراش حتى مات في شعبان سنة ٢٠٦هـ، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهرين وثمانية أيام.
- **عبيد الله بن السري**، (٢٠٦ – ٢١٠هـ): هو عبيد الله بن السري بن الحكم بن يوسف ولي إمرة مصر بعد موت أخيه محمد بن السري بمبايعة الجند له، ثم حدثته نفسه الخروج عن طاعة المأمون، فبلغ المأمون ذلك وبعث بجيش لمحاربته، فانهزم وسلم في صفر ٢١١هـ، وكانت ولايته على إمرة مصر أربع سنين وسبعة أشهر إلا ثمانية أيام.
- **عبد الله بن طاهر** ، (٢١١هـ): هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الأمير أبو العباس الخزاعي أمير خراسان. ولي مصر من قبل المأمون بعد عزل عبيد الله بن السري، وكان بارع الأدب حسن الشعر. قمع المفسدين في مصر ومهد البلاد ورتب أحوالها، وأقام على إمرة مصر سنة واحدة وخمسة أشهر وعشرة أيام، وخرج منها في رجب سنة ٢١٢هـ واستخلف على مصر عيسى بن يزيد الجلودي.

(٦٢) أهل الحوف: هم عرب من قبيلة (قيس)، كان قد أنزلهم عبيد الله بن الحبحاب والي الخراج سنة ١٠٩هـ في الحوف الشرقي (الأراضي التي شرقي فرع النيل) ليساعدوا على انتشار الإسلام في مصر.

- **عيسى بن يزيد الجلودي**، (٢١٣هـ): ولي إمرة مصر باستخلاف عبد الله بن طاهر عليها فأقره المأمون على إمرة مصر، فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر وأيامًا.
- **عمير بن الوليد**، (٢١٤هـ): عمير بن الوليد الباذغيسي التميمي. ولي مصر باستخلاف أبي إسحاق محمد المعتصم له لأن الخليفة المأمون كان ولى مصر لأخيه المعتصم بعد عزل عبد الله بن طاهر وولى المعتصم عميرًا في صفر سنة ٢١٤هـ وقد قتل في معركة دارت بينه وبين القيسية واليمانية.
- **عيسى بن يزيد الجلودي**، (٢١٤هـ): ولي عيسى بن يزيد هذا مصر ثانيًا من قبل أبي إسحاق محمد المعتصم بعد قتل عمير بن الوليد، فكانت ولاية عيسى هذه الثانية على مصر نحوًا من ثمانية أشهر تنقص أيامًا.
- **عبدوية بن جبلة**، (٢١٥هـ): كانت ولاية عبدويه بن جبلة على مصر نيابة عن أبي إسحاق محمد المعتصم سنة واحدة.
- **عيسى بن منصور**، (٢١٦هـ): هو عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافقي مولى بني نصر بن معاوية. تولى مصر من قبل أبي إسحاق محمد المعتصم بعد عزل عبدويه بن جبلة عنها، وقد عزله المأمون لسوء سيرته.
- **كيدر نصر بن عبد الله**، (٢١٧هـ): هو كيدر واسمه نصر بن عبد الله وكيدر شهرة غلبت عليه. ولي إمرة مصر بعد عزل عيسى بن منصور في صفر سنة ٢١٧هـ من قبل المأمون، أدركته المنية في ربيع الآخر سنة ٢١٩هـ، واستخلف ابنه المظفر بن كيدر بعده على مصر، فأقره المعتصم على إمرة مصر فكانت ولايته على مصر سنتين وشهرين تنقص أيامًا.
- **مظفر بن كيدر**، (٢١٩هـ): تولى إمرة مصر بعد موت أبيه كيدر باستخلافه وأقره المعتصم على عمل مصر، وكانت ولاية المظفر على مصر نحوًا من أربعة أشهر، على أنه لم يهنأ له بها عيش من كثرة ما وقع له من الحروب والوقائع في هذه المدة اليسيرة، فكانت أيامه على مصر قليلة ووقائعه وشروره كثيرة.
- **موسى بن أبي العباس**، (٢١٩ – ٢٢٤هـ): هو موسى بن أبي العباس ثابت، ولي إمرة مصر نيابة عن أشناس(قائد جيش الخليفة المعتصم) بعد عزل المظفر بن كيدر عنها. ودام على إمرة مصر نائبًا لأبي جعفر أشناس إلى أن صرف عنها في شهر ربيع الأخر سنة ٢٢٤هـ، وكانت ولايته على مصر أربع سنين وسبعة أشهر. وقد ولى أشناس على إمرة مصر بعده مالك بن كيدر الصغدي.

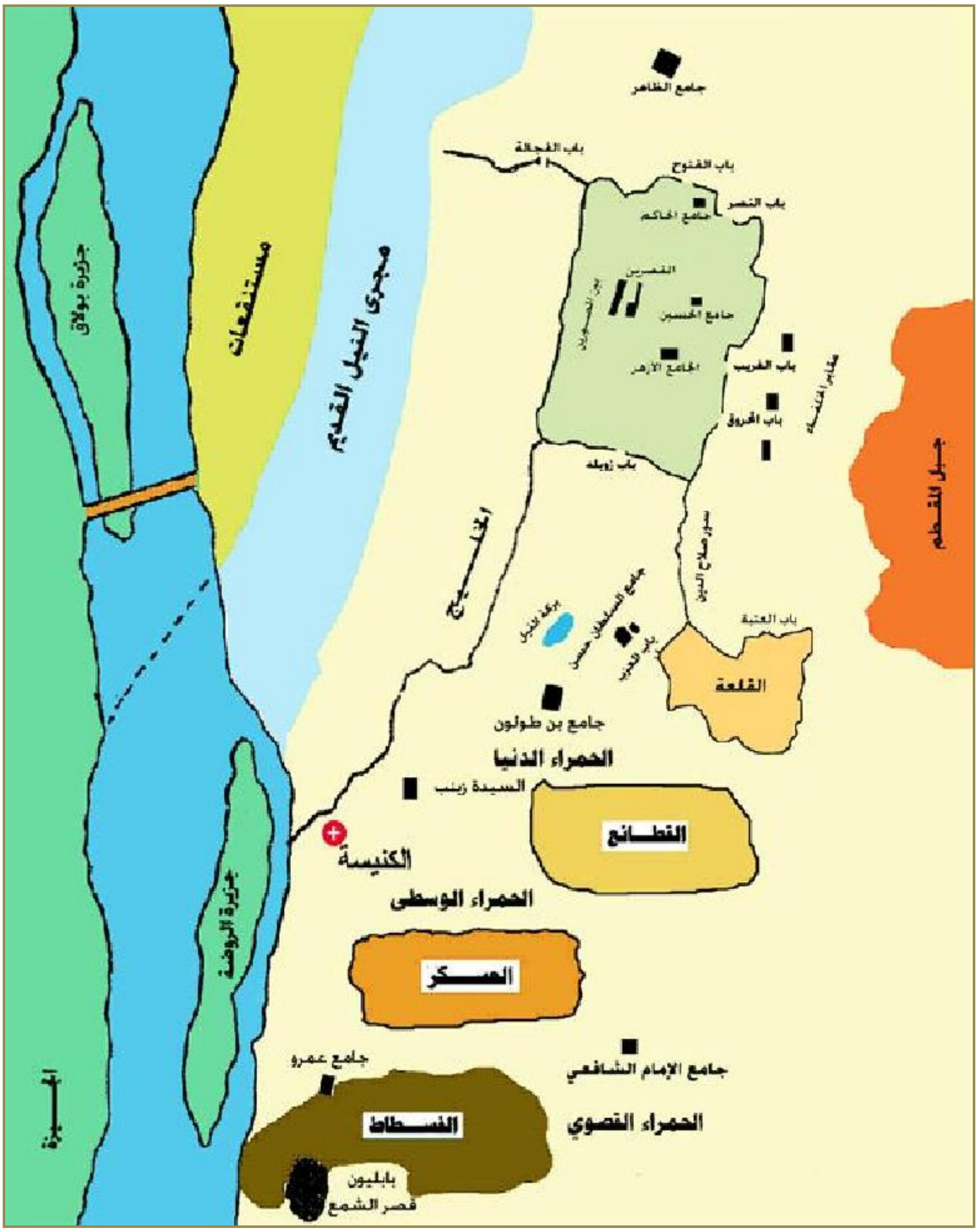
- **مالك بن كيدر،** (٢٢٤- ٢٢٦هـ): تولى مالك إمرة مصر بعد عزل الأمير موسى بن أبي العباس عنها من قبل الأمير أبي جعفر أشناس، وقد صرف عنها في ربيع الآخر من سنة ٢٢٦هـ، فكانت ولايته على مصر سنتين وأحد عشر يومًا.
- **علي بن يحيى الأرمني،** (٢٢٦هـ): هو علي بن يحيى الأمير أبو الحسن الأرمني. ولي إمرة مصر من قبل الأمير أبي جعفر أشناس التركي بعد عزل الأمير مالك بن كيدر عنها، وقد تم عزله سنة ٢٢٨هـ، فكانت ولايته على مصر سنتين وثمانية أشهر.
- **عيسى بن منصور،** (٢٢٩هـ): هو عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافقي. وهذه ولايته الثانية على مصر من قبل الأمير أشناس التركي المعتصمي. وقد عزل عنها في ربيع الأول سنة ٢٣٣هـ.
- **هرثمة بن النضر الجبلي،** (٢٣٣- ٢٣٤هـ): هو هرثمة بن نصر الجبلي. ولي إمرة مصر بعد عزل عيسى بن منصور، ولم تطل مدته على إمرة مصر حيث مرض ومات بها في رجب سنة ٢٣٤هـ، واستخلف ابنه حاتم بن هرثمة على مصر، وكانت ولاية هرثمة على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وثمانية أيام.
- **حاتم بن هرثمة،** (٢٣٤هـ): هو حاتم بن هرثمة بن نصر الجبلي. وليها باستخلاف أبيه له بعد موته، وأخذ في إصلاح أحوال الديار المصرية وبينما هو في ذلك ورد عليه كتاب بصرفه عن إمرة مصر في رمضان سنة ٢٣٤هـ، فكانت ولاية حاتم هذا على مصر من يوم مات أبوه شهرًا واحدًا وثلاثة عشر يومًا.
- **علي بن يحيى الأرمني،** (٢٣٤- ٢٣٥هـ):ولاية علي بن يحيى الثانية على مصر، كانت في هذه المرة الثانية سنة واحدة وثلاثة أشهر تنقص أيامًا.
- **إسحاق بن يحيى،** (٢٣٥ – ٢٣٦هـ): هو إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الختلي. وقد صُرف عن إمرة مصر في ذي القعدة سنة ٢٣٦هـ، كانت ولاية إسحاق على مصر سنة واحدة تنقص عشرين يومًا.
- **عبد الواحد بن يحيى،** (٢٣٦هـ): هو عبد الواحد بن يحيى بن منصور بن طلحة بن زريق، عُزل في صفر سنة ٢٣٨هـ.
- **عنبسة بن اسحاق،** (٢٣٨هـ): آخر من ولي مصر من العرب، هو عنبسة بن إسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسة الأمير أبو حاتم . ولما ولي مصر أنصف الناس غاية الإنصاف، وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والإحسان إليهم ما لم يسمع بمثله في زمانه. ثم صُرف في أول شهر رجب سنة٢٤٢هـ، فكانت ولايته على مصر أربع سنين وأربعة أشهر.

- **يزيد بن عبد الله**، (٢٤٢هـ): هو يزيد بن عبد الله بن دينار الأمير أبو خالد. ولاه المنتصر على مصر بعد عزل عنبسة عنها في شهر رجب سنة ٢٤٢هـ. وقد صرف عن إمرة مصر في شهر ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ، فكانت مدة ولايته على مصر عشر سنين وسبعة أشهر وعشرة أيام.
- **مزاحم بن خاقان**، (٢٥٣هـ): هو مزاحم بن خاقان بن عرطوج الأمير أبو الفوارس التركي. ولاه الخليفة المعتز بالله الزبير بعد عزل يزيد بن عبد الله، ويذكر أنه شدد على الناس في بعض الأمور، فمنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر، ومنع الناس من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع، ومنع المساند التي يسند إليها في الجوامع، ونهى أيضًا أن يشق ثوب على ميت أو يحلق شعر أو تصيح امرأة وعاقب بسبب ذلك خلقًا كثيرًا وشدد على الناس حتى أبادهم. ولم يزل في التشدد على الناس حتى مرض ومات في محرم سنة ٢٥٤هـ.
- **أحمد بن مزاحم خاقان**، (٢٥٤هـ): هو أحمد بن مزاحم بن خاقان بن عرطوج. لم تطل أيامه ومات بمصر في شهر ربيع الآخر سنة ٢٥٤هـ، فكانت ولايته على مصر شهرين ويومًا واحدًا.
- **أزرجور التركي**، (٢٥٤هـ): هو أرخوز بن أولوغ طرخان التركي. أقره الخليفة المعتز بالله على إمرة مصر، ثم صرف عنها بالأمير أحمد بن طولون في شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ، فكانت ولايته على مصر خمسة أشهر ونصفًا.



بناء العسكر

مدينة العسكر هي ثاني مدينة شُيدت في مصر الإسلامية، وقد تأسست في ولاية صالح بن علي أول وال للعباسيين في مصر سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠م شمال الفسطاط على يد أبي عون عبد الملك بن يزيد (١٣٣- ١٣٦هـ) الذي انتهى منها عام ١٣٥هـ وهى أحد المدن الثلاثة التي كونت قاهرة المعز. وكانت في البداية مقصورة على الجنود العباسيين، ولعل هذا السبب الذي جعل الناس يطلقون عليها العسكر، واستمر ذلك الحال حتى جاء السري بن الحكم واليا على مصر عام ٢٠١ هـ /٨١٦م فأذن للناس بالبناء فتهافت الناس على البناء بالقرب من مقر الحكم ونمت المدينة حتى اتصلت بالفسطاط.



وقد أنشئت مدينة العسكر بعد أن تعرضت الفسطاط، العاصمة الأولى لمصر الإسلامية للتخريب في أواخر العصر الأموي، بعد أن لجأ إليها مروان بن محمد - آخر الأمويين- واشتعلت فيها النار، وانقطعت صلتها بجزيرة الروضة باحتراق الجسر. وتتبع العباسيون مروان بن محمد وقتلوه عند بوصير ببنى سويف، ثم شرعوا في تأسيس عاصمة جديدة متسعة لإيواء العسكر العباسي. وكانت المدينة الجديدة شمال الفسطاط، حدها الجنوبي عند كوم الجارح، حيث تمتد ألان قناطر العيون، ومن الشمال عند ميدان السيدة زينب وشارع مراسينا، وغربًا من شارعي السد والديورة عند موقع قنطرة السد، وشرقًا تلال المقطم على امتداد خط تصوري، يمتد من مصطبة فرعون إلى جامع السيدة نفيسة (رضي الله عنها)، وكان بناء هذه العاصمة في منطقة جبل يشكر ، الذي بنى ابن طولون مسجده فيما بعد على قمته.(٦٣)

وفى هذه المدينة الجديدة أنشئت دار الإمارة، التي أصبحت مقرا لحكومة الولاة العباسيين، وبني الفضل ابن صالح ١٦٩هـ/ ٧٨٥م مسجد العسكر، لأن المدينة امتلأت بالدور والبساتين والأسواق حتى اتصلت بـالفسطاط، وضاق جامع عمرو بن العاص بالمصلين، فرأى الفضل بن صالح بناء جامع العسكر إلى جانب دار الإمارة ، وجعل بين الجامع و دار الإمارة باباً يدخل منه الأمير إلى مقصورة الجامع الذي اندثر ولم يصل إلينا.(٦٤)

صارت العاصمة الجديدة مركزًا رئيسيًا للنشاط التجاري، واتصلت مبانيها بمدينة الفسطاط، التي استعادت مكانتها، وكونتا معًا مدينة واحدة عامرة عرفت باسم مدينة مصر، تمامًا كما أطلق على دمشق اسم الشام. واستقبلت العسكر خمسة وستين واليًا من ولاة مصر العباسيين على مدى مائة وعشرين سنة تقريبا، ثم قدم أحمد بن طولون، فنزل بدار الإمارة بها، كما كان يفعل من سبقه من الأمراء، حتى أنشأ عاصمته الجديدة القطائع شرقها سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠م ومن ثم انتقل إليها.(٦٥)

---

(٦٣) " القاهرة أعرق مدنيات الشرق" / مجلة مصر.- العدد (٤١) صيف ٢٠٠٦. إصدارات الهيئة العامة للاستعلامات (http://www.sis.gov.eg/Ar/Story.aspx?sid=3598)

(٦٤) مسجد العسكر: هو ثاني مسجد جامع شيد في مصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، وقد بقى على حاله حتى تولى الخليفة عبد الله بن طاهر ولاية مصر سنة ٢١١هـ فجدده وزاده وصار الناس يصلون فيه الجمعة، حتى قام أحمد بن طولون بتشييد مسجده في مدينة القطائع، فانصرفوا عنه، ومع هذا فقد ظل المسجد باقيًا حتى سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وكان يعرف بجامع ساحل الغله.

محمود الباشا، " مسجد مدينة العسكر"_/ مدونة التاريخ المصري.- منشور بتاريخ ١٤ فبراير٢٠٠٧ على الرابط: (http://modyelbasha.jeeran.com)؛ أحمد حردان، " فن العمارة العباسية في مصر"/ مدونة الشامل للتاريخ والفن الإسلامي.- منشور بتاريخ ٢٤ كانون الأول ٢٠٠٧ على الرابط: (http://ahmad-hardan.maktoobblog.com)

(٦٥) الإسكندري وسفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني.- ط٤.- القاهرة: مطبعة المعارف، ١٣٣٨هـ. ص١٨٠

نُظُم الحكم في عصر الولاة

كانت مصر عندما فتحها العرب من البلاد ذات الماضي العريق والحضارة الشامخة التي لمس فيها العرب صورة واضحة لكل من البلاد التي فتحوها، فما كاد الفتح العربي يتم حتى أدرك العرب أنهم أمام شعب أصيل جدير بالاحترام والتقدير. وقد اقتضت حكمة العرب الإدارية الإبقاء على نظم الحكم في البلاد التي فتحوها وخاصة التي لم يكن لديهم ما يمكن إحلاله محل هذه النظم السائدة، ولهذا اضطروا إلى إتباع النظم الإدارية السائدة السابقة فيها إلا فيما يتعارض مع الإسلام، وأيضًا الإبقاء على الموظفين من أبناء تلك البلاد، على أن يحتفظ العرب بالمناصب الرئيسة للإشراف على الإدارة بوجه عام.[٦٦]

ولقد كان انتشار اللغة العربية بمصر أبطأ من انتشار الدين الإسلامي فيها، ففي عهد عبد الملك بن مروان بدأت حركة" التنظيم والتعديل"، فعمَد عبد الملك إلى صبغ الدول بصبغة عربية، وإلى الاعتماد على الموظفين من العرب. كما أمر بضرب نقود عربية بدلاً من النقود الفارسية والبيزنطية، كما اتجه إلى تعريب لغة الإدارة والحسابات. وفي مصر أمر الوليد بن عبد الملك واليه بتدوين الدواوين باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بالقبطية. ومن الدواوين التي عُربت على يد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك بن مروان والتي كانت تكتب بغير العربية:[٦٧]

- الشـام: اللغة اليونـانيـة
- مصـر: اللغة الإغريقية
- العراق: اللغة الفـارسية
- المغرب: اللغة البربريـة

(٦٦) سيدة كاشف، مصرفي فجر الإسلام.- الطبعة الثانية.- القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤. ص ٢٠.

سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة.- مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة.- العدد الأول؛ مايو ١٩٥٩. (المجلد ٢١، ص ٧٥)

وقد وجد البعض في الإبقاء على النظام الإداري الموجود سبيلاً لوصف العرب بعدم درايتهم بالأنظمة الإدارية لذلك آثروا الإبقاء على النظام الموجود. راجع:

Maspero & Wite, Materiaux pour servir a la geographie de l'Egypte.- Caire, 1919. P.157

ووجد البعض في ذلك سياسة غاية في الذكاء والحكمة انتهجها العرب لتحقيق هدفهم الحقيقي من فتح مصر وهو جباية خراجها بانتظام مع استعمال أقل عدد من رجال العرب في الإدارة.

M. H. Lammens, Un gouverneur omaiyade d'Egypte.- Bulletin de l'Institut Egyptien.-Vol. 5; Dec.1908.(Tome II, P.99 - 115)

(٦٧) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ –كلية الآداب.- القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

فقد كان عدم معرفة العرب باللغة المستعملة في دواوين مصر هو الدافع وراء الإبقاء على النظام الإداري البيزنطي.

جمال الشيال، تكوين الشعب المصري الجديد بعد الفتح العربي.- مجلة الثقافة / السنة السابعة.- العدد (٣٣٤)؛ مايو ١٩٤٥. ص٢٠

وقد تخلصت عملية تعريب العملة بإلغاء جميع العملات السابقة، واستبدال الدنانير العربية بها، التـي تبلورت في صورتها النهائية في سنة ٧٧ هـ/٦٩٦م. وهذه العملة العربية الجديدة المسكوكة باللغة العربية، خلعت على الدولة العربية شخصية مستقلة، وجعلت لها وجاهة بين العرب أنفسهم، وكذلك لدى الدوائر الأخرى. ومنذ ذلك الحين ازدهرت اللغة العربية، وأصبح مقياس التعلم أن يتمكن الرجل من قراءة اللغة العربية وكتابتها.[٦٨]

ومن المعروف أن مصر خلال عصر الولاة تفاعلت سياسيًا وإداريًا مع أنظمة ثلاثة لحكم في دولة الخلافة هي: نظام الخلافة الراشدة – عصر الخلفاء الراشدين– التي فتحت مصر خلاله سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م، ثم النظام الأموي الذي مد نفوذه إلى مصر في سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م، وأخيراً النظام العباسي الذي بدأ بدخول العباسيين إلى مصر سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م، واستمر نفوذهم بها إلى أن قام أحمد ابن طولون بتأسيس إمارته في مصر سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م.[٦٩]

ومما لاشك فيه؛ أن التقسيم لم يكن تقسيمًا زمنيًا فقط، ولكن كان لكل فترة من الفترات الثلاث السابقة طابعها الخاص الذي استمدته من سياستها العامة، والتي كانت تمثل تطورًا في التاريخ والحضارة الإسلامية لمصر.[٧٠] وبالتالي كانت تمثل تطورًا واضحًا في النواحي الإدارية عامةً، والإدارة المحلية بصفة خاصة، حتى شهدت مصر عند نهاية عصر الولاة نوعاً من الإدارة، نستطيع أن نصفها بأنها كانت إدارة عربية إسلامية.[٧١]

وتجدر الإشارة هنا؛ – قبل استعراض الوظائف التي استحدثها العرب – إلى أن ما ورد عن الإدارة المحلية في المصادر الإسلامية التي أرخت لتلك الفترة قليل ونادر، لأن المؤرخين المسلمين كانوا يهتمون بالتأريخ للأحداث السياسية بصفة أساسية، فكانت أخبار الإدارة تأتي متناثرة في ثنايا القضايا السياسية التي يؤرخون لها، ومَن تناول منهم موضوع النظم والإدارة فإن اهتمامه كان ينصب أولاً على الإدارة المركزية سواءً في حاضرة الخلافة أو حاضرة الولاة. أما الإدارة المحلية فكان الحديث عنها يأتي عارضًا، لأن التسلسل الإداري في الدولة كان طويلاً ومتدرجًا، فكان يبدأ بالخليفة ثم الوزير، فأصحاب الدواوين والوالي وصاحب الخراج، وفي نهاية التسلسل يأتي رجال الإدارة المحلية في أقاليم الولاية ومدنها وقراها.

(٦٨) علـي أحمـد، دراسـة بعنـوان " مظـاهر التعريـب في العصـر الأمـوي".- مجلـة التعريـب: العـدد (٢٠)، كـانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠.- دمشق: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٠.

(٦٩) صـفاء حـافظ عبـد الفتـاح، الإدارة المحليـة في مصـر في عصـر الـولاة (٢١ – ٢٥٤هـ / ٦٤٢ – ٨٦٨م). الطبعـة الأولى.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩١. ص ١٩

(٧٠) صابر محمد دياب، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها.- الطبعة الأولى.- القاهرة : دار النهضـة العربيـة، ١٩٧٦. ص ٥٥.

(٧١) صفاء حافظ، المرجع السابق، نفس المكان.

الوظائف التي استحدثها العرب

الوالـــي:[٧٢]

كان الخليفة يعين في مصر واليًا يقال له الوالي أو الأمير، وكان مقر الوالي في مصر هو دار الإمارة التي شيدها عمرو بن العاص إلى الشمال الشرقي من جامعه باعتباره الرئيس السياسي لمصر، ولم يكن الوالي مسئولاً أمام أحد عن عمله إلا أمام الخليفة، وتتمثل اختصاصاته في:

- كانت إمامة الصلاة من أهم اختصاصات الوالي فقد كان الوالي عليه أن يؤم المسلمين في المسجد الجامع والأعياد بوصفه نائبًا على الخليفة، ولذا كان يطلق عليه "أمير الصلاة"، وكانت إمامة الوالي في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالي وعلى رياسته العليا.
- كان والي مصر يشرف على شئون الجند، كما كان يقود بنفسه الجيش في الحملات التأمينية لمصر، أو لصد الأعداء عنها، أو يرسل من يقود الجيش نيابة عنه. ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص في السنوات الأولى بعد الفتح العربي لمصر، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات فتح برقة وطرابلس، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة.
- كان الوالي يشرف أحيانًا على الإدارة المالية المعبر عنها "بالخراج"، مما يجعل له مطلق التصرف في الولاية. ولكن الخليفة كثيرًا ما كان يسند عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولاً في الشئون المالية أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالي، وكان هذا الشخص يحد دائمًا من سلطة الوالي ويجعله عاجزًا عن التصرف في الأمور المالية.

ولذلك صار لعامل الخراج دائمًا أهمية كبيرة بل كثيرًا ما كان ينافس الوالي نفسه، والدليل على ذلك أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية للمرة الثانية سنة ٢٥هـ، أشار عليه الخليفة عثمان بن عفان أن يوليه على الصلاة وأن يولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج فأبي عمرو قائلاً: "أنا كماسك البقرة بقرينها وآخر يحلبها".[٧٣] ورفض تنفيذ أمر عثمان وترك ولاية مصر، ومن الملاحظ أيضًا أن الوالي كان بيده "الحرب" أي الرياسة على الجيش في الولاية.

(٧٢) سيدة كاشف، مصرفي فجر الإسلام.- الطبعة الثانية.- القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤. ص ٢٠- ٢١

(٧٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.- طبعة بولاق.- القاهرة ١٢٧٢هـ. (ج١، ص ٣٠٩).

وقد علق القمص زكريا بطرس على هذا الأمر في برنامج (أجوبة عن الإيمان) بقوله: مصـر إذن في مفهـومهم بقـرة حلوب، راجع: (www.agweba.com)

وتجد الإشارة هنا إلى؛ أن عدد الولاة وصل منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين (٣٢) واليًا في مقابل ثمانية وسبعون (٧٨) واليًا في الفترة الممتدة من العصر العباسي حتى قيام الدولة الطولونية في مصر، وهذا يشير بوضوح أن الولاة في عهد الراشدين والأمويين كانوا أكثر استقرار مما أدى إلى ظهور شخصيات مثل عبد العزيز بن مروان، موسى بن نصير، الحجاج الثقفي، عمرو بن العاص.(٧٤)

وقد تبدلت الأحوال بعد قيام الدولة العباسية، حيث قام الخلفاء العباسيين بالاستعانة بالأتراك، وترتب على ذلك أننا وجدنا ولاة من العنصر التركي، فهذه الفترة تميزت بكثرة تغيير الولاة مما عمل على وجود اضطرابات، كما أدى ذلك لزيادة الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون. فالولاة في العصر العباسي لم يتركهم الخلفاء يحكموا أكثر من اللازم حتى لا توجد فرصة للاستقلال بولاية بعيدًا عن العاصمة وذلك بسبب بعد مقر الخلافة بغداد أو سمراء عن مصر.(٧٥)

صاحب الشرطة:

كان الوالي المصري يشرف أيضًا على شئون الشرطة، وأيضًا كان ينفرد في أغلب الأحيان بتعيين صاحبها، وكان بمثابة نائب الوالي وينوب عنه في أثناء الحج والحرب وإمامة الصلاة إذا مرض الوالي، ويحكم الولاية إذا ما خرج الوالي من مقر ولايته، ولذا نجد أنه كثيرًا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليًا على مصر إذ ما عزل الوالي أو مات أو تنحى عن ولايته.

كذلك كان الخليفة يتدخل في بعض الأحيان لتعيين صاحب الشرطة كما حدث عام ٢١٧هـ عند ما قام المأمون العباسي بتعيين صاحب الشرطة بمصر عقب القضاء على ثورة.(٧٦) ولكن من الثابت تاريخيًا؛ أن الوالي كان ينفرد غالبًا بتعيين صاحب الشرطة، وعادةً كان من أقارب الوالي، لأنه كان دائمًا في حاجة إلى من يوليه ثقته ويطمئن إليه في أمور الولاية أثناء غيابه.

لقد اعتبرت الشرطة في أول الأمر من الوظائف السياسية وكان على صاحب الشرطة المحافظة على الأمن الداخلي، ومنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة، وعمل التحريات اللازمة، وتنفيذ العقوبات التأديبية التي يفرضها الوالي أو يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود.(٧٧)

(٧٤) أحمد عبد الرازق، مصر الإسلامية، ص ٣٤.

(٧٥) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين. (غير منشورة)

(٧٦) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة.- بيروت، ١٩٠٨.ص ١٩٢.

(٧٧) ليس لدينا سواء في المصادر أو في أوراق البردي ما يلقي الضوء على السلطات المخولة لصاحب الشرطة فيما يختص بكور مصر. راجع: صفاء حافظ عبد الفتاح، الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة، ص ٨٣ – ٨٤.

وكذلك كان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق العامة، فكان على صاحب الشرطة قمع أهل الفساد، وربما أسند إليه أيضًا القيام ببعض الأعمال الأخرى مثل المساهمة في إطفاء الحرائق، وكذلك المعاونة في تحصيل الجزية وإصدار الدنانير، وغيرها من الأعمال التي صارت فيما بعد تدخل ضمن اختصاصات المحتسب.(٧٨)

كان مقر صاحب الشرطة في مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص، ولكن بعد تأسيس مدينة العسكر أنشأت شرطة جديدة أيضًا في العسكر إلى الجنوب في موقع جامع أحمد بن طولون "حاليًا" عُرفت باسم"الشرطة العليا"، ولا يتبادر إلى الأذهان أنها كانت أعظم من شرطة الفسطاط التي اشتهرت"بالشرطة السفلى"، وإنما يرجع ذلك إلى تقسيم الفسطاط إداريًا. وقد احتفظ صاحب الشرطة في الفسطاط بالمكانة العليا فكان أعلى شأنًا وأعظم اختصاصًا من زميله (صاحب شرطة العسكر) بوصفه (صاحب شرطة الفسطاط) حاكم القسم الرئيس الأصيل في العاصمة.(٧٩)

القضاء:

أدخل العرب في مصر نظامًا قضائيًا يقوم على أساس الشريعة الإسلامية، ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يدخلون في الدين الإسلامي من أهل البلاد. أما الذميون من اليهود والنصارى لهم أمر خاص، أي كان لهم قضاؤهم إلا إذا احتكموا إلى القاضي المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل.(٨٠) كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التي تحاط بالهيئة والإجلال ولصاحبها نفوذ كبير، ويعد الرسولﷺ أول قاضي في الإسلام فقد تولى الفصل في الخصومات – كما يُعرف من بعض النصوص – وأنه فصل بين الأنصار المهاجرين من أهل المدينة.(٨١)

(٧٨) عُرفت الحسبة منذ بداية العهد الإسلامي ولكنها ظهرت كوظيفة رسمية في عهد المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ / ٧٥٥ – ٧٨٥م). والحسبة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة شروطًا منها: الإسلام، والبلوغ والعقل، والعلم والعفة. أنظر:
السيد الباز العريني، الحسبة والمحتسبون في مصر.- المجلة التاريخية المصرية.- المجلد (٣)/ العدد (٢)؛ أكتوبر ١٩٥٠. ص ١٥٨ وما بعدها. هاشم يحي الملاح، الحسبة في الحضارة الإسلامية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٧. ص ٣ – ٥٣.

(٧٩) أحمد عبد الرازق، مصر الإسلامية، ص ٣٧.

(٨٠) سيدة كاشف، مصرفي فجر الإسلام، ص ٩٩.

(٨١) كان ﷺ يرسل نوابًا عنه إلى الأماكن البعيدة يتولون القضاء، فقد أرسل معاذ بن جبل –رضي الله عنه– إلى اليمن، وَعتَّاب بن أسيد –رضي الله عنه– إلى مكة، وكان قبل أن يرسل القضاة يتولاهم بالنصيحة والموعظة. راجع:
"النظام القضائي في الحضارة الإسلامية"، موقع مقالات إسلام ويب.- منشور بتاريخ ٦ يوليو ٢٠٠٨ على الرابط: (http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=145219)

وفي صدر الإسلام كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة، فكان الخليفة هو رئيس القاضي المباشر، وكان الخلفاء هم الذين يعينون القضاة في مصر في عصر الولاة، ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه. ولما كان القضاء من الأمور الخاصة بالخلافة، كان الخليفة لا يمكنه مباشرة كل أمور القضاء بنفسه ولاسيما بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعًا كبيرًا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، فنجده يفوض القضاء إلى غيره، كما كان يفوض إلى الولاة حكم الولايات المفتوحة، فنجد عمر بن الخطاب يعين أول قاض بمصر وهو قيس بن أبي العاص السهمي.(٨٢)

ومن المعروف أن مجالس القضاء كانت تعقد عادةً في جامع عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط، وكان بعض القضاة يجعلون للقضاء بين النصارى يوم في منازلهم. ونجد القاضي محمد بن مسروق الكندي كان يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول في المسجد الجامع كالمسلمين ليقضى بينهم. وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامي وهي القرآن، والسنة والإجماع، والاجتهاد أو القياس.(٨٣)

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن النظام القضائي في مصر في عهد الولاة نشأ بسيطًا ثم ارتقى وتطور تدريجيًا، فمثلاً لم تكن أحكام القضاة تدون، حتى أصدر القاضي "سليم بن عتر التجيبى" أول سجل قضائي في مصر وذلك أثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان، ومن وقتها صار تقليدًا لمن جاء بعده من القضاة. وكانت السجلات القضائية تحفظ عند القاضي في منزله، ثم صارت تحفظ في المساجد، وذلك حرصًا من الخليفة على عدم حدوث تلاعب في الأحكام والتي كان القاضي يستمدها من الشريعة الإسلامية.

وكانت أعمال القضاة تمتد أيضًا إلى الإشراف على ديوان الأحباس أو الأوقاف(٨٤)، والوصية على الأيتام، وكذلك اعتاد القضاة في هذه الفترة الخروج مع مجموعة من أهل التقوى والصلاح لرؤية هلال رمضان وإثبات رؤيته، وكانوا يخرجون عادة لرؤيته في الجيزة.(٨٥)

---

(٨٢) هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤. (الجزء الأول، ص ٣٠٦).

(٨٣) أحمد زكي تفاحة، مصادر التشريع الإسلامي و قواعد السلوك العامة.- الطبعة الأولى. - بيروت: دار الكتاب العالمي، ١٩٩٢. (١٣٩صفحة)

عباس شومان، مصادر التشريع الإسلامي.- القاهرة: الدار الثقافة، ٢٠٠٠. (سلسلة الدراسات الفقهية،١٥١ص)

(٨٤) نلاحظ أن إنشاء ديوان الأحباس أو الأوقاف يرجع إلى سنة ١١٨هـ وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمي (١١٥ – ١٢٠هـ) وكانت الأحباس قبل ذلك في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم. راجع: أحمد عبد الرازق، مصر الإسلامية، ص ٣٩.

(٨٥)الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة.- بيروت، ١٩٠٨.ص ٣٧٠.

صاحب البريد:

صاحب البريد من الوظائف الرئيسة المهمة في تلك الفترة، ولم تكن تلك الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين إنما بدأتها الدولة الأموية، حيث أشيء ديوان البريد رسميًا في بداية العهد الأموي على يد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤٠ – ٦٠هـ / ٦٦٠ – ٦٧٩م)، فقد أوجد هذا النظام ليضمن وصول الأخبار إليه بسرعة من جميع أطراف بلاده، ولم يكن البريد يخدم مراسلات الشعب وإنما كان نظامًا رسميًا حكوميًا.

وقد أدخل الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ/ ٦٨٥ – ٧٠٥م) عدة تحسينات على ديوان البريد حتى أصبح أداة هامة في إدارة شئون الدولة.[٨٦] وكانت مهمة صاحب البريد في أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة بسرعة من الولايات المختلفة وبالعكس، ثم تطورت هذه المهمة عند اتساع الدولة، فأصبح صاحب البريد عينًا للخليفة ينقل أوامره إلى الولاة، وينقل أخبار الولاة إليه، كما يتجسس على أعداء الدولة، وخصوصًا في عصر العباسيين.[٨٧] ولذلك كان يطلق على صاحب البريد "صاحب البريد والأخبار" [٨٨].

ويذكر أن؛ أصحاب البريد في " كور" مصر ازدادت أهميتهم في العصر العباسي، نظراً لاهتمام الدولة بالبريد للتعرف على أحوال الولايات، وغلاء الأسعار، وغيرها من الأخبار المتصلة بأحوال الرعية.[٨٩] وتثبت المصادر التاريخية أن نظام البريد كان على ثلاثة أنواع:

(١) البريد البري:

وكانت طرقه تمتد من عاصمة الدولة إلى الأطراف، وكانت هذه الطرق مزودة بمنازل أو محطات للبريد وتتألف كل محطة في الغالب من مسجد وخان ومساقة، هذه المنازل أو المحطات فيها ديوان البريد ويتكون من خيول وإبل ومن يتعهدها بالخدمة والرعاية.

(٢) البريد البحري:

وقد اقتصر على البلاد البحرية، وكان صاحبه يزود بمراكب خفيفة سريعة لاستغلالها في نقل البريد، وقد كان الاعتماد على هذا النوع ضعيفاً ولا يلجأ إليه، إلا إذا كانت الطرق البرية صعبة الاجتياز أو الفترة طويلة.

---

(٨٦) صفاء حافظ عبد الفتاح، الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة، ص ٨٠.

(٨٧)هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، ص ٢٥٥– ٢٥٦.
أدولف جروهمان، أوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية/ ترجمة حسن إبراهيم حسن.– القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٣٦ – ١٩٦٧م. (الجزء الثالث ،ص ٢٨)

(٨٨) مولوى، الإدارة العربية / ترجمة إبراهيم العدوي.– القاهرة: ١٩٥٨. ص ٢٩٩

(٨٩) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك.– القاهرة: المطبعة الحسينية، (ج٩، ص٢٩٧)

(٣) البريد الجوي:

كان بواسطة الحمام الزاجل الذي أطلق عليه "جناح المسلمين" ويبدو أن هذا النوع كان قاصرًا على فترات الحروب فقط، حيث كانت الرسائل تكتب على بطاقات من ورق خفيف بخط رقيق للغاية عرف باسم "الغبار" لأنه كان مثل ذرات الغبار، واللغة أشبه بالشفرة وتعلق هذه الرسائل في أجنحة الحمام.[٩٠]

هذه هي الوظائف المهمة الرئيسة التي استحدثها العرب بعد فتح مصر، أما فيما عدا ذلك فقد بقى على ما هو عليه، ولاسيما ونحن نعرف أن العرب تركوا الأعمال والوظائف الأخرى في أيدي أهل البلاد، واحتفظوا هم بالمناصب الرئيسة للإشراف على الإدارة بوجه عام.[٩١]

ومن الملاحظ؛ على نظم الحكم في مصر في عصر الولاة حتى سقوط الخلافة الأموية، سيطرة العنصر اليمني على معظم المناصب الإدارية والقضائية والأمنية (الشرطة). فقد كان للقبائل اليمنية دور هام في مجال الفتح الإسلامي لمصر والفتوحات الإسلامية الأخرى، وعند تخطيط الفسطاط سيطر اليمنيين على منطقة الفضاء الواسع لحصن بابليون، وتم توزيعها بين كل من قبائل وبطون عك (كانت تسكن بلاد تهامة باليمن وتمتد مساكنهم شمالا حتى إقليم جده بالحجاز وعك من قبيلة الازد اليمنية) وغافق وهي بطن من قبيلة عك اليمينية، وهمدان و تجيب ويلي وغيرها من القبائل مثل خولان وكنده ومراد وحمير ومذحج والمعافر.[٩٢]

(٩٠) الجدير بالذكر؛ أن البريد الذي أسسه الأمويين كان يعتمد على الخيل والجمال والبغال وتبادل الإشارة بالنيران والدخان والمرايا والطبول في إيصال الأخبار والمعلومات العسكرية من وإلى مركز الخلافة، ومع اتساع رقعة الخلافة الإسلامية وزيادة حروبها وفتوحاتها وكثرة الفتن الداخلية، والقلاقل ومحاولات انفصال الأقاليم عنها، ومع ازدياد مصادر الثروة وتنوعها وكثرة مؤسسات الدولة ودواوينها، صار لابد من وسيلة أكثر كفاءة وسرعة لضمان أقصى فاعلية لعمل ديوان البريد الذي يضمن عمله اتصال إطراف الدولة الواسعة ببعضها وربطها بالعاصمة. لذلك أدخل الخلفاء العباسيون استخدام الحمام الزاجل في البريد لما يمتاز به من السرعة الفائقة ولسهولة إعادة نقله للاماكن التي ستطلقه مرة أخرى، بالإضافة إلى انخفاض كلفة التربية قياساً بالجياد والإبل، ولتكاثره السريع وكذلك لطيرانه دون الحاجة لدليل أو مرشد، ولدقته في الوصول لهدفه وأيضاً لجمال شكله والفته. راجع:

أشرف صالح محمد ، سيرة الحمام الزاجل التاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع؛ يونيو ٢٠٠٩ . ص ٧٨ – ٨٣ (www.historicalkan.co.nr)

(٩١) أحمد عبد الرازق، مصر الإسلامية، ص ٤١.

(٩٢) نعلم أنه قبل الفتح الإسلامي لمصر توطنت قبائل لخم وراشدة اليمنية منطقة العريش المصرية، كما أن معظم جنود جيش عمرو بن العاص من أصل يمني. راجع:

السيد طه أبو سديرة، القبائل اليمنية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الأموي (٢٠ -١٣٢هـ/ ٦٤٠ - ٧٥٠م).- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الشعب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨.

The spread of Islam and the Arabic language



انتشار الإسلام واللغة العربية

"عروبة مصر عبودية لاحتلال طال أمده أكثر مما ينبغي"

د.سيد القمني

(جريدة إيلاف ١٤ فبراير ٢٠٠٤)

"..يخرجون من أديانهم، وقوم كثير ما صبروا، ولا توكلوا على إلههم، وأنكروا اسم المخلص في تلك الأيام الشديدة، ونسوا ما قاله في الإنجيل المقدس، والذي يصبر إلى التمام فهر يخلص"

ساويرس ابن المقفع

انتشار الإسلام واللغة العربية

ديانة التوحيد في مصر - مظاهر الحريات التي تمتع بها أقباط مصر في ظل الحكم العربي – المضايقات المعنوية التي تعرض لها أقباط مصر– المضايقات المالية التي تعرض لها أقباط مصر – ثورات الأقباط في العصر الأموي [ثورة الأقباط في الوجه البحري ١٠٧هـ– ثورة أقباط الصعيد ١٢١هـ– ثورة الأقباط في سمنود ١٣٢هـ – ثورة الأقباط برشيد]- ثورات الأقباط في العصر العباسي [ثورة أقباط سخا- ثورة بلهيت ـ ثورة البشمور ٢١٦هـ]– انتشار اللغة العربية

ديانة التوحيد في مصر

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ في سرعة انتشار الدين الإسلامي في كافة الأقاليم التي فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية، فدخل الدين الإسلامي في هذه البلاد بدخول العرب فيها، وما لبث أن تغلب على الأديان التي وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية. فقد دخل الإسلام مصر لأول مرة بدخول العرب فاتحين، ومنذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهائيًا أسلم كثير من المصريين وحاربوا المسيحيين بعد إسلامهم،(١) وقد فعلوا ذلك عن إيمان ودفعهم إلى ذلك رغبتهم في الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة، والتمتع بما لها من حقوق، و"المغلوب دائمًا مولع بتقاليد الغالب" على حد قول ابن خلدون.(٢)

وتأتي بعد ذلك أسباب مادية وأخرى اجتماعية، فرغبة كثير من فقراء أهل الذمة في الخلاص من الجزية كانت سببًا في اعتناقهم الإسلام، كما أن حال بعض الطبقات العاملة والعبيد كانت من البؤس بحيث دفعها انحطاط حالها الاجتماعي إلى اعتناق الإسلام الذي يُصرح بأن المسلمين سواء ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى. والحق أن مسالة الخلاص من الجزية كانت السبب في إقبال كثير من أهل الذمة على اعتناق الإسلام، حتى هال الدولة الأموية في أواخر القرن الأول الهجري تناقص مبلغ الجزية فلم تأبه لإسلام مَن أسلم من أهل الذمة، وألزمته على الرغم من إسلامه بأداء الجزية. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر برفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وقال " إن الله بعث محمد ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا".(٣)

---

(١) ونذكر من هؤلاء الذين أسلموا يوحنا أحد رهبان دير سيناء، وكان ملكاني المذهب فترك الدير واعتنق الإسلام وحمل السلاح إلى جانب المسلمين، بل كان يشتد على المسيحيين من الملكانيين أو القبط اليعاقبة.

Hohn of Nikiu, Chronique de Jean, évéque de Nikiou.Texte éthiopien. Ed. And transl. H. Zotenberg. Paris: Imprimerie Nationale, 1883. P.440 - 465

(٢) سيدة الكاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٥٨.

(٣) عبد الحميد العبادي، محمد مصطفى زيادة، إبراهيم أحمد العدوي، الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها.– الطبعة الثالثة.– القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٨. ص ١٨ – ١٩.

لقد أرجع العلماء واللاهوتيون الأوروبيون الكبار ـ ومنهم العلامة كيتاني ليونCaetani (١٨٩٦ ـ ١٩٢٦م) ـ تحول نصارى الشرق نحو الإسلام إلى: "وضوح التوحيد الإسلامي وبساطته وعمقه ونقائه، عندما قورن بالسفسطة المذهبية والتعقيدات العويصة التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي، الأمر الذي أدى إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلت أنباء الوحي الإسلامي من الصحراء، لم تعد المسيحية الشرقية، التي اختلطت بالغسن والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي العرب"[٤]

وقد شهد النصف الأول من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي انتشارًا واسعًا للإسلام في مصر، حتى إذا كانت إمارة أحمد بن طولون على مصر سنة ٢٥٤هـ، كان أكثر مسيحي مصر قد تحولوا إلى الإسلام، وصار المسلمون يكونون الأغلبية العظمى بين سكان مصر. وصار أهل الذمة أقلية قليلة، ومن ثم أخذت الصبغة الإسلامية نتيجة لذلك تشكل المجتمع المصري وتطبعه بطابعها في العادات والتقاليد، وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة.[٥] وأكبر دليل على زيادة عدد المسلمين، وتناقص عدد الذميين آنذاك، تضاؤل حصيلة الجزية، فلم تعد بابًا أساسيًا من أبواب الدخل في مصر منذ العصر الطولوني، إلى جانب اختفاء ثورات القبط التي كانت من مميزات عصر الولاة الأمويين والعباسيين.

ومن الملاحظ؛ أن المصادر التاريخية المختلفة قلما تشير إلى اعتناق اليهود للدين الإسلامي وتركهم دينهم اليهودي، اللهم إلا في عصر الخلفاء الفاطميين وبصفة خاصة في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وإن كان عدد مَن أقبل منهم على التحول عن دينه إلى الإسلام كان ضئيلاً بالنسبة إلى عدد القبط المتحولين إلى الدين الإسلامي.[٦] والسبب في ذلك أن أعداد اليهود المصريين في تلك الفترة الباكرة من تاريخ مصر كانت ضئيلة بشكل يجعل من غير المنطقي أن نحاول مقارنتها بأعداد المسيحيين أو المسلمين.[٧]

---

(٤) محمد عمارة، مقال بعنوان" حقيقة إسلام الشعب المصري".- المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير/ بحوث ودراسات.- منشور بتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠٠٩ على الرابط:
(http://tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=1756)

(٥) حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية: العصر الطولوني.- القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت. ص ٥٦

(٦) فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية: من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠. (الجزء الثاني، ص ١٨٢)

(٧) قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ص ١٢- ١٤.

مظاهر الحريات التي تمتع بها أقباط مصر في ظل الحكم العربي

تشير الشواهد التاريخية إلى أن العرب بعد انتصارهم على البيزنطيين في مصر وإخراجهم منها أخذوا يتحببون إلى الأقباط وهم أهل البلاد كي يضمنوا ولاءهم وإخلاصهم حتى يتم تثبيت أقدامهم في مصر، فالعرب لم يكونوا غزاة أتوا للسلب والنهب، وإنما كانوا فاتحين يستعمرون البلاد استعمارًا منظمًا. على أن هذا لم يكن السبب الوحيد فقد ذكر الرواة أن الرسول ﷺ أوصى بقبط مصر في عدة أحاديث نذكر منها قوله:"إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لهم منكم صهرًا وذمة" مشيرًا بذلك إلى هاجر زوجة إبراهيم الخليل وأم ولده إسماعيل التي كانت منهم، كما كانت ماريا القبطية زوجة الرسول ﷺ منهم أيضًا. ورغم عدم التأكد من صحة هذا الحديث، لكنه يفسر بعض الشيء الموقف المتسامح الذي وقفه العرب إزاء المصريين في فجر الإسلام.[٨]

وليس أدل على ذلك مما كتبه أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عامًا إذ قال: " إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا قد أصبحوا سادة لنا، ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط، بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين، ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا".[٩]

ونرى أن عمرو بن العاص بعد أن تم استيلاءه على الإسكندرية ودخل الجيش العربي فيها، علم بقصة بطرك القبط بنيامين الذي اختفى هربًا من اضطهاد الروم وكان موضع اختفائه غير معروف، فقد كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتابًا يقول فيه:" الموضع الذي فيه بطرك النصارى بنيامين له العهد والأمان والسلامة فليحضر آمنًا مطمئنًا". وعندما علم الأب بنيامين بذلك عاد إلى الإسكندرية مسرورًا بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عامًا[١٠]. وقد بالغ عمرو بن العاص في إكرامه وأعطاه الحرية ليشرف على الكنائس ويرى أحوال الأقباط، ولا يستبعد أن يكون بنيامين قد نصح الأقباط بتأييد العرب ضد المقوقس.

ويتضح تعاطف العرب مع أقباط مصر حينما أيد العرب أقباط مصر على أعدائهم للمذهب الديني، فاسترد بفضلهم الأرثوذكس عددًا من الكنائس والأديرة التي كانت في يد أعدائهم الملكانيين. وكان من نتائج عودة البطرك بنيامين إلى كرسي البطركية رجوع الكثير إلى مذهب الأرثوذكس بعد أن كانوا نبذوه نتيجة لاضطهاد هرقل، كما عاد الذين كانوا قد اختفوا

---

(٨) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

(٩) سيدة الكاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٩٧– ١٩٨.

(١٠) أمضى بنيامين عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء الفتح العربي إلى أن فتح المسلمون الإسكندرية.

خوفًا من هذه الاضطهادات، كما أن بنيامين بعد أن جمع قومه اتجه لبناء ما كان هرقل قد هدمه من الكنائس والأديرة.(١١)

الحقيقة أن؛ بناء الكنائس يعتبر مظهرًا آخر من مظاهر الحريات التي تمتع بها أقباط مصر في ظل الحكم العربي، فقد أشارت المصادر التاريخية (ابن العميد والمقريزي) إلى بناء عدة كنائس في ولاية عمرو بن العاص، أو مسلمة بن مخلد وهذا الأخير بُنيت أول كنيسة في فسطاط مصر أثناء ولايته.(١٢) ويضاف لذلك أن العصر الأموي شهد بناء عدة كنائس أخرى عديدة في خلافة هشام بن عبد الملك.

لقد كفل العرب للأقباط الحرية العامة في إقامة الشعائر الدينية، فقد ظل الأقباط يحتفلون بأعيادهم الدينية في ظل الحكم العربي، والحقيقة أن ولاة مصر في تلك الفترة لم يشتركوا في هذه الاحتفالات الدينية كما كان يحدث مثلاً في عهد الإخشيديين والخلفاء الفاطميين، ولعل السبب في ذلك هو أن مصر كانت جزءًا من الخلافة فلم يحرص الولاة على أن يتقربوا من الشعب، وربما أن ولاة مصر في ذلك العهد اكتفوا بمشاركة الأقباط في الاحتفال بوفاء النيل كل عام.(١٣)

إن الفتح العربي لمصر ساعد في بداية الأمر على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التي كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ عهد البطالمة، فالدروس الدينية التي كانت تقرأ في الكنسية باليونانية ثم تشرح بالقبطية صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية. ويضاف لذلك أن البلاد والأقاليم التي كانت تغلب عليها الأسماء اليونانية كأيام الرومان واليونان، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التي ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة، مثل: أهناسيا بدلاً من هيراكليوبوليس **Héracléopolis**.(١٤)

---

(١١) نبيل لوقا بباوي، انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء.- القاهرة، د.ت. ص ١٦٢ – ١٦٣.

(١٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص٦

(١٣) نعرف أن الأقباط في مصر كانوا يحتفلون بعيد الشهيد في اليوم الثامن من شهر "بشنس" ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتًا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، ولكن هذا العيد ظل قائمًا حتى زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم تم إلغاؤه نهائيًا في زمن السلطان الناصر حسن. ومن الاحتفالات التي ساهم فيها ولاة مصر واشترك فيها كل من المسلمين والأقباط واليهود صلاة الاستسقاء، وذلك عند ما يكون النيل ناقصًا في موعد فيضانه فتصبح مصر في خطر من قلة المياه، فيخرج الناس إلى الصحراء للصلاة. ويذكر ابن عبد الحكم أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه في شهر بؤونه واخبروه أن النيل لا يجري منذ ١٢ يوم من هذا الشهر، وهو لا يجري إلا بسنة متوارثة وهي إلقاء جارية بكر عليها أفضل الثياب والحلي في مجراه. لكن عمر بن العاص رفض هذا الأمر حيث أن الإسلام يهدم ما قبله، وعندما هم الناس بالخروج من بالبلاد نظرًا لتدهور الأحوال بسبب عدم جريان النيل، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب يخبره بالأمر، فبعث الخليفة له ببطاقة ليلقيها داخل النيل، فإذا فيها: " من أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد فإذا كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك" فجرى النيل (١٦) ذراعًا في ليلة ١٧من شهر توت.

(١٤) فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

ترك العرب مقاليد الأمور في يد أهل مصر من الأقباط محتفظون لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين، فعلى سبيل المثال كان في الحكومة المركزية "الفسطاط" - التي اتخذها الوالي عبد العزيز بن مروان حاضرة له - كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا والسفلى هما "أثناسيوس" و"اسحق" وهما من الأقباط الأرثوذكس. ومن الواضح أن رؤساء المالية كان يتم اختيارهم طوال العصر الأموي من الأقباط، كما أن والي الصعيد في نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان قبطيًا يُدعى بطرس.(١٥)

وليس أدل على التسامح الديني الذي جرى عليه العرب في معاملاتهم لأهل الذمة مما كتبه أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عامًا، إذ قال:"إن العرب الذي وهبهم الله السيادة في أيامنا قد أصبحوا سادة لنا، ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط، بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا.(١٦)

المضايقات المعنوية التي تعرض لها أقباط مصر

الواقع أن؛ سياسة العرب نحو الأقباط بدأت في التغيير عما كانت عليه في السنين الأولى، وبدأ يظهر في الأفق بعض المضايقات التي حملت بعض الأقباط أن يتركوا دينهم هربًا من هذه المضايقات وحتى يصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين. إلا أن هذه المضايقات لم تكن بشكل دائم وإنما حدثت في فترات متقطعة، كما أنها لم تكن ذات بال إلا إذا قورنت باضطهاد المسيحيين في مصر أيام الإمبراطور دقلديانوس الوثني أو هرقل المسيحي.

وبالنسبة للمضايقات؛ تشير المصادر أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب لعمرو بن العاص ألا يتشبه أهل الذمة في الدول الإسلامية بالمسلمين في مظهرهم وملبسهم، ولا يبقى من الكنائس إلا ما كان قبل الإسلام، وهي الشروط التي شاعت أو عُرفت في الكتب التاريخية باسم الشروط العمرية.(١٧)

---

(١٥) سيدة الكاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ١٨٩ – ١٩٠.

(16)Gaston Wiet, " **L'Égypte musulmane de la conquète arabe à la conquète ottomane**", Précis de l'histoire d'Égypte par divers historiens et archéologues.- Caire: Imprimé par l'Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1932. P.181

(١٧) وقد قام القلقشندى بتلخيص الشروط المفروضة على أهل الذمة وهي: " الجزية، والضيافة، والانقياد لأحكامنا، وأن لا يركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد، وأن ينزلوا المسلمين صدر المجلس والطريق، والتمييز عن المسلمين في اللباس، ولا يرفعون ما يبنونه على جيرانهم من المسلمين، ولا يحدثون كنيسة ولا بيعة فيما أحدثه المسلمين من البلاد". راجع: جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٥٣ – ٥٤.

وقد استهدف الشروط العمرية تنظيم المجتمع الإسلامي وإظهار ما في الإسلام من عزة، ويبدو أن تلك الشروط ظلت مجهولة لفترة ولم تظهر إلا في أواخر القرن الثاني الهجري. راجع:

قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى.- الطبعة الثانية.- دار المعارف: القاهرة، ١٩٧٩. ص ٢٧.

ويذكر الماوردي [١٨] في الأحكام السلطانية أنه يشترط على أهل الذمة في عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب، والشروط المستحقة شروط ملزمة بمعنى إذا انتقضوها انتقض عهدهم، أما الشروط المستحبة فهي غير ملزمة، ولا يكون انتقاضها نقض للعهد.

الشروط المستحقة:

- عدم ذكر كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف له.
- عدم ذكر رسول الله بتكذيب أو ازدراء.
- عدم ذكر الإسلام بذم أو مدح.
- ألا يصيبوا مسلمًا زنا.
- ألا يفتنوا مسلمًا عن دينه ولا يتعرضوا لماله أو دينه.
- ألا يعينوا أهل الحرب.

الشروط المستحبة:

- لبس الغيار وهي الملابس ذات اللون المخالف للون الذي يلبسه المسلمون.
- ألا تعلوا بنيتهم فوق أبنية المسلمين.
- ألا تعلوا أصوات النواقيس وتلاوة كتبهم.
- ألا يتجاهروا بشرب الخمر وإظهار صلبانهم وخنازيرهم.
- أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم.
- أن يُمنعوا من ركوب الخيل ولا يُمنعوا من ركوب البغال والحمير.

---

(١٨) الماوردي، أبو الحسن (٣٦٤ -٤٥٠هـ ، ٩٧٤- ١٠٥٨م). أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي. مفكر إسلامي. من وجوه فقهاء الشافعية وإمام في الفقه والأصول والتفسير، وبصير بالعربية. كان من رجال السياسة البارزين في الدولة العباسية وخصوصًا في مرحلتها المتأخرة. نشأ الماوردي بالبصرة، وتعلّم وسمع الحديث من جماعة من العلماء، وتولى القضاء في كورة (أستوا) من ناحية نيسابور، ولقب بأقضى القضاة عام ٤٢٩هـ. تألق نجم الماوردي عند عودته إلى بغداد وقيامه بالتدريس، ولكن نجمه السياسي برز عندما عمل سفيرًا بين رجالات الدولة في بغداد وبني بويه في الفترة بين عامي ٣٨١ و ٤٢٢هـ، لحل الخلافات الناشبة بين أقطار الدولة العباسية. اشتهر الماوردي بكثرة التأليف وغزارة الإنتاج، ولكن لم يصل إلينا من مؤلفاته إلا القليل. ويمكن تصنيف مؤلفاته في مجموعات دينية ولغوية وأدبية وسياسية واجتماعية. ومن أبرزها: أدب الدنيا والدين؛ أعلام النبوة؛ الحاوي الكبير؛ الإقناع وهو مختصر لكتاب الحاوي الكبير. ومن أشهر كتبه في مجال السياسة قوانين الوزارة وسياسة الملك؛ نصيحة الملوك؛ تسهيل النظر وتعجيل الظفر؛ الأحكام السلطانية الذي يُعد من أشهر كتب الماوردي وأعظمها أثرًا.

"Abu al-Hasan al-Mawardi", The Window: philosophy on the internet.- available in 5 Nov. 2009 at: (http://www.trincoll.edu/depts/phil/philo/phils/muslim/mawardi.html)

محمد المشطاوي، مقال بعنوان " الماوردي .. في ذكرى وفاته".- إسلام أون لاين.- منشور بتاريخ ٢١ أغسطس ٢٠٠١ على الرابط: (http://www.islamonline.net)

ولكن السؤال الآن هل اتبعت هذه الشروط مع أهل الذمة في مصر؟ من المتعارف عليه تاريخيًا أن مثل هذه التعليمات كانت تُحترم عند صدورها ثم سرعان ما تبدد بمرور الوقت، تلك الحَمِيَّة التي يصدرها الولاة عند تنفيذ أي مشروعات جديدة ليعود بعدها الولاة إلى التسامح مع أهل الذمة، والدليل على ذلك كثرة المراسيم والفتاوى التي كان يصدرها الخلفاء وولاة مصر الإسلامية.(١٩)

مثال آخر على المضايقات التي تعرضها لها الأقباط - عهد الدولة الأموية- في خلافة يزيد بن عبد الملك، حيث أصدر قرار بكسر الصلبان في كل مكان ومحو الصور والتماثيل التي هي رمز الكنائس، الأمر الذي أدى لغضب المصريين لأن هذا القرار لا يتفق مع مذهبهم الديني. وأيضًا موقف الخليفة المتوكل العباسي من أهل الذمة حيث أصدر قرار بأن يتميز أهل الذمة عن المسلمين، حيث منع القبط من ركوب الخيل، وأجبرت نساءهم على ارتداء ملابس العاهرات، وأن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تساوي قبور المسلمين.(٢٠)

ويذكر ابن المقفع أن أقباط مصر أصابهم كثير من الأذى أثناء الفتن التي قامت من أجل النزاع حول الخلافة، فعندما آتي الخليفة مروان بن محمد (٧٢ – ١٣٢هـ / ٦٩٢ – ٧٥٠م) (٢١) هاربًا إلى مصر عاث جنده في البلاد فسادًا، فقتلوا جماعة من رجال الدين ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم، كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيرًا من الكنائس واعتدوا على كثير من الراهبات.

وخلاصة القول؛ أن هذه الأوامر كانت تنفذ وقت صدورها لكن التمسك بها كان يقل تدريجيًا بمرور الوقت ليعود بعدها المسلمون إلى التسامح مع أهل الذمة.

---

(١٩) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

(٢٠) عوض بسيط، "في المسألة القبطية"، ندوة "المسألة القبطية بين الإنكار والتبعية للاستعمار".– القاهرة: مركز الدراسات الاشتراكية. ٣ نوفمبر ٢٠٠٦.

محمد منير مجاهد، "التمييز الديني في مصر".– منتدى القاهرة الاجتماعي الثالث "مناهضة التمييز الديني والتدخل الأجنبي".– القاهرة: نقابة الصحفيين. (٢٩ مارس – ١ أبريل ٢٠٠٧)

(٢١) آخر خلفاء بني أمية. ولد بالجزيرة، كان واليًا على أرمينية (أرمينيا الآن) والجزيرة في خلافة يزيد الثالث، فلما علم بوفاته وتولية أخيه إبراهيم، هاجمه بجيش بلغ ثمانين ألفًا، ثم تغلب عليه، وانتزع منه الخلافة عام ١٢٧هـ، ٧٤٤م. انتشرت في عهده الفتن والقلاقل، مثل ثورة ثابت بن نعيم بفلسطين ومصر، ويزيد بن خالد القسري بدمشق، وبني كلاب بحمص، وسليمان بن هشام الأموي بالعراق وحمص، والضحاك بن قيس الخارجي بالعراق، وسعيد بن بهدل الشيباني في الجزيرة، وشيبان بن عبدالعزيز اليشكري الخارجي في الجزيرة والموصل، وأبي حمزة المختار بن عوف الأزدي السليمي البصري الخارجي بحضرموت ومكة والمدينة، وعبدالله بن معاوية العلوي بالكوفة، وأخيرًا الحركة العباسية. وقد أبدى ضروبًا من الشجاعة والصبر والدهاء في تعامله مع أحداث عصره. تمكن العباسيون من هزيمته في معركة الزاب الأكبر الفاصلة، قرب الموصل، وطاردوه إلى أن قتلوه بأبي صير بصعيد مصر. وبذلك انتهت دولة بني أمية. واشتهر بمروان الجعدي، نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم.

المضايقات المادية التي تعرض لها أقباط مصر

في ظل الحكم العربي وجدت بعض المضايقات المادية التي تعرض لها الأقباط، ولا يخفى على الدارس لهذه الفترة من تاريخ مصر الإسلامية مدى اهتمام العرب بجمع الجزية حتى قيل أن الخليفة سليمان بن عبد الملك(٢٢) كتب إلى أسامة بن زيد والي خراج مصر وقال له "أحلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم(٢٣)" وتدل هذه البادرة على تجرده من الرحمة والرأفة في التعامل مع رعيته، وعلى مدى تشدده في جمع الأموال، فقد أمات الحركة الاقتصادية، وأشاع الفقر والبؤس في البلاد.

وقد لجأ بعض الأقباط إلى اتخاذ الرهبنة سبيلاً لكي يتهربوا من دفع الجزية، وخاصةً أن العرب في بداية عهدهم بالأقباط أعفوا الرهبان من دفع جزية الرؤوس، فوجد بعض الأقباط بذلك سبيلاً لعدم أداء الجزية وعدم اعتناق الإسلام. ولكن سرعان ما أدركت الحكومة ذلك وأسرعت بعملية إحصاء للرهبان وعمل سجلات للأهالي، ويستشف من المصادر التاريخية أن عبد العزيز بن مروان والي مصر - نظرًا لحاجته إلى المال- اتجه إلى شيء لم يتجه إليه أحد من قبل، فأمر بإحصاء جميع الرهبان في كل إقليم وفي وادي النطرون وسائر الأماكن، وفرض دينارًا جزية على كل راهب وأمر ألا يترهب أحد بعد مَن أحصاه، وكانت هذه أول جزية أخذت من الرهبان.

وتتحدث المصادر؛ أنه في عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان المتولي على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي الذي كان ينفذ تعليمات الخليفة بكل دقة، وقد اشتد في طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانوا في جمع الضرائب فأسلم الكثيرون في عهده كي يتخلصوا من الأعباء المالية. ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا في اعتناق الدين الإسلامي، ولكي لا يتمكن أحد من الهروب من منطقة إلى أخرى، كانت سجلات الأهالي أشبه بالبطاقات أو جوازات السفر اليوم حيث فُرض على كل شخص

(٢٢) سليمان بن عبد الملك (توفي٩٩هـ / ٧١٧م). سليمان بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، القرشي الأموي، أبو أيوب. أحد خلفاء الأمويين بالشام. ولد بالمدينة في بني جذيلة، ونشأ عند أبيه بالشام. وكان فصيحًا مؤثرًا للعدل وأهله وإتباع الكتاب والسنة وإظهار شرائع الإسلام. بويع بالخلافة بعد موت أخيه الوليد وكان بالرملة، وكان محبًا للغزو، وقد أعد الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحه الروم على بناء الجامع بها. وأكمل عمارة الجامع الأموي في دمشق. واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشارًا ووزيرًا له، وكان من نتائج هذا عزل نواب الحجاج بن يوسف لظلمهم الناس، وإطلاق سراح السجناء والأسرى. بطش بالمغنين والمخنثين، وخصومه السياسيين. وفتح البلاد المجاورة لبحر الخزر (قزوين)، وسار على رأس جيش مددًا لأخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، ولكن عاجلته المنية في الطريق، بمرج دابق (من أرض قنسرين). ومن حسناته التي لا تنكر عهده بالخلافة إلى عمر بن عبد العزيز الذي يضرب به المثل في العدل والصلاح وعظائم الأعمال.

(٢٣) أبي عبد الله الجهشياري، الوزراء والكتاب.- بيروت: الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٨٨. ص ٣٢

يريد الانتقال من جهة إلى جهة في أنحاء القطر المصري، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وإلا تعرض للقبض عليه ونهب ماله.(٢٤)

كذلك عمل أسامة بن زيد إحصاء ثانيًا للرهبان بعد الإحصاء الأول الذي تم في عهد عبد العزيز بن مروان، حيث أمر أسامة الرهبان ألا يقبلوا في الرهبنة من يأتي إليهم، وضمانًا لذلك لجأ إلى وشمهم عن طريق حلقة من الحديد توضع حول يد الراهب اليسرى ليكون معروفًا، كما وشم كل واحد منهم باسم الدير الذي ينتمي إليه وتاريخ الانتماء وفرض على كل واحد منهم دينارًا جزي، أما مَن وجد هاربًا أو غير موسوم فقد كان يلقى عقابًا قاسيًا. ويقال أن أسامة بن زيد جبى من مصر اثني عشر مليون دينار في خلافة سليمان بن عبد الملك، وقد يكون هذا القول مبالغة ولكنه يدل على أن أسامة اشتد في جباية خراج مصر(٢٥) إلى حد كبير.

تلك هي الإجراءات التي اتخذها الولاة بالاتفاق مع الخلفاء لزيادة دخل بيت المال، يقول المستشرق "مارسيل" في هذا الصدد: "ولما كان الوالي على يقين من أنه سيقال من منصبه ليحل وال آخر محله، فقد كان يعتني بما يجلب الفائدة إليه دون البلاد، وكان همه الوحيد أن يثرى إبان ولايته القصيرة المدى وبأي وسيلة، حتى يعوض الخسارة التي تنتج عن إقالته. لذلك كان كل وال يزيد الضرائب التي يفرضها سلفه".(٢٦)

لكن هل وقف أقباط مصر دائمًا هذا الموقف السلبي من الإجراءات المالية والإدارية للخلفاء والولاة من حيث الهرب من إقليم إلى إقليم والانخراط في سلك الرهبنة (٢٧) أو اعتناق الإسلام؟.. بالطبع لا .. فإزاء هذه الأعباء المالية الثقيلة كان للأقباط عدة ثورات في مصر، حيث بدأ الأقباط للمرة الأولى يتركون سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية.

---

(٢٤) سيدة الكاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٢٨ – ٢٣٠.

(٢٥) تجدر الإشارة هنا إلى أن الخراج كانت ضريبة الأرض التي يدفعونها على ثمارهم وزروعهم لقاء استغلالها، وإن غلب عليها في بداية الدولة الإسلامية كلمة جزية، لكن في خلافة عمر بن الخطاب تحدد لكل لفظ معناه، فتختص كلمة جزية بما يدفعه الشخص عن نفسه وكلمة خراج بما يرد من الأرض. أنظر الخراج:
نريمان عبد الكريم أحمد، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦. (سلسلة تاريخ المصريين، (٩٠)، ص ٥٢-٥٨).

(٢٦) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٩٢.

(٢٧) الرهبانية: شكل من أشكال الحياة الدينية، تعزل فيها جماعة نفسها عن الحياة العامة سعيًا إلى تطبيق تعاليم دينها تطبيقًا تامًا. ويسمى من يتبع هذا النمط من الحياة راهبًا. وهم يعيشون في أماكن تعرف بالأديرة. وتؤدي الرهبانية دورًا مهمًا في معظم الأديان. وقد أُطلق على أوائل رهبان النصارى المعتزلين؛ لأنهم كانوا يعيشون حياة عزلة، ثم تجمعت جماعات منهم، وكونوا جمعيات تتبع حياة العبادة والتأمل، وينهج الرهبان المعاصرون هذا المنهج نفسه. أما الرهبانية النصرانية، فقد بدأت في مصر نحو عام ٢٧١م عندما ذهب القديس أنطونيوس المصري إلى الصحراء وعاش منفردًا حياة زهد وعبادة.

ثورات الأقبـاط في العصر الأموي[٢٨]

• ثورة الأقباط في الوجه البحري سنة ١٠٧هـ

تخبرنا الوثائق عن قيام الأقباط بالثورة المعلنة في بعض الأحياء مثل ما حدث في ولاية الحُر بن يوسف، فقد اضطر الأقباط تحت ضغط الأعباء المالية إلى الثورة فبعث الحُر بن يوسف جيشًا وقضى على هذه الثورة. كما حصل على إذن من الخليفة هشام بن عبد الملك باستقدام أناس من العرب الشماليين لكي يستقروا في أرض مصر.

• ثورة الأقباط في الصعيد سنة ١٢١ هـ

لم تتوقف ثورات الأقباط فقد حدث أن ثار أقباط الصعيد عام ١٢١هـ وقاموا بمحاربة عمال الحكومة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان والي مصر جيشًا لمحاربتهم فانتصر عليهم وقتل عدد منهم وتم القضاء على الثورة.

• ثورة الأقباط في سمنود سنة ١٣٢هـ

حيث ثار أقباط سمنود وخرج من بينهم ثائر يدعى "يحنس" مما دفع عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه جيش لمحاربته، فقتل "يحنس" مع كثير من أصحابه وقض على ثورتهم.

• ثورة الأقباط برشيد سنة ١٣٢هـ

في نفس العام سنة ١٣٢هـ ثار القبط في رشيد، فبعث إليهم الخليفة مروان الأموي بن محمد بجيش للقضاء عليهم فهزمهم وتم القضاء على ثورتهم.

ثورات الأقبـاط في العصر العباسي

كانت الثورات في العصر العباسي أسبابها مالية بحتة، إذ كان الخلفاء العباسيون يعتبرون ولاة مصر مجرد جباة ضرائب وخراج، وكانوا يلحون في طلب المزيد لتغطية مصاريف عروشهم ولياليهم المترفة البعيدة والمنافية لأية قيمة إسلامية.[٢٩]

• ثورة أقباط سخا سنة ١٥٠هـ

حدثت ثورة في سخا عام ١٥٠هـ في ولاية يزيد بن حاتم على مصر، وقد انضم إلى هذه الثورة بعض جهات الوجه البحري وأهل البشرود، لكن العرب انهزموا أمام القبط في هذه المرة.

• ثورة الأقباط في بلهيت عام ١٥٦هـ

وفي عام ١٥٦هـ قام الأقباط بثورة أخرى في ولاية موسى بن علي بن رباح، مما اضطره لإرسال جيش أوقع الهزيمة بهم، وحكم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية .

(٢٨) أحمد صبحي، اضطهاد الأقباط في مصر بعد الفتح، موقع أهل القرآن (http://ahl-alquran.com)
(٢٩) حامد سليمان، قصة فتح مصر، ص ٨١.

- ثورة البشرود أو البشمور عام ٢١٦هـ / ٨٣١م [٣٠]

البشمور منطقة رملية على ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط عند بحيرة المنزلة، وتعتبر هذه الثورة آخر ثورات الأقباط ضد العرب، حيث قام الثوار بطرد عمال الحكومة والذي دفعهم لذلك كثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التي كانت تستعمل في جبايته. وكان الوالي على مصر وقتها هو عيسى بن منصور ولم يستطع القضاء على الثورة، فبعث إلى الخليفة المأمون العباسي الذي بعث بدوره إلى قائدهم فامتنع عليه مما اضطره إلى القدوم بنفسه إلى مصر. فقد سخط الخليفة على الوالي عيسى بن منصور وقال:"لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتو في الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد".

وقد حاول المأمون معالجة الأمر باللين، حيث أرسل إليهم بعض بطاركة الكنيسة ووعدهم ألا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم، ولكن البشموريين رفضوا الاستجابة إلى الخليفة مما اضطره إلى محاربتهم، فسار الخليفة المأمون العباسي بجيشه إليهم وأعمل فيهم الجند السيف، وأحرقوا مساكنهم، وهدموا كنائسهم، وقتلوا أعداداً كبيرة منهم، ولم تقم للقبط قائمة بعد ذلك وأصبح المسلمون في مصر وفي الوجه البحري على الأخص أغلبية.

وهكذا؛ نرى أن الأقباط قبلوا بتبعيتهم للعرب وقبلوا النظام المالي الذي فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧هـ، ثم بدءوا يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيما في منطقة الدلتا، على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعًا، وكان يتبع إخمادها في العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامي.[٣١] ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وإنما حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة، وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها، فبينما نجد أن الاضطهاد الدقلديانوسي ضد المسيحية في مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين، نجد القبط يغلبون على أمرهم في ثوراتهم ضد العرب.

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن هذه الاضطهادات كانت من حكام ابتعدوا تمامًا عن المفهوم الإسلامي ضد مسلمي وأقباط مصر على السواء، فكانت الثورات من جميع سكان مصر – مسلمين وغير مسلمين– ضد هذا الظلم الذي وقع من هؤلاء الحكام الذين حكموا مصر حكمًا سلطويًا بحتًا، تحت شعار واسم الإسلام والدولة الإسلامية دون أن يكون لهم أدنى علاقة بقيم الإسلام العليا.[٣٢]

(٣٠) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٩٨ وما بعدها.
أحمد صبحي، اضطهاد الأقباط في مصر بعد الفتح، موقع أهل القرآن (http://ahl-alquran.com)
(٣١) فاطمة مصطفى، تاريخ أهل الذمة، ج٢، ص ١٨٨
(٣٢) حامد سليمان، قصة فتح مصر، ص ٨١.

تبقى بعض الملاحظات التي يجب أن نضعها نصب أعيننا ونحن نتحدث عن ثورات القبط ضد ظلم الولاة:(٣٣)

- أن المسلمين كان يقع عليهم ما يقع على المسيحيين من جور، فالضرائب التي كانت تفرض على الأرض تعم المسلمين والأقباط معًا. ولم يكن كل الذين هربوا من أراضيهم الزراعية، أو ثاروا من المصريين المسيحيين فقط، وإنما كانوا من المصريين مسلمين ومسيحيين، ومن المصريين العرب. وبعدما أصبح الخراج يفرض على الأرض بغض النظر عن دين مالكيها، أصبح العرب يثورون مع المصريين ضد الحكومة العربية.
- أن المظالم التي وقعت على الأقباط لم يكن مبعثها الاضطهاد الديني، وإنما العسف المالي، بدليل أن المصريين المسلمين قد عانوا من هذه المضايقات بالقدر نفسه. ولا يعني اعترافنا بهذه المظالم التسليم بأن أهل الذمة في مصر قد عاشوا حياتهم في ظل اضطهاد متواصل، فغن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد عاش أهل الكتاب يتمتعون بكل حرياتهم الاجتماعية والسياسية، وارتفعوا في وظائف الدولة، وتولوا المناصب المهمة، كما نعموا بحرية تنظيم جماعاتهم داخلياً تحت رئاسة يختارونها في ظل روح الإسلام وسماحته مع أهل الكتاب.
- أن ثورات القبط ضد المظالم المالية لم تكن حركات قومية بالمعنى الصحيح، أي لم يكن هدفها الانقلاب على نظام الدولة الإسلامي، وإنما كان هدفها ينحصر في خفض الضرائب أو الهرب منها، وتنبيه السلطات المركزية إلى ممارسات ولاتهم المتعسفة في مصر.
- أن هذه الثورات كانت وقتية، بمعنى أنها كانت مرتبطة بظروف معينة، مثل انخفاض ماء النيل، أو وفود أحد الولاة الجبابرة يرى أن مهمته تزاد نجاحاً كلما أمعن في جباية اكبر قدر من الأموال دون مراعاة لظروف الأهالي. والدليل على ذلك أن هذه الثورات كانت تحدث على فترات متباعدة، وتندلع عندما تتهيأ ظروفها، ولم تكن سياسية ثابتة في مسلك الدولة تجاه الأقباط، وأن مراد هذا التعسف كان يرجع بالدرجة الأولى إلى شخصية الوالي ونصيبه من احترام مبادئ العدل، وقدرته على حسن التصرف.

---

(٣٣) جمال بدوي، مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠. ص ١٤٥ – ١٤٧.

محمود الورداني، "أوراق مسكوت عنها وهامش يتحول إلى متن".- مركز الدراسات الاشتراكية.- منشور بتاريخ ١ أبريل ٢٠٠٨ ومتاح على الرابط: (http://www.e-socialists.net/node/891)

انتشار اللغة العربية

لقد تبع انتشار الإسلام في مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضًا فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب، فالعرب بدءوا بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون إلى تعريب البلاد وجعل اللغة العربية لغة رسمية وذلك بسبب عدم معرفتهم باللغة القبطية. وقد عمل عبد الملك بن مروان على تعريب دواوين العراق والشام، أما بالنسبة لمصر فقد عُربت دواوينها في خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٧٨هـ.

وكانت عملية تعريب الدواوين عملية طويلة جبارة منظمة لأنها أدت إلى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وأصبحت الدولة العربية من الناحية السياسية عربية وبمعنى أكمل فقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها، فأصبحت العربية لغة التدوين، كذلك أصبحت لغة الإدارة فضلاً عن أنها صارت لغة الثقافة بالإضافة إلى أنها لغة السياسة والدين.

ولكن؛ لا يعنى تعريب الدواوين أن اللغة العربية أصبحت لغة الثقافة أو لغة التخاطب، فكما أن اتخاذ اليونانية لغة الدواوين لم يجعلها لغة عامة قبل الفتح الإسلامي، كذلك اتخاذ العربية في الدواوين لم يجعلها لغة عامة. ولا تعني هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية أنها لم تثبت وجودها في أي فترة من فترات الصراع، فقد فرضت نفسها لفترة ما كلغة حديث حتى على الفاتحين العرب أنفسهم، وتعلمها الكثيرون منهم. وممن عرفوا بإجادتهم اللغة القبطية، القاضي"خير بن نعيم"، الذي كان يتكلم للخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية.(٣٤)

ويبد أن اللغة العربية لم تكن قد ذاعت وانتشرت بين شعب مصر في أوائل القرن الثالث الهجري/ أوائل التاسع الميلادي، فقد كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين عامة المصريين، والدليل على ذلك أن المقريزي يذكر في كلامه عن زيارة الخليفة المأمون لمصر: "وكان لا يمشي أبدًا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس".(٣٥)

ومن الملاحظ؛ أن الفتح العربي ساعد أولا على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية، التي كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالمة، فالدروس الدينية التي كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية، صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية، كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التي كانت تسمى بالأسماء اليونانية، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التي ترجع إلى الأسماء

(٣٤) أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧٠. ص ٥٢- ٥٥

(٣٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول (نسخة إلكترونية: www.al-eman.com)

المصرية القديمة. فمثلا نجد اسم "أخميم" بدلا من "بانوبوليس"، "وأهناسيا" بدلاً من "هيراكليوبوليس"، و"الأشمونين" بدلا من "هرموبوليس"، على أن هذا كله كان بعثا لقديم لم يندثر تمامًا. فإن اللغة القبطية أو الأسماء المصرية، كانت قد غلبت على أمرها حينا من الدهر ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربي.(٣٦)

ويمكن القول أيضًا؛ أن أقباط مصر لم يتركوا لغتهم إلا ابتداء من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، حيث أصبحت اللغة العربية هي لغة الكتابة السائدة بين المصريين عامة ومن بينهم رجال الدين المسيحي، فنرى أن البطريرك سعيد بن بطريق يدون كتابه في التاريخ باللغة العربية وهو "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق". ونجد أيضًا أسقف المنيا ساويرس بن المقفع يدون تاريخ بطاركة الإسكندرية باللغة العربية وذلك عن طريق جمع الوثائق القبطية واليونانية وترجمتها إلى اللغة العربية في أواخر القرن الرابع الهجري في كتاب"سير الآباء البطاركة".

كل ذلك يشير بوضوح إلى أن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب بين المصريين، وأن اللغة القبطية لم تعد سائدة بين عامة الشعب فهذا الأسقف دون كتابة باللغة العربية.(٣٧) وبمرور الوقت أخذ اللسان القبطي في الانزواء إلى صعيد مصر، ويذكر الرحالة الألماني فانسليب الذي قام بزيارة مصر سنة ١٦٦٤م، أنه قد صادف قبطياً يُدعى "آناستاس" يتحدث القبطية بطلاقة، ولعله – وفق تقديره – كان آخر من يتحدث بهذا اللسان في مصر.(٣٨)

الجدير بالذكر؛ أن هناك عاملان أساسيان عجلا بزوال اللغة القبطية من الحياة العامة: أولهما إسراع الموظفين النصارى إلى تعلم اللغة العربية لكي يحتفظوا بوظائفهم، وثانيهما ازدياد عدد الذين احتضنوا الإسلام وتركوا – حال دخولهم الدين لجديد – لغة أجدادهم. زد على ذلك؛ امتزاج العرب بالأسر المصرية، واعتناق الإسلام مما يحتم دراسة القرآن الكريم وبالتالي اللغة العربية. كما هجر الرهبان الأديرة بعد أن فرضت السلطات الضرائب، وتعلم القساوسة اللغة العربية ليفهم رعاياهم تعاليمهم، وتركوا اللغة القبطية لعدم فائدتها العملية.(٣٩)

---

(٣٦) سيدة إسماعيل كاشف، عبد العزيز بن مروان.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٦. (سلسلة أعلام العرب (٧٠)، ص ١٣٦.

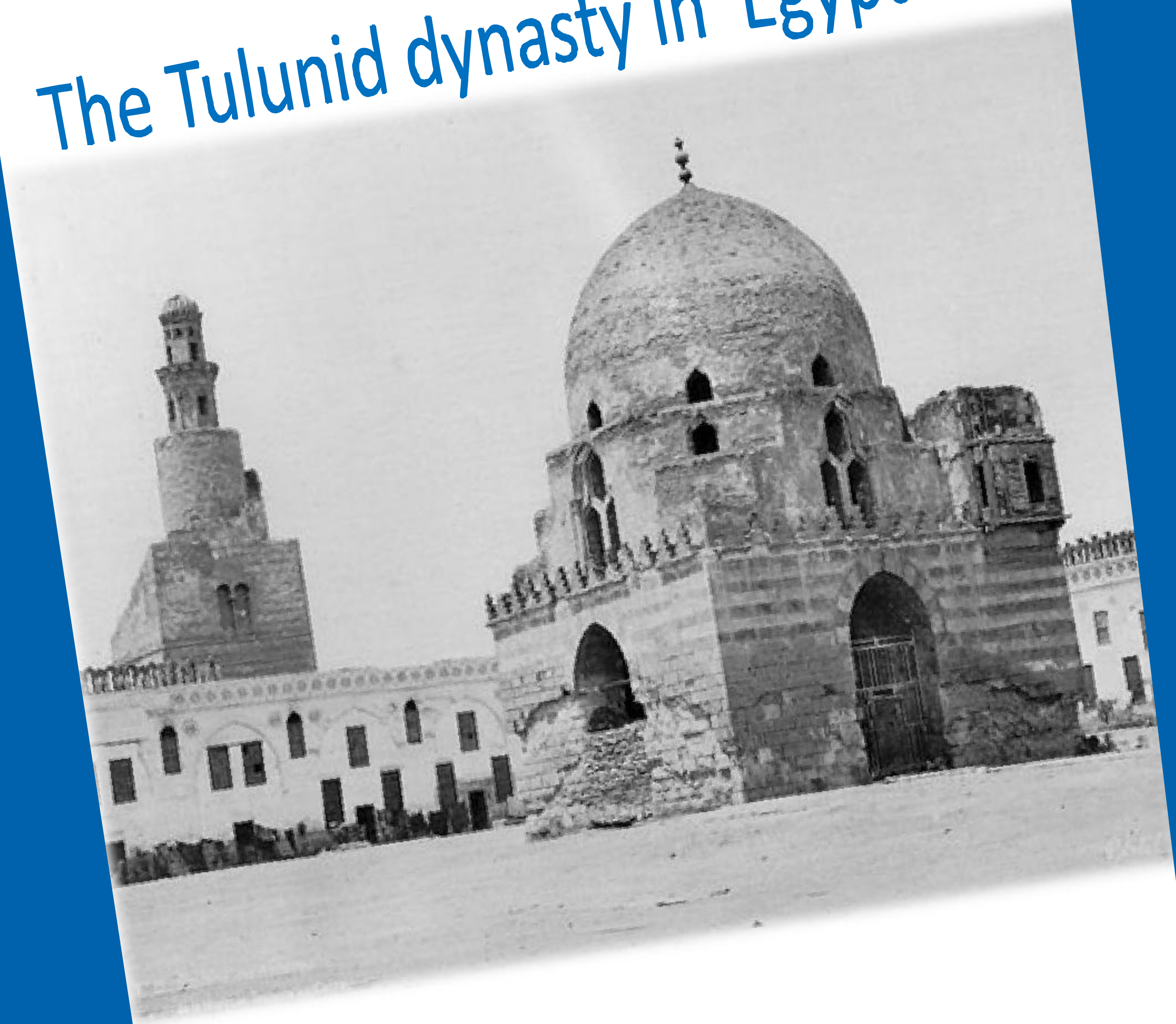
(٣٧) حامد سليمان، قصة فتح مصر، ص ٧٩.

(٣٨) عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية/ ترجمة إسحق عبيد.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المشروع القومي للترجمة، العدد ٨٩٢- ص ٢٥)

W.H. Worrell, Short Account of the Copts, P.sl; idem, “Popular Traditions of the Coptic Language”, in American Journal of Semitic languages and literatures.- Chicago: University of Chicago,1937. (No, 54, PP. 1 – 11)

(٣٩) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ص ٣٠٢.

The Tulunid dynasty in Egypt



الدولة الطولونية في مصر

"لا تلق بهمّتـك على صغار الأمور بأن تسهل على نفسك تناول يسيرها فيمنعك ذلك من كـبارها، ولا تشغل بما يقل قدره فلا يكون فيك فضل لما يعظم قدره"

أحمد بن طولون

"إني أرى هذه الدولة قد نادى غرابها بالرحيل... فقد فرغت الأموال وفر الرجال"

شيبان بن أحمد بن طولون

الدولة الطولونية في مصر

٢٥٤ – ٢٩٢هـ / ٨٦٨ – ٩٠٥م

ظروف قدوم أحمد بن طولون إلى مصر – نشأة أحمد بن طولون – علاقة أحمد بن طولون بالخليفة المستعين – أحمد بن طولون نائبًا عن باكباك – عثرات في طريق أحمد بن طولون – محاولة بن طولون نقل مقر الخلافة إلى مصر – موقف ابن طولون مع الموفق– الإصلاحات الداخلية في عهد أحمد بن طولون– بناء القطائع ـ جامع أحمد بن طولون – قناطر المياه – مسجد التنور– البيمارستان أبو الجيش خمارويه – موقف الخليفة الموفق من خمارويه – موقف الخليفة المعتضد من خمارويه نهاية خمارويه– خمارويه بين الترف والتلف– أولاد خمارويه – نهاية الدولة الطولونية – مظاهر الحضارة في العصر الطولوني

قسم المؤرخون العصر العباسي Abbasid Era إلى فترتين رئيسيتين؛ الأولى تمتد منذ قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ / ٧٤٩م) إلى سنة (٢٣٢هـ / ٨٤٧م)، ويطلقون على هذه الفترة الزاهرة "العصر العباسي الأول" أو "العصر الذهبي"، وحكم خلاله تسعة خلفاء من أعظم رجالات المسلمين، وحسبك أن يكون من بينهم"أبو جعفر المنصور"، و"هارون الرشيد"، و"المأمون". أما الفترة الأخرى فتمتد أكثر من أربعة قرون من سنة (٢٣٢ هـ / ٨٤٧م) حتى سقوط بغداد على أيدي المغول سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وهذه الفترة يقسمها المؤرخون إلى أربعة عصور رئيسية، تبدأ بعصر نفوذ الأتراك الذي امتد أكثر من قرن من الزمان (٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٥م)، ثم عصر البويهيين (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م)، ثم عصر نفوذ السلاجقة (٤٤٧-٥٩٠هـ / ١٠٥٥-١١٩٤م)، ثم عصر ما بعد السلاجقة، الذي يمتد حتى سقوط الخلافة.

وقد شهدت الفترة الأولى من العصر العباسي الثاني - أو ما يُسمَّى بعصر نفوذ الأتراك- ظهور الدول المستقلة، بعد أن ضعفت قبضة الخلافة، وتولى أمرها مَن لم يكن في قدرة الخلفاء العباسيين الأوائل كفاءةً وحزمًا؛ فانفلت الأمر من أيديهم إلى قوادهم الأتراك الذين كانت الدولة تستعين بهم في تسيير أمورها وقيادة جيوشها، وظهر منهم شخصيات كبيرة استأثرت بالأمر دون الخليفة الشرعي، وتدخلت في تعيين الخلفاء وعزلهم؛ ولذلك لم يكن غريبًا أن يستأثر بعض الولاة بما تحت أيديهم، وينشئوا دولا مستقلة - وإن كانت ترتبط بالخلافة- ويحكموا من خلالها، لكن النفوذ الفعلي في الولاية كان لحكامها لا للخليفة العباسي الموجود في بغداد. ومن أبرز الدول التي ظهرت في هذا العصر الدولة الطولونية التي قامت في مصر والشام والحجاز.[(١)]

(١) أحمد تمام، "ابن طولون ودولته في مصر والشام".- إسلام أون لاين نت.- ١/ ١/ ٢٠٠٠ (www.islamonline.net)

ظروف قدوم أحمد بن طولون إلى مصر

تميزت الفترة التي سبقت قيام الدولة الطولونية بالتأخر في جميع نواحي الحياة وذلك بسبب سياسة العباسيين التي قامت على كثرة تغيير الولاة حتى لا يطمحوا في الاستقلال بالبلاد. فلقد بحث الخلفاء العباسيون عن عصبية جديدة تغنيهم عن العرب والفرس جميعًا، فوجدوا ضالتهم في الأتراك الذين سكنوا بلاد ما وراء النهر والذين اشتهروا بالطاعة وحب النظام الشجاعة. ولم يلبث الأتراك أن تسللوا إلى قلب الخلافة العباسية، حيث رحب بهم الخلفاء وقلدوهم المناصب الكبرى في الجيش والإدارة، فصار منهم الوزراء والولاة.[٢]

وقد أصبح الولاة في مصر منذ سنة ٢٤٢هـ من الأتراك وذلك بعد صرف عنبسه بن اسحق آخر والي عربي على مصر. ولقد أساء هؤلاء الأتراك لأهل البلاد، ولم يصبح لديهم من هدف سوى الإثراء السريع عن طريق استخدام أو استحداث الضرائب التي أثقلت كاهل المصريين، وأفضت إلى خراب البلاد. ولما زاد نفوذ الأتراك في دار الخلافة أخذ الخلفاء يقطعون بعض الأقاليم لأمراء الجند، وكان هؤلاء الأمراء يفضلون البقاء في بغداد حتى يأمنوا قيام الدسائس ضدهم إذا ابتعدوا عن بلاط الخلافة، كما كان الخليفة يفضل أن يكون هؤلاء الأمراء الأتراك إلى جانبه حتى لا يفكروا في الانسلاخ عن الخلافة في حركات استقلالية بأقاليمهم.

وفي هذه الظروف ظهر أحمد بن طولون Ahmad ibn Tulun ، وهو من أصل تركي إذ كان أبوه طولون[٣] من بلاد ما وراء النهر[٤] ويقال أن طولون "الأب" كان من الرقيق الذين أرسلهم نوح بن أسد والي بخارى إلى الخليفة المأمون العباسي في سنة ٢٠٠هـ فصار من مماليكه وارتقى حتى صار من حملة الأمراء. وقد تزوج طولون "الأب" من جارية تسمى قاسم أو هاشم سنة ٢٢٠هـ بمدينة بغداد على الأرجح وليس بمدينة سامراء كما يزعم المؤرخ ابن خلكان وذلك لسبب بسيط وهو أن هذه المدينة لم تشيد إلا في العام التالي لمولد أحمد بن طولون.[٥]

---

(٢) كان المعتصم أول خليفة عباسي استعان بالأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة. كان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوي، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية. وقد اتخذ من حسن هندامهم وجمال مظهرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سببًا للاعتماد عليهم، فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقلدهم الولايات الكبيرة، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء.راجع:
حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام.- الطبعة ١٤.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٦. (ج٢، ص ١٥٧).
حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية.- الطبعة الثالثة.- القاهرة، ١٩٦٢.ص ١٨٤

(٣) كلمة "طولون" تعني في اللغة التركية "البدر الكامل".

(٤) التركستان الروسية

(٥) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ –كلية الآداب.- القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

نشأة أحمد بن طولون

قبل بلوغ أحمد بن طولون العشرين توفى والده طولون سنة ٢٤٠هـ، فتزوجت أمه من قاسم بغا الأصغر "أحد زعماء الجند الأتراك"، كما تزوجت للمرة الثالثة من باكباك الذي خلف بغا الأصغر في وظيفته "وظيفة الأمين في البلاط العباسي". وفي هذه الأثناء لقي أحمد الكثير من عناية الجند الأتراك، كما حصل على التربية العسكرية التي تؤهله للعمل في حرس الخليفة، وحظي كذلك بدراسة اللغة العربية وآدابها، وحفظ القرآن الكريم والحديث[٦] وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وفاق أقرانه من الأتراك وحل منهم محلاً حسنًا.[٧]

وقد تزوج أحمد بن طولون من "خاتون ابنة يارجوخ"، فولدت له ابنه البكر العباس سنة ٢٤٢هـ، ويبدو أن حياة الجند الأتراك لم تلق من أحمد سوى الازدراء، لما كانوا يرتكبونه في حق الخلفاء، وكان يقول دائمًا: "إن حرمة الدين عندهم مهتوكة". ولذلك طلب من الوزير عبيد الله بن خاقان أن يعين له رزقًا في طرسوس[٨]، ورحل أحمد بن طولون إلى مدينة طرسوس، وذلك للاشتغال بالجهاد في محاربة البيزنطيين وللدراسة على مشاهير العلماء المسلمين في هذه المدينة[٩].

علاقة أحمد بن طولون بالخليفة المستعين

تروي المصادر التاريخية أن أحمد بن طولون كان على علاقة طيبة بالخليفة المستعين لإنقاذه قافلة راجعة من بلاد الروم محملة بالهدايا للخليفة، فكافأه الأخير بأن بعث إليه بألف دينار سرًا تقديرًا لشجاعته، وأخبره أنه لولا خوفه عليه من حسد أقرانه لقربه إلى جواره. ومع هذا فقد توالت على أحمد صلات المستعين وعطاياه التي كان من بينها جارية تدعى "مياس" حيث رُزق منها بابنه خمارويه.[١٠]

---

(٦) حفظ القرآن وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتًا به وكانت جميع خصال ابن طولون محمودة، إلا أنه كان حاد الخلق والمزاج، طائش السيف، يقتل ويحبس بالظنّة، ولما اشتد عليه المرض قبيل وفاته غضب على أطبائه فأعدم كثيرًا منهم وعذب آخرين. انظر: الاسكندري، تاريخ مصر، ص ١٨٦.

(٧) لينبول، سيرة القاهرة، ص ٧٨.

(٨) البلوى، سيرة أحمد بن طولون/ تحقيق محمد كرد علي.- دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨ هـ ص ٣٦.
طرسوس Tarsus: هي مدينة تركية تقع جنوب البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط في منطقة مرسين حيث تبعد حوالي ١٥كم عن مدينة مرسين و٤٠كم عن مدينة أضنة. بلغ عدد سكانها عام ٢٠٠١ حوالي ٣٤٨ ألف نسمة. كانت عاصمة لإقليم قيليقية. تقع في الطرف الغربي للأقاليم السورية الشمالية التي أخضعت لتركيا بموجب معاهدة سيفر بين تركيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى، و تضم هذه الأقاليم أضنة ومرسين ومرعش وماردين وجزيرة ابن عمر واورفة وديار بكر وعنتاب وكلس.

(٩) موسوعة تاريخ مصر عبر العصور.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٣.(س تاريخ المصريين، ٦٣) ص ١٣٢.

(١٠) البلوي، المصدر السابق، ص ٣٩.

ويبدو أن علاقة أحمد بن طولون بالخليفة المستعين العباسي Al-Musta'in Billah قد استمرت على هذا النحو، بدليل أن الخليفة اختاره ليصحبه إلى "واسط" بعد عزله عن الخلافة سنة ٢٥٢هـ حيث أحسن أحمد معاملته هناك، بل ورفض استجابة للجند الأتراك بقتله، وكتب أحمد بن طولون إليهم بأنه "لا يقتل خليفة له في رقبته بيعة" على حد تعبير المقريزي. فبعثوا إليه بسعيد الحاجب الذي تسلم المستعين وقتله، فمضى أحمد إلى مقر الخليفة ليجده جثة مطروحة على الأرض، وقد احتذت رأسه، فلم يزل قائمًا حتى غسل وكفن(١١) وقام بدفن جثته وعاد بعدها إلى سامراء(١٢) ليجد أن النفوذ والسلطان قد صار إلى أيدي الجند من الأتراك، الذين نصبوا المعتز على عرش الخلافة. وكان باكباك زوج أمه أقوى هؤلاء الجند وأعظمهم شأنًا، قد حصل من الخليفة سنة ٢٥٤هـ على إقطاع مصر، بيد أن حرصه على عدم مغادرة سامراء العاصمة، ليكون على مقربة من مجريات الأحداث، وفي مأمن دائم من دسائس خصومه، وقريبًا من أنصاره وأشياعه مصدر قوته وعصبيته، ولذلك كله وقع اختياره على ابن زوجته - أحمد بن طولون - ليكون نائبًا عنه في مصر.

أحمد بن طولون نائباً عن باكباك

سار أحمد بن طولون إلى مصر في رمضان سنة ٢٥٤هـ متقلدًا للقصبة - أي الفسطاط وأسيوط وأسون - دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الإسكندرية وبرقة، فلقد كان على الإسكندرية نائب خاص بها، وعلى برقة نائب آخر فقد كانت تتبع مصر حينذاك. واستقدم أحمد بن طولون معه بعض الجند للدفاع عنه ضد أي ثورة يقوم بها الشعب، ولإحباط ما قد يقوم به بعض المواطنين من دسائس، كما حضر معه أحمد بن محمد الواسطي الذي كان قد عهد إليه بخدمة الخليفة المستعين حين كانت حراسته موكله إليه، والذي صار بمثابة ساعده الأيمن في إدارة شئون البلاد.

وبدأت مصر منذ ذلك التاريخ عهدًا جديدًا هو عهد الاستقلال الذاتي، إذا عمل أحمد بن طولون على تأسيس دولة يحكمها وأولاده من بعده، فاستقل بأمور البلاد وتعاقبت أسرته على حكمها لثمانية وثلاثين عامًا.(١٣) والحق أن ابن طولون كان سياسيًا قديرًا خبيرًا باختيار الرجال، كما كان بارعًا في انتهاز الفرص والاستفادة منها، لذلك أمكنه أن يتغلب على المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهته.

(١١) حسن أحمد محمود، سيدة اسماعيل كاشف، مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠. (سلسة الألف كتاب ٢٨٥)

(١٢) سامراء هي العاصمة الجديدة التي أنشأها المعتصم شمالي بغداد لتكن مقر الحكومة العباسية الجديد.

(١٣)" أحمد بن طولون"، موقع مصر الخالدة.- متاح بتاريخ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٩ على:(www.eternalegypt.org)

عثرات في طريق أحمد بن طولون [١٤]

وجد أحمد بن طولون عند قدومه إلى مصر، أن صاحب النفوذ فيها هو أحمد بن المدبر العامل على الخراج، فكان التغلب على هذا الرجل هو أول العقبات التي واجهت أحمد بن طولون. كان أحمد بن المدبر عامل الخراج قد ولي هذه الوظيفة منذ سنة ٢٤٧هـ حسبما ورد في الوثائق البردية وليس في سنة ٢٥٠هـ كما يزعم المقريزي،[١٥] وكان ابن المدبر قد لجأ إلى إدخال ضرائب جديدة في مصر وإلى اغتصاب ثروات الأغنياء، ومن ذلك أنه أحاط النطرون – أي كربونات الصوديوم – وحجر عليه بعد أن كان مباحًا لجميع الناس، [١٦] وفرض ضريبة على الكلأ عرفت باسم "المراعي"، وأخرى على ما يستخرج من البحر عرفت باسم "المصائد" مما زاد في بؤس الشعب بمصر الذي أصبح منذ تولى ابن المدبر ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب. ليس هذا فحسب بل عمد ابن المدبر أيضًا إلى العيش في أبهة وفخامة مظهر جليل يفوق ما كان للولاة أنفسهم، الأمر الذي لفت نظر ابن طولون، لاستخدامه حرسًا خاصًا مكونًا من مائة غلام امتازوا بجمالهم وقوة أبدانهم وحسن هندامهم، كانوا يصحبونه في غدواته وروحاته.[١٧]

وقد هرع ابن المدبر إلي استقبال أحمد بن طولون حاملاً معه هدية تتألف من عشرة آلاف دينار، ردها ابن طولون على نحو لم يعهده ابن المدبر من الولاة الذين سبقوه، ومن ثم فقد سارع بالكتابة إلى بلاط الخليفة محذرًا من أحمد بن طولون لاعتقاده بأن من يرفض هدية كمثل التي قدمها إليه ليس من الحكمة أن يوكل إليه أمر إقليم ناءٍ عن الحكومة المركزية مثل مصر.غير أن ابن المدبر فوجئ بأن ابن طولون لا يمانع في قبول الحرس المحيط به، لأنهم ألزم إليه من المال الذي عرضه عليه، فلم يسع ابن المدبر سوى التنازل عن هذا الحرس، وبذا نقصت هيبته بمفارقتهم مجلسه.[١٨]

---

(١٤)حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ص ١٣٥ – ١٣٦.

(15)Zaky Mohamed Hassan, Les Tulunides: étude de l'Égypte Musalmane à la fin du IXe siècle 868-905.-Paris:Établissements busson, 1933. P.37

(١٦) كربونات الصوديوم (ملح النطرون) Na_2CO_3 : استخدم المصريون هذا الملح لآلاف السنين لحفظ السمك فالملح يجفف اللحم والبيكربونات المعروفة باسم (صودا الخبز) تقتل البكتيريا. ومن المعروف أن الملح لعب دوراً هاماً في تاريخ الضرائب، ذلك أن الملح أكثر المواد التي يستخدمها الإنسان لذلك فإنه يعود على الخزانة العامة دخل كبير من احتكاره وفرض الضرائب على استهلاكه. يعتبر الملح احد عوامل تشكيل الحضارة الإنسانية، قامت بسببه الحروب وسادت أمم واغتنت بوجود الملح والتجارة فيه، فقد حاول الكثيرون الحصول على مناجم الملح وفرض ضرائب للسماح للملح بالمرور عبر المدن والبلدان إلى الآخرين، فكان الملح وسيلة لجمع الضرائب للحكومات وللمدن، فكانت الحاجة الشديدة للملح تبرر دفع وجمع الضرائب عليه وتدفع إلى البحث عن مناجم.

(١٧) سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون.– القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥. ص ٤٨ – ٤٩.

(١٨) البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٥.

مجمل القول؛ أنه منذ تلك الساعة بدأ النضال بين ابن طولون وابن المدبر، يشتد ويقوى عن طريق عمالهما وجواسيسهما في سامراء حتى انتهى بفوز أحمد بن طولون عندما كتب إليه الخليفة المعتمد يستحثه في جمع الأموال، فكتب إليه ابن طولون: "لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري" فأرسل إليه نفيسًا الخادم بتقليده إياه، وبذلك خلص له خراج مصر.[١٩] كما نجح أيضًا في أن يمد نفوذه على مصر كلها بما في ذلك الإسكندرية وبرقة عندما واتته الفرصة بعد مقتل باكباك، إذا مُنحت مصر إلى يارجوخ الذي تطلق عليه بعض المصادر خطأ اسم "ماجور"، وكان قد أعطى أحمد بن طولون إحدى بناته زوجة له - كما سبق أن أشرنا من قبل- وعمل يارجوخ هذا على تثبيت صهره ابن طولون في مصر نيابة عنه بل وأطلق يده فيها، وخاصة مما لم يكن واقعًا تحت سلطانه إذ أرسل إليه قائلاً:"تسلم من نفسك لنفسك".[٢٠]

حانت لابن طولون فرصة إنشاء جيش خاص عندما ثار عيسى بن الشيخ والي فلسطين والأردن وشق عصا الطاعة على الخليفة المعتمد ورفض الاعتراف بسلطانه، وأراد الاستقلال بولاية فلسطين والأردن بالإضافة إلى أطماعه في ضم مصر أيضًا، واستولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرسلة من مال مصر إلى العراق. ورغم أن الخليفة المعتمد قد عرض عليه أن يوليه أرمينية مقابل خضوعه وانسحابه من الشام، إلا أنه رفض لأنه كان يصبو في الواقع إلى الجمع بين الولايتين وأن يضيف إليهما مصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أرسل المعتمد إلى ابن طولون طالبًا منه التأهب لحرب ابن الشيخ، فهب إلى تكوين جيش قوي من الأتراك والروم والسودان بلغ مائة ألف وقيل أيضًا مائتي ألف[٢١] وسارع بالخروج لإخضاع عيسى بن الشيخ بعد أن استخلف على مصر أخاه موسى، إلا أنه تلقى أمر من الخليفة بالعودة إلى مصر، بعد أن عهد إلى "أماجور" بالقضاء على ابن الشيخ، الأمر الذي يدفع إلى الترجيح بأن الخليفة المعتمد قد أدرك في اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طولون من التوغل في بلاد الشام لئلا يسعى إلى مصر والاستقلال بها، ولعل الخليفة رغب أيضًا في التخلص من أماجور وإبعاده عن بلاد الخلافة عن طريق إقطاعه الشام والقضاء على ثورة ابن الشيخ.[٢٢]

---

(١٩) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة.- نسخة إلكترونية: (www.islamweb.net)

(٢٠) البلوى، سيرة أحمد بن طولون،ص ٤٦.

(٢١) حسين مؤنس، "تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون"، ضمن تاريخ الحضارة المصرية.- القاهرة، د.ت. (المجلد الثاني، ص ٣٩٠).

(٢٢) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ –كلية الآداب.- القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر - ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

خلاصة القول؛ أن ابن طولون قد غنم من هذا الوضع إذ عاد بجيشه كاملاً، وصار هذا الجيش في يده أداة قام عليها سلطانه إذ تمكن من أن يقضى به على كل منافسيه والثائرين عليه في برقة والإسكندرية والصعيد فيما بعد، واستطاع بعد خمس سنوات من حضوره إلى مصر أن يضم لنفسه الخراج في البلاد وأن يكون أميرًا على مصر كلها بما في ذلك الإسكندرية وبرقة، وأن يكون جيشًا وأن يبني عاصمة جديدة له.(٢٣)

بيد أن سلطانه سرعان ما تعرض للخطر عندما تغلب الأمير "الموفق طلحة" على أخيه المعتمد واضطر الخليفة إلى إقطاعه مصر علاوة على الولايات الشرقية، وقد أرسل الموفق يطالب ابن طولون بالأموال والمنسوجات والعبيد والخيل والشمع وما إلى ذلك من الجزية التي اعتادت مصر إرسالها إلى الخلافة في كل عام، فلم يرسل له سوى ألف ومائتي ألف دينار استصغرها الموفق، وأعد جيشًا لإخراجه من مصر، إلا أن ابن طولون انتهز فرصة موت أماجور والي الشام سنة ٢٦٤هـ وقاد جيشه إليها ودخل الرملة ودمشق وحمص وحماة وحلب وأنطاكية، وصار ملكه يشمل مصر والشام وبرقة.(٢٤)

الواقع أن امتداد سلطان أحمد بن طولون إلى حدود دولة الروم بعد دخوله طرسوس، ذلك الثغر الذي أمضى فيه زمنًا من شبابه بين العلماء والمجاهدين جعله يفكر في غزو الدولة البيزنطية لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس. أسرع أحمد بن طولون بالعودة إلى القطائع في سنة ٢٦٥هـ ليقضى على هذه الثورة التي انتهت بهزيمة العباس وأعوانه بعد فرارهم إلى برقة، حيث تم إحضارهم إلى الفسطاط سنة ٢٦٨هـ، وأمر ابن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه في السجن.(٢٥)

قضى أحمد بن طولون على ثورة ولده العباس في قوة وإصرار، لأنه لم ير في هذه الثورة مجرد خروج على سلطانه، بل رأى فيها ذهابًا بنفوذه في برقة، وقد توطد بها نفوذه نهائيًا بعد ثورة العباس، واستقام له الأمر، وامتدت حدود مصر الغربية حتى شارفت طرابلس. وبذلك بلغ أحمد بن طولون أوج عظمته، فبدأ بإضافة أسمه إلى أسم الخليفة على السكة.(٢٦)

---

(٢٣) في عهد أحمد بن طولون أصبح لمصر لأول مرة جيش مستقل عن الخلافة، ويستفاد مما رواه البلوى وابن سعيد والمقريزي وابن إياس أن أحمد بن طولون جند نحو (٢٤) ألف من الترك و(٤٠) ألف من السودان و(٧٠٠٠) من العرب، وبقية المائة ألف من الأجناس الأخرى، ولا ندري هل أشرك في جيشه هذا أبناء البلاد الأصليين، ولا نستبعد أن يكون قد استعان بفريق من الجند المصريين تمشياً مع سياسته المعروفة بميله لأهل البلاد وتقريبه إياهم.
حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية: العصر الطولوني.- القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت. ص ٤٧

(٢٤) سالم سليمان العيسى، المعجم المختصر للوقائع من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠.- الطبعة الأولى.- دمشق: دار النمير للنشر والتوزيع، ١٩٩٨. ص ١٢٣

(٢٥) سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ٦٩ – ٩٧.

(٢٦) حسن محمود، حضارة مصر، ص ٨٠ ؛ سيدة كاشف، المرجع نفسه، ص ١٠٣.

محاولة ابن طولون نقل مقر الخلافة إلى مصر

من أجرأ المحاولات التي قام بها أحمد بن طولون، وإن لم يكتب لها النجاح محاولته نقل مقر الخلافة العباسية إلى مصر، منتهزًا فرصة الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق، لاستبداد الأخير بالأمور، إذ أرسل إلى الخليفة في سنة ٢٦٨هـ يغريه بترك بغداد والالتجاء إلى أملاكه بمصر، فرحب المعتمد بالفكرة نكاية لأخيه، وخرج بالفعل من بغداد ومعه بعض خواصه يزعم أنه ذاهب للصيد، ولكن الموفق بلغه الخبر فأرسل إلى عامله بالموصل "إسحق بن كنداج" يطلب منه رد المعتمد ويمنيه بالإقطاعات الواسعة والمال الجزيل، وقد استطاع اسحق أن يقبض على الخليفة وحاشيته وأعاده إلى أخيه الموفق، الذي خلع على اسحق ولقبه بذي السيفين وعقد له على مصر بدلاً من أحمد بن طولون.[٢٧]

موقف ابن طولون مع الموفق

كان أحمد بن طولون حينئذ بدمشق، إلا أنه أحضر قضاة أعماله واستفتاهم في خلع الموفق، وأمر بقطع اسمه من الخطبة، ومحو اسمه من الطراز،[٢٨] وأشهد الجميع على ذلك فيما عدا القاضي "بكار بن قتيبة" الذي تعلل بقوله: "لم يصح عندي ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه"، كما لم يشهد أيضًا"محمد بن إبراهيم الإسكندراني وفهد بن موسى. ولم يكتف ابن طولون بذلك بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة، ولكن أهل مكة ساعدوا العراقيين فكانت الهزيمة على المصريين، وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون، لم يستطع عمل شيء إلا أنه كتب بدوره إلى عماله يأمره بلعن ابن طولون على المنابر، فلعن في سائر الأمصار على منابر مصر والشام.[٢٩]

---

(٢٧) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية/ ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي.- الطبعة الخامسة.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨.ص ٢٢٢

(٢٨) علامات الخلافة ثلاث: البردة (العباءة) والخاتم (كان يختم به) والقضيب (السيف).

شارات الخلافة: ثلاث: الخطبة (الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة)والسكة (الدراهم والدنانير) والطراز (وهو قديم في الدول من عهد الفرس والروم وذلك أن يرسم الملوك أو السلاطين أسماءهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدّة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم كأنها كتابة خطت في نسيج الثوب، وأول من نقل الطراز إلى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الأموي. وأنشأ الخلفاء للطرّاز دوراً في قصورهم تسمى دور الطرّاز لنسج أثوابهم وعليها تلك الشارة، وكان القائم على النظر فيها يسمى (صاحب الطراز) ومازالت دور الطراز في الدول الإسلامية على نحو ما تقدم حتى ضاق نطاق تلك الدولة وضعف أمرها وتعددت فروعها فتعطّلت هذه الوظيفة من أكثرها). راجع:

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي، من التمدن الإسلامي.- الطبعة الأولى.- كربلاء، ١٩٧٧. ص ٢٧ – ٢٩.

(٢٩) الاسكندري، تاريخ مصر، ص ١٨٦.

ظل العداء بين الرجلين حتى رأى الموفق أن التمادي فيه لن يؤدي إلى خير، فراسل ابن طولون معاتبًا على المبادرة بخلعه وإسقاط اسمه، ويعتذر له على ما كان من لعنه على منابر بغداد، ولم يكن من أحمد بن طولون بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق إلا أن جنح إلى المسالمة واعتذر إليه، وظلت المفاوضات تسير إلى غايتها حتى قاربت على التمام، وخرج رسول الموفق حاملاً كتاب الصلح وإسقاط اللعن عن أحمد بن طولون، فلما بلغ الرقة بلغه موت ابن طولون فقفل راجعًا إلى عاصمة الخلافة.

وهكذا؛ نرى أن أحمد بن طولون استمات في الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق في حياته، فلقد لقي ربه يوم الأحد لعشر خلون من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ ولم يبلغ الخمسين بعد أن حكم مصر زهاء ستة عشر عامًا[٣٠]، وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة وشهرين، وخلف عشرة آلاف دينار وسبعة آلاف فرس وسبعة آلاف مملوك، وثلاثة وثلاثين ولدًا.[٣١]

الإصلاحات الداخلية في عهد أحمد بن طولون

لقد عنى أحمد بن طولون عناية كبيرة بالإصلاحات الداخلية، وأحسن استغلال موارد البلاد، وأمر بإسقاط الكثير من الضرائب التي أثقلت كاهل الناس خصوصًا ما فرضه ابن المدبر، واهتم بعمارة البلاد وحفر الترع وإقامة الجسور، فعم الرخاء في عهده حتى بيع القمح كل عشرة أرادب بدينار. كما اهتم بأحوال الشعب فحظر الرشوة على عماله، وشدد قبضته عليهم، وعاقب من يعتدي منهم على الأهالي. ولكي يضفي ابن طولون جوًا من الثقة على المعاملات الاقتصادية، سك دينار جديدًا عرف بالدينار الطولوني امتاز بدقة عياره وثقل وزنه وخلوه من الغش والفساد.

أكثر أحمد بن طولون من الاستعانة بالمصريين في إدارة شئون البلاد، إذ استعان بكاتب مصري هو "جعفر بن عبد الغفار" بعد خروج أحمد بن محمد الواسطي كابته وأكبر أعوانه إلى بغداد، لأنه استطاع أن يعرف بثاقب بصره أن المصريين أقدر على تدبير أمورهم خصوصًا المالية، حتى أصبحت الإدارة المالية كلها في أيديهم.[٣٢]

(٣٠) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر وآثارها الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٩٣.
قام ابن طولون بحملات مظفرة في وجه إمبراطور الروم، ثم سار نحو الشمال ليخضع نائبه، وأثناء العودة إلى أنطاكية شرب كثيرًا من لبن البقر على أثر ما شعر به من الجوع والإجهاد في المعركة ومرض بالدوسنتاريا وطلب العودة إلى مصر. كان مصدر فزع أطبائه الذين لم يستمع إلى إرشاداتهم وأبى أن يتناول الغذاء الذي كانوا يشيرون عليه بتناوله، ولما زادت علته أمر بضرب طبيبه بالسياط. وذهبت سدى صلوات المسلمين واليهود والنصارى ودعواتهم بشفائه. أنظر: لينبول، سيرة القاهرة، ٨٩.

(٣١) الكرمي، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، ص ١١٨.

(٣٢) أنظر: الموظفون الطولونيون سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص ١٨٩ – ١٩٢.

كان أحمد بن طولون يشرف على أعمال الدولة، ويستطلع أحوال الرعية،(٣٣) حتى أنه كان يعرف من أمورهم الكثير: فكان يعرف عن أهل الفسطاط التقوى والصلاح، أما أهل العسكر فكانوا على ما يظهر يميلون إلى اللهو ولعل ذلك راجع إلى أن أهل الفسطاط كان أغلبهم من العرب، على حين كان أغلب أهل العسكر من الترك وغيرهم من الأجناس الذين استولوا على زمام الأمور في الدولة العباسية.

وقد اعتنى أحمد بن طولون بالأسطول خاصةً بعد توسعه في الشام، حيث اضطر إلى حماية الشواطئ ومواجهة الهجوم البيزنطي والمحافظة على طرق الاتصال البحري بين سواحل الشام ومصر. لذا أمر عامله على دار الصناعة بألا يدخر وسعًا في بناء السفن بناءًا طيبًا متينًا، كما انشأ قاعدة بحرية في عكا. كما بذل أحمد بن طولون جهود محمودة ليعم الهدوء في البلاد، فقام بالقبض على اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا يعكرون صفو السكان الهادئين ولاسيما في الريف، فامتلأت السجون بهم ومات منهم الكثير فيها.

عمل أحمد بن طولون على حماية الفلاح والمنتج وبث الطمأنينة والاستقرار في نفوسهم، وذلك بإصلاحاته الإدارية الحازمة، التي قضت على الفتن الداخلية ووسائل الهجرة والفرار من الضرائب. وقد عمد إلى الاستيلاء على الأراضي الزراعية التي تركها أصحابها وتولى زراعتها بنفسه، فزاد الإنتاج في البلاد زيادة خيالية وامتلأت خزانته بالقمح وانخفض سعره فأصبحت العشرة أرادب تباع بدينار واحد.(٣٤)

حرص أحمد بن طولون على حماية اقتصاد البلاد فضرب نطاقًا على حدودها "فلا تتسرب الكتب ولا نفيس الأمتعة" إلا بإذنه، ولا ننسى أن إتحاد مصر والشام وبرقة فتح آفاقًا جديدة من النشاط والمغامرة أمام التجار من كل فج. وقد امتد تيار النهضة إلى الميدان الصناعي فنشطت صناعة النسيج في مراكزها بمدينة الإسكندرية وتنيس والبهنسا والأشمونين ودمياط وأخميم، كما راجت صناعة الأسلحة،(٣٥) وعمرت دور الصناعة وساهمت في حركة التصنيع.

وعلى هذا يمكن القول؛ أنه إذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الإسلامية، فإن أحمد بن طولون هو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصري خاص داخل الكيان الإسلامي العام، وفضله من هذه الناحية عظيم، لأنه يعتبر بمثابة النموذج الذي سار على منواله محمد بن طغج الإخشيد، ثم الفاطميون والأيوبيون، فإن كانت تجربة ابن طولون قد انتهت بالفشل فإن عبرتها ظلت باقية لتصبح محور لتاريخ مصر الإسلامية.(٣٦)

---

(٣٣) الأنصاري، الجمل في تاريخ مصر، ص ١٠٠.

(٣٤)حسن محمود، حضارة مصر، ص ٥٢ – ٥٤.

(35) Zaky Mohamed Hassan, Les Tulunides, P. 239

(٣٦) المناوي، مصر في ظل الإسلام، ص ٥٨.

بناء القطائع[٣٧]

قدم أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) وبين جنبيه آمال كبار فهو يريد أن ينشىء من مصر دولة تنافس الخلافة قوة وعظمة، وأن يؤسس لها حاضرة تماثل سامراء "سر من رأى" قصبة الخلافة في عهده، والتي ولد فيها وترعرع وأعجب بجمال قصورها ورحابة ميادينها وعظمة مساجدها ومنشأتها، لذلك عول منذ أن وطئت قدماه أرض مصر على إقامة العاصمة المرجوة فكان له ما أراد. وقد أسماها القطائع ذلك لأنه أقطعها قطعا بين خدمه وحاشيته ورجال دولته،[٣٨] وشيد فيها القصور والمستشفيات والملاجئ وأقام مسجده الجامع الذي مازال يطاول الزمن ببقائه درة فريدة بين المساجد والذي يستحق بلا ريب أن يطلق عليه اليوم اسم شيخ جوامع القاهرة إذ لا يزال تخطيطه ومبانيه على الحال الأولى التي وجد عليها في عهد منشئه.

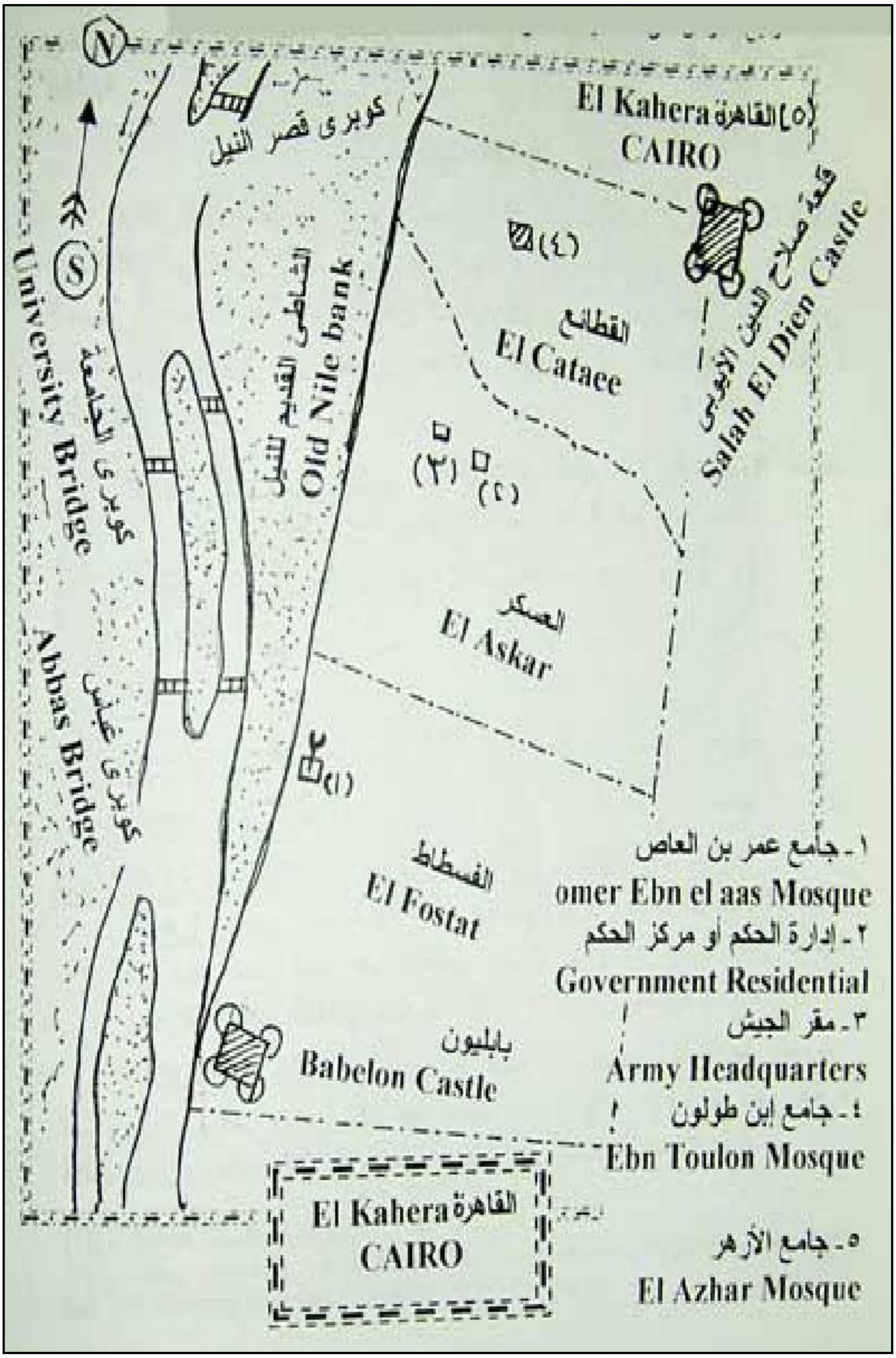
مدينة القطائع al-Qatta'i ثالثة العواصم الإسلامية في مصر كانت تقع شمالي الفسطاط، وكان موقعها من قبة الهواء التي صار مكانها الآن قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون وهو طول القطائع. وأما عرضها فإنه كان من أول الرملية من تحت القلعة إلى الموضع الذي يعرف الآن بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين. وكانت مساحة القطائع ميلاً في ميل، وقد حدد العلامة الأثري المرحوم محمد رمزي هذه المدينة كما يلي: الحد البحري ويبدأ من جامع سنجر الجاولى حتى باب العزب بالقلعة، والحد الشرقي سور القلعة من باب العزب حتى جامع السلطان الأشرف قانصوه الغورى عند باب اليسار المعروف الآن بباب الجبل، والحد القبلي ويبدأ من جامع الغوري المذكور حتى جامع سيدي على زين العابدين، والحد الغربي من جامع سيدي على زين العابدين وينتهي بجامع سنجر الجاولى. وقد تدخلت القطائع في العسكر وشغلت الجزء المعروف الآن بقلعة الكبش وتلال زينهم.

قسمت هذه المدينة إلى أحياء، كل حي منها كان يسمى قطيعة، وأفرد كل منها لعنصر من عناصر الجيش الطولوني، ويطلق عليها اسم الطائفة التي تسكنها، فكان فيها قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة لكل طائفة من طائفة الغلمان والموالى، وهى بمنزلة الحارات اليوم، كما جعل لأهل كل حرفة قطيعة خاصة بهم، وعرفت المدينة من أجل ذلك بالقطائع.

---

(٣٧) زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر: من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني.- القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٥. (ج١، ص ٥٦ – ٦٣)
سيدة كاشف، مصر في فجر الإسلام، ص ٢٤٧
سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص ٢٤٠ – ٢٤٥.
التطور التاريخي لمدينة القاهرة، موقع دليل المسافر: (www.elmesafer.com)

(38) Al-Qatta'I (868 – 969 CE), available in 10 Jan 2010: (http://menic.utexas.edu/cairo)


N
S
El Kahera القاهرة (٥)
CAIRO
كوبرى قصر النيل
قلعة صلاح الدين الأيوبى
Salah El Dien Castle
(٤)
الشاطئ القديم للنيل
Old Nile bank
القطائع
El Cataee
(٣)
(٢)
University Bridge
كوبرى الجامعة
العسكر
El Askar
Abbas Bridge
كوبرى عباس
(١)
الفسطاط
El Fostat
١ـ جامع عمر بن العاص
omer Ebn el aas Mosque
٢ـ إدارة الحكم أو مركز الحكم
Government Residential
٣ـ مقر الجيش
Army Headquarters
٤ـ جامع إبن طولون
Ebn Toulon Mosque
بابليون
Babelon Castle
El Kahera القاهرة
CAIRO
٥ـ جامع الأزهر
El Azhar Mosque

جاء تخطيط المدينة تقليدا لمدينة سامراء، فقد أحب أحمد بن طولون أن تكون عاصمته الجديدة أشبه شيء بالبيئة التي نشأ فيها، وكان تخطيط إيذانا ببروزها في الحياة الاجتماعية فعمرت عمارة حسنة، وأنشئت بها الطرق، وبنيت بها المساجد والطواحين، والحمامات والأفران، وكانت الحياة في هذه المدينة أول الأمر مطبوع بحياة التقشف والمسحة العسكرية الخالصة.

وقد بدأ ابن طولون في بناء القطائع في شعبان سنة ٢٥٦(يوليو سنة ٨٧٠) بأن شيد قصره الذي كان بمثابة نواة للمدينة وكان يقع في الفضاء المعروف الآن بميدان صلاح الدين، والذي كان يمتد إلى ما وراء جامع السلطان حسن الآن تحت المرتفع الذي كانت تقع عليه قبة الهواء التي في مكانها بني صلاح الدين قلعته المعروفة بقلعة الجبل. وقد حول ابن طولون السهل الواقع بين القصر وجبل يشكر إلى ميدان كبير يضرب فيه بالصوالجة(٣٩) فسمى القصر كله الميدان.

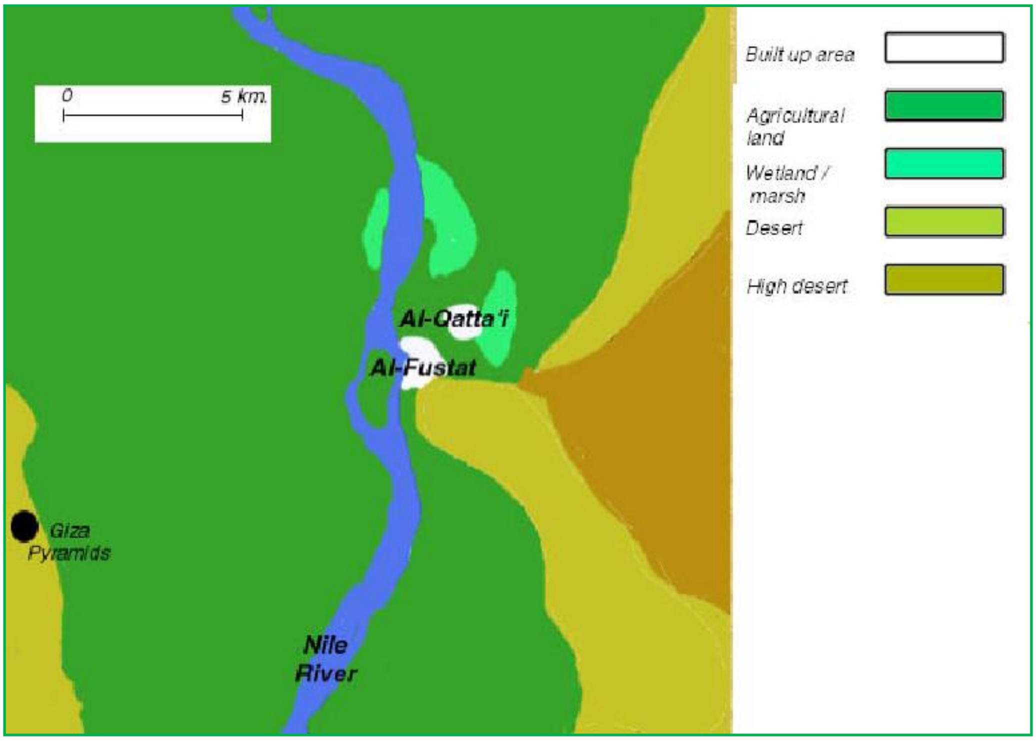
وكان للقصر عدة أبواب منها: "باب الميدان الكبير" وكان منه دخول الجيش وخروجه، و"باب الخاصة"، و"باب الجبل" الذي يلي جبل المقطم، و"باب الحرم"، و"باب الدرمون"، و"باب دغناج" وسميا كذلك نسبة إلى حاجبين بهذين الاسمين كانا يجلسان أمامهما، و"باب الساج" لأنه كان مصنوعا من خشب الساج، و"باب الصلاة" الذي يخرج منه ابن طولون للصلاة وكان على الشارع الأعظم وكان يعرف أيضا بباب السباع إذ كانت صورتا سبعين من جبس. وكانت هذه الأبواب لا تفتح كلها إلا في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وما كانت تفتح إلا بترتيب في أوقات معروفة، وكان للقصر شبابيك تفتح من سائر نواحي الأبواب تشرف كل جهة على باب وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من أعلاه من يخرج ويدخل. وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع، وكان على باب السباع مجلس آخر يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم في حوائجهم.

بعدئذ تقدم أحمد بن طولون إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حول القصر والميدان، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط، فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران، وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين، والبزازين، وسوق الفاميين ويجمع

---

(٣٩) الصوالجة: جمع صولج وصولجان وصولجانة، وهو العود المُعْوَجّ، فارسي معرب، ويقال: هو المِحْجَن. وجاء في التهذيب: الصولجان: عصا يُعطف طرفها يُضرب بها الكرة على الدواب. فأما العصا التي اعوج طرفاها خلقة في شجرتها فهي مِحجن.
منصور مهران، شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية.- ٥ نوفمبر ٢٠٠٧ على الرابط: (www.alfaseeh.com)

الجزارين والبقالين والشوايين فكان في دكاكين الفاميين جميع ما في دكاكين نظرائهم في المدينة وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين، ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام، وامتدت هذه المباني إلى العسكر والفسطاط حتى أصبحت المدن الثلاث بلدًا واحدًا عامرًا لاتصال مبانيها بعضها ببعض.



وقد حفلت القطائع بالعلماء والمحدثين والأدباء والمؤرخين نذكر منهم على سبيل المثال: "القاضي بكار بن قتبة" الذي كان أبرز القضاة وأعلمهم بالفقه الإسلامي، ومن المحدثين "الربيع بن سليمان المرادى" تلميذ الإمام الشافعي، ومن المؤرخين "عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم" وهو أول من أرخ لمصر الإسلامية وكتابه المشهور فتوح مصر والمغرب.

من الملاحظ؛ أن إنشاء القطائع لم يقض على العسكر أو الفسطاط، فمع أن الناس كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها وكذلك القطائع، إلا أنهما لم تكونا في الحقيقة إلا ضاحيتين للفسطاط أو امتداد لها. وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية، بل إن المباني الحكومية القديمة لم تهجر تمامًا، فمثلاً أصبحت دار الإمارة التي كان يسكنها العباسيون في العسكر، أصبحت ديوانً للخراج في عصر الطولونيين.(٤٠)

(٤٠) موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، ص ١٥٢ – ١٥٤.

جامع أحمد بن طولون "الجامع الكبير" (٤١)

علي عكس ما يتصوره البعض بطريق الخطأ من أن مسجد عمرو بن العاص، هو أقدم مساجد مصر الأثرية، فإن الثابت أثرياً أن مسجد أحمد بن طولون Mosque of Ahmad Ibn Ṭūlūn هو أقدم مساجد مصر الأثرية، إذ لم يبق من مسجد عمرو بن العاص سوي المكان فقط، أما المسجد فقد تعرض لتجديدات أفقدته قيمته الأثرية، بينما حافظ مسجد أحمد بن طولون علي معالمه الأثرية الأصلية بصورة مذهلة.(٤٢)

فعندما ضاق مسجد عمرو بن العاص بالمصلين قرر أحمد بن طولون أن يقوم بتشييد مسجده سنة ٢٦٣هـ، والذي يعتبر من أجمل المساجد الإسلامية الموجودة حتى الآن، فقد شيد ابن طولون مسجده على شكل مستطيل يتوسطه صحن كبير وتحيط به أربعة أروقة كبرى أكبرها على الإطلاق رواق القبلة، ومئذنة المسجد حلزونية مثل مئذنة مسجد أبي دلف ومسجد سامراء في العراق، والذي حفظ مسجد احمد بن طولون حتى الآن بشكله المعماري البديع هو أنه تم بناؤه في مكان مرتفع فحفظه ذلك من المياه الجوفية وغيرها.



(٤١) خالد عزب، أقدم مساجد مصر الأثرية: مسجد أحمد بن طولون.- تراث الحضارة الإسلامية.- متاح بتاريخ ٢١ يونيو ٢٠٠٩ على الرابط: (http://hoics.com/abhath.htm). أندرو مراد صبحي، العمارة الإسلامية في جامع أحمد بن طولون/ إشراف د.سمير سيف اليزل.- جامعة بنها.- القاهرة: كلية الهندسة بشبرا، ٢٠٠٦. (غير منشور). موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، ص ١٥٥ – ١٥٧.

(٤٢) الجامع وإن كان ثالث الجوامع التي أنشئت بمصر، يعتبر أقدم جامع احتفظ بتخطيطه وكثير من تفاصيله المعمارية الأصلية، حيث أن أول هذه الجوامع جامع عمرو الذي بني سنة ٢١ هجرية/ ٦٤٢م ، و لم يبق أثر من بنائه القديم، كما أن ثانيهما وهو جامع العسكر الذي بني في سنة ١٦٩ هجرية/ ٨٦ -٧٨٥م قد زال مع انتهاء العسكر.

تاريخ المسجد وموقع البناء:

وقد اختلف المؤرخون و الباحثون في تحديد تاريخ بدء بناء المسجد و الفراغ منه، فقد ذكر المقريزي أنه ابتدأ في بناء المسجد سنة ٢٦٣ هـ و فرغ منه في سنة ٢٦٥ هـ، بينما ذكر عبد الله بن عبد الظاهر: أنه ابتدأ في عمارة الجامع سنة ثلاث وستين، و انتهي العمل منه سنة ست وستين و مائتين، وبلغت النفقة علي بنائه مائة ألف دينار و عشرين ألف دينار، و ذهب آخرون و منهم أبو المحاسن ابن تغري بردي وابن دقماق إلي أحمد بن طولون شرع في بنائه سنة ٢٥٩هـ، بينما خالفهم الكندي فقال ابتدأ في بنائه سنة ٢٦٤هـ و انتهي في سنة ٢٦٦هـ. والأرجح هو مار أورده المقريزي عن تاريخ الفراغ من البناء لتوافقه مع اللوحة التذكارية "التأسيسية" المثبتة فوق إحدى دعامات رواق القبلة.

عزم أحمد بن طولون علي بناء مسجد جامع لمدينة القطائع، فأشار عليه جماعة من الصالحين أن يبنيه علي جبل يشكر[٤٣]، فقد ذكر القضاعي: أن هذا الجبل ينسب إلي يشكر بن جديلة من لخم – قبيلة من قبائل العرب– شيدت خطتها "حاراتها " عليه عند الفتح العربي لمصر، فعرف من ثم بجبل يشكر "The Hill of Thanksgiving". و قد وصفه ابن عبد الظاهر: بأنه لم يكن بمصر بقعة أعظم من البقعة التي بني عليها هذا الجامع، حيث قيل أن موسي عليه السلام، ناجي ربه عليه و هي بقعة مشهورة بإجابة الدعاء. و قد ذكر المقريزي أن هذا الجبل كان يشرف علي النيل وليس بينه وبين النيل شيء كما كان يشرف علي البركتين ويعني بركة الفيل والبركة التي تعرف ببركة هارون، وعليه كانت تنصب المجانيق[٤٤] التي تجرب قبل إرسالها للثغور.[٤٥]

(43)R.G. 'John' Gayer-Anderson Pasha. "Legends of the House of the Cretan Woman." Cairo and New York: American University in Cairo Press, 2001. pp. 33-34. and Nicholas Warner. "Guide to the Gayer-Anderson Museum in Cairo." Cairo: Press of the Supreme Council of Antiquities, 2003.p. 5

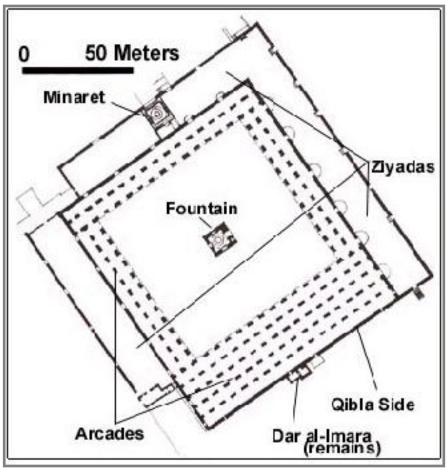
(٤٤) المَنْجَنِيقُ والمِنْجَنِيقُ، بفتح الميم وكسرها، والمَنْجَنُوق: القَذّاف، التي ترمى بها الحجارة، دخيل أعجمي معرب، وأصلها بالفارسية: مَنْ جي نِيكْ، أي ما أَجْوَدَني، وهي مؤنثة، والجمع منْجَنِيقات، وقال سيبوية: هي فَنْعَليل الميم من نفس الكلمة أصلية لقولهم في الجمع مَجانِيق، وفي التصغير مُجَيْنِيق، ولأنها لو كانت زائدة والنون زائدة لاجتمعت زائدتان في أول الأسم، وهذا لا يكون في الأسماء ولا الصفات التي ليست على الأفعال المزيدة، ولو جعلت النون من نفس الحرف صار الاسم رباعيّاً والزيادات لا تلحق بنات الأربعة أوّلاً إلا الأسماء الجارية على أفعالها نحو مُدَحْرِج، ومنهم من قال إن الميم والنون زائدتان لقولهم جَنَقَ يَجْنِق إذا رمى. (لسان العرب)

(٤٥) ولقد ذكر ابن تغري في النجوم الزاهرة أنه لما تم بناء الجامع رأي أحمد بن طولون في منامه كأن الله تعالي قد تجلي لما حول الجامع ولم يتجل للجامع، فسأل المعَبِّرين فقالوا: يخرب ما حوله و يبقي قائماً وحده، قال: من أين لكم هذا؟ قالوا: من قوله تعالي: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا }. وقد كان، فقد خربت القطائع كلها و لم يبق إلا الجامع.

و قد طلب ابن طولون من المهندس الذي شيد الجامع أن يشيد له مسجداً جامعاً لا تأتي عليه النيران، أو تهدمه مياه الفيضان، فإن احترقت مصر بقي، و إن غرقت بقي، فحقق المهندس رغبته فبناه من الآجر الأحمر، ورفعه علي دعامات من الآجر أيضاً، و لم يدخل في بنائه أعمدة من الرخام، سوي عمودي القبلة لأن أساطين (أعمدة) الرخام لا صبر لها علي النار.

تحليل مبنى الجامع:

يتبع تخطيط جامع بن طولون النظام التقليدي للمساجد الجامعة المكون من صحن أوسط مكشوف يحيط به أربع ظلات، أكبرها ظلة القبلة. وإن كان ينفرد عن كافة الجوامع السابقة له بمصر بوجود سور خارجي بنفس ارتفاع حوائط المسجد يليه مساحة سماوية (زيادة) تتقدم المسجد في جهاته الثلاث الشمالية الشرقية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية.



وقد استغرق البناء عامين والجامع مربع الشكل تقريبا (١٦٢٫٥٠ X ١٦١٫٧٣ مترا) يتوسطه صحن مكشوف تحيط به من جوانبه الأربعة أروقة مسقوفة، وقد اتبع هذا التخطيط كثيرا بعد ذلك في بناء المساجد في العهود المتوالية. ويتكون إيوان القبلة من خمسة أروقة، أما ألأواوين الثلاثة الأخرى فيتكون كل منها من رواقين، ويحيط بالجامع فيما بين جدرانه والسور الخارجي من جهاته الشمالية الشرقية والشمالية الغربية والغربية الجنوبية ثلاثة أروقة خارجية عرفت بالزيادات وتلك ميزة أخرى انفرد بها جامع ابن طولون بين مساجد القاهـرة. والدعامات التي ترتكز عليها العقود مستطيلة الشكل محلاة في أركانها الأربعة بأعمدة من نفس مادة الدعامات أي من الآجر وتيجانها كورنثية يطلق على أوراقها شوك اليهود.



أما العقود فمن الطراز الستيني ولم تستعمل في مصر قبل ذلك ويوجد بين كل عقدين فوق الدعامة طاقة صغيرة بقصد التخفيف عن الدعامات وعقدها ستيني أيضا كالعقود الكبيرة، وقد طليت جميع جدران المسجد ودعاماته وعقوده بطبقة من الجص وزخرفت واجهات العقود بزخارف نباتية متصلة، كما حليت بواطن العقود حول الصحن بزخارف قوامها خطوط متداخلة

وخطوط لولبية وأشرطة وخطوط منكسرة كلها معروفة في الفن البيزنطي ومنه تسربت إلى الفن القبطي وفنون العراق.

ويدور تحت السقف إزار من ألواح خشبية نقشت عليها بحروف كوفية بارزة من طراز الكتابة الطولونية التي سادت هذا العصر سورتا البقرة وآل عمران، وبالجزء العلوي من الجدران صف من الطاقات مركب عليها شبابيك من الجص مخرمة يتكون من تخريمها أشكال هندسية بسيطة جميلة تنوعت أشكالها تدور حول جدران المسجد الأربعة، وأربعة فقط من هذه الشبابيك موجودة بجدار القبلة زخرفتها معاصرة لإنشاء المسجد، وللمسجد خمسة محاريب عدا المحراب الأصلي المجوف الموجود في جدار القبلة.

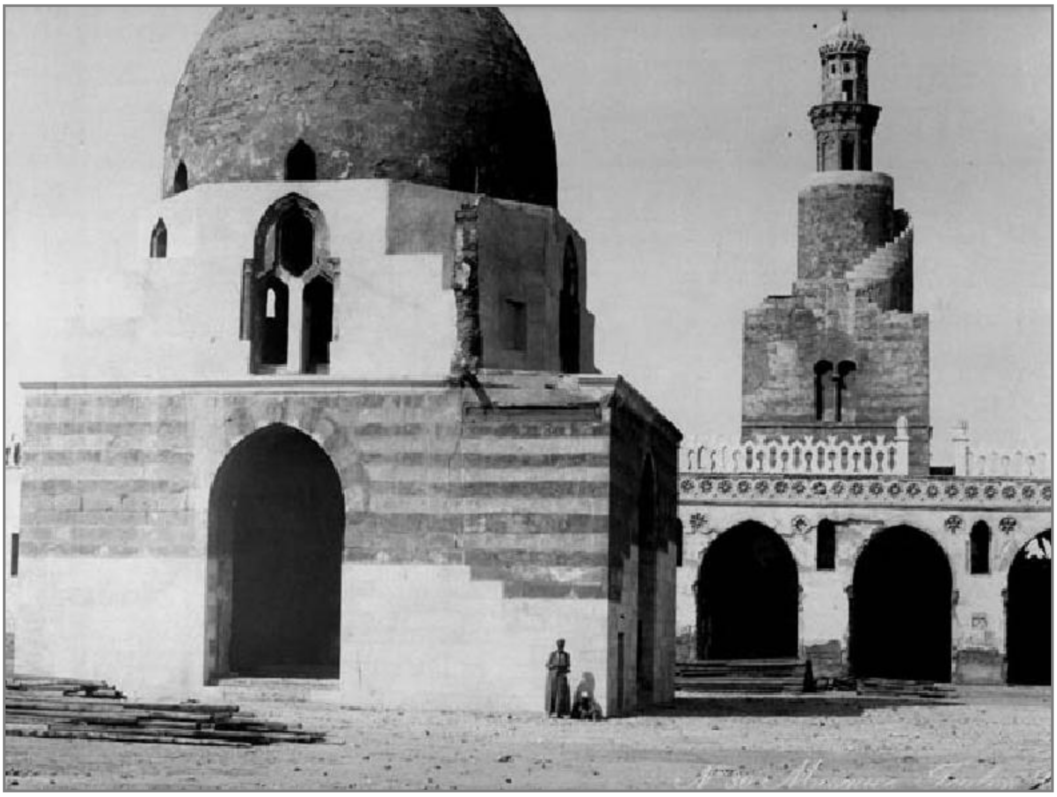


ولقد أنشئت المحاريب الخمسة في العصور التالية لإنشاء المسجد اثنان في منتصف حبل الطارات، الأول مما يلي الصحن الأيمن عُمل في عهد المستنصر الفاطمي، والثاني في عهد حسام الدين لاجين المملوكى، واثنان في النصف الثالث من حبل الطارات بجانبي دكة المبلغ، ومحراب خامس وهو في جدار القبلة على يسار المحراب الكبير، وجميع هذه المحاريب من الجص ومزينة بالكتابة الكوفية أو النسخية والزخارف النباتية.





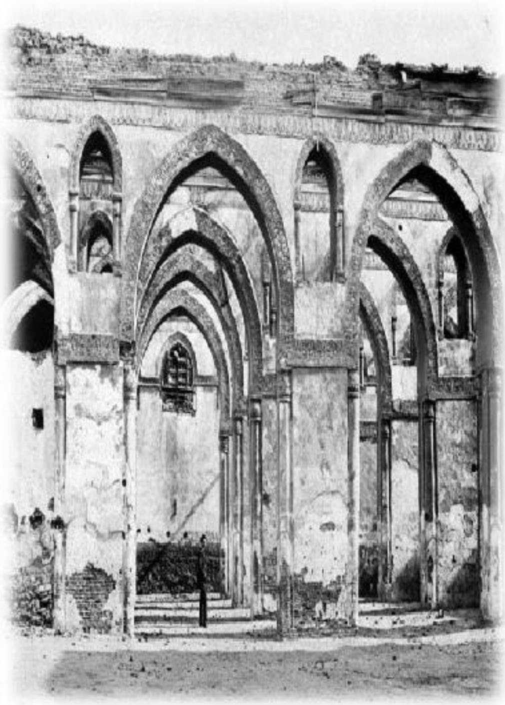
كانت توجد وسط الصحن نافورة ماء أنشأها ابن طولون كي يشرب منها المصلون وسط حوض من الرخام تعلوها قبة مذهبة مقامة على ستة عشر عمودًا من الرخام، ولكنها تهدمت وأعيد بناؤها في العصر الفاطمي، ثم تهدمت ثانيًا وأقيم مكانها البناء الحالي الذي جدده السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م كما يدل على ذلك كتابة على لوح من خشب مثبت في قاعدة القبة ضمن ما جدده من بناء المسجد وأثاثه، ولكن النافورة خرجت هذه المرة عن الغرض الذي أنشئت من أجله أولاً فقد صارت الآن ميضأة يتوضأ فيها المصلون وكان ابن طولون قد أبى أن تكون مكانًا للوضوء خيفة أن تصبح مصدرًا للنجاسة والقذارة، فلما أخذ على المسجد خلوه من مكان للوضوء أقام ميضأة بالزيادة الغربية بعيدًا عن داخل المسجد، كما أنشأ بهذه الزيادة صيدلية بها الأدوية وعليها الخدم، وفيها طبيب يجلس يوم الجمعة لإسعاف مَن يصاب من المصلين بحادث وقت الصلاة.



تبلغ مساحة الجامع مع الزيادات نحو ستة أفدنه و نصف فدان و هي علي هيئة مربع طول ضلعه ١٦٢م، و عرض كل زيادة من الزيادات الثلاث ٩م تقريباً، و هي من المسجد تشبه زيادات جامعي سامراء و سوسة، و أسوار هذه الزيادات عالية تتسم بالبساطة و تنتهي بعرائس أو شرافات وفتحت بها أبواب يبلغ عددها ١٩ باباً تقابل أبواب الجامع، و يوجد في بعض الأبواب معابر خشبية قديمة بها زخارف مورقة. أما عن أسباب إضافة هذه الزيادات للمسجد فهي عدة أسباب منها:

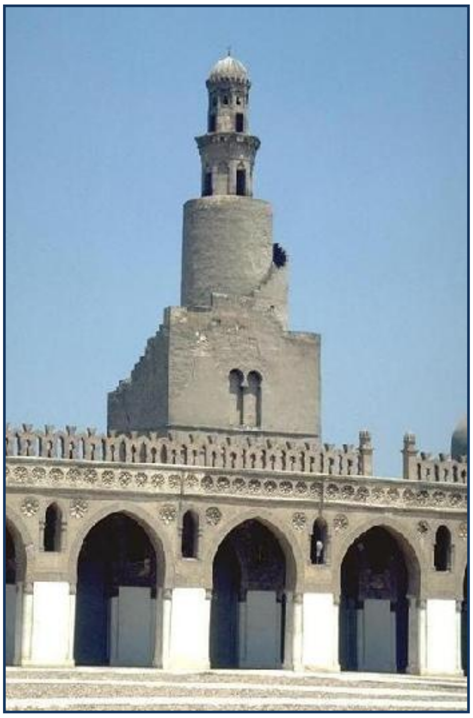
- أنها أسلوب هندسي استخدمه المعماري للصعود المتدرج من مستوي شوارع المدينة- القطائع- إلي جبل يشكر حيث شيد المسجد.
- أنها أسلوب معماري الغرض منه التحضير النفسي لدخول الجامع، وفصل المصلي عن العالم الخارجي بما فيه من ضوضاء، وتوفير السكينة والطمأنينة لأداء المناسك.
- أن هذه الزيادات لاحقة لعصر الإنشاء بناها ابن طولون نتيجة ازدياد عدد المصلين. وهذا التفسير يضعفه وجود مثيلتها بجامعي سامراء وسوسة.

ونلاحظ أمام بعض أبواب الزيادتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية درج سلم حجرياً، بينما نقل الدرج الخاص ببعض أبواب الزيادات الأخرى إلي المسجد الملكة صفية المؤرخ ١٦١٠م. وبالزيادة الشمالية الغربية للمسجد تقع مئذنة المسجد الملوية التي تدل علي عظمة المعماري المسلم و إبداعه في إخراج عناصره المعمارية.




ولهذا المسجد مئذنة فريدة في شكلها لا نظير لها بين مآذن مساجد القاهـرة وهى ميزة أخرى امتاز بها جامع بن طولون، و قد شيدت بالزيادة الشمالية الغربية إلي الشرق قليلاً من محور المسجد، وهي مربعة في جـزئها الأسفل اسطوانية في جزئها الأوسط مثمنة في جزئها العلوي، وهـى بهذا تحمل بعض الشبه لمئذنة جامع المتوكل بسامراء المعروفة بالملوية، ويحيط بالمسجد بموازاة الأروقة الثلاثة الخارجية أسوار مبنية من الآجر الذي بنيت منه جدران المسجد، تعلوها شرافات مخرمة شبهها بعضهم بعرف الديك.





يبلغ ارتفاع المئذنة عن سطح الأرض (٤٠,٤٤م)، و يربط المئذنة بحائط المسجد الشمالي الغربي قنطرة علي عقدين من نوع حدوة الفرس. و في قمة المئذنة توجد طاقية مضلعة علي شكل مبخرة، و قد ذكر المقريزي و ابن دقماق أن المنارة عليها "عشاري" وهي علي شكل سفينة من البرونز تملأ بالحبوب كطعام للطيور و قد سقطت سنة (١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م).[٤٦]

مهندس الجامع:

كان اسم مهندس هذا الجامع مجهولاً، وقد أدى ذلك إلى كثير من التكهنات حول جنسيته، فذكر بعض المؤرخين أنه كان بيزنطيًا، وقال آخرون أنه كان قبطيًا، وقال فريق أنه كان عراقيًا، غير أن الشبه الكبير بين هذا المسجد ومسجد المتوكل في سامراء يحمل على الاعتقاد بأن مهندسه عراقي، ولا عبرة بأن يكون مسلما أو نصرانيا قدم إلى مصر يحمل معه أساليب العراق وفنونه فاستخدمه ابن طولون في تنفيذ بناء مسجده.[٤٧]

(٤٦) الإشارة هنا إلى أن المؤرخ المعماري دوريس بيرنس يؤكد أن السلطان لاجين هو المسئول عن بناء المئذنة الحالية. أنظر:

Doris Behrens-Abouseif, Islamic Architecture in Cairo: an introduction.- Leiden: E.J. Brill, 1989.p 55.

(٤٧) ذكر المقريزي أن مهندس الجامع كان رجلاً نصرانيًا حسن الهندسة حاذقًا بها، وأكبر الظن أن هذا المهندس كان مسيحيًا من العراق، لأنه لو كان من مصر لما أغفل المقريزي أن ينص على أنه قبطي. ولو كان بيزنطي الأصل لقال المقريزي أنه رومي. ولا يبعد أن يكون مهندس الجامع قد جاء إلى مصر في ركاب احمد بن طولون، أو إن أحمد بن طولون أرسل في استدعائه عندما عقد العزم على تشييد المسجد الجامع. ولا شك أن المهندس الطولوني أتي من سامراء، أو كان خبيرًا بما ازدهر فيها من العمارة والفنون.

التجديدات التي أدخلت على الجامع:

وقد أدخلت على هذا المسجد إصلاحات كثيرة في العهود التالية؛ ففي سنة ٤٧٠ هجرية (١٠٧٧/ ١٠٧٨م) قام بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي بإصلاحات في الجامع وجدت مثبته على لوح رخامي مركب أعلى أحد أبواب الوجهة البحرية، وحسب أمر الخليفة المستنصر صنع محراب من الجص بأحد أكتاف رواق القبلة. هذا بالإضافة إلى محرابين جصيين آخرين صنع أحدهما في العصر الطولوني مع بناء الجامع، والثاني في العصر الفاطمي وكلاهما برواق القبلة.

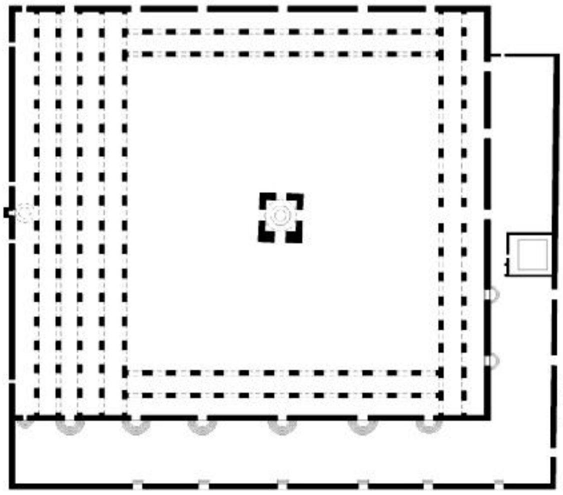
وأهم إصلاح أدخل على الجامع هو ذلك الذي قام به السلطان المملوكي حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م فقد أنشأ: القبة المقامة وسط الصحن عوضا عن القبة التي شيدها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م والتي كان قد أقامها بدلا من القبة الأصلية التي احترقت سنة ٣٧٦ هـ/٩٨٦م، المئذنة الحالية ذات السلم الخارجي، المنبر الخشبي، كسوة الفسيفساء والرخام في المحراب الكبير، قاعدة القبة التي تعلو هذا المحراب، العديد من الشبابيك الجصية، محرابا من الجص مشابهًا للمحراب الأصلي بالكتف المجاورة له، سبيلاً بالزيادة القبلية وقد جدده قايتباي فيما بعد.(٤٨)

كان هذا الجامع في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي يستعمل كمصنع للأحزمة الصوفية، كما استعمل في منتصف القرن الثامن عشر ملجأ للعجزة. ثم أتت لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٨٨٢م، وأخذت في إصلاحه وترميمه، إلى أن كانت سنة ١٩١٨م حين أمر الملك فؤاد الأول بإعداد مشروع لإصلاحه إصلاحًا شاملاً راصدا لذلك أربعون ألف جنيه، فبذلت الجهود في سبيل إعادته إلى حالته الأولى وهدمت المنازل والعشش التي أطبقت عليه من كل جانب، ورممت جدرانه المتداعية وطليت بالجص فعادت زخارفه سيرتها الأولى.

وقد أعيد ترميمه وافتتاحه في عام ٢٠٠٥ كواحد من (٣٨) مسجد تم ترميمهم ضمن مشروع القاهرة التاريخية، وقد أعلنت وزارة الثقافة المصرية أن إعادة ترميم الجامع تكلفتها تجاوزت ١٢ مليون جنيه مصري.

(٤٨) هناك قصة للسلطان لاجين رواها السيوطي في كتابه : حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة، مفادها أن لاجين كان أحد المماليك الذين قاموا بقتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، ومن ثم أخذ مماليك و حلفاء الأشرف في طي البلاد بحثا عنه ليثأروا، فما كان من لاجين إلا أن احتمى في منارة هذا الجامع الذي كان قد هجرته الناس وتحول إلى مربط للخيل ومكانا للمسافرين، وينذر على نفسه نذرا إن مرت هذه المحنة بسلام، فسيتكفل بتجديد واعمار المسجد مرة أخرى. وتدور الأيام ويتولى لاجين عرش مصر، ويسمى بالمنصور، فيوفى بنذره، ويعيد إعمار الجامع بعد تدميره بأكثر من ٤٠٠ عام، فنذر له المال والأوقاف وبلّطه، وبنى ميضأة، وجعل فيه كُتاب لتعليم الأطفال وزرع حوله البساتين وأزال الخراب من حوله متكلفا مالا جما.

والحق أن جامع أحمد بن طولون يعتبر من أهم وأقدم الآثار العربية في مصر، ذلك أن جامع عمرو بن العاص- وهو أقدم جامع في مصر- لم يبق على حاله كما كان في عصر بناءه، إذا ادخل عليه على مر العصور الإسلامية إصلاحات كثيرة وأضيف إليه من الأبنية ما غير معالمه الأولى. أما جامع أحمد بن طولون فقد احتفظ تقريباً بكل تصميماته الأولى وأصبح البناء الوحيد الذي توافرت فيه هذه الشروط في مصر والشام قبل العصر الفاطمي.(٤٩)





(٤٩) ولمزيد من التفاصيل والمعلومات عن جامع أحمد بن طولون راجع:

Nicholas Warner, The Monuments of Historic Cairo: a map and descriptive catalogue.- Cairo: American University in Cairo Press, 2005.

Hasan 'Abd al-Wahhab, Al-Jami' al-Tuluni.- Majallat al-'Imara 2, 1940.P.105-12.

Max van Berchem, Notes d'archéologie arabe II. Toulounides et Fatimites. Opera Minora I Geneva: Editions Slatkine, 1978.P. 203-33.

K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, vol. II. Oxford University Press. Reprinted by Hacker Art Books, New York, 1979.

Paolo Cuneo, Storia dell'urbanistica: il mondo Islamico. Rome-Bari: Laterza and Figli, 1986.

John Hoag, Islamic Architecture. New York: Rizzoli, 1987.

Jarrar, Sabri, András Riedlmayer, and Jeffrey B. Spurr. 1994. Resources for the Study of Islamic Architecture. Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture. (http://archnet.org/library/documents/one-document.jsp?document_id=6053.)

Gloria Karnouk, Form and Ornament of the Cairene Bahri Minbar. Annales Islamologiques 17.- 1981.P.113-39.

Kamal el-Masry, Die tulunidische Ornamentik der Moschee des Ahmad Ibn Tulun in Kairo. PhD diss., Johannes-Gutenberg-Universität, Mainz 1964.

Alois Riegl, The Arabesque: Problems of Style. Princeton University Press, 1992. P. 229-305.

M. Tarek Swelim, The Mosque of Ibn Tulun: A New Perspective. Ph.D. diss., Harvard University, Cambridge, MA. 1994.

Caroline Williams, Islamic Monuments in Cairo: The Practical Guide. Cairo: American University of Cairo Press, 2002. P. 46-49.

وأنظر أيضاً: موسوعة مساجد مصر، تنفيذ وزارة الأوقاف.- القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

قناطر المياه(٥٠)

شيد أحمد بن طولون في الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع قناطر للمياهAqueduct water لا تزال بعض عقودها قائمة، وكان الماء يسير في عيونها إلى القطائع، ويروي مؤرخو مصر الإسلامية القصص والأساطير التي تشير إلى سبب بناء هذه القناطر، والحق أن عاصمته الجديدة كانت في حاجة إلى تدبير المياه لها وإلى توفير كل سبل الراحة لساكنيها، وقيل أن الناصحين أشاروا على أحمد بن طولون بأن يجري الماء من عين أبي خليد فاعترض قائلاً بأن هذه العين لا تعرف أبداً إلا باسم أبي خليد، وأنه يريد أن يستنبط بئراً تنسب إليه، فعدل عن العين إلى الشرق وبني عليها القناطر، وكانت هذه القناطر شبيهة بالقناطر الرومانية المرفوعة، وسماها المؤرخون المسلمون باسم السقاية.

ويظهر أن هذه القناطر تطلبت مجهوداً كبيراً وأموالاً ضخمة، وأنها كانت من المتانة والإبداع بمكان كبير، وأشار إليها سعيد القاص في عدة أبيات من قصيدته التي رثي بها الدولة الطولونية ومن هذه الأبيات قوله:

بناء لو آن الجن جاءت بمثله لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

وقد بنيت قناطر ابن طولون بآجر يماثل في الشكل والحجم آجر الجامع الطولوني، والمعروف أن الذي تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو المهندس الذي شيد له بعد ذلك المسجد الجامع.

مسجد التنور

لم يكن جامع احمد بن طولون هو المسجد الوحيد الذي بناه ابن طولون، إذ بني مسجداً آخر يسمونه مسجد التنور في أعلى جبل المقطم، بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمين وعامة الشعب. ويذكر المؤرخون العرب أن مسجد التنور هو موضع تنور فرعون، كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار عملوا بركوبه فاتخذوا له ما يريد، وكذلك إذا ركب منصرفاً من عين شمس، ويقال أن تنور فرعون لم يزل في هذا الوضع بحاله إلى أن خرج إليه قائد من قواد أحمد بن طولون يقال له "وصيف قاطر ميز" فهدمه وحفر تحته. ويظهر أنه ظن أنه سيجد مالاً تحته، ولكنه لم يجد شيئاً، يظهر أيضاً أن مسجد التنور لم تقم فيه الجمع، والمعروف أنه منذ فتح مصر كانت هناك مساجد للصلاة وكانت هناك مساجد جامعة تقام فيها الجمعة. ولما قدم أحمد بن طولون إلى مصر كانت الجمعة تقام في جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر إلى أن بني هو مسجده الجامع على جبل يشكرGebel Yashkur .

(٥٠) المقريزي، الخطط، ج٣ ص ٤٥٧؛ زكي محمد حسن، الفن الإسلامي، (ص ٣٥، ص ٥٤)؛ سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص ٢٥١ – ٢٥٢. موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، ص ١٥٨ – ١٦١. وانظر أيضاً:
عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمة، بعض العمران في مصر طوال العصور الوسطى.- المنوفية، د.ت. ص٢٤ – ٢٥

ويذكر الشاعر الطولوني سعيد القاص مسجد التنور في الأبيات الآتية من قصيدته المشهورة التي يعدد فيها مناقب الدولة الطولونية: (٥١)

وتنور فرعون الذي فوق قلة — على جبل عال على شاهق وعر
بني مسجدًا فيه يروق بناؤه — ويهدي به في الليل إن ضل من يسري
تخال سنا قنديله وضياءه — سهيلاً إذا ما لاح في الليل للسفر

البيمارستان(٥٢)

أنشأ احمد بن طولون في سنة ٢٥٩ هـ المارستان للمرضى Bimaristan ، وليس المقصود أن يكون وقفا على المصابين بالأمراض العقلية، ولم يصل إلينا منه أنقاض أو بقايا ولم يتعرض المؤرخون الذين تكلموا عنه لرسمه أو تخطيطه، و قد شرط أحمد بن طولون ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك. ونعرف أنه جعل له حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وأباحهما مجاناً للناس من غير تمييز في الأديان أو المذاهب، وقد ادخل ابن طولون في هذا المارستان ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر، فكان المريض إذا دخل تنزع ثيابه ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان، ثم تقدم له ثياب أخرى وينزل به في مكان تتوافر فيه وسائل الراحة، كذلك كان يعطي للمريض الأدوية والأغذية مجاناً حتى يتم شفاؤه، فإذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلها أذن له بمغادرة المارستان بعد أن ترد إليه ثيابه وماله، وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى أنه كان يتفقده بنفسه في يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء، ويشرف على المرضى، ويبالغ في مواساتهم وإدخال السرور عليهم.(٥٣)

وقد استغرقت هذه الأعمال العمرانية مدة طويلة وأموالاً كثيرة ولذا نرى ابن طولون لا يستطيع إرسال الأموال السنوية إلى الخلافة كالمعتاد، وتحقق لدى الخلافة ما كان يقال عن مطامعه وأغراضه في الاستقلال بمصر، ولهذا كان الخلاف والنضال بين الموفق أخ الخليفة المعتمد وصاحب الأمر والنهي في الخلافة وبين أحمد بن طولون.(٥٤)

---

(٥١) وعن مسجد التنور راجع: الكندي، الولاة والقضاة ص ٢٥٥. المقريزي، الخطط ، جـ٢ ، ص٤٥٥. زكي حسن، الفن الإسلامي، ص ٣٦. سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص ٢٥٣ – ٢٥٥. عبد الفتاح غنيمة، العمران في مصر، ص ٢٥. Zaky M. Hassan, Les Tulunides p. 273.
محمود الباشا، مسجد التنور.- مدونة التاريخ المصري.- متاح بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠٠٧ على الرابط: (http://modyelbasha.jeeran.com)

(٥٢) البيمارستان: كلمة فارسية مركبة من (بيمار) مريض و(ستان) دار فهي إذاً دار المرضى.

(٥٣) سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص ٢٥٢– ٢٥٣. عبد الفتاح غنيمة، العمران في مصر، ص ٢٤.

(٥٤) زكي حسن، الفن الإسلامي في مصر ص ٣٦

أبو الجيش خمارويه (٢٥٠ - ٢٨٢هـ / ٨٦٤ - ٨٩٥م) [٥٥]

خلف أحمد بن طولون ابنه الثاني خمارويه Khumarawaih الذي ملك مصر والشام ومنطقة الثغور بمبايعة الجند له بعد وفاة أبيه وهو ما زال في العشرين من عمره (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م). وكان على خمارويه توحيد الأسرة الطولونية، وقد تثنى له ذلك بعد مقتل أخيه العباس الابن الأكبر لأحمد بن طولون، والذي كان من المفروض طبقًا لوصية أبيه أن يتولى بلاد الشام ومنطقة الثغور.[٥٦]

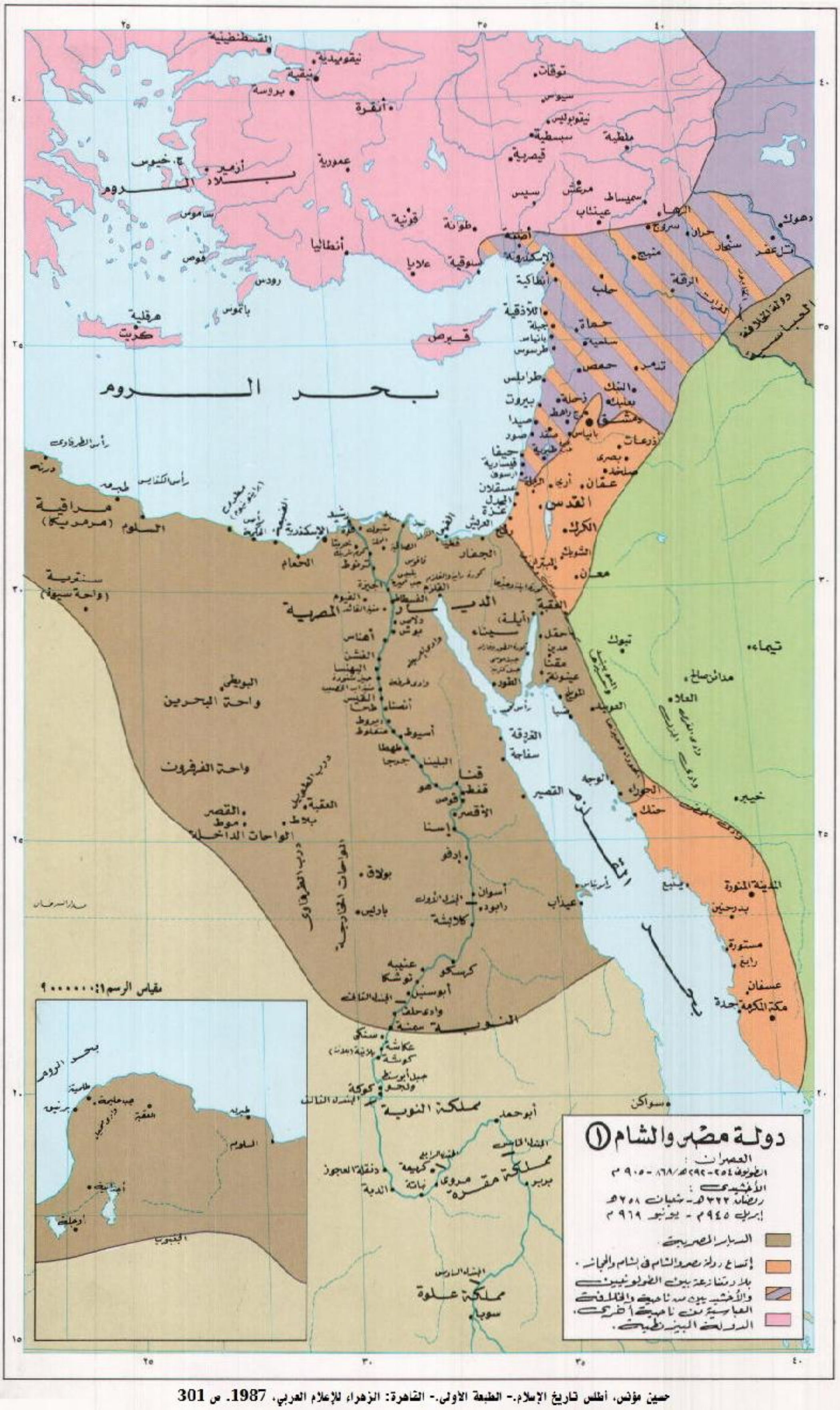
اهتم خمارويه بالجيش بصفته عدة الدولة في نضالها من أجل البقاء والقوة والنفوذ، فضم الجيش جنود من آسيا الوسطى وطائفة من المصريين والعرب وانتقى منهم مَن عُرف بالشجاعة والشدة، والبأس وضخامة الأجسام، واهتم بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم وكون منهم فرقة عرفت في التاريخ باسم "المختارة"، كما اهتم بمظهر الجنود وزيهم، ولذلك لقب بأبي الجيوش.

عمل خمارويه على استرضاء أهل البلاد متبعًا نفس السياسة التي أتبعها أحمد بن طولون، فشمل أهل الذمة من اليهود والنصارى بالتسامح، وقد ظفروا في عهده بحريات لم يفوزوا بها من قبل، كما عمل على استمالة قلوب المسلمين من المصريين بإشراكهم في الجيش. كما عمل

(٥٥) "مصر في عهد خمارويه بن احمد بن طولون"، ضمن موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، ص ١٧٣ – ١٧٩.
لم يكن «خمارويه» يستحق أن يكون وليا للعهد، حيث إنه لم يكن الأكبر في إخوته الثلاثة والثلاثين بل كان أخوه الأكبر العباس الأولى بالخلافة لولا علاقته المشبوهة بالدولة العباسية ما جعل أبوه يصرف النظر عنه، ويهتم بابنه الطفل «خمارويه». خاصةً أن أمه ولدته في نفس العام الذي تولى فيه والده أحمد بن طولون حكم مصر فكان ذلك بمثابة البشرى السعيدة له، فاهتم بـ «خمارويه» كثيرا، ولم يأبه بطفولته الناعمة. ولكنه عمد على تنشئته تنشئة عسكرية خشنة فقام بتعليمه الفروسية والمبارزة وفنون القتال حتى شب فارسا مغوارا يهابه الأعداء ويعملون له ألف حساب، بل إن الحيوانات المفترسة هي الأخرى كانت تخافه. وبلغت شجاعته أن قام «خمارويه» باستئناس أسد أزرق العينين أسماه زريق كان يتبعه أينما ذهب، وكان يحبه بشدة لدرجة أنه أطلقه ليمشي في القصر بحرية دون أن يؤذي أحدا، وكان يدلله حتى إنه كان يقدم طعامه بنفسه لهذا الأسد. فعندما كان يجلس «خمارويه» على مائدة الطعام يأتي إليه هذا الأسد «زريق» ويجلس بجانبه، ويبدأ في تناول طعامه من قطع الدجاج واللحم التي كان يعطيها له «خمارويه» بنفسه.
نعمات مجدي، «خمارويه بن طولون: الفارس الحاكم»، جريدة الرأي.- العدد ١٠٦٧٦، منشور بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٨. (www.alraitv.com).

(٥٦) يتفق جمهرة المؤرخين على أن العباس كان في السجن حين توفي أبوه، ولكن النويري يذكر في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» أن أحمد بن طولون قبل وفاته ببضعة أيام دعا إليه العباس وعقد له على حكومة الشام وأملاك مصر خارج وادي النيل، وطلب إليه في الوقت نفسه أن يخضع لأخيه خمارويه. لكننا نرى أن هذه الرواية غير محتملة لأننا نستبعد أن ينسى أحمد بن طولون ثورة ابنه العباس عليه، وألا يفطن إلى ما قد يجره التقسيم بين ابنيه من خراب على الأسرة إذا طالب الابن الأكبر بالخضوع للصغير. والراجح أن خمارويه قتل أخيه العباس كما ذكر ذلك أبو المحاسن في «النجوم الزاهرة» لامتناعه عن مبايعته، فكان القتل من الإجراءات الاحتياطية التي أراد بها تأمين سلامة الدولة.

خمارويه أيضًا على الحفاظ على أملاك الدولة الطولونية في بلاد الشام لأنه وضع في اعتباره إذا ضاعت بلاد الشام ضاعت مصر معها.



حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1987. ص 301

موقف الخليفة الموفق من خمارويه

لقد صح ما توقعه خمارويه، فما كادت الأنباء تصل إلى سامراء عاصمة الخلافة العباسية، حتى انبعثت الفتنة من مكانها وضاعت عهود السلام التي سبق وعقدها أحمد بن طولون مع الخليفة، وعمد الموفق إلى استغلال "اسحق بن كنداج" الذي سبق وأن عقد له على مصر أثناء الأزمة بين الخليفة الموفق وأحمد بن طولون، وما دام هذا الخليفة لم يعترف بخمارويه أميرًا فكان اسحق في نظره صاحب الحق الشرعي وأن عليه إذا أراد أن يجعل من ولايته حقيقة واقعة وأن يسير إلى مصر لانتزاعها من خمارويه.

في الحقيقة؛ لقد استخدم الموفق نفس الأسلحة القديمة التي حارب بها أحمد بن طولون، وهي أن يجمع بين القوة والدهاء، وأن يُكسب أهدافه طابعًا مشروعًا.[٥٧] وبالفعل تحركت قوات اسحق واستطاعت الانتصار على قوات الطولونيين وأصبحت القوات العراقية تشق طريقها لمصر، فأسرع خمارويه بأن عقد لأبي عبد الله بن أحمد بن محمد الوسطي على جيش إلى الشام، ولسعد بن الأيسر على جيش آخر[٥٨]، كما سير مراكب كثيرة في البحر رابطة بسواحل الشام استعدادًا للطوارئ.

خيانة أحمد بن محمد الواسطي:

أحمد بن محمد هو الذي يقال أنه أرسل بكتاب إلى الموفق يصغر فيه أمر خمارويه، ويحرضه على المسير إلى مصر وكانت سببًا في الهزيمة التي لحقت بالطولونيين وسهلت بالتالي دخول القوات العراقية إلى دمشق. إلا أن خمارويه أسرع بالخروج إليهم بجيش يتألف من (٧٠) ألف مقاتل رغم علمه بسوء الأحوال وخيانة الواسطي، والتقى بهم عند منطقة الطواحين على نهر أبي فطرس بين الرملة ودمشق.[٥٩] ويبدو أن قلة خبرة خمارويه بأمور الحرب جعلته يصاب بالذعر والخوف في أول تجربة له فأسرع بالفرار بأكثر جيشه إلى مصر، إلا أن فرقة مصرية بقيادة "سعد بن الأيسر" حولت الهزيمة إلى نصر واستطاعت هزيمة القوات العراقية المنشغلة بجمع الغنائم وتمكن سعد بهذا استعادة أغلب مدن الشام للدولة الطولونية . وقد يكون سعد هذا قد استخف بخمارويه وأراد الانفراد ببلاد الشام ولكن خمارويه أسرع إليه وتغلب عليه وقتله بل ودخل دمشق وملكها، واسترد سلطانه على البلاد.[٦٠]

(٥٧) حسن محمود، العصر الطولوني، ص ١٠٢.

(٥٨) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٣٥. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٥٠.

(٥٩) الكندي، نفس المصدر والصفحة.

(٦٠) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٥٢.

يبدو أن هذه الحادثة كانت سببًا في حرص خمارويه على تتبع باقي العناصر المناوئة له، فبدأ بإسحق الذي أنزل به هزيمة فادحة وظل يتعقبه حتى بغداد مما اضطره في النهاية إلى مصالحة خمارويه، وأن يكون عاملاً من عماله يدعو له على المنابر.[٦١]

خمارويه والصلح مع الخليفة العباسي:

رغم انتصارات خمارويه فإنه كان مبادئ بطلب الصلح مع الخليفة العباسي وكتب للموفق في طلب الصلح وهو ببلاد الشام على أن يدفع له خمارويه مال ويرسله له، وبعث له الموفق كتاب مع أحد رسله وأعطى له الحق في حكم البلاد هو وولده لمدى ثلاثين عامًا دون أن يتدخل الخليفة في شئون حكم البلاد ولا يهدد بعزله، وبذلك استعاد الخليفة حقه في ذكر اسمه في الخطبة، وهكذا أصبح خمارويه أميرًا شرعيًا يعترف به الخليفة العباسي.[٦٢]

كان هذا الاعتراف أمراً جديداً في تاريخ العلاقات بين الدولتين، بل أمراً جديداً في وضع الدولة الشرعي، فقد استوفت الشكل وأصبحت من الناحية الرسمية دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمي والفعلي، الخليفة القائم وولي عهده، أي الموفق ثم الخليفة القادم أبو العباس بن الموفق الذي لُقب بالمعتضد.[٦٣]

وكان طبيعياً بعد هذا أن يسترد الموفق مكانه الطبيعي في خطبة الجمعة باعتباره ولي العهد، فبدئ في ذكر اسمه، وامتنع الطولونيون عن لعنه على المنابر والدعاء عليه، ويبدو أن الطولونيين لم يكفوا عن لعن الموفق منذ وفاة أحمد بن طولون وهو أمر كان يؤذي الموفق ويزعجه، وكان يتوق إلى أن يوضع له حد. فكانت هذه الاتفاقية نصرًا عظيماً توج به خمارويه فوق الانتصارات العسكرية التي أحرزها، فقد اعترف الخليفة بولايته على الشام والثغور حيث بسط نفوذه على هذه المناطق، وتمكن من إقرار الأمن والطمأنينة في البلاد.

تجدر الإشارة هنا إلى؛ أن الدكتور زكي محمد حسن [٦٤] أضاف أرمينية إلى المناطق التي اعترف فيا الخليفة بولاية خمارويه عليها، وإضافة أرمينية لا تخلو من مغزى فهي اعتراف بالجهود التي بذلها خمارويه في منطقة الجزيرة وأعالي الفرات وهي امتداد لنفوذ مصر على بلاد لم تكن لها من قبل.[٦٥]

---

(٦١) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٣٧.

(٦٢) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب. – القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

(٦٣) الكندي، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(64) Les Tulunides, P.115

(٦٥) حسن محمود، العصر الطولوني، ص ١١٥.

موقف الخليفة المعتضد من خمارويه

مات الموفق سنة ٢٧٨هـ ولحق به الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩هـ وتولى المعتضد الخلافة في نفس العام ٢٧٩هـ فبعث له خمارويه بالهدايا مع الحسين بن عبد الله المعروف بـ «الجصاص»، ولقد ساد السلام واستقامت الأمور وصدرت معاهدة جديدة لا تختلف كثيرًا عن المعاهدة الأولى، اعترف فيها الخليفة بولاية خمارويه هو وولده لمدة ثلاثين عامًا من الفرات إلى برقة وفوض إليه الخليفة المعتضد الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمل في كل عام من المال ٢٠٠ ألف دينار عن الأعوام السابقة و٣٠٠ ألف لكل عام من المستقبل.[٦٦] وهذا يعني أن تدفع مصر للخليفة العباسي ٥٠٠ ألف دينار وهو يقبل عبء ثقيل على الخلافة لكن خمارويه لم يجد أي وسيلة أخرى سوى الدفع، كما رد الخليفة المعتضد على هدايا خمارويه بهدايا منه مناسبة.

المصاهرة السياسية بين البيت الطولوني والبيت العباسي:

عرض خمارويه أن يزوج ابنته «قطر الندى»[٦٧] إلى ابن الخليفة المعتضد "المكتفي بالله" لكن الخليفة فضل أن يتزوجها ويدخل بها، وقد بالغ خمارويه في جهاز ابنته وتكلف في ذلك الكثير في بناء القصور على كل مرحلة على طول الطريق بين مصر وبغداد لنزول العروس كما تضاف إلى ذلك ما أكثر فيه من الجواهر والتحف ويقال أنه أنفق مليون دينار وبلغ صداق العروس مليون درهم. ولعل خمارويه قد أراد بهذا الجهاز أن يبهر الناس بمدى تفوق مصر على حاضرة الخلافة من حيث الثراء العريض، ولم يكن يعنيه حينئذ ما أنفق من أموال طالما أنه كان يسعى إلى توثيق صلته بالخلافة، الذي قيل عنه أيضًا أنه أراد بزواجه من قطر الندى "أن يفقر أباها في جهازها" [٦٨].

الواضح مما رواه المؤرخون أن العرض جاء من جانب خمارويه، ولعله كان من الأسلحة التي استغلها خمارويه لإغراء الخليفة بتجديد العقد "المعاهدة" مثل العروض المالية السخيفة التي تقدم بها الخليفة نفسه. ولم يكن من المعقول أن يرفض الخليفة المعتضد هذا العرض الذي جاء من أقوى الأمراء المعاصرين وأعرضهم ثراء وأوفرهم غنى. [٦٩]

---

(٦٦) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٤٠. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٥١.

(٦٧) قطر الندى هي أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون (المتوفاة سنة ٢٨٧ هـ). من أشهر النساء اللاتي لقبن بقطر الندى في تاريخ مصر. ويرجع ذلك إلى ما أحاط حفل زفافها من مظاهر الأبهة والعظمة، كما أطلق والدها خمارويه العنان للأفراح التي مازالت أغانيها من الأغاني الشعبية بمصر، مثل: "الحنة يا الحنة يا قطر الندى .. يا شباك حبيبى يا عينى جلاب الهوى".

(٦٨) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر وآثارها الإسلامية.

(٦٩) حسن محمود، العصر الطولوني، ص ١٢٠.

ذكر المؤرخون الحفل الأسطوري لزفاف «قطر الندى» للخليفة العباسي المعتضد ورحلة القافلة من القطائع عاصمة مصر آنذاك، وحتى بغداد مقر الخلافة العباسية، والأموال التي أنفقها خمارويه والد «قطر الندى» سواء في القصور العديدة التي شيدها خصيصا كي تكون استراحات لقطر الندى في الطريق إلى بغداد، وحتى لا تشعر بأي فرق بين هذه القصور وقصر والدها الفخم في القطائع والأكثر من ذلك ما كانت تحمله القافلة من كنوز الذهب. وهي التي بلا شك أثرت كثيراً على الخزينة في مصر ما أدى إلى إفلاسها بالرغم من الغنى الذي كانت تتمتع به مصر في ذلك العصر، فقد جهزها خمارويه بسرير من الذهب من (٤) قطع عليه قطع فنية من الذهب المشبك. في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا تقدر بثمن، ودكه من الذهب تضع عليها قدمها كلما دخلت حجرتها، ومائة هون مصنوعة من الذهب يدق فيها العود والطيب مع ألف مبخرة مصنوعة من الذهب الخالص، ومئات من الصناديق المحملة بالملابس والأقراط والسلاسل الذهبية وفصوص من الأحجار الكريمة تحملها عشرات البغال[٧٠].

يعتبر هذا الزفاف خرافياً ومن حفلات الزفاف النادرة التي دخلت التاريخ وتعبر عن البذخ الشديد الذي يصل إلى حد السّفه، وهو ما يؤخذ بلا شك على عهد حكم خمارويه. فيذكر ابن دقماق في كتابه «الانتصار لواسطة عقد الأمصار»، أن خمارويه «حمَل معها ما لم ير مثله، ولا يسمع به». وذكر المقريزي في «الخطط»: «انه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها». ويصف المؤرخ أبو المحاسن رحلة العروس فيقول عن البعثة التي رافقتها أنهم كانوا « يسيرون بها سير الطفل في المهد ... وكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها حتى قدمت بغداد في أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ».[٧١]

(٧٠) نعمات مجدي، «خمارويه بن طولون: الفارس الحاكم»، جريدة الرأي.- العدد ١٠٦٧٦، منشور بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٨. (www.alraitv.com).

نجم عبد الكريم، زواج قطر الندى الأسطوري.- جريدة الشرق الأوسط.- العدد ٩١٦٨ بتاريخ ٤ يناير ٢٠٠٤.

(٧١) موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، ص ١٧٧ – ١٧٨.

كانت قطر الندى بنت خمارويه أكمل نساء عصرها في الجمال والأدب. لها مع زوجها الخليفة المعتضد حكايات منها: أنه وضع رأسه يوماً في حجرها فنام حتى غطّ في نومه، فتلطّفت في ميل رأسه من حجرها، ووضعته على مخدة، وقامت، وانتبه المعتضد من نومه فوجد رأسه على مخدة ولم يجد قطر الندى معه. فاشتد غيظه واستدعاها وقال لها: ما هذا الذي صنعت؟ أضع رأسي في حجرك فتتركيني؟ فقالت: إن فيما أوصاني به أبي ألا أجلس بين النيام، ولا أنام بين الجلوس فأعجب ذلك المعتضد وقال: نِعم ما أوصاك به أبوك. وصارت الأمثال في قصر الخليفة تُضرب بأدب قطر الندى. وناولها المعتضد يوما قدح خمر لتشربه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما شربتُه قط، والنبي ﷺ يقول عن النساء: ناقصات عقل ودين، والرجال إن شربوا الخمر ففي عقولهم وأديانهم ما يحتمل حيفها، والنساء بضدّ ذلك. فاشتد ولعه بما سمع منها وأعفاها.

نهاية خمارويه

من الصعب علينا التعرف على حقيقة الآمال التي كانت تدور في رأس خمارويه، وطبيعة الدور الذي كان يريد أن يلعبه، لأنه قتل على يد بعض خدمه، ولم يتحقق ما أراد تحقيقه من أهداف. يذكر الدكتور أحمد صبحي منصور أن خمارويه كان كثير اللواط بالخدم، فدخل الحمام وأراد الفاحشة بشاب من الخدم فامتنع الخادم، فأمر خمارويه بإدخال عمود حديد في دبر الخادم، وظلوا يعذبونه به حتى مزقوا أحشاءه ومات أمام أعين رفاقه من الخدم. قصد خمارويه بذلك أن يجعله عبرة لهم حتى لا يعارضونه في إتيان الفاحشة بهم.

ولكن صمم الخدم على قتل سيدهم خمارويه، وأعوزتهم الفتوى التي تبرر لهم قتله، فاستفتوا العلماء في حد اللوطي فقيل لهم القتل. لم يستطيعوا الاختلاء به في قصره بمصر حيث يحرسه الأسد زريق، فصبروا إلى أن سافروا معه إلى دمشق، فاختلوا به في قصره في دير مرّان خارج دمشق وذبحوه في شهر ذي الحجة عام ٢٨٢هـ وكان في الثانية والثلاثين من عمره بعد حكم دام اثنتي عشرة سنة (٢٧٠ – ٢٨٢هـ).

وقد هرب الخدم، فظفر بهم الأمير طغج بن جف فأمر بتشهيرهم وضرب أعناقهم. يقول المسعودي عن نهايتهم: «وأتى بهم على أميال فقتلوا وصلبوا، ومنهم من رمى بالنشاب، ومنهم من شرّح لحمه من أفخاذه وعجيزته وأكله السودان من مماليك أبى الجيش خمارويه».

وكان أبو بشر الدولابي (٢٢٤ – ٣١٠هـ) قارئا للطولونيين في بيوتهم ومقابرهم، وبحكم هذه الوظيفة حضر دفن خمارويه، ويقول المسعودي عن دفن خمارويه نقلا عن ذلك الشيخ الدولابي: «قدم أبو الجيش ليدلى في القبر، ونحن نقرأ جماعة من القرّاء سبعة سورة الدخان، فأحضر من السرير، ودلى في القبر، وانتهينا من السورة في هذا الوقت إلى قوله عزّ وجل: خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم، قال: فخفضنا أصواتنا وأدغمنا حياء ممن حضر»...!! [٧٢]

---

(٧٢) أحمد صبحي منصور، الوريث خمارويه الطولوني بين الترف والتلف.- صحيفة الحوار المتمدن.- العدد ٢٦٦١ منشور بتاريخ ٢٥ مايو ٢٠٠٩ على الرابط: (www.ahewar.org)

ولما قُتل خمارويه، اتصل خبرُ ذبحه بالمعتضد قبل أن يتصل بقطر الندى. واتفق أن دخل المعتضد على قطر الندى في أثر ذلك، فأحست فتوراً منه في معاملته إياها. فقالت: أحسن الله عزاءك يا أمير المؤمنين في خمارويه، وجعل من غلمانك خير خلف منه. فقال لها: أبلغك قتلُه؟ قالت: لا والله. ما يدخل إليّ خبر من غير جهتك. قال: فمن أين عرفت ذلك؟ قالت: يعفيني أمير المؤمنين من هذا. قال: لا بد من ذكر ذلك. قالت: كان أمير المؤمنين طول حياة أبي يُبدي لي برّاً وتلطفاً، فأعلم باتصال ذلك رعية لمكان أبي. فلما رأيتك اليوم قد عاملتني بفتور ولم أعلم لي ذنباً أستوجب به ذلك، خطر بخاطري أن أبي مات. فاستحيا المعتضد واعتذر. ثم قال لها: فما بالك لا يظهر عليك أثر الحزن عليه؟ قالت: فرحي بك يغلب على حزني عليه، والرضا بحياتك يقهر السخط بموته. فقبّل رأسها وحلف لها أنه يرعاها في موت أبيها أكثر من رعيه لها في حياته.

خمارويه بين الترف والتلف (٧٣)

ترك خمارويه بصمات واضحة في مختلف النواحي السياسية والحضارية والاقتصادية، إذ قدر لمدينة القطائع – التي أسسها أحمد بن طولون – أن تنطلق في عصره بعد أن أضاف إليها إضافات تنم على أنه فنان ذواقة، بمعنى أنه لم يبخل على نفسه بنعم الحياة ولا الناس بعطاياه، ولذلك اعتبره البعض متلافًا. فقد بلغت نفقته على جنده ٩٠٠ ألف دينار في العام وقد استكثر من الجواري والغلمان حتى شاع أمره، وكثرت نفقته على طعامه. وقد قام بشراء العديد من الجواري والغلمان وكثرت نفقته على طعامه لدرجة أن الباقي في مطبخه من أصناف المأكول كان يزيد عن حاجة الخدم فكان الخدم يقومون ببيعه، كان هذا في كل وقت دومًا بحيث أن الرجل إذا جاء إليه ضيف خرج على الفور فيجد ما يشتهيه ليتجمل به أمام ضيفه. ولهذا بلغت نفقة المطبخ في أيام خمارويه ثلاثة وعشرين ألف دينار شهريًا، وبذلك نجد أنه أنفق ما ادخره أبوه أحمد بن طولون بالإضافة إلى ما كان يأتيه من الخراج، فقد عكف خمارويه على كل أنواع المتع والمسرة.

وأقام خمارويه قصراً كان من أعجب مباني الدنيا، كان فيه ما سماه برواق الذهب، حيطانه كلها مطلية بالذهب واللازورد في أحسن نقش وأظرف تفصيل، وازدانت تلك الحيطان بصورة خشبية بارزة لصور محظياته من المغنيات في أحسن تصوير وجعل على رؤوسهن أكاليل الذهب الخالص والجواهر، وتلونت أجسامهن في الحيطان بثياب وأصباغ عجيبة جعلتهن كأن الحياة تطل منهن. وفي وسط قصره أنشأ فسقية عبارة عن بركة واسعة مساحتها خمسون ذراعا في خمسين ذراعا، وملأها بالزئبق وجعل أركان البركة سككا من الفضة الخالصة، وجعل فيها مقاطع من حرير فيها حلق من فضة، وجعل له فرشا محشوا بالهواء المضغوط منتفخا محكم الشد والقفل، ويلقي ذلك الفرش المنتفخ على مقاطع الحرير ويشد بحلق الفضة، فوق سكك الفضة التي تعلو سطح الزئبق الرجراج، وهكذا جعل له سريرا يرتج بارتجاج الزئبق لينام عليه كأنه يسبح في الهواء. وفي الليالي المقمرة كان نور القمر ينعكس علي سطح البركة الزئبقي فكان يرى لها منظر عجيب أخاذ، فكانت تلك البركة من أعظم ما عرف.

وبني في قصره قبة عجيبة سماها "الدكة"، كان لها ستر يقي الحر والبرد، على حسب درجة رفع الستر أو إنزاله، وفرش أرضها بالفرش الفاخرة، ولكل فصل من فصول السنة فرش مختلف، وكان يجلس في تلك القبة فيشرف على كل القصر وملحقاته من البستان والبركة والصحراء والجبل والنيل.

---

(٧٣) أحمد صبحي منصور، تطبيق الشريعة السنية في الدولة الطولونية : الوريث الطولوني خمارويه بين الترف والتلف.– موقع أهل القرآن.– منشور بتاريخ ٢٨ مايو ٢٠٠٩ على الرابط: (www.ahl-alquran.com)

وبني في قصره بيتا للسباع قسمه إلى حجرات في كل حجرة أسد وأنثاه، ولكل حجرة طاقة صغيرة يدخل منها الطعام ولها باب يفتح من أعلا، وفيها حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء. وفي وسط الحجرات قاعة فسيحة مفروشة بالرمل فيها حوض رخامي كبير يصب فيه الماء من ميزاب نحاسي كبير. فإذا أراد سائس الحجرة تنظيفها رفع باب الحجرة من أعلى وصاح بالسبع فيخرج مع أنثاه إلى القاعة المذكورة، ثم يفضل الباب ويدخل إلي الحجرة فينظفها ويبدل الرمل بغيره ويضع الطعام في المكان المعد له ويغسل الحوض ويملأه بالماء ثم يخرج ويعيد الأسد إلى مكانه. وبالتدريب أصبح الأسد يتعلم الدخول والخروج والأكل المنتظم، وبعدها عرفت أنثاه الخروج في أوقات معينة تلعب وتتهارش إلى أن يحين موعد عودتها إلى حجرتها.

وكان من جملة تلك السباع أسد أزرق العينين سماه خمارويه زريق، وقد استأنس خمارويه ذلك الأسد فأصبح مطلق السراح يسير في القصر لا يؤذي أحدا ويصاحب سيده في جولاته، فإذا وضعت لخمارويه مائدته أقعد ذلك الأسد بين يديه فيرمي له بالدجاج واللحم فيأكل معه، أما اللبؤة الخاصة بزريق فلم تأنف الاستئناس، فلزمت حجرتها إلى حيث يعود لها زريق بالليل بعد أن ينتهي من مهمته في حراسة خمارويه. كان ذلك الأسد يحرس خمارويه في نومه يربض بين يديه في السرير ولا يغفل عن حمايته فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه طالما قبع زريق أمام سريره. وحين ذبحوا خمارويه كان ذلك في دمشق بعيداً عن مصر وعن زريق! الذي ظل يزأر زئيراً مخيفا كأنه ينادي على صاحبه الذي اختفى فجأة، وعندما طال غيابه مات من الحزن.

أما اصطبلات خمارويه فكانت أعجوبة، فقد جعل لكل صنف من الحيوانات اصطبلا منفردا، للبغال وأنواع الخيول، وما كان منها للنقل وما كان منها للركوب، بالإضافة إلى اصطبلات الفهود والنمور والأفيال والزرافات والقرود، وأقام اصطبلات أخرى في القرى القريبة في الجيزة، وأوسيم، وصفط وطهرمس، وناهيا وغيرها من القرى القريبة من العاصمة. ومع كثرة ما أقامه لنفسه في قصره وفي مدينة القطائع من متنزهات وأعاجيب فإن خمارويه كان يخرج عن قصره ومدينته ليتنزه عند الأهرام، وفي الصحراء ويقوم ومعه فصيلة من جيشه يصيد السباع، بالإضافة إلى غرامه باستعراض جيشه في مواكب مزينة باهرة وحفلات سباق كانت أعياداً لكثرة ما كان يغلفها بالزينة والمباهج.

والحق أن؛ خمارويه كان خير خلف لخير سلف فقد حافظ على الدولة المصرية الإسلامية المستقلة التي أسسها أحمد بن طولون، كما قاد الجيوش ونال الانتصارات الباهرة، وجاهد ضد البيزنطيين، واستطاع أن يسوي المشكلات التي قامت بين الخلافة وبين مصر، بل أنه صاهر البيت العباسي، وبدت مصر في عهده غاية في القوة والازدهار.

أولاد خمارويه [أبو العساكر جيش، أبو موسى هارون]

كانت وفاة خمارويه بداية النهاية للدولة الطولونية، حيث أسرعت الدولة حثيثاً نحو الضعف والانحلال، وتهاوى ملك بني طولون في نحو عشر سنوات (٢٨٢ – ٢٩٢ هـ)، وانتهت تجربة الاستقلال، وانتكست البلاد وارتدت إلى طاعة الخليفة مباشرةً.

وقد حكم مصر بعد خمارويه اثنان من أبنائه هما أبو العساكر جيش، وهارون، وأخوه شيبان. كان أبو العساكر شابًا في الرابعة عشر من عمره لا يعرف في تصريف الأمور شيئًا، وألتف حوله طائفة من أمثاله الغلمان فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبو العشائر "نصر بن أحمد بن طولون" فقتله، مما أدى إلى نفور الجند منه فعملوا على خلعه وخاصة أن الجيش الذي كونه جده أحمد بن طولون أصبح القوة الفعلية للبلاد، ولم يكن من الممكن أن يملأ هذا الظلام أعين القواد، فشكوا إلى بعضهم البعض وانتهى الأمر إلى أن خرج عليه أمير الثغور وصاحب دمشق وأسقط اسمه من الخطبة على المنابر، ومع ذلك فلم ينزعج واستمر في لهوه مع أوباش الناس، فقرروا خلعه وقيل أن الجند وثبوا عليه هو وأمه وكاتبه وقاموا بقتلهم ثم نهبوا داره بعد أن استمرت ولايته تسعة أشهر (٢٨٢ – ٢٨٣هـ).

خلف أبو العساكر أخوه أبو موسى هارون (٢٨٣ – ٢٩٢هـ) وكانت بيعته بدون موافقة الجند ومع ذلك بايعوه ولم يمتنع عليه أحد، ولكن أحوال البلاد كانت مضطربة ولم يكن يقدر للدولة الطولونية صلاح على يده. الحقيقة أن هذه الدول لا تقوم على أساس من هدف أو سند أهل البلاد، وإنما كان ينشئها طموح رجل فرد فإذا انقضى أمره زالت الدولة. وكان جند الدولة الطولونية قد فسد أمره وتفرقت وحدته لأنه كان يتكون من عناصر مختلفة وجماعات شتى، فهم أخلاط من المرتزقة أهمهم الروم. وفي ذلك الحين ورد على هارون وفاة الخليفة المعتضد زوج أخته قطر الندى(٧٤) وتولية المكتفي بالله، وبدأت تظهر في الأفق حركة القرامطة (٧٥) وتصدى لها هارون وتمكن من الوقوف في وجههم الأمر الذي استنفذ فيه جانب كبير مما كان قد بقى من جيشه.

---

(٧٤) في استطاعة الخليفة العباسي المعتضد أن يفتح مصر بعد وفاة خمارويه، ولكنه لم يكن قد نسى بعد صلة النسب التي تربطه بأمرائها، وكانت قطر الندى خير مدافع عن قضيتهم في بغداد، ولاسيما أن الخليفة كان مغرماً بها إلى حد كبير. وهكذا ظل الحال بين الخلافة العباسية وبين مصر حتى توفيت قطر الندى، وحتى توفي الخليفة العباسي المعتضد سنة ٢٨٩ هـ.

(٧٥) القرامطة حركة باطنية هدامة تنتسب إلى شخص اسمه حمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط لقصر قامته وساقيه وهو من خوزستان في الأهواز ثم رحل إلى الكوفة. وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم السري العسكري، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية. أنظر: محمد عنان، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة.– دار الهلال، ١٩٦٢

ومما زاد الطين بله؛ تلك الوحشة التي حدثت بين هارون وبين الخليفة المكتفي بالله الذي طمح في استعادة سلطانه على مصر، ولذلك أسرع المكتفي بندب القائد محمد بن سليمان وهو من خدم أحمد بن طولون حيث كان كاتباً للؤلؤ القائد الطولوني، وقد انحرف محمد بن سليمان وتدرج في المناصب حتى ندبه المكتفي للقضاء على آخر الطولونيين.(٧٦)

وبينما كان جند العباسيين يستولوا على أملاك الطولونيين في بلاد الشام، وثبا عدي وشيبان ابنا أحمد بن طولون على ابن أخيهما هارون بن خمارويه وقاما بذبحه وهو ثمل(٧٧) ومات في الثانية والعشرين من عمره ٢٩٢هـ / ٩٠٤م بعد أن دامت ولايته على مصر (٨) سنوات. وكان مصرعه قاصم الظهر للمقاومة الطولونية الناجحة ومفرقاً لصفوف البقية الباقية من الجيش، فقد انحازت الفرق المؤيدة لهارون إلى القوات العباسية مباشرةً.

نهاية الدولة الطولونية

انفرد شيبان بن احمد بن طولون بالولاية وكان أهوج شديد البدن في عنفوان شبابه، وصار يسرع في أموره ويجزل العطاء للجند بعد استيلاءه على ودائع أم هارون التي كانت قد خبأتها عند تاجر من تجار الفسطاط يقال أنه كان يهوديًا، وعلى الرغم من ذلك فقد انضم جنده جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفي. وفي ذلك الوقت؛ وصل محمد بن سليمان إلى العباسة(٧٨) وأسرع قائد الأسطول المصري بحرق جسر مصر الشرقي وجزء من الغربي حتى تُعزل مدينة الفسطاط عن الصعيد. وأقبل القائد محمد بن سليمان بمن معه من الجنود ووقف دون الفسطاط، وقام شيبان بمحاولة بائسة لاستعادة أملاك الطولونيين وإنقاذ ملكه.

كتب محمد بن سليمان إلى شيبان يؤمن على أهله وولده وماله، فاستجاب له وسار إليه تاركًا جنده وهم لا يعلمون بتخليه عنهم، فلما علموا بالأمر تفرقوا وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة بعد أخرى على يد القائد العباسي محمد بن سليمان، حيث أمر هذا القائد بحرق القطائع ونهب الفسطاط وبذلك انتهت ولاية شيبان التي لم تستمر سوى ٩ أيام بل انتهت الدولة الطولونية بأكملها وماتت ميتة مشرفة. وقد اجتهد محمد بن سليمان في الانتقام

---

(٧٦) محمد بن سليمان من صنائع الطولونيون، عمل كاتباً للؤلؤ وسخط عليه أحمد بن طولون، وكان يود أن ينكل به جزاء خيانته لولا فراره إلى بغداد، وقد برز في خدمة الموفق والمعتضد والمكتفي، وأصبح قائد الجيش الخلافي وصاحب الفضل الأكبر في قصم ظهر القرامطة، واختير لقيادة الجملة ضد مصر بسبب معرفته الوثيقة بأحوال البلاد، وكان له ثأر عند الطولونيين ويريد أن ينتقم. أنظر: حسن محمود، العصر الطولوني، ص ١٦١ – ١٦٢.

(٧٧) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ١١١.

(٧٨) سميت باسم العباسة بنت احمد بن طولون. وقد قامت هذه المدينة حول قصر مما شيده خمارويه بن طولون عند سفر ابنته أسماء "قطر الندى" في طريقها إلى العراق، وكانت عمتها العباسة ترافقها في هذه الرحلة. وتقع هذه المدينة بجوار الزقازيق – محافظة الشرقية الآن.

فاستسلم إلى أحقاده، وأخذ في إزالة آثار الدولة الطولونية وأخذ أموالها ونهبها وحمل إلى بغداد جزء وسرق الباقي، ويقال أن المكتفي قد حاسبه على ذلك أعسر حساب وأستبدله بعيسى النوشري.

وعادت مصر من جديد ولاية عباسية كما كانت من قبل بعد أن حكم الطولونيين (٣٨) عام، ومع هذا فإن من يسمع بسيطهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة، فقد تنفس الناس الصعداء معهم وأنقطع عنهم نهب الولاة العباسيين. كما بدأ ينمو في مصر وعي الشخصية المصرية وإن كان وعياً ضعيفاً يحتاج لسنوات طويلة ليتجلى ويأخذ صورة واضحة. ولو تنبه آل طولون لكان لدولتهم شأن آخر، إلا أنهم مضوا في أعقاب غيرهم من الاعتماد على الجند الأجنبي.(٧٩)

في الحقيقة؛ كان أحمد بن طولون من أبطال التاريخ المصري يمتاز عن غيره بفكرته عن مفهوم الدولة وما ينبغي لها أن تكون، ومن حسن حظ الخلافة العباسية - ورغم كل شيء- أن بنو طولون كانوا أبر الناس بها وأنفعهم لها، وهم لا يخرجوا عن الطاعة ولم يمنعوا مالاً، حتى السنوات التي قطع فيها أحمد بن طولون مال مصر عن الخلافة، فقد عوضها ابنه خمارويه الذي كان يرسل للخلافة ٢٠٠ ألف عن الماضي و٣٠٠ ألف عن كل عام للمستقبل.(٨٠)

ويضاف إلى ذلك؛ أنه في السنوات المظلمة التي عبث فيها الزنج بمصائر الخلافة العباسية وهبت عليها ريح القرامطة، لم يكن للخلافة من سند حقيقي إلا ما يرد من مصر من دنانير ذهبية. ثم إن الطولونيين حملوا عن الخلافة العباسية عدة حروب مع البيزنطيين الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن السر الذي جعل محمد بن سليمان وجنده يفعلون ما حدث مع بقايا بني طولون، فقد حملوهم إلى بغداد مكبلين بالحديد وكأنهم أسرى حرب، ثم عاثوا في بلاد مصر وأحرقوا ونهبوا أنهم يقتحمون بلدًا معادية.(٨١)

في الواقع؛ لا نجد تفسيرًا لكل ما حدث سوى الانحطاط الخلقي لرجال الدولة العباسية، هؤلاء الرجال الذين شقيت بهم بغداد ودمشق والفسطاط، وقاس منهم بنو طولون الكثير، فقد كانت بلاد الخلافة العباسية بأجمعها نهبًا لهؤلاء الطغاة.(٨٢)

(٧٩) في عصر أبو العساكر جيش بن خمارويه (٢٨٢ – ٢٨٣ هـ) ظهر أن نظام الجيش الطولوني لم يقم على أسس قوية بل كان أحمد بن طولون وخمارويه يكادان يشتريان احترام الجند وطاعتهم بالهبات والعطايا، فلما ترك خمارويه الخزانة خاورية، ولم يستطع أبو العساكر أن ينسج على منوال جده وأبيه رفض قسم من الجيش الاعتراف به، ولم يلبث الجيش القديم أن أصبح فرقاً من الجند فقدت نظامها وسادتها الفوضى ثم انتهى المر بفرار بعض القوات إلى العراق.

(80) Zaky Hassan, Les Tulunides, P.118

(٨١) أحمد عبد الرازق، مصر الإسلامية، ص ١٠٥.

(٨٢) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ –كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

مظاهر الحضارة في العصر الطولوني [(٨٣)]

يمثل العصر الطولوني بداية الازدهار في تاريخ الحضارة، الدور الذي يمثل اكتمال التطور الإسلامي والاندماج بين الثقافة العربية والمؤثرات المحلية الموجودة، وظهور الطابع الإقليمي للثقافة، واكتمال الحركة الإسلامية، واختلاط الدماء العربية الوافدة بالدماء المصرية. وكان من أهم ملامح التطور الذي شهده المجتمع المصري في العصر الطولوني، ظهور لون جديد من الحياة لمدنية لم يكن مألوفاً من قبل، تتمثل فيه حياة الطولونيين وتقاليدهم وطابع عصرهم وأهدافهم السياسية، وقد تجلت هذه الحياة المدنية الجديدة في مدينة القطائع الطولونية.

ومن الملاحظ؛ أن المجتمع الإسلامي في عصر الطولونيين لم تتحدد معالمه بصورة قاطعة، إنما كان لا يزال في طريقه نحو التطور والتشكيل، فأوراق البردي التي ترجع إلى العصر الطولوني تشير إلى قوم أسلموا ولا زالوا يحتفظون بنسبهم المسيحي إلى جانب أسمائهم العربية. كما تشير هذه الوثائق إلى ظاهرة زواج الذميات بالمسلمين، وهي ظاهرة شاعت في ذلك العصر إلى حد بعيد.

وقد أدت السياسة الزراعية الهادفة في ذلك العصر إلى رفع مستوى الإنتاج بكافة السبل، فكانت النتيجة نهضة زراعية كبرى تمثلت في وفرة الإنتاج، وشيوع الرخاء، وخلو العصر الطولوني من الأزمات الاقتصادية، وانخفاض أسعار الغلال. كما ظهرت في الميدان الصناعي نهضة تجلت في استحداث صناعات لم تكن موجودة في البلاد من قبل استجابةً للحركة الاستقلالية الكبرى. من هذه الصناعات صناعة الأسلحة، كما نشطت صناعة السفن الحربية والتجارية للمساهمة في الحركة التجارية الكبرى التي ظهرت في العصر الطولوني.

وقد أصابت النهضة صناعة النسيج في العصر الطولوني، فتم مضاعفة الإنتاج. كما راجت صناعة زيت المصابيح، وصناعة السكر، واستخراج الإصباغ من شجر النيل، وصناعة الذهب والنحاس، وصناعة الخزف، بالإضافة إلى صناعة الخشب، حيث مثل هذا العصر مرحلة انتقال من الطراز القبطي في صناعة الخشب إلى الطراز الإسلامي البحت.

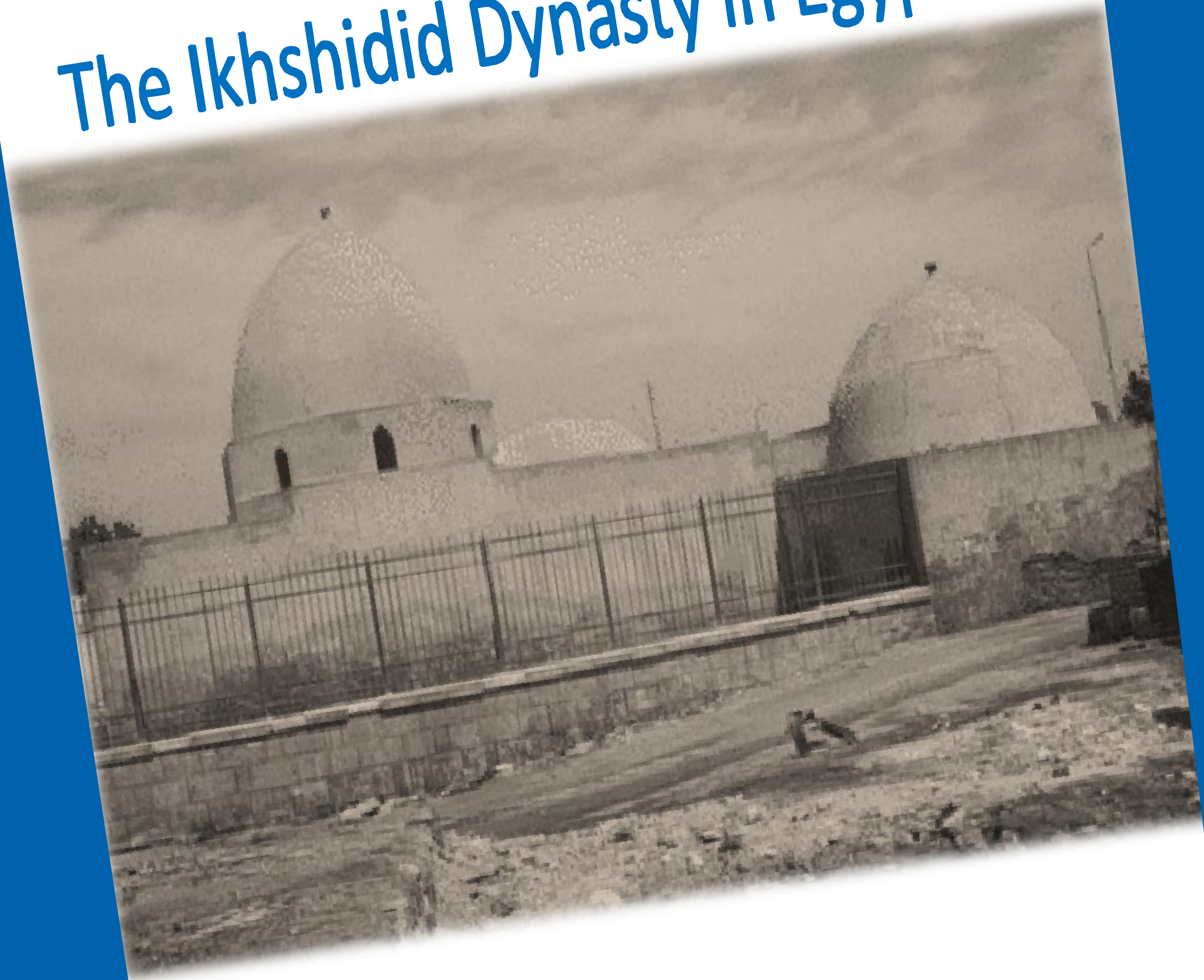
ويتضح من المصادر أن مصر أصبحت في أواخر القرن الثالث وأول الرابع من أهم مراكز التجارة في العالم الإسلامي، وكان رواج هذه التجارة العالمية وإقبالها على أسواق مصر معناه تدفق الأموال على خزائن الطولونيين بصورة لم تشهدها مصر من قبل.

ومن ملامح النهضة الثقافية، أن مدارس مصر الإسلامية أصبحت مركزاً من مراكز الحياة العقلية، وبرز إنتاجها في جميع العلوم الدينية المعروفة: علم القراءات والحديث والفقه وعلم اللغة والتاريخ.

---

(٨٣) حسن أحمد، العصر الطولوني، ص ١٧١ – ٢٣٤.

The Ikhshidid Dynasty in Egypt



الدولة الإخشيدية في مصر

"أتمنى أن أملك هذه المدينة"

الأستاذ أبو المسك كافور

"لن نستطيع فتح مصر قبل زوال الحجر الأسود"

الفاطميين عندما فكروا في

غزو مصر وتذكروا كافور

الدولة الإخشيدية في مصر

٣٢٣ – ٣٥٨هـ / ٩٣٥م – ٩٦٩م

مصر بعد الحكمة الطولونية وقبل التجربة الإخشيدية [ثورة ابن الخليج – الحملات الفاطمية على مصر] – محمد بن طغج الإخشيد – عقبات في طريق الإخشيد [موقف الإخشيد من محمد بن رائق– صراع بني حمدان والإخشيد] – محاولة الإخشيد التشبه بأحمد بن طولون – ولاية أبي القاسم أونوجور– ولاية علي بن الإخشيد ووصاية كافور – ولاية الأستاذ أبو المسك كافور ـ زوال الدولة الإخشيدية – مظاهر الحضارة في العصر الإخشيدي - التجربة الإخشيدية

مصر بعد الحكمة الطولونية(١) وقبل التجربة الإخشيدية (٢٩٣ – ٣٢٣ هـ)

لقد فقدت مصر استقلالها وعادت ولاية تابعة للخلافة العباسية وذلك على أثر سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب، الذي أحرق مدينة القطائع ونهب جنده مدينة الفسطاط. وبعد انتقال الحكم في مصر من الطولونيين إلى العباسيين ورد كتاب من الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠٢-٩٠٨م) بعزل محمد بن سليمان وتوليه أبي موسى عيسى بن محمد النوشري. وقد كان النوشري من القواد الذين آتوا إلى مصر مع محمد بن سليمان للقضاء على الدولة الطولونية، وبعد أن تم زوال هذه الدولة خرج عيسى النوشري نحو العراق ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى وافاه كتاب المكتفي بولايته على مصر فعاد إليها سنة ٢٩٢هـ.(٢)

---

(١) يقصد بالحكمة الطولونية هنا أحمد بن طولون فهو مؤسس الدولة وتاريخ العصر الطولوني هو تاريخ أحمد بن طولون، والحق أنه مديناً بنجاحه إلى مهارته وصفاته الشخصية، فقد كان ذكياً بعيد النظر صادق الفراسة. وقد أيد المؤرخين ذلك الأمر ببعض النوادر منها أنه ركب ذات يوم قاربه فاجتاز به شاطئ النيل فوجد شيخًا صيادًا ومعه صبي في حال يرثى لها. فدفع للصياد عشرين دينارًا. ثم رجع ابن طولون عن الجهة التي كان قصدها واجتاز موضع الصياد (في رحلة العودة) فوجده ملقى على الأرض وقد فارق الدنيا والصبي يبكي ويصيح. فظن ابن طولون أن شخصًا قتله وأخذ الدنانير منه، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن خبره فقال الصبي: لم يزل أبي يقلب الدينار من يمينه إلى شماله ومن شماله إلى يمينه حتى سقط ميتًا. فقال ابن طولون لغلمانه: فتشوا الشيخ ففتشوه فوجدوا الدنانير معه، وأراد ابن طولون أن يعطي الدنانير إلي الصبي فرفض، وقال: أخاف أن تقتلني كما قتلت أبي. فقال أحمد بن طولون : الحق معه، فالغِنَى يحتاج إلى تدريج وإلا قَتَل صاحبَه.

أشرف صالح، مقال بعنوان "الحكمة الطولونية في مصر".- جريدة شباب مصر: أول جريدة إلكترونية يومية مصرية.- منشور بتاريخ ٢٩ فبراير ٢٠٠٨.- متاح على الرابط: (www.shbabmisr.com)

(٢) سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين.- القاهرة: مطبعة جامعة الملك فؤاد الأول، ١٩٥٠. ص ٢٠

ثورة ابن الخليج:

وقد قدم عيسى إلى مصر قبل خروج محمد بن سليمان منها، وكانت مدة إقامة محمد بن سليمان في مصر أربعة أشهر خرج بعدها إلى الشام مع جنده وبعض فلول الجيش الطولوني. وقد بادر بالانفصال عن ركبه ضابط من الجيش الطولوني اسمه محمد بن علي الخليج أو محمد بن علي الخلنجي، والتف حول هذا الضابط عدد كبير من الجند والضباط الذين كانوا في خدمة بني طولون قبل زوال دولتهم. وقد عقد ابن الخليج العزم على إحياء الدولة الطولونية مرة ثانية، فاتجه إلى مدينة الرملة وقضى على الحامية العباسية هناك وخطب على المنابر ودعا للخليفة العباسي ثم لإبراهيم بن خمارويه بوصفه أميرًا للبلاد ثم لنفسه باعتباره نائبًا عن إبراهيم، الذي كان حينئذ أسيراً ببغداد.[(٣)]

وبمرور الوقت ازداد أتباع ابن الخليج وساروا نحو مصر، واستعد والي مصر عيسى بن النوشري لمقابلته، والتقى الجيشان عند غزة وكان النصر لابن الخليج، فاتجه إلى العريش ثم الفرما، واضطر النوشري إلى إعداد جيش آخر ضخم العدد والعدة، وسار على رأس هذا الجيش إلى مدينة العباسة[(٤)] لملاقاة ابن الخليج، ولكنه هزم ولم يجد بدًا من الجلاء عن الفسطاط ونزل بجيشه عند الجيزة.

ودخل ابن الخليج مدينة الفسطاط فأحسن الشعب استقباله ودعا له الإمام على المنبر بعد دعائه للخليفة وإبراهيم بن خمارويه، وأفلح في جمع الضرائب ودفع رواتب الموظفين والجند، وفي ذلك الوقت هرب النوشري بفلول جيشه في اتجاه الإسكندرية، فبعث إليه جيشًا بقيادة خفيف النوبي الذي انهزم أمام عيسى النوشري وعاد خفيف بعدها إلى الفسطاط.

وقد أدى ما حدث إلى اضطراب أمر ابن الخليج حيث أخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدي لجنده أرزاقهم، كما تكاثر عليه رجال الدولة وتخلى عنه كثير من أتباعه، ولما علم الخليفة المكتفي بثورة ابن الخليج أرسل جيشًا ولكنه هُزم أمام جيش ابن الخليج شر هزيمة في أوائل المحرم سنة ٢٩٣هـ. على أية حال فقد اضطر ابن الخليج إلى أن يختفي عند صديق له، ولكن هذا الصديق خانه وكشف أمره فقبضوا عليه بعد أن دام سلطانه نحو سبعة أشهر وعشرين يومًا. وأُخذ ابن الخليج إلى بغداد، ووقف بين يدي الخليفة العباسي فعنفه، ثم طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال في بغداد، ثم قتل شر قتلة.[(٥)]

---

(٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.

(٤) بلدة صغيرة موقعها إلى الشمال الشرقي من مدينة بلبيس الحالية.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ١٥٤.

من الملاحظ؛ أن هذه الحادثة تدل بوضوح على المكانة العظيمة التي تمتعت بها الدولة الطولونية في مصر والشام.

ومن الواضح؛ أن النزاع الذي كان بين ابن الخليج وبين عيسى النوشري ألقى البلاد في هوة من الفوضى وعدم الاستقرار، ففي ذلك يقول أبو المحاسن أن ابن الخليج أراد أخذ ثأر بني طولون والانتصار لهم على ما وقع من محمد بن سليمان الكاتب من إفساد الديار المصرية فوقع منه أيضًا ما فعله محمد بن سليمان الكاتب وكان حاله كقول القائل:رام نفعًا وضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقًا.[٦]

الحملات الفاطمية على مصر:

بدأ الضعف يدب في أوصال الخلافة العباسية السُّنّية، وظهرت أمارات الإعياء على جسدها الواهن، ولاحت آيات الضعف في ملامح الوجه والقسمات، وذلك في مطلع القرن الرابع، بعد أن تفككت الدولة، وصارت دولاً وممالك صغيرة، لا يربطها بدولة الخلافة سوى الاسم والدعاء للخليفة على المنابر. وشهد هذا القرن بزوغ ثلاث خلافات، تنازعت السلطة في العالم الإسلامي: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في إفريقية، والخلافة الأموية في قرطبة، وأصبح للعالم الإسلامي- لأول مرة- ثلاثة من الخلفاء في ثلاثة أماكن مختلفة، يقتسمون الحكم ويتنازعون فيما بينهم.

وقد ظهر في ولاية عيسى النوشري وفي زمن الخليفة المكتفي أمر عبيد الله الذي لُقب بالمهدي، وقد تهاون عيسى النوشري في القبض على المهدي مخالفًا بذلك أوامر الخليفة.[٧] وعلى أية حال فقد نجح أبو عبد الله الشيعي منذ أن وطأت قدماه بلاد كتامة في المغرب العربي منتصف ربيع الأول ٢٨٨هـ/ فبراير ٩٠١م في جمع الأتباع وجذب الأنصار إلى دعوته، مستغلاً براعته في الحديث، وقدرته على الإقناع، وتظاهره بالتقوى والصلاح، ثم صارح بعض زعماء كتامة بحقيقة دعوته بعد أن اطمأن إليهم، وأنه داعية للمعصوم من أهل البيت، ولَمَّح إلى أنهم هم السعداء الذين اختارهم القدر ليقوموا بهذه المهمة الجليلة.

وبعد أن أحسن أبو عبد الله الشيعي تنظيم جماعته، والتزموا طاعته، بدأ في مرحلة الصدام مع القوى السياسية الموجودة في المنطقة، فشرع في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م في مهاجمة دولة الأغالبة، ودخل معها في عدة معاركة، كان أشهرها معركة كينوتة سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م وعُدَّت نقطة تحوّل في ميزان القوى لصالح أبي عبد الله الشيعي؛ حيث توالت انتصاراته على دولة الأغالبة، فسقطت في يده قرطاجنة، وقسنطينة، وقفصة، ودخل رقادة عاصمة الأغالبة في أول رجب ٢٩٦هـ / ٢٦ من مارس ٩٠٩م.

(٦) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ٢٣.

(٧) يقال أن النوشري قبض عليه ثم أطلق سراحه بعد أن أعطاه المهدي مالا كثيراً من أجل إخلاء سبيله. أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٤٥٢ – ٤٥٤.

لا يستطيع أحد القطع برأي حاسم في نسب عبيد الله المهدي، فالشيعة الإسماعيلية يؤكدون صحة نسبه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، في حين يذهب المؤرخون من أهل السُنّة وبعض خصوم الفاطميين من الشيعة إلى إنكار نسب عبيد الله إلى علي بن أبي طالب. ولكن على أية حال نحن أمام رجل يسمى عبيد الله، ويدّعي أنه صاحب الحق في إمامة المسلمين، وأنه من سلالة الإمام جعفر الصادق، وقد نجح أحد دعاته في إقامة دولة باسمه في إقليم إفريقية، وجزء كبير من المغرب الأوسط.(٨)

خرج عبيد الله المهدي من مكمنه في سلمية من أرض حمص ببلاد الشام في سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥م، واتجه إلى المغرب، بعد الأنباء التي وصلته عن نجاح داعيته أبي عبد الله الشيعي في المغرب، وإلحاح كتامة في إظهار شخصية الإمام الذي يقاتلون من أجله، وبعد رحلة شاقة نجح عبيد الله المهدي في الوصول إلى سجلماسة متخفيا في زي التجار، واستقر بها. ومن ملجئه في سجلماسة في المغرب الأقصى أخذ عبيد الله المهدي يتصل سرًا بأبي عبد الله الشيعي الذي كان يطلعه على مجريات الأمور، ثم لم يلبث أن اكتشف "اليسع بن مدرار" أمير سجلماسة أمر عبيد الله؛ فقبض عليه وعلى ابنه "أبي القاسم" وحبسهما، وظلا في السجن حتى أخرجهما أبو عبد الله الشيعي بعد قضائه على دولة الأغالبة.(٩)

وكان أبو عبد الله الشيعي حين علم بخبر سجنهما قد عزم على السير بقواته لتخليصهما من السجن، فاستخلف أخاه "أبا العباس" واتجه إلى سجلماسة، ومر في طريقه إليها على تاهرت حاضرة الدولة الرسمية فاستولى عليها، وقضى على حكم الرّستميين، وبلغ سجلماسة فحاصرها حتى سقطت في يده، وأخرج المهدي وابنه من السجن. ويذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الشيعي حين أبصر عبيد الله المهدي ترجّل وقابله بكل احترام وإجلال، وقال لمن معه: "هذا مولاي ومولاكم قد أنجز الله وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره". وأقام أبو عبد الله الشيعي وعبيد الله المهدي في سجلماسة أربعين يوما، ثم رحلوا عائدين فدخلوا رقادة في يوم الخميس الموافق ٢٠ من شهر ربيع الآخر ٢٩٧هـ/ ٧ من يناير ٩١٠م. وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالإمام المهدي، وفي يوم الجمعة التالي أمر عبيد الله أن يُذكر اسمه في الخطبة في كل من رقادة والقيروان، معلنا بذلك قيام الدولة الفاطمية.(١٠)

---

(٨) علي الشمري، "دولة الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب و مصر ٢٥٩- ٥٢٤هـ".- مجلة النبأ.- العدد (٣٨)، رجب ١٤٢٠هـ.- متاح على الرابط: (http://www.annabaa.org/nba38/dolat.htm)

(٩) أحمد تمام، مقال بعنوان " عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية".- إسلام أون لاين.- منشور أول يناير ٢٠٠٠ على الرابط: (www.islamonline.net)

(١٠) عن ظهور خلافة الفاطميين بالمغرب راجع: عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر: التاريخ السياسي.- الطبعة الرابعة.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٤. ص ٦٨ – ٨٢.

وأصبح المهدي أول الخلفاء الفاطميين وأسس الدولة الفاطمية في المغرب. وقد استهدف عبيد الله الفاطمي منذ أن بويع بالخلافة واستقامت له الأمور أن يدعم مركزه، وأن تكون كل السلطات في يديه، وأن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة والدعوة الإسماعيلية، وكان لا بد من أن يصطدم مع أبي عبد الله الشيعي مؤسس الدولة، ولم يجد غضاضة في التخلص منه بالقتل في سنة (٢٩٨هـ = ٩١١م) بعد أن أقام له دعائم ملكه، وأنشأ دولة بدهائه وذكائه قبل سيفه وقوته.(١١)

أثار مقتل أبي عبد الله الشيعي فتنة كبيرة قام بها أتباعه من أهل كتامة، وقدّموا طفلا ادعوا أنه المهدي المنتظر، وامتدت هذه الدعوة وقويت، واضطر عبيد الله إلى إرسال حملة قوية إلى أرض كتامة بقيادة ابنه لقمع هذه الفتنة، فألحق بهم الهزيمة وقتل الطفل الذي ولّوه باسم المهدي. وقد خاب أمل أهل المغرب في عبيد الله المهدي، وساء ظنهم به بعد أن ذهبت الوعود التي وعدهم بها أبو عبد الله الشيعي سُدى، فلم ينقطع الفساد بخلافة المهدي، ولم يحل العدل والإنصاف محل الظلم والجور، بالإضافة إلى السياسة المالية المتعسفة التي انتهجها الفاطميون في جمع الضرائب، والتفنن في تنويعها حتى فرضوا ضريبة على أداء فريضة الحج. وزاد الأمر سوءا قيام عبيد الله المهدي ودعاته بسبّ الصحابة على المنابر فيما عدا علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والتغيير في صيغة الأذان، وهو ما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة، وتعصّب لمذهب الإمام مالك.

وكان من نتيجة ذلك أن اشتعلت عدة ثورات ضد عبيد الله المهدي، ولكنه وإن نجح في إخمادها فإنه أصبح غير مطمئن على نفسه في مجتمع يرفض مذهبه ويقاطع دولته مقاطعة تامة؛ ولذا حرص على أن يبعد عن السكنى في رقادة مركز المقاومة السُنّي، وأسس مدينة جديدة عُرفت باسم المهدية في سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م على طرف الساحل الشرقي لإفريقية (تونس) فوق جزيرة متصلة بالبر، ولم ينتقل إليها إلا في سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م بعد أن استكمل بناءها وتشييدها، وأقام تحصيناتها ومرافقها المختلفة، وأصبحت المهدية قلعة حصينة للفاطميين بالمغرب ومركزا لعملياتهم الحربية والبحرية، وظلت حتى مطالع العصر الحديث أكبر مركز إسلامي للجهاد في البحر المتوسط.(١٢)

---

(١١) عبد الحميد العبادي وآخرون، الدولة الإسلامية.-الطبعة الثالثة.- القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٨.ص١٠٧

(١٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢.ص ٥٧.

كان المهدي يهدف من وراء بناء هذه المدينة الساحلية إلى مواجهة البيزنطيين الذي حاولوا التحرش به من جنوب إيطاليا ومن صقلية، وقد ذكر المقريزي أنه قال بعد أن شاهد تمام بنائها: اليوم آمنت على الفاطميات. وهذا دليل على حصانتها.

وقد كان هؤلاء الفاطميون لا يعترفون للعباسيين بالخلافة أو الرئاسة الدينية أو السياسية، وكانوا غير قانعين بالمغرب، فعملوا على الاستيلاء على مصر لخيراتها الواسعة وموقعها الجغرافي، وليستطيعوا فيها أن يوسعوا نطاق دعوتهم ويمدوا نفوذ الخلافة الشيعية إلى الشرق. فقد تطلع المهدي إلى فتح مصر والأندلس؛ لأنه رأى أن المغرب لم تسلس له قيادتها، وتشتعل فيها الثورات من وقت لآخر، كما أنها قليلة الموارد.[١٣]

الحملة الأولى ٣٠١ هـ / ٩١٣م [١٤]

يؤكد المؤرخ الكندي أن بعض المصريين كاتبوا الفاطميين في المغرب بغزو مصر، لأن المصريين وجدوا في هذه القوى منفذًا وخلاصًا من الدولة العباسية وولاتها. ولذلك أرسل المهدي سنة ٣٠١هـ جيشًا من إفريقية بقيادة ابنه أبي القاسم، فسار الأخير بجيشه من برقة إلى الإسكندرية والفيوم ودان له جزء كبير من مصر، فبعث إليه الخليفة العباسي المقتدر بالله جيشًا على رأسه مؤنس الفتى أو الخادم، وقد افلح هذا الجيش في صد الفاطميين وإرغامهم على الجلاء عن مصر، وبذلك فشلت الحملة الأولى على مصر.

الحملة الثانية ٣٠٢ هـ/ ٩١٤م

ولكن الفاطميين لم ييأسوا من فتح مصر نهائيًا، فلما كان العام التالي أي سنة ٣٠٢هـ أرسل عبيد الله المهدي جيشًا كبيرًا بقيادة حباسة الكتامي، وبلغ عدد الجيش في رأي الكندي مائة ألف وزيادة عليها. والفاطميين في هذه المرة قدموا إلى الإسكندرية عن طريق البحر حيث ينجحوا في الاستيلاء عليها دون مقاومة كبيرة، ولكن مرة ثانية جاءت الجيوش من المشرق بقيادة مؤنس الخادم الذي التقى بالفاطميين على مقربة من الجيزة وكان النصر حليف المصريين، وفر القائد الفاطمي حباسة بفلول جيشه إلى المغرب فقتله المهدي لفشله.

ومهما يكن من الأمر؛ فإن مؤنس الخادم قرر عزل تكين عن ولاية مصر وأمره بالرحيل عنها فخرج في ٧ ذي الحجة سنة ٣٠٢هـ وكتب مؤنس إلى الخليفة بذلك. وأقام مؤنس الخادم في مصر بعد ذلك فترة يدبر الأمور إلى أن عين الخليفة المقتدر واليًا جديدًا يحل محل تكين وهو ذكا الأعور أو ذكا الرومي، حيث أوصاه مؤنس الخدام بضرورة استئصال شَأْفَةَ الفاطميين.

---

(١٣) وعن محاولات الفاطميين فتح مصر، راجع: أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية، ص ٥٨ – ٥٩.

وقد ذكر تفسير جديد نقلاً عن: فرحات الدشراوى في كتابه "الخلافة الفاطمية في المغرب" حيث فسر محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر تفسيراً عاطفياً أرجعه إلى أن المهدي ذو الأصل الشرقي كان يحركه في هذه المحاولات حنين إلى الشرق وكان نظره دائماً موجه إليه.

Farhat Dachraoui, Le califat fatimide au Maghreb: (296-362/909-973).- Tunis: Histoire politique et institutions, 1981.

توجد نسخة إلكترونية مختصرة بموقع المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (ifao) على الرابط: (www.ifao.egnet.net)

(١٤) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ٢٦ – ٢٧.

أما عن ذكا الرومي؛ فلما استقر الأمر له عنى بالكشف عن عيون الفاطميين في مصر ومن كانوا يكاتبونهم من سكانها فقبض على كثير منهم، واهتم كذلك بالإسكندرية ونظر في أمر تحصينها والدفاع عنها وولى عليها ابنه مظفر بن ذكا. ولا عجب فقد دلت التجارب على سهولة غزوها وعلى نجاح الفاطميين في الاستيلاء عليها، وكان ذكا يخشى أن يتجدد الغزو الفاطمي.(١٥)

الحملة الثالثة ٣٠٧ هـ / ٩١٩م

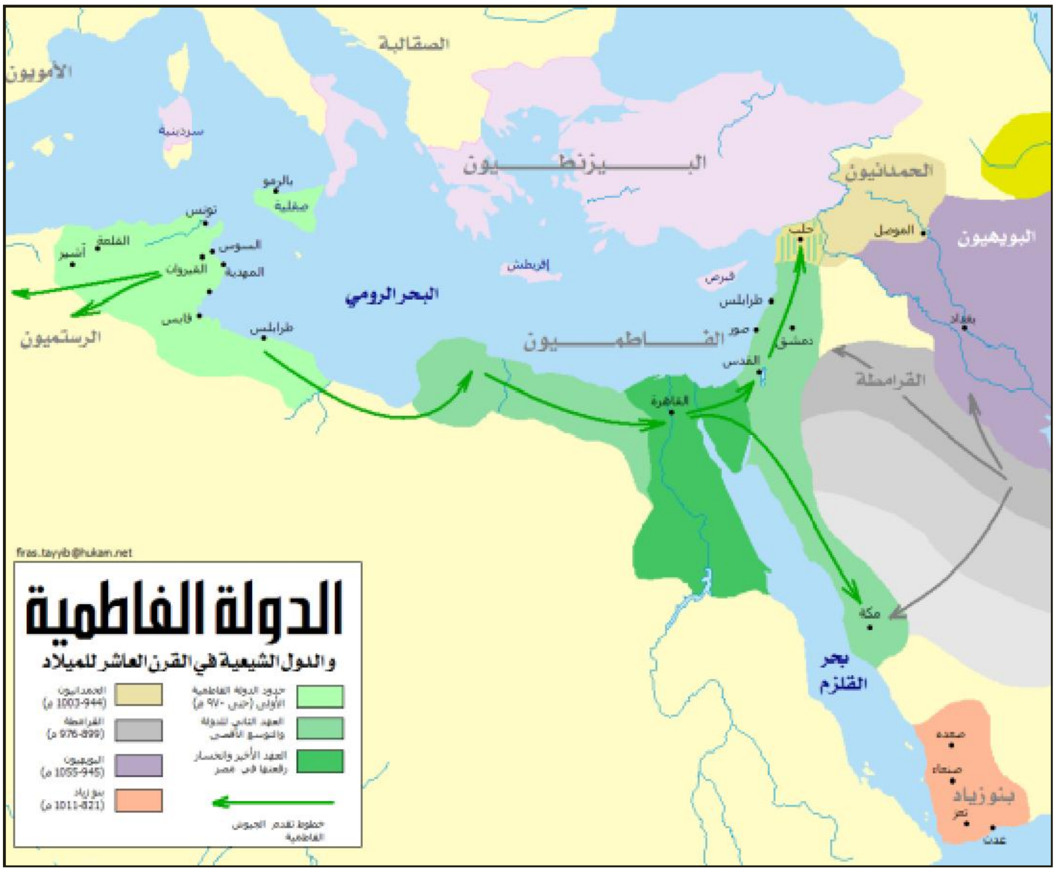
وقد وقع ما كان يخشاه المصريون، ففي سنة ٣٠٦ هـ جهز المهدي جيشًا كثيفًا وعقد لواءه لابنه أبي القاسم الذي وصل إلى الإسكندرية في أسطول من (٨٠) مركباً ونجح في الاستيلاء عليها ٣٠٧ هـ، حيث نهب المدينة وحل الذعر بسكانها. أما الجيش الفاطمي فقد تقدم عدد كبير منه واحتل الغزاة الفيوم والأشمونين وجزءًا كبيرًا من الصعيد. وفي هذه الأثناء أخذ والي مصر ذكا الرومي يستعد لقتال الفاطميين ويسعى في حشد جنده حتى يحاربهم، ولكن الموت لم يمهله فتوفي في الجيزة سنة ٣٠٧هـ وبعد وفاته عهد الخليفة العباسي المقتدر بولاية مصر مرة ثانية إلى تكين، والراجح أن الخليفة اختاره لسابق خبرته بمحاربة الفاطميين وصدهم عن مصر.(١٦)

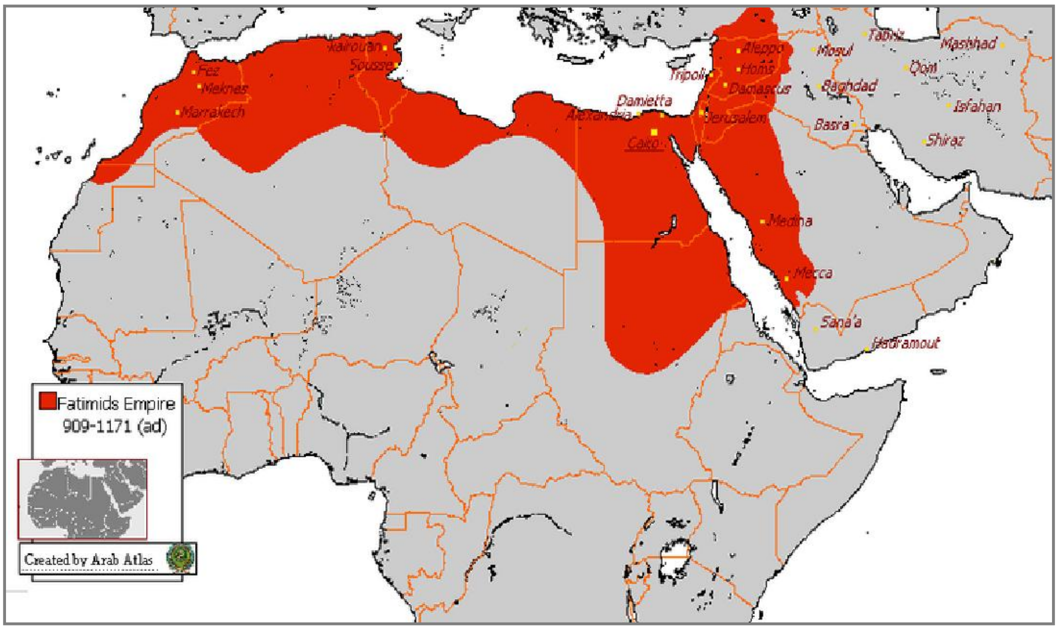
ولكن تكين لم يستطع هزيمة الفاطميين فلم يعجب ذلك الخليفة الذي بعث إلى مصر بمدد قوامه ثلاثة آلاف جندي على رأسهم مؤنس الخادم، كما وصلت نجدة ثانية من العراق، وسارت الجيوش العباسية كلها إلى الفيوم بقيادة مؤنس وتكين وأوقعت بالفاطميين عدة هزائم وفر القائد ابن المهدي بفلول جيشه إلى برقة، بعد أن أُحرقت معظم المراكب الفاطمية وانتشار الوباء بين جند الفاطميين.(١٧)

الواقع أن؛ الحملات الفاطمية فشلت لأن الخلافة العباسية كانت على درجة كبيرة من القوة مكنتها من الدفاع عن نفسها، وإن كانت قد اهتزت أمام خطر الفاطميين الذي كان من شأنه أن يمهد لهم امتداد نفوذهم إلى الشام مما يهدد الخلافة العباسية في عقر دارها. وقد توقفت هذه الحملات الكبيرة على مصر بعد هذا الانتصار على الفاطميين بسبب عودة القبائل البربرية Berber Tribes إلى التمرد، ووجود هذا الرجل القوي المعروف بالإخشيد Al-Ikhshid ، الذي أراد أن يستفيد من مركزه في مصر بين الفاطميين الطامحين في المغرب، والعباسيين الضعاف في المشرق، بزيادة سلطانه في مصر وجعلها إمارة استيلاء له ولولده من بعده.

(١٥) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ٣٠.
(١٦) نفسه، ص ٣١ – ٣٣.
(١٧) عبد المنعم ماجد، الخلافة الفاطمية، ص ٩٠.

ومما لا شك فيه؛ أن وقوع الصدام أكثر من مرة على أرض مصر بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية الشيعية، قد انزل كثيراً من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود، فساءت أحوال البلاد، وتعرضت مرافقها للإهمال.(١٨)





(١٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في العصور الوسطى.- القاهرة، ١٩٨٩. ص ١٣٦.

محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ – ٣٣٤هـ / ٩٣٥ – ٩٤٦م)

ساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال وظل "تكن" في ولايته الثانية على مصر إلى أن عزل وعين بدلاً منه "هلال بن بدر". لكنه في ولاية هلال زادت الأحوال سوءاً وثار عليه فريق كبير من الجند، وقمت بينه وبين الثوار حروب طويلة، وعم الفساد في البلاد فكثر القتل والنهب، فعزله الخليفة المقتدر وأقام بدلاً منه والي آخر يدعى "أحمد" الذي حاول تنظيم عطاء الجند مما جعل بعضهم يثور عليه، وما كان أمام الخلافة العباسية سوى عزله عن منصبه وإعادة "تكن" مرة ثالثة على مصر حيث نجح في إعادة الهدوء والنظام ولكنه مرض ومات.

وفي هذه الظروف؛ ظهر محمد بن طغج الإخشيد على مسرح السياسة المصرية لأول مرة، واستطاع أن يحصل من الخليفة القاهر بتكليفه بولاية مصر. ولكن اضطراب الأمور في مصر حينذاك، وفي مقر الخلافة نفسه لم يترك للاستقرار سبيلاً، إذ لم يدع للإخشيد على منابر مصر إلا نحو اثنين وثلاثين يومًا، وأتى بعدها كتاب من الخليفة القاهر بتولية أحمد بن كيغلغ. وما لبث الخليفة الراضي أن ولى محمد بن طغج على مصر للمرة الثانية، ولكن في النهاية يحصل محمد على تقليد من الخليفة الراضي بولاية مصر سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م بفضل المصاهرة التي كانت بينه وبين الفضل بن جعفر الوزير العباسي. وبذلك قامت الدولة الإخشيدية التي قُدر لها أن تحكم مصر نحو أربعة وثلاثين عاماً.

أصل محمد بن طغج من ملوك فرغانة أحد أقاليم ما وراء النهر[(١٩)]، هذا الإقليم كان يسيطر عليه كبار الملاك والفرسان، ولقب الإخشيد هو اللقب الذي منحه الخليفة العباسي الراضي بالله لمحمد بن طغج، كما أن هذا اللقب كان لقب ملوك فرغانة السابقين، فلفظ الإخشيد معناه بلغة إقليم فرغانة "ملك الملوك".[(٢٠)] وخلاصة القول أن بيت محمد بن طغج اتصل بالسياسيين من أيام المعتصم، فلقد كان جد الإخشيد متصل بالخلفاء العباسيين المعتصم فالواثق فالمتوكل، كما أن طغج أبو الإخشيد كان على درجة عظيمة من الثراء، واتصل بخدمة الطولونيين في عهد خمارويه.[(٢١)]

---

(١٩) حالياً طاجيكستان: وهي دولة تقع وسط آسيا، يحدها من الشرق إقليم التركستان الشرقية، ومن الشمال جمهورية قرغيزيا، ومن الغرب والشمال جمهورية أوزبكستان، ومن الجنوب أفغانستان.

(٢٠) جمال بدوي، الفاطمية: دولة التفاريح والتباريح.- الطبعة الثانية.- القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨. ص ٤٤.
وقيل أيضاً أن لقب إخشيد إيراني الأصل بمعنى الذكي أو النابه. ويذكر ابن سعيد أن الخليفة الراضي بالله هو الذي منحه هذا اللقب "الإخشيد" سنة ٩٣٨م و يذكر ابن خلكان ذلك في سنة ٩٣٩م. أضف إلى ذلك الرأي القائل بأن لفظة "طغج" تعني عبد الرحمن. أنظر: أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٤٥.

(٢١) محمود الحويري، مصر في العصور الوسطى: الأوضاع السياسية والحضارية.- طبعة ٢٠٠٣.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣. ص ١٢٥.

التحق محمد بن طغج بخدمة والي مصر أبي منصور تكين آنذاك، واشترك معه في الحرب التي دارت بين الجند المصرية وجند حُباسة بن يوسف الكتامي قائد الحملة الفاطمية الأولى. وقد أبلى في القتال بلاءً عظيمًا، مما وثق صلته بتكين، ولما تولى تكين دمشق أناب عنه محمد بن طغج في الإسكندرية، وهناك أتيحت له الفرصة لطرد الغزو الفاطمي. وقد حرص محمد بن طغج على توثيق صلته بكبار رجال الدولة وبخاصةً أسرة الماذرائيين (المادرائيين) مثل أبي بكر محمد بن علي المادرائي، والحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور، وقد عرف منهما شيئاً كثيراً عن شئون مصر المالية.[٢٢]

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن أسرة الماذرائيين[٢٣] (المادرائيين) هي أسرة فارسية الأصل تنسب إلى ماذرايا أو مادرايا وهي قرية من أعمال البصرة وقيل من أعمال واسط، ولم تصل هذه الأسرة إلى الثورة والسلطان إلا بسبب نزوح كثير من أفرادها لمصر. وقد أتيح لبعض أفرادها ولاية عدد من الوظائف الرئيسة في زمن الطولونيين، كالإشراف على الأموال والخراج مثل أحمد بن إبراهيم الماذرائي الذي ولي خراج مصر سنة ٢٦٦هـ.[٢٤] وكانت الأسرة الماذرائية تهدف إلى السيطرة على معظم مناطق الإدارة في مصر وظل الماذرائيون يتمتعون بنفوذ كبير في مصر عصر الدولة الطولونية وحتى قامت الدولة الإخشيدية.

عقبات في طريق الإخشيد

عقب ذلك تقلد محمد بن طغج حكم الحوفين الشرقي والغربي من قبل تكين، وحدث أثناء ولايته هذه أن استولى على دار القاضي وعزل عن قضائها، كما أظهر شراهة كبيرة في جميع المال وعمل على مصادرة الأغنياء واستولى على أملاكهم. ومن هنا بدأت العلاقة تسوء بينه وبين والي مصر، ثم شعر محمد بن طغج بدقة موقفه وخشي أن يغضب تكين ولي نعمته لأنه لم ينل هذا المنصب بوسطاته فيعمل على منعه من مغادرة مصر، ولذلك سعى أحد معارفه في بغداد ودبر له ولاية الرملة بالشام، ثم حصل ولاية دمشق، واستطاع في النهاية أن يحصل من الخليفة الراضي بتقليد ولاية مصر.[٢٥]

(٢٢) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٤٦.

(٢٣) الماذرائيين مفردها الماذرائي وهذه النسبة إلى ماذرايا وهي قرية بالبصرة ينسب إليها الماذرئيون كتاب الطولونية بمصر قال ياقوت: والصحيح أن ماذرايا قرية فوق واسط من أعمال فم الصلح. (معجم البلدان)، وجاءت بالأصل: المادرائيين بالدال المهملة. وراجع ما ورد تفصيلاً عن الماذرائيون لدى:
سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ٣٧ – ٥٢.

(٢٤) سيدة كاشف، نفس المرجع، ص ٣٨.

(٢٥)محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

موقف عامل الخراج من الإخشيد: [٢٦]

حين جاء محمد بن طغج إلى مصر سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م لقي مقاومة شديدة من عامل الخراج محمد بن علي الماذرائي، ولكنه استطاع التغلب على هذه المقاومة بالاستعانة بالوزير العباسي الفضل بن جعفر بن الفرات[٢٧] الذي كان يبادل الماذرائيين العداء المستحكم. وحدث أن الخليفة العباسي الراضي بالله (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م – ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) قد بعث الفضل بن جعفر لتفقد أحوال مصر والشام وجباية خراجها، فلما جاء مصر قبض على محمد بن علي الماذرائي، وصادر أمواله وضياعه، ثم خرج إلى الشام في جمادى الأول سنة ٣٢٤هـ/ ٩٤٥م، ومعه الماذرائي مقبوضاً عليه. وبذلك تخلص الإخشيد في بداية عهده من منافس خطير كان يتحكم في إدارة البلاد وأموالها.

موقف الإخشيد من محمد بن رائق:[٢٨]

اضطر الإخشيد للقتال في الشام من أجل توحيد سلطانه، وفي ذلك الوقت ظهر شخص يدعى "محمد بن رائق" واضطر الخليفة العباسي الراضي إلى تقليده إمارة الجيش وولاه خراج جميع البلاد الإسلامية التابعة للخلافة، كما أمر أن يخطب له على المنابر في أنحاء العالم الإسلامي. واتسع سلطان ابن رائق في الأقاليم المتاخمة لولاية الشام فبدأ في تهديد الإخشيد ومطالبته بمال كأنه جزية على الممتلكات الإخشيدية في الشام. وقلق ابن طغج أشد القلق من هذه الحالة، فأشار عليه بعض معاونيه أن يسترضي ابن رائق بالأموال ليكف شره عنه، وذلك استنادًا إلى ما أمر الله رسوله من أن يعطي المؤلفة قلوبهم ويجعل لهم سهمًا في الصدقات حتى يكفوا آذاهم. ولكن المطالبة بالأموال لم تكن إلا حجة أراد ابن رائق أن يتذرع بها للاستيلاء على الشام من يد الإخشيد.

فلما دفع الأخير الأموال المطلوبة لم ير ابن رائق بدًا من أن يكشف عن نواياه الحقيقية، وهكذا خرج إلى الشام على رأس جيش كبير لحربه، ولكن الإخشيد انتصر على بن رائق وقد

---

(٢٦) الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص ١٢٨ – ١٢٩.

(٢٧) هو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة. ويذكر ابن خلكان أن حنزابة – بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء – وهي أم أبيه الفضل بن جعفر، هكذا ذكره ثابت بن قرة في تاريخه، والخزابة في اللغة: المرأة القصيرة الغليظة. وقد كانت ولادته ثلاث خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلثمائة، وتوفي يوم الأحد ثالث عشر صفر، وقيل: في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وثلثمائة بمصر، رحمه الله تعالى، وصلى عليه القاضي حسين بن محمد بين النعمان، ودفن في القرافة الصغرى، وتربته بها مشهورة.

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ تحقيق إحسان عباس.– نسخة إلكترونية متاحة بموقع مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة على شبكة الإنترنت: (www.al-madinah.org)

(٢٨) الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص ١٢٩.

تكررت الاشتباكات بينهم وقد كان النصر حليف الإخشيد، ورغم ذلك فقد كان هذا الأخير البادئ بطلب الصلح على أن يحكم ابن رائق الولايات الشمالية شمالي الرملة، وعلى أن يحكم الإخشيد ما يقع في الجنوب، وعلى أن يدفع الإخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار. وكان من مظاهر هذا الصلح أن تصاهر الفريقان فزوج الإخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق.[٢٩]

وبعد عودة محمد بن طغج من الشام على أثر عقد صلحه الثاني مع ابن رائق، وردت الأخبار في شعبان سنة ٣٢٩هـ بوفاة الخليفة الراضي وبيعة أخيه المتقي بالله ووصل كتاب الخليفة الجديد في شوال بإقرار الإخشيد على مصر. وفي رمضان سنة ٣٢٩هـ تم اغتيال ابن رائق، وكتب الخليفة للإخشيد فخرج من مصر وسار إلى الشام ووصل إلى دمشق، وضم الشام لولايته وبالغ الإخشيد في إظهار إمارات الخضوع والإجلال للخليفة. ويبدو أن الخليفة سُر بإخلاص الإخشيد وهداياه فقال له: "قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة"،[٣٠] وهكذا حصل الإخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وحق توريث إماراتها لأبنائه من بعده.

صراع بني حمدان والإخشيد:

وفي تلك الآونة؛ كان أمر بني حمدان[٣١] في حلب قد اشتد وبدأ الصراع بينهم وبين الإخشيد، فقد سار سيف الدولة الحمداني نحو الشام وهزم جيشاً بقيادة كافور، ثم اتجه سيف الدولة جنوباً واستولى على دمشق، فاضطر الإخشيد أن يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف استطاع به أن يسترد دمشق، وهزم سيف الدولة في حمص وقنسرين، واستولى على حلب حاضرة الحمدانيين. وعلى الرغم من النصر الذي حققه الإخشيد، إلا أنه عقد معاهدة صلح مع سيف الدولة، وبذلك كُتب النصر للإخشيد وظلت ولايته على مصر والشام خلال عهد المتقي والمستكفي ثم المطيع. وفي خلافة المطيع مات الإخشيد بدمشق في ذي القعدة سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، بعد أن حكم مصر والشام نحو إحدى عشرة سنة وبلغ من العمر ستة وستين عامًا. ويبدو أنه قضى السنة الأخيرة من حكمه في الشام يدبر أمورها بعد أن استقر السلام بينه وبين سيف الدولة.

---

(٢٩) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٤٨. سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ٨٣.

(٣٠) إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ.- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨. مصدر الكتاب الوراق، ومتاح بالموسوعة الشاملة على الإنترنت: (www.islamport.com)

(٣١) الحمدانيون: هم أسرة عربية علوية تنتسب إلى قبيلة تغلب وهي من القبائل العدنانية من عرب الشمال، وهذه الأسرة استطاعت وسط الفوضى والاضطرابات والفساد الذي عم الخلافة العباسية أن تقيم لنفسها ملكًا في بلاد الجزيرة، وكانت عاصمتهم الموصل وأميرهم أبو محمد الحسن ناصر الدولة. وقد اشترك الحمدانيون في الأحوال السياسية في بغداد التي كانت بين الأتراك والخليفة مما جعل لهم مركزاً سياسيًا إبان تلك الفترة.

محاولة محمد بن طغج التشبه بأحمد بن طولون

من الأمور التي كان الإخشيد معروف بها أنه كان شديد الإعجاب بأحمد بن طولون، وحريصًا على التشبه به في مظهره ومواكبه و بلاطه، فقد كان بلاط الإخشيد مجمعًا للعلماء والأدباء، يصلهم بعطاياه ويشملهم برعايته ويستمع إلى أحاديثهم ولكنه لم يستطع أن يصل إلى درجة ابن طولون وثقافته وعلمه. ومن الأمور التي كان الإخشيد يقلد فيها ابن طولون أنه كان إذا ذهب إلى صلاة الجمعة في الجامع العتيق أبعد الناس عن المقصورة. ولكن شتان بينهما، لأنه كان بشعًا محب للمال لا بعد الحدود، فتذكر المصادر أنه لما عاد إلى مصر بعد فراغه من قتال بن رائق، دعاه محمد بن علي الماذرائي مع حاشيته ورؤساء جنده إلى مأدبة كبيرة أقامها تكريمًا لهم، وجمع لذلك المغنيين والمغنيات وأحضر ما لذ وطاب من الطعام والشراب، فضلاً عن العطر الطيب. كما نصب فيها بين يدي الإخشيد التماثيل من الكافور والعنبر، فأظهر الإخشيد سروره بهذا كله وأراد الماذرائي أن يزيد الحفلة بهاء فحمل إلى الإخشيد صنيتين كبيرتين إحداها مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم لينثر هذا المال بين الحاضرين، ولكن الإخشيد أخذ صينية الدنانير واكتفى بنثر الدراهم.

وعلى غرار ما فعله أحمد بن طولون لتعزيز سياسته الداخلية والخارجية، أسس الإخشيد جيشاً قوياً من أجل المحافظة على نفوذه في مصر والشام، كما سار على نفس سياسة بن طولون، وهي تقربه من المصريين واكتساب ودهم، والفوز بولاء الأقباط الذين كانوا لا يزالون في ذلك الوقت قوة يحسب لها حساب.[(٣٢)] كما حاول الإخشيد نفس المحاولة التي قام بها أحمد بن طولون من قبل، وهي نقل الخلافة العباسية إلى مصر. وكانت تلك المحاولة عام ٣٣٣هـ عندما استبد الأمراء الأتراك بالخليفة المتقي بالله (٣٢٩ – ٣٣٣هـ)، فالتقي به الإخشيد في الشام، وأظهر له بالغ الاحترام والتقدير، ودعاه إلى ترك بغداد والإقامة في مصر، فقال الإخشيد للخليفة: "يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم، فالله في نفسك! سر معي إلى الشام ومصر فهي لك، وتأمن على نفسك[(٣٣)]"، ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه، ورفض عرض الإخشيد. [(٣٤)] ومما لا شك فيه؛ أن الإخشيد أراد من وراء نقل الخلافة العباسية إلى مصر أن يقوي دولته التي أسسها بمصر والشام.[(٣٥)]

---

(٣٢) أحمد إبراهيم الشريف، حسن احمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي.- الطبعة الخامسة.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢، ص ٤٣٨.

(٣٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

(٣٤) الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص ١٣٠.

(٣٥) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي.- د.ط.- بيروت: دار النهضة العربية، د.ت، ص١٤٣.
فشل مشروع نقل الخلافة إلى مصر للمرة الثانية، وبقى معطلاً إلى أن حققه الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م

ولاية أبي القاسم "أونوجور"

يقال أن محمد بن طغج الإخشيد قد عقد قبل وفاته لولديه أونوجور [٣٦] وعلي من بعده، و لم يكن أبي القاسم قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره عندما ولي الحكم، ولذلك فقد خضع لوصاية كافور طبقاً لوصية الإخشيد. إلا أن كافور لم يتيح لأونوجور أية فرصة لإظهار مزاياه أو عيوبه، بل أصبح يدعى له على المنابر كلها إلى جانب أبي القاسم، وكان على أبي القاسم أن يكتفي بالنفقات أو المخصصات التي قدرها له الكافور وقدرها ٤٠٠ ألف دينار في العام.

وقد استمر هذا الحال على ذلك حتى بلغ أبى القاسم من الرشد فأراد أن ينفرد بشئون الحكم، وبالتالي بدأ يظهر سخطه علانية بل وأخذ أبي القاسم التدبير للخروج إلى الرملة والاستعداد إلى مناوئة كافور، وانقسم الجند إلى طائفتين: الكافوريةويناصرون كافورا والإخشيدية ويناصرون أونوجور، ولكن والدة أونوجور كانت لا تثق في قوة أبنها وتخشى عليه من بطش وقوة كافور. ولهذا أسرعت بالكتابة إلى ابنها تخوفه من سوء العاقبة وأعلمت كافور بأن أبنها ينوي الرحيل عن مصر. وكتب كافور إلى أبي القاسم وصالحه وإن كان كافور قد احتفظ بكل سلطاته وبدأ يدبر أمور الدولة الإخشيدية إلى أن مات أبي القاسم سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م. وقد قيل أن كافور دس له السم وكان السبب في وفاته إلى أن تولى بعده علي بن الإخشيد، وكانت مدة ولاية أبي القاسم أونوجور على مصر أربعة عشر عامًا.[٣٧]

علي بن الإخشيد ووصاية كافور

خلف أبى القاسم في حكم مصر أخوه علي بن الإخشيد، فزاد نفوذ كافور وظل الأمير الجديد ينفق المخصصات التي كانت لأخيه من قبل ولا أمر له في شئون الحكم، على الرغم من أنه كان عند ولايته الحكم في الثانية والعشرين من عمره. بل إن كافور لم يكن يتركه يظهر للشعب أو يجتمع بغير ندمائه إلا معه، ويبدو أن علي بن الإخشيد انصرف إلى اللهو الشراب فترة من الزمن ثم تاب عن شرب النبيذ ولزم الصلاة وقراءة القرآن.

وقد حاول علي بن الإخشيد القيام بنفس المحاولة التي سبق أن قام بها أبى القاسم، فقد حاول أن يُنحي كافور عن تدبير أمور الدولة، فلم يفلح لضعف شخصيته وقلة أنصاره بعد أن قويت شوكة كافور وأصبح صاحب الأمر والنهي في كل شيء. وقد كان من أثر هذه المحاولة أن فسدت العلاقة بينه وبين كافور، واستطاع الأخير أن يمنع الناس من الاجتماع بابن الإخشيد إلى أن مات سنة ٣٥٥هـ وقيل أن كافور دس له السم كما فعل مع أخيه من قبل.

---

(٣٦) أي المحمود حسب زعم بن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، وقد كُتبت في بعض المراجع القديمة " أنوجور" وفي مراجع أخرى "أونجور". سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ١٢٥ هامش (١).

(٣٧) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٥٣.

ولاية الأستاذ أبو المسك كافور

بعد وفاة علي بن الإخشيد ظلت مصر أيامًا بغير أمير، ولم ينصب كافور واليًا على البلاد لأنه لم يكن صاحب حق شرعي من الإخشيد، وكان لا يدعى على المنابر إلا للخليفة العباسي "المطيع" (٣٣٤ – ٣٦٣هـ)، ذلك أن كافور رفض أن ينصب أحمد بن علي الإخشيد الذي لم يبلغ من العمر سوى التاسعة من عمره. وانتهى الأمر إلى استيلاء كافور على الحكم، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه قد تنصب الحكم بأمر مرسوم من الخليفة العباسي فتم الدعاء له على المنابر واحتفظ لنفسه بلقب "الأستاذ أبو المسك كافور" (٣٨) والغريب هنا أن الخلافة العباسية لم تحتج من أخذه للحكم، لأنها اعتادت أن تراه يقوم بتدبير جميع أمور مصر منذ وفاة محمد بن طغج الإخشيد.

كان كافور يعرف باسم "اللابي" نسبة إلى إقليم اللاب الذي يقع في النوبة، وعُرف أيضًا بالليث حسب قول ياقوت في معجم البلدان، وقد أجمع المؤرخون أنه كان عبد أسود بصاص "أي براق لامعًا"، خصيًا، قبيح الشكل، ثقيل الوزن (البدن)، قبيح القدمين مثقوب الشفاه.(٣٩) وقد اختلفت المصادر في تحديد مولد كافور وأشار البعض أنه ولد في عام ٢٩٢هـ، وأشار البعض الآخر أنه قد ولد في عام ٢٩٧هـ، وذهب فريق ثالث من المؤرخين للاعتقاد أن مولده كان في عام ٣٠٨هـ على أساس أنه جلب لمصر وكان يبلغ من العمر أربعة عشر عام وبذلك يستدل أنه ولد عام ٣٢٢هـ وهذا هو الأرجح.(٤٠)

وكذلك تختلف المصادر التاريخية عن كيفية وصول كافور لبلاد الإخشيد، فأشارت بعض الروايات أن كافور جُلب لمصر مع بعض العبيد الآخرين من مواطنيه فبيع لتاجر من تجار الزيت، وقيل أيضًا أن الذي ابتاعه هو محمد بن هاشم وهو أحد أصحاب الضياع في مصر، الذي باعه بدوره إلى محمود بن وهب بن عباس الكاتب، ثم اشتراه منه محمد بن طغج الإخشيد بثمانية عشر دينارًا.(٤١)

وقد قص المؤرخين أنه عندما جلب إلى مصر مر على السوق ومعه عبد أسود آخر فقال هذا العبد: "كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكون طول عمري شبعان من المطابخ"، فقال

---

(٣٨) كان لقب الأستاذ في بعض الأحيان لقباً للوزراء فكان ابن العميد يلقب به، وكان كافور يلقب به قبل توليته إمارة مصر، والراجح أنه أصبح لقباً له منذ عهد إليه الإخشيد بتربية ولديه.
سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ١٢٧ هامش (٢).

(٣٩) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٥٤.

(٤٠) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)

(٤١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٥٤٥. المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٦.

كافور: "وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة". وبعد أن بلغ كافور الملك مر يومًا على السوق فرأى زميله القديم في ثياب الطباخين وهو يحرك القدر فضحك وقال: "أدرك كل واحد ما أمله".[٤٢]

الواقع أن؛ ذكاء كافور كان أحد الأسباب في احتواء محمد بن طغج له، فلقد ظلت منزلة كافور عند محمد بن طغج في ارتفاع حتى أصبح أقرب المقربين له، فاهتم بتربيته وتنشئته، وتلقى كافور في بلاطه التمرس على مختلف شئون الحكم والإدارة، وأصبح من كبار قواد محمد بن طغج فعهد له الإخشيد بتربية أولاده. وعمل كافور على القضاء على الفتنة التي ثارت في مدينة دمشق بهدف نهب خزائن الإخشيد، وقد حافظ كافور على القسط الكبير من هذه الأموال عن طريق وضعها في أكياس وألقاها في بركة ماء وظلت هناك حتى سكنت الفتنة. كما وكل إليه الإخشيد قيادة جيشه أثناء قتال سيف الدولة الحمداني Saif al-Dawlah.[٤٣]

وقد استطاع كافور أن يقضى على ثورة والي الأشمونين، حيث أن هذا الوالي استبد وخرج عن الطاعة ووصل به الحال أنه دخل مدينة الفسطاط واستولى على دار الإمارة. مما اضطر كافور إلى الخروج وراءه حتى الشرقية بعد أن شغل الناس بهذه الثورة واضطربت الأمور في ذلك الوقت وأحد من المصريين لم يستطع الذهاب إلى الحج.[٤٤] مجمل القول، أن كافور استطاع المحافظة على كيان الدولة ضد الطامعين فيها من الشرق والغرب، ولولاه لانتهت الدولة الإخشيدية بوفاة محمد بن طغج، والدليل على ذلك أن مصر سقطت في أيدي الفاطميين بعد وفاة كافور بعام واحد.[٤٥]

---

(٤٢) الأمر الذي لا شك فيه هنا؛ أن وصول كافور لأرقى المناصب كان الدافع الرئيسي وراء العديد من الأساطير والروايات التي نسجها حوله بعض المؤرخين. إلا أن قصة كافور الإخشيدي من عبدٍ يباع ويُشترى في سوق النخاسة إلى حاكم لمصر وعلامة بارز فيها، تدل على أن القناعة بقدرات الذات وإمكانياتها هي بداية الطموح: كريم الشاذلي، أفكار صغيرة لحياة كبيرة.- الطبعة الأولى.- القاهرة، دار أجيال للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.

(٤٣) سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ - ٣٥٦هـ/ ٩١٥ - ٩٦٧م). علي بن عبدالله بن حمدان التغلبي الرَّبعيّ، أبوالحسن، سيف الدولة، وصاحب الدولة الحمدانية. ولد في ميافارقين بديار بكر. ونشأ شجاعًا عالي الهمة، وسط صراعات بين الروم والمسلمين، وعرف ما يريده الروم. وملك واسطَ بالعراق وما جاورها وامتلك دمشق وحلب سنة ٣٣٣هـ، ٩٤٤م، وأصبحت قاعدته. ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم والأدباء والشعراء. وقَصَدَه الشاعر أبو الطيب المتنبي وخلَّد ذكره وذكر وقائعه الكثيرة مع الروم. وله أخبار كثيرة مع الشعراء أمثال أبي فراس الحمداني. وكانت أشهر وقائعه مع الروم وكانت الحرب بينهما سجالاً، استشهد فيها معظم أبناء البيت الحمداني. توفي سيف الدولة بحلب ودفن في ميَّافارقين. يقول فيه المتنبي:

واحر قلباه ممن قلبه شبم ** ومن بجسمي وحالي عنده سقم

مالي اكتم حبا قد برى جسدي ** وتدعي حب سيف الدولة الأمم

(44)Gaston Wiet, “l’Égypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane”, dans Histoire de la Nation Egyptienne/ sous la direction de Gabriel Hanotaux.- Le Caire, 1938. (Vol. 4, P. 140).

(٤٥) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٥٦.

ومما لاشك فيه؛ أنه قد تهيأ لكافور كثير من صفات الزعامة التي استطاع بفضلها أن يسود على الرغم من أصله الوضيع. وعلى رأس هذه الصفات معرفته الناس وأساليب معاملتهم، وأخذ بعضهم باللين وبعضهم الآخر بالشدة، واصطناع الحلم حينا وإظهار الغضب حينا أخر، والتوفيق بين أصحاب التيارات المختلفة والأهداف المتباينة.

ومن سياسة كافور في كسب قلوب الشعب أنه كان يجل أهل البيت ويكرم العلويين أعظم الإكرام. ويروي في هذا الصدد أنه كان يسير يوماً مع أبي جعفر مسلم ابن عبيد الله بن طاهر العلوي النسابة، وهو في موكب وبين يديه بعض حاشيته وخلفه بغال عليها بعض الأمتعة والمال، فسقطت مقرعة كافور ولم يرها أحد من حاشيته وخدمه فنزل العلوي عن دابته وأخذ المقرعة من الأرض ودفعها إلى كافور، فقال كافور: أيها الشريف، أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت هذا، وكاد يبكي. فقال العلوي: أنا صنيعة الأستاذ ووليه. ولما بلغ كافور باب قصره ودع العلوي ثم أرسل خلفه كل ما كان على البغال من مال ومتاع وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار.(٤٦)

ويذكر ابن خلكان في هذا الشأن قصة لكافور مع عبد الله بن أحمد بن على بن إبراهيم ابن طباطبا، وكان من أغنياء العلويين في العصر الإخشيدي ومن عاداته أن يبعث إلى كثير من أهل مصر بهدايا من الحلوى في شتى المناسبات. وكان يرسل إلى كافور كل يومين صحنين من الحلوى ورغيفا في منديل مختوم. فحسده بعض الأعيان وقال لكافور أن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لا يليق، فأرسل كافور إلى الشريف العلوي يسأله أن يعفيه من الرغيف، فأدرك الشريف أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له: "أيدك الله، إنا لا ننفذ الرغيف تطاولا ولا تعاظما، وإنما هي صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله على سبيل التبرك فإذا كرهته قطعناه" فقال كافور: "لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتي سواه" وعاد العلوي إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف.(٤٧)

ومن طريف ما كتبه المؤرخين عن سياسة كافور ما نقله أبو المحاسن عن الذهبي حين قال: "كان خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية. كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه. وكذا يذعن بالطاعة ابني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر".(٤٨)

(٤٦) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ١٣٣.

(٤٧) الشيخ عباس القمى، الكنى والألقاب / تقديم محمد هادي الأميني.- نسخة إلكترونية متوفرة بمكتبة تراجم الرجال: الجزء الثاني (http://www.alhuda5.com/books/rijal)

(٤٨) وقد قام الفاطميون نتيجة لذلك بإتباع أساليب كثيرة، فتارة يكتفون بمراقبة أوضاع مصر ونشر الدعوة لأنفسهم فيها، وأخرى يسفرون عن عدائهم فيرسلون جموعاً من جنودهم يعيثون في أراضيها. أنظر: الموسوعة العربية، مادة "الإخشيديون".- نسخة إلكترونية: (http://www.arab-ency.com)

وقد خلف الأمراء الإخشيديون لكافور أموالا طائلة فزاد عليها وأظهر ما طبع عليه من الجود والكرم ، وقيل أنه وقع يوما لأحد القواد بعطاء قدره أربعة عشر ألف دينار فما زال عبدا له حتى مات. وذاع صيت بلاطه وعطاياه وقصده أصحاب الحاجات وأعلام الشعراء والأدباء. وحسبنا شاهد على حياة البلاط في عصره ما قيل من أن سماطه كان في اليوم الواحد مائتي خروف كبار، ومائة خروف رميس، ومائتين وخمسين أوزة، وخمسمائة دجاجة، وألف طير من الحمام، ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال، ومائتين وخمسين قربة من شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون ويسمى أقسما.(٤٩)

ويقال أنه كان لكافور خزانة شراب كان يفرق منها في الحاشية كل يوم خمسين قربة من مختلف أنواع الأشربة، وأن قاضي أسيوط كان يهدي إلى كافور كل عام خمسين ألف سفرجلة تعمل شراب سفرجل. وقد يكون في هذا الإحصاء شيء من المبالغة ولكنه يشهد بما عرف عن بلاط كافور من الكرم والعظمة. وقيل إن كافور كان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل من المال في صرر مكتوب على كل صرة اسم من جعلت له من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج. (٥٠)

وكان لكافور في بلاطه ألف وسبعون من الغلمان الترك وألفان من الغلمان الروم وكان له غلمان آخرون من المولدين والسودانيين، وكان عدد غلمان بلاطه كلهم أربعة آلاف غلام. ويقال إن كافور خلف في خزانته بعد وفاته ما قيمته نحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة، وإنه كان يرسل كل عام المال والطعام والثياب مع ركب الحجاج ليوزع في الحجاز على أولاد رسول الله ﷺ

ويذكر أن كافور كان كريما حتى مع أعدائه ومن لا يستحقون منه العطف والتقدير. ومما يروي في هذا الصدد أن واعظا في مصر كان يقص على الناس فقال يوما في قصصه: انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين: ابن بويه ببغداد وهو أشل، وكافور عندنا بمصر وهو خصي. فنقل إلى كافور قول هذا الواعظ وظنوا أنه يعاقبه، ولكنه أرسل إليه خلعة ومائه دينار وقال: "لم يقل هذا إلا لجفائي له" وكان الواعظ يقول بعد ذلك في قصصه: "ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة، لقمان وبلال المؤذن وكافور".

ويذكر أبو المحاسن أن كافور كان يداوم الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول: اللهم لا تسلط على مخلوقا. وكان كافور قويا شديد الساعد لا يكاد أحد يمد قوسه. وكان غروره واعتزازه بنفسه في هذه الناحية من مواطن الضعف فيه فكان يرضى عمن يظهر العجز عن منافسته في الرمي ويعبس لمن يجرأ على

(٤٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، نسخة إلكترونية متوفرة بموقع الوراق: (www.alwaraq.net)
(٥٠) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ١٣٤ – ١٣٥.

الاستهانة بتفوقه أو يطمع في مساجلته. وكان مغرما بالخروج إلى الصيد.(٥١) وكان لكافور شهرة عظيمة في فنون القتال أشار إليها الشعراء في مدائحهم له، فلا عجب إذا فخر الفاطميون بالاحتفاظ بسيفه في خزائنهم.

ويروي بعض المؤرخين أنه كان يحن إلى موسيقى السودانيين، وإنه مر ذات يوم بجماعة منهم وهم يطلبون الطبل السوداني المعروف بالدبدبة فطرب لذلك كافور ونسى نفسه وحرك أكتافه على ألغام الدبدبة، ثم تذكر نقد الناس لحركاته هذه فأخذ يهز أكتافه في مناسبات كثيرة كي يظن الناس أنه لم يهزها في ذلك المكان بسبب الدبدبة بل كان ذلك عادة عنده. وقيل إن كافور كان له في قصره جوار مغنيات.

وحرص كافور على أن يكون بلاطه مجمع العلماء والأدباء وأن يفوق في هذا الميدان بلاط الخليفة وبلاط سيف الدولة. فكان الأدباء والمؤرخون يقرأون له كتب السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وكان له نظر في الأدب والعلم وفروع اللغة العربية. وقرب أيضًا الأدباء والشعراء ونذكر هنا ما كان بينه وبين الشاعر المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ/ ٩١٥-٩٦٥م) الذي ذكر في مدحه عدة قصائد. وتذكر بعض المصادر المعاصرة أن المتنبي صرح قبل دخوله لمصر سنة ٣٤٦هـ بأنه لا يقصد العبد كافور وإنما مولاه أبو القاسم، ورغم هذا رحب به كافور وخصص له دار وخلع عليه وحمل إليه مالاً كثيرًا. فقال المتنبي في مدحه قصيدة منها:

قَواصِدَ كافُورٍ تَوارِكَ غيرِهِ ... ومَن قَصَدَ البَحرَ استَقَلَّ السَّواقيا
فجاءَتْ بنا إنسانَ عينِ زمانِهِ ... وخَلَّتْ بَياضاً خَلفَها ومآقيا
أبا كُلِّ طِيبٍ لا أبا المِسكِ وَحدَهُ ... وكُلَّ سَحابٍ لا أخُصُّ الغَواديا
إذا كَسَبَ الناسُ المَعالِيَ بالنَّدى ... فإنَّكَ تُعطِي في نَداكَ المَعاليا
وغيرُ كثيرٍ أنْ يَزُورَكَ راجِلٌ ... فيَرجِعَ مَلْكاً للعِراقَينِ واليا

وقد ظل المتنبي في بلاط كافور يمدح كافور القصيدة تلو الأخرى، وكان يطمع في أن يتولى أحد أقاليم الدولة، ولكن كافور كان سياسيًا داهية وأديبًا بارعًا، فأدرك مقاصد المتنبي وجعله يتأرجح بين اليأس والأمل، فلم يكن يأمن لرجل أدعى النبوة، مما دفع المتنبي لمقاطعة بلاط كافور قرابة عام. وتمثل هذه المرحلة ديوانًا شعريًا عُرف بالكافوريات، وقد رحل المتنبي عن مصر بعد أن هجا كافور في عدة قصائد من أشهرها قصيدته التي مطلعها:

عِيدٌ بأيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عِيدُ ... بِما مَضَى أمْ لأمرٍ فيكَ تَجديدُ

(٥١) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ١٣٧ – ١٣٨.

زوال الدولة الإخشيدية

على الرغم من أن كافور كان كثير الدهاء والعزم إلا أن عناصر الفناء أخذت تتسرب في أركان الحكم وظهرت أمارات الذبول على الدولة، واشتدت الأزمات الاقتصادية وعم الغلاء والوباء، ويقال إن مصر فقدت من أبنائها في تلك المحنة زهاء ٦٠٠ ألف نفس، وساد الضجر والقلق والسخط وانحط الأخلاق، وانتشر الفساد والانحلال بين أفراد الطبقة الحاكمة حتى ليروي المقريزي في "الخطط" تلك القصة التي يستدل بها على شيوع الفساد، وخلاصتها أن أم الأمراء زوجة الخليفة المعز لدين الله بعثت من تونس إلى مصر بفتاة لكي تباع في سوق الرقيق، فعرضها وكيلها في السوق وطلب فيها ألف دينار، فأقبلت إليه امرأة أنيقة على حمار وساومته في ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هي ابنة الإخشيد حاكم مصر، وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان.(٥٢)

وعندما عاد الوكيل إلى تونس حدّث المعز لدين الله بأمرها، فدعا المعز شيوخ القبائل المغاربة وروى الوكيل لهم حادث الصبية، وعندئذ قال المعز: يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم فانهضوا بنا إليهم.(٥٣)

الجدير بالذكر؛ أنه بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م (٥٤) اجتمع رجال الدولة وولوا عليهم أبو الفوارس أحمد بن علي وكان حبيسًا في الحادية عشرة من عمره، ودعي له على المنابر عام ٣٥٧هـ، ثم من بعده الحسين بن عبيد الله كان ابن عم أبوه وتولى أموره والواصي

(٥٢) جمال بدوي، الفاطمية، ص ٤٤ – ٤٥.

وهذه إشارة عن "السحاق Lesbianism أو المثليّة الجنسيّة " في تاريخ وادي النيل، فقد كانت ابنة الإخشيد سحاقية تميل إلى الصبايا الحسان جنسياً أو عاطفياً. وقد استعملت في الماضي كلمة سحاقيات لأنهن يسحقن أي يضغطن أثداء وأعضاء بعضهن أثناء ممارسة الجنس، وأصل الكلمة إغريقي يعود إلى جزيرة لسبوس Lesbos حيث كانت مسقط رأس الشاعرة اليونانية صافو Sappho التي كانت تمارس السحاق مع النساء اليونانيات في القرن السادس قبل الميلاد. لمزيد من التفاصيل راجع:

سمر حبيب، المثلية الجنسية عن النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها.- الطبعة الأولى.- حيفا: أصوات، ٢٠٠٨.

Stephen O. Murray and Will Roscoe, Islamic Homosexualities: Culture, History and Literature.- New York: New York University Press, 1997.

(٥٣) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.- نسخة إلكترونية من الكتاب غير موافقة للمطبوع.- مصدر الكتاب الوراق، ومتاح بالموسوعة الشاملة على الإنترنت: (www.islamport.com)

(٥٤) حكم مصر زهاء سنتين وأربعة أشهر. ويذكر أبو المحاسن أنه دفن في بيت المقدس، أما ابن خلكان فيذكر انه دفن في القرافة الصغرى بمصر. سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ١٣٢.

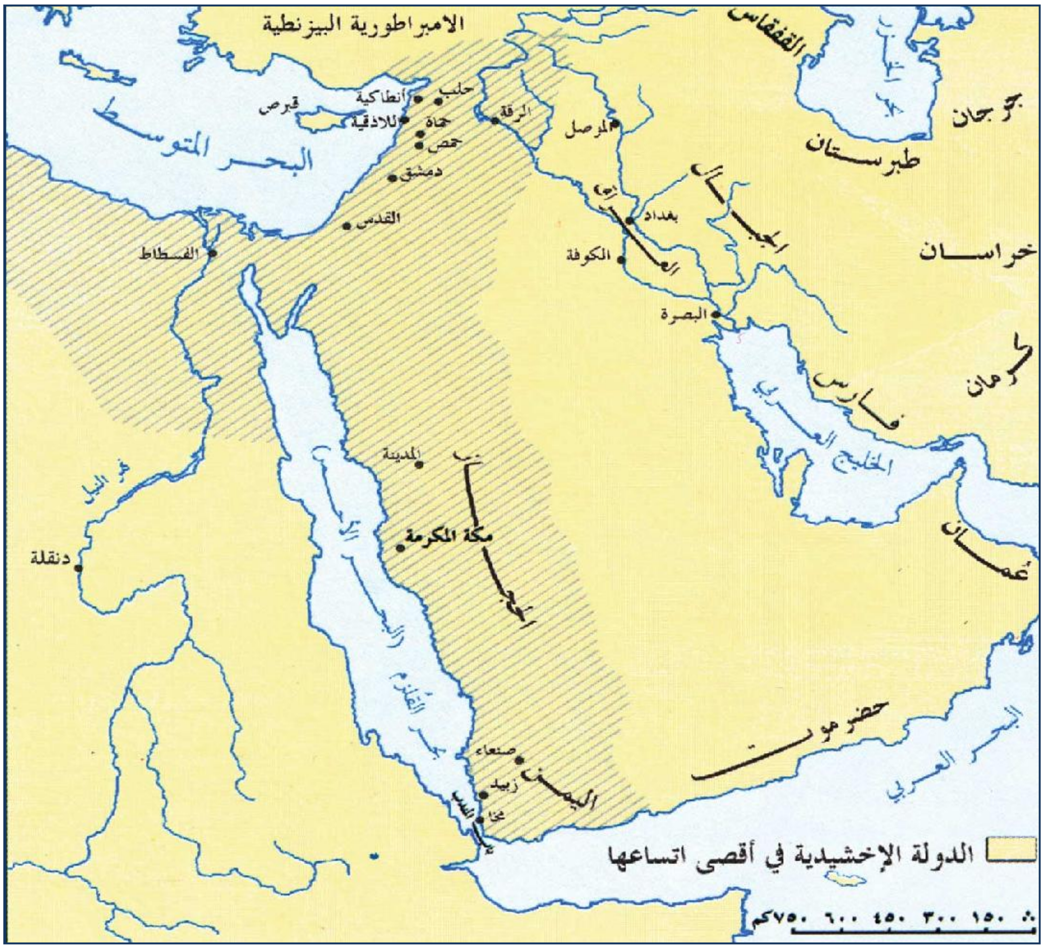
عليه أبو الفضل جعفر بن الفرات، وقد أساء هذا الوزير التصرف وقام بمصادرة الناس، مثل يعقوب بن كليس كان من أثراء الناس من اليهود وبرز شأنه في عهد الدولة الفاطمية، فيعقوب هذا فر للمعز بن دين الله الفاطمي وأخذ يحرضه لدخول مصر، واستطاع الفاطميين أن يدخلوا مصر فاتحين بقيادة جوهر الصقلي أو الصقلبي، وانتهت الدولة الإخشيدية ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

ومن الممكن تلخيص أسباب سقوط الدولة الإِخشيدية بما يلي:

(١) الخلافات بين أفراد الأسرة الإِخشيدية، وتنافسهم فيما بينهم على الوصول إلى عرش الإمارة، إلى جانب اختلاف القواد على تولي أمر الجند، وترقب بعضهم الإيقاع ببعض، مما أدى إلى فرار قسم كبير من الجنود من مصر إلى الشام.

(٢) ارتفاع الأسعار واضطرابها، وندرة السلع وانتشار الأوبئة، واستمرار ذلك مدة حددها الأنطاكي خلال الفترة ٣٥٣- ٣٥٧هـ/ ٩٦٤- ٩٦٨م، في حين ذكر المقريزي أنها دامت تسع سنين متتابعة، ابتداءً من سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م.

(٣) عانت الدولة الإِخشيدية من كثرة الحروب التي اضطرت إلى خوضها، فحين جاء الفاطميون وجدوا البلاد في حالة شديدة من الضعف، فسهل عليهم تحقيق هدفهم في القضاء على الدولة الإِخشيدية وضمها إلى أملاكهم.



مظاهر الحضارة في العصر الإخشيدي

انقسم الناس في العهد الإخشيدي بحسب الثروة إلى فئتين، فئة غنية وفئة فقيرة. وتضم الفئة الأولى أفراد الأسرة الإخشيدية، وبعض التجار الأغنياء والمُلاك، وطبقة الأشراف من العباسيين والطالبيين والعلويين، الذين كان لهم نصيب في المدن الكبرى. وقد عاشت هذه الفئة عيشة كلها إسراف في الطعام والشراب واللباس، يرتدون الفراء الفاخرة. ويتطيبون بالعنبر. وكانت مجالسهم حافلة بالمغنين والمغنيات، والجواري الحسان. وكانوا يبالغون في الإسراف في حفلاتهم، فينثرون النقود على الحاضرين، وكانوا يقومون برياضة الصيد وسباق الخيل، ويجمعون الخيول الأصيلة المدربة.

وكان يحيط بأفراد هذه الفئة عدد كبير من المماليك والغلمان والأتباع، كما كان لهم حجاب يحجبونهم عن الناس، وحراس لحمايتهم. وأكثر ما يشير إلى ترف هذه الطبقة مواكبهم التي كانوا يسيرون فيها، فقد كان الإخشيد يسير وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس، وبين يديه الشمع والمشاعل.أما فئة العامة، فلا يكاد يسمع عنها شيء. ويبدو أنها كانت تعيش على هامش الحياة، تقبل بما يصل إليها. وكانت هناك صلة بين الفئتين تتمثل فيما يصل من إنعام الفئة الغنية إلى الفئة الأخرى، فقد كانت كثرة منهم تغدق الخير والإحسان على الفقراء والمحتاجين، وكان لمحمد بن علي الماذرائي ديوان كبير يشرف على نحو ستين ألف محتاج تجري عليهم الأرزاق. وقد عاش أهل الذمة عيشة جيدة، وسيطروا على الشؤون المالية في البلاد. فاغتنوا، ووصل بعضهم إلى أرقى درجات السلم الاجتماعي.

وقد زخر العصر الإخشيدي بطائفة من الأدباء والعلماء والفقهاء، وكان هؤلاء يلتقون علية القوم في مجلس الأمراء، كما كانوا يلتقون في المساجد للمناظرة وبحث المسائل الفقهية والأدبية، ولاسيما في مسجد عمرو بن العاص وغيره، كما كانوا يلتقون في قصر الإخشيد.

تصدر الأدباء الكاتب إبراهيم بن عبد الله بن محمد البجيرمي الذي أنشأ الكتاب المرسل إلى الإمبراطور البيزنطي رومانوس، وسيبويه المصري المتوفى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، وقد كان إلى جانب مكانته الأدبية نديماً فكهاً، فقد جالس أونوجور بن الإخشيد، والحسين بن محمد الماذرائي. أما الشعراء فقد كان على رأسهم أحمد بن الحسين المتنبي الذي كان له موقف مع كافور. وأبو القاسم أحمد الرسي بن طباطبا، وولداه القاسم بن أحمد، وإبراهيم بن أحمد، وابنه الحسين بن إبراهيم، وكذلك عبد الله بن محمد ابن أبي الجوع، وصالح بن مؤنس. ومما يؤسف له ضياع معظم الشعر في العصر الإخشيدي, وما وصل منه يدل على إقبال الناس في هذا العصر على اللهو والمجون، ووصف الطبيعة وجمالها.

وقد اشتهر من النحويين أحمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م صاحب كتاب «الانتصار لسيبويه»، وكتاب «المقصور والممدود» وأبو جعفر النحاس الذي ألف في علوم اللغة والأدب وتفسير القرآن، وتوفي سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م. أما المحدثون فكان منهم أحمد بن عمرو الطحان المتوفى سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٥م، وحمزة ابن محمد بن علي العباسي الكناني المتوفى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م، وسعيد بن عثمان المتوفى ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م، ومحمد بن علي بن حسن المصري المتوفى ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م.

أما الفقهاء فمنهم ابن الحداد أبو بكر محمد ابن أحمد (ت٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) وأبو عبد الله الحسين بن أبي زرعة الدمشقي (ت٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) ومحمد بن إبراهيم المعروف بابن سكرة (ت٣٤٢هـ/ ٩٥٣م) ومحمد بن يحيى بن مهدي الأسواني (ت٣٤٠هـ/ ٩٥١م) وأبو إسحق محمد بن القاسم بن شعبان (ت ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م).

وقد اشتهر من المؤرخين عبد الرحمن بن أحمد ابن يونس الصدفي (ت٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) وأبو عمر محمد بن يوسف الكندي (ت٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، وابنه عمر بن محمد الكندي، والحسن بن إبراهيم بن زولاق (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م).

استمرت الصناعات النسيجية القطنية والكتانية بالازدهار، وكانت المراكز الرئيسة لهذه الصناعة في تنيس وشطا ودبيق ودمياط فضلاً عن الفرما والإسكندرية والبهنسا والأشمونين وأخميم وأسيوط. واستمر تزيين المنسوجات في هذا العصر بالزخارف التي استعملها النساجون في الأزمنة السابقة. وقد حملت قطع النسيج التي وصلت من العصر الإخشيدي أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم، وأصحاب الطراز، وتاريخ النسيج أحياناً، إلى جانب عبارات مختلفة، تتضمن تمنيات ودعوات. وازدهرت في هذا العصر صناعة الخزف، وصناعة الحفر في الخشب، على حين تدهورت صناعة ورق البردي. ولم يطرأ جديد على الزراعة، فالمزروعات استمرت كما كانت في العصور السابقة، والري بطريق الحياض. كما استمرت التجارة الإخشيدية في تقدمها، وكانت أسواق مصر والشام عامرة بالبضائع.

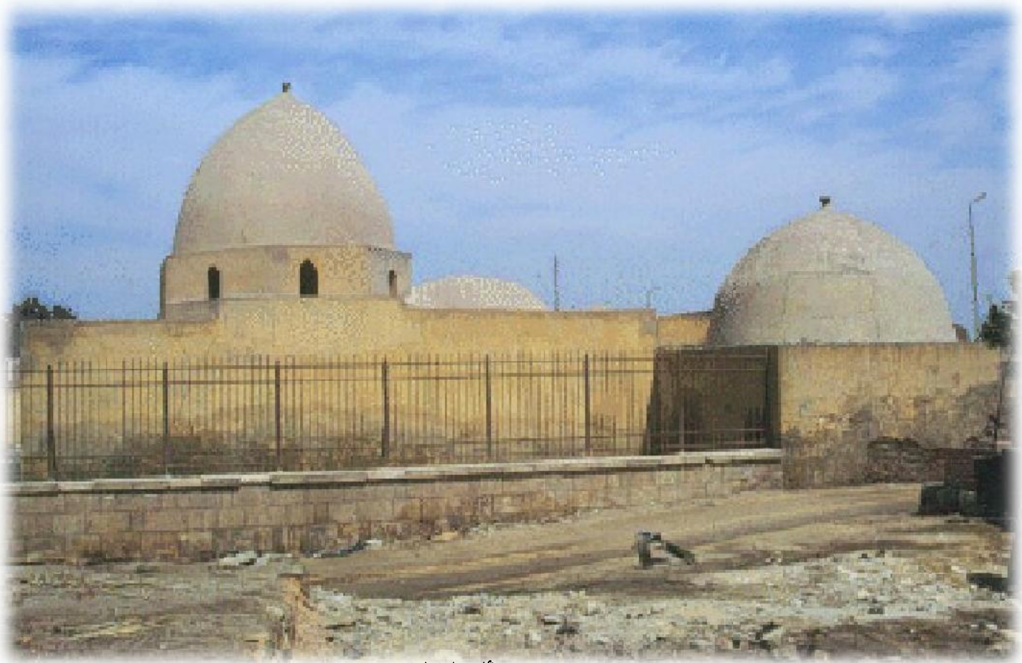
امتاز العصر الإخشيدي بآثار عمرانية مدنية ودينية، على رأسها قصر المختار وقصر البستان من تشييد الإخشيد. والبستان الكافوري ودار الفيل من تشييد كافور. فقد أنفق الإخشيديون بسخاء على المساجد من أجل فرشها وإنارتها، فبنى أبو الحسن علي بن الإخشيد مسجداً في الجيزة، وبنى كافور مسجد الفقاعي في سفح جبل المقطم، وبنى الوزير ابن الفرات مسجد موسى في المنطقة نفسها. (٥٥)

(٥٥) أنظر عمائر الدولة الإخشيدية:
أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٦١ – ١٦٥.

كما اهتم الإِخشيديون بالأبنية العامة، فقد أنشأ محمد بن طغج الإِخشيد قيساريات كثيرة، أشهرها قيسارية لبيع المنسوجات، كان دخلها يحبس على البيمارستان الأسفل. وبنى كافور بيمارستاناً سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، وأنشأ الوزير جعفر بن الفرات سبع سقايات لسكان الفسطاط لجلب الماء من منطقة جزيرة الروضة.

وعلى الرغم من تشييد العديد من العمائر في العصر الإخشيدي، إلا أن لم يصلنا منها سوى مشهد أل طباطبا الذي يرجع إلى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٣م. وهو يقع على بعد (٥٠٠) متر غربي مشهد الإمام الشافعي، وعلى نحو (٢٣٠) متر شمالي حمامات عين الصيرة بالقاهرة. ويتخذ ضريح آل طباطبا شكل مستطيل غير منتظم (العرض ٢٠م – الطول ٣٠م)، ويقع باب مدخله في جانبه الشمالي الشرقي؛ وإلى اليسار منه بناء جديد مربع الشكل تعلوه قبة. ويحتوي ذلك البناء على بئر يمد الضريح بالمياه. ويتصل جدار غرفة البئر ببناء مستطيل الشكل؛ مقسم إلى مسطحات مربعة ومستطيلة مغطاة بقباب وأقبية، ويضم المصلى ثلاثة أروقة محملة على صفين من الدعامات.[٥٦]

وقد أشار إلى هذا المشهد ابن الزيات في كتابه الكواكب السيارة، وذكر أسماء المدفونين في المشهد من آل طباطبا. ويعتبر كرويل أول من وصف هذا المشهد وصفاً معمارياً دقيقاً وأوضحه بالرسوم والصور.[٥٧]



مشهد أل طباطبا

(٥٦) ضريح أل طباطبا، موقع مصر الخالدة: (www.eternalegypt.org)

(٥٧) موقع المسالك: (www.almasalik.com)

التجربة الإخشيدية [٥٨]

في الواقع؛ إن تاريخ الدولة الإخشيدية يتمثل في تاريخ محمد بن طغج مؤسسها ثم تاريخ كافور تابعه وتلميذه في السياسة. إلا أن التوفيق لم يكن حليف محمد بن طغج فانقضت السنوات دون أثر، ذلك أنه لم يكن للإخشيديين أثناء فترة حكمهم بمصر أي عناية حقيقة غير جمع الأموال بفضل أسرة الماذرائيين. وقد ظل الإخشيديين يجلبون مال مصر كل سنة نحو أثنين مليون من الدنانير، وقد تشدد الإخشيديين في ذلك وأرهقوا الناس بالضرائب، فكان الجباة يستخرجون الأموال من الناس عن طريق فرض الضرائب على الأراضي البور، ولم يتورع الإخشيد عن مصادرة الأموال، وإن كان كافور قد كف عن ذلك ولكن أسلوب المصادرة بعد وفاة كافور أتبعه الوزير أبو الفضل الذي أصرف في جمع الأموال.

يمكن القول؛ أن التجربة الإخشيدية قد أتاحت للشعب المصري عدد من السنوات قضاها بعيدًا عن العواصف التي هزت أرجاء الدولة العباسية، مثل: غارات القرامطة التي شقيت بها أراضي الجزيرة العربية والعراق والشام، وغارات الدولة البيزنطية على حدود المملكة الإسلامية من الشمال، في حين ظلت الأمور في مصر هادئة تجرى فيها على العادة.

في الحقيقة؛ هناك أوجه تشابه بين الدولتين الطولونية والإخشيدية، فهما أول تجربتين هامتين في تاريخ مصر الإسلامية، تجربة الاستقلال الذاتي وتكوين دولة لها كل مقومات الدول، بعد قرون طويلة من التبعية سواء بعد فتح العرب أو قبله. كما أن عمر الدولتين متقارب، وقد قامتا على كتف رجلين طموحين استطاعا بالمجهود والكفاءة السياسية والمقدرة الحربية أن يحققا ما يريدان.

لكن؛ إذا كانت البلاد قد شهدت في عهد الدولة الطولونية نهضة عمرانية ورخاء مدى وأمنا، فذلك على العكس من الدولة الإخشيدية التي لم تخلف ورائها أثر عمراني، فلم يكن محمد بن طغج هذا على ثقافة واتساع أفق ذهن أحمد بن طولون ولم يرزق من مواهبه أي شيء، أضف إلى ذلك جشعه وحبه لجمع الأموال وقلة تعففه وتطلعه إلى ما في أيدي الناس. ومع ذلك فإن الدولة التي أقامها الإخشيد في مصر، أتاحت للشعب المصري أن يعيش فترة من الزمن في هدوء واستقرار، بعيداً عن الفوضى والفتن التي انتابت الخلافة العباسية.[٥٩]

---

(٥٨) محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.– القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة).

أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر، ص ١٦٠ – ١٦١.

إبراهيم الابياري، أبو المسك كافور.– الطبعة الأولى.– القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٢. ص ١٠١ – ١٠٤.

(٥٩) موسوعة تاريخ مصر: مصر الإخشيدية / إعداد هشام الجبالي.– القاهرة، المكتب العربي للمعارف، ١٩٩٤. ص ٦٤٦.

الخاتمة

وصفوة القول وقد وصلت الدراسة إلى مداها:

أولاً: عانت مصر كثيراً تحت الحكم الروماني ومن بعده البيزنطي من تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي انعكست بدورها على النظام الإداري الذي اتسم عماله بالفساد والاستبداد، وقد حاول بعض الأباطرة إصلاح الفساد الإداري بمصر، ولكنهم فشلوا في هذه الإصلاحات التي لم يكن الهدف منها إلا المزيد من التحكم وإتاحة الفرصة لاستغلال ثروة مصر لصالح الخزانة الإمبراطورية.(١)

ثانياً: إن قصة الفتح الإسلامي لمصر من أشد حلقات التاريخ المصري إثارة، ليس بسبب ما صاحب الفتح من أحداث ومعارك، وإنما بسبب ما نتج عنه من آثار هائلة في البنية المصرية من حيث الدين واللغة والثقافة.(٢)

تُشير كلمة الفتح في معناها الجزري إلى الحملات المظفرة التي قادها الرسول ﷺ وصاحبته الكرام تحت راية الإسلام. لكن المصطلح بهذا المعنى لا يفيد الاحتلال بمعناه الحرفي والمادي، بل يشير أولاً إلى انفتاح القلب والعقل على حقيقة الإسلام، كما يشير ثانيًا إلى تغير في صيغ التاريخ يسّر لرسالة الإسلام التغلب على العقبات والوصول إلى قلوب الناس وعقولهم. أما كون تلك الفتوحات قد قامت على عمليات ذات طبيعة عسكرية، أو ترافقت معها، فهو أمر يتصل بذلك الجانب من الفتوحات بوصفها أحداثًا في التاريخ الدنيوي. لكن المغزى من الفتوحات كان يرتفع فوق تلك العمليات لأن الدنيا لم تكن جزءًا من الغاية على الإطلاق، من أجل ذلك كان المسلمون على استعداد للإبقاء على السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على سابق عهدها. ولم يكن يعنيهم سوى الوصول إلى قلب عدوهم وعقله وإقناعه بحقيقة الإسلام. وإذا لم يقتنع المخاطب، فكل ما كان يطلبه المسلمون أن يتاح لهم الوصول إلى آخرين لإقناعهم. ولم يكن لعروش الدنيا وعَرَضها المادي أي معنى في عيونهم، التي كانت ملأى بالرؤية الإسلامية من محبة الله وتنفيذ إرادته.(٣)

(١) صفاء حافظ، الإدارة المحلية، ص ٩١.

(٢) جمال بدوي، أقباط ومسلمون، ص ٣٠ – ٣١.

(٣) إسماعيل راجي الفاروقي، ولوس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية/ ترجمة عبد الواحد لؤلؤة/ مراجعة رياض نور الله.- الطبعة الأولى.- الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨. ص ٢٩٣.

ثالثاً: لم تكن مصر دولة ذات سيادة عند فتح العرب لها، وإنما كانت واقعة تحت سيطرة البيزنطيين، وهو ما يعني من الناحية الشرعية أن المصريين لم تكن لهم إرادة في أمرهم. والواضح أن فتح العرب لمصر كان عنوة وصلحاً في نفس الوقت، فهو عنوة من زاوية العلاقة بين العرب والبيزنطيين، وهو صلح إذا نظر إليه من زاوية العلاقة بين العرب والأقباط. والواقع أن مساعدة الأقباط للعرب كانت وضعاً طبيعياً، وذلك لأن الأقباط لم ينعموا بالحكم البيزنطي وإنما وقعوا تحت طائل من العذاب، سواءً كان بسبب اقتصادي وهي الضرائب الباهظة التي فرضت عليهم، أو بسبب ديني وهو الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له. لذلك قاموا بمساعدة العرب أملاً في وضع أفضل أو حتى إذا لم يكن أفضل، فلم يكن أسوء من الوضع الذي كانوا فيه بالفعل.(٤)

رابعاً: كان ولاة مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين من العرب، وقد أعطى الخلفاء الأمويين لعمالهم على الولايات قسطا كبيرًا من الحرية والاستقلال فظهر في مصر ولاة لهم سلطان الملوك مثل عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان. وقد تغير الحال في العصر العباسي فنجد بين ولاة مصر مَن هم من عناصر فارسية، وكان آخر وال عربي على مصر هو عنبسة بن اسحق (٢٣٨ – ٢٤٢هـ)، أما أول ولاة مصر من الترك فكان يزيد بن عبد الله التركي (٢٤٢ – ٢٥٣هـ).

وقد تميز حكم العباسيين في مصر بكثرة تغيير الولاة، وقد يكون هذا الأمر راجعًا إلى بعد مقر الخلافة العباسية، أعني بغداد وسامرا، عن مصر فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر في الحكم طويلاً لئلا يطمعوا في الاستقلال بالبلاد، وقد يكون ذلك راجعًا أيضاً إلى ضعف نظام الخلافة العباسية وإلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقي بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية وخاصةً منذ عهد المعتصم، ولذا اهتم هؤلاء الخلفاء بتولية ولاة كثيرين في مدد متقاربة قصيرة حتى لا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة.

ويبدو من المصادر الإسلامية والمسيحية في تاريخ عصر الولاة أن الهدف الرئيسي الذي كان يُعنى به العرب هو الجزية التي كان يجمعونها من القبط. وكان دخل البلاد يذهب إلى بيت المال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئاً كثيراً. فكانت البلاد في عصر الولاة أشبه بمزرعة كبيرة تستغل من قبل الخلافة لغرض أساسي هو جباية أكبر دخل ممكن.

(٤) هويدا رمضان، مصر الإسلامية، ص ٨٤ – ٨٥.

خامساً: سارت عملية "الأسلمة والتعريب" في مصر جنباً إلى جنب، ويحدد المؤرخون أمرين كان لهما أكبر الأثر في هذا المجال، الأول قرار الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين[٥] Arabicization of the Diwans والسكة سنة ٧٨هـ، فقد اجبر هذا الأمر كثيراً من أقباط مصر ممن كانوا يتولون هذه الوظائف، على تعلم اللغة العربية ليحتفظوا بوظائفهم في دواوين الحكومة. الأمر الثاني، قرار الخليفة العباسي المعتصم بطرد العرب من الدواوين سنة ٢١٦هـ،[٦] فتساوى بذلك العرب والأقباط وزالت الحواجز بين الجانبين وعندئذ انتشر العرب بين الأهالي وزاد اندماجهم في الحياة العامة بمصر.

فقد أضحت اللغة العربية أكثر انتشاراً في مصر مع قدوم الإسلام خاصةً منذ أن كانت هناك لغة مصرية واحدة . وكانت اللغة القبطية هذه لغة محدودة وغير رسمية، إلي جانب وجود اللغة اليونانية الرسمية وحينئذ قدمت اللغة العربية إلى مصر بدءاً من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري واللغة العربية لغة غنية ومتكاملة يستطيع الناس أن يعبروا بها عن كل ما يجيش في صدورهم، فأصبحت اللغة العربية لغة الديوان ولغة التعليم. وبقدوم القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري بدأ الكتاب الأقباط في مصر في الكتابة باللغة العربية مما يوضح أن اللغة العربية أضحت هي اللغة المنتشرة بين هؤلاء الكتاب. وقد فقدت اللغة القبطية أهميتها تماماً خلال القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، فنجد الكتاب الأقباط مثل سعيد ابن البطريق، وساويرس الأشموني اللذان كتبا بالعربية مع أن كتاباتهما موجهة للأقباط. وفي غضون ٤٠٠ سنة من الفتح الإسلامي، تخلت مصر نهائياً عن لغتها القومية واتخذت العربية لغة لها.[٧]

---

(٥) علي أحمد، دراسة بعنوان "مظاهر التعريب في العصر الأموي".- مجلة التعريب: العدد (٢٠)، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠.- دمشق: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٠.

(٦) كانت الدولة العباسية تناصب العنصر العربي – الذي قامت عليه الدولة الأموية – العداء لحساب العنصر الفارسي والأعجمي المتميز.

(٧) غزت جيوش الخلافة مصر سنة ٦٤٠م وقطعت العلاقة التي كانت تربطها بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، وبذلك أصبحت مصر جزءاً من دار الإسلام. إلا أن العملية التي أصبح بها المصريون مسلمين يتكلمون العربية تمت بالتدريج. إذ جاء انتشار الإسلام عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين الإسلام جنباً إلى جنب، إلا أن انتشار اللغة العربية كان أشمل وأتم من انتشار الديانة فهي لغة الأهلين كافة – المسلمين والمسيحيين – على السواء.

محمد شفيق غربال، تكوين مصر عبر العصور.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠. (سلسلة تاريخ المصريين ٤٢، ص ٩٣).

سادساً: كان النصف الأخير من القرن الثالث الهجري بداية فصل جديد في تاريخ مصر الإسلامية فقد شهد نهاية التبعية السياسية المطلقة، ورأى ميلاد الاستقلال كما تصوره المسلمون في العصور الوسطى، فقد ظهر بنو طولون في مصر وحققوا لهذه البلاد الاستقلال الذي تحقق لكثير من الأمصار الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً. وكان هذا العصر من ناحية أخرى بداية الاندماج بين التقاليد العربية والتقاليد المحلية، أو بمعنى آخر شهد ميلاد حضارة مصر الإسلامية بالمعنى المفهوم.

فقد قامت في مصر على يد أحمد بن طولون أول دولة عربية إسلامية مستقلة، ولم يكن يربطها بالخلافة سوى بعض المظاهر الشكلية وهي: الدعاء للخليفة في خطبة يوم الجمعة، ونقش اسم الخليفة على السكة "النقود"، إرسال جزء من الخراج "الدخل" لدار الخلافة. وعلى الرغم من قصر عمر هذه الدولة (٣٨) سنة إلا أنها كانت تمثل الانتقال من عصر التبعية إلى عصر الاستقلال، من عصر الوالي الذي يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم إلى عصر الحاكم القوي الواسع السلطان الذي يسنده الشعب والجيش والأسطول، والذي يعمل بما فيه لخير والمصلحة للبلد وأبنائه. فقد تمتعت مصر والشام في أيام أحمد بن طولون بكل مميزات الاستقلال في الحكم والإدارة، وشعر الناس في عهده بالرفاهية والاستقرار، فانتعشت بذلك كل مرافق البلاد.

في الحقيقة؛ كان أحمد بن طولون حاكماً مستبداً مستنيراً، اتصف بالقسوة والميل إلى سفك الدماء لتوطيد ملكه، إلا أن هذه القسوة كانت تنطوي على قلب إنساني رقيق. يظهر ذلك جلياً في بكائه الشديد عند الموعظة، وفي الأحلام المعجزة التي كانت تنتابه بكثرة، وفي كثرة الصدقات التي كان يتصدق بها على الناس الفقراء، وفي حبه لسماع الموسيقى والغناء.[٨]

سابعاً: من الملاحظ؛ أننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن أسرة الإخشيد ولا عن البيئة التي نشأ فيها، أو نوع التربية التي تلقاها في صباه. وحسبنا أنه كان من أولئك الجند الترك الذين حفل بذكرهم تاريخ الدولة العباسية منذ عصر المعتصم والذين استطاع نفر منهم أن يشق لنفسه الطريق وان يتحكم في مصير الأقاليم الإسلامية، وأن يظهر إلى أي حد يمكن لحاكم قوي بشخصيته وعبقريته أن يفيد من الجيوش المؤلفة من العناصر المختلفة الجنس وأن يصل إلى السلطان السياسي والحربي في إمبراطورية إسلامية اتسعت أرجائها حتى أصبح من العسير على الخلفاء الضعفاء أن يحتفظوا بنفوذهم فيها.[٩]

(٨) العبادي، العباسي والفاطمي، ص ١٣٥
(٩) سيدة كاشف، الإخشيديين، ص ٦٦.

فقد قامت الدولة الإخشيدية في مصر على يد محمد بن طغج الإخشيد وهو من أصل تركي، وهي ثاني دولة مستقلة بعد الدولة الطولونية. ولم يمارس الإخشيديون حكمهم بوصفهم أقلية مميزة بل أو أجانب عن مصر، بل حرصوا على الانتماء إليها، واتخذوها وطنا لهم، ونهضوا بشئونها.[١٠] إلا أن سنوات هذه الدولة الأربع والثلاثون انقضت وكأنها ظل مر على حائط دون أن يخلف أثراً [١١]، ذلك أنه لم يكن للإخشيديين أثناء حكمهم في مصر عناية حقيقية إلا بشئون المال. إذ تشدد الإخشيديون في ذلك وأرهقوا الناس بالمغارم والجبايات حتى كان الجباة يستخرجون من الناس ضرائب على الأراضي البور.

لم يقدر للدولة الإخشيدية أن تعيش طويلاً، فقد أهمل رجال الدولة صيانة المرافق حيث توالت على البلاد الغلوات، وانتشرت الفوضى والمجاعات والأوبئة في أواخر عهدها. وفي السنة التي استولى فيها الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م كانت حالة البلاد على حافة الخراب.

ثامناً: بقى أن نشير إلى أمر هام وهو؛ أن المصالح السياسية ومحاولة الاستيلاء على السلطة من أهم أسباب المصاهرات السياسية في مصر في العصور الوسطى، فقد لعب الزواج السياسي دوره بوصفه وسيلة اجتماعية لتحقيق أهداف سياسية. فقد مر بنا زواج ابنة خمارويه «قطر الندى» من الخليفة المعتضد "المكتفي بالله"، وزواج ابنة الإخشيد «فاطمة» من "مزاحم بن محمد بن رائق" ، حيث كانت المصلحة السياسية هي الدافع المحرك وراء الزواج، الذي تم بدوره لحصر امتيازات السلطة، وكسب ود الدول المجاورة، وصولاً إلى تأمين الحدود.

تمت

(١٠) الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٠٧.
(١١) حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٦.



قائمة المصادر والمراجع

المدونات التاريخية الكبرى[1] "المصادر المطبوعة والإلكترونية"

١- ابن الأثير: عز الدين محمد ابن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ.- دار الكتاب العربي، ١٩٩٧. (الجزء السابع)

٢- ابن الجوزي: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان/ تحقيق إحسان عباس.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٥.

٣- ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة/ تحقيق إبراهيم علي طرخان.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٦٣. (الجزء الأول)

كما تم الاعتماد على نسخة إلكترونية متوفرة بمكتبة التراث الإسلامي: (www.al-eman.com)، ونسخة إلكترونية متوفرة بموقع الوراق: (www.alwaraq.net).

٤- ابن خلكان: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ تحقيق إحسان عباس.- نسخة إلكترونية متاحة بموقع مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة على شبكة الإنترنت: (www.al-madinah.org)

٥- ابن دقماق: إبراهيم محمد أيدمر العلائي ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٣٠٩هـ. (الجزء الرابع)

٦- ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله ، فتوح مصر وأخبارها/ تحقيق محمد الحجيري.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦.

كما تم الاعتماد على نسخة أخرى من تحقيق محمد صبيح.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١.

٧- أبي عبد الله الجهشياري: أبو عبد الله محمد ابن عبدوس ، الوزراء والكتاب.- بيروت: الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٨٨.

٨- البلوى: (أبو محمد عبدا لله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدني)، سيرة أحمد بن طولون/ تحقيق وتعليق محمد كرد علي.- دمشق: المكتبة العربية، ١٣٥٨هـ.

٩- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. (نسخة إلكترونية، موقع الوراق:www.alwarraq.com)

١٠-الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ، تاريخ الأمم والملوك.- القاهرة: المطبعة الحسينية.(الجزء التاسع.)

---

(١) صاحب هذا المصطلح الكاتب والباحث الفاضل الدكتور عبد العزيز غوردو، أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية، أكاديمية الجهة الشرقية - وجدة (المملكة المغربية).

١١-الجبرتي: عبد الرحمن بن حسن برهان الدين، عجائب الآثار في التراجم والأخبار.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٢٩٧هـ.
١٢-القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٩١٤. (الجزء الثالث)
١٣-الكرمي: مرعي بن يوسف، نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين/ دراسة وتحقيق أميرة فهمي دبابسة.- عمان: جامعة الأردن، د.ت. (رسالة ماجستير غير منشورة)
١٤-الكندي: أبو يوسف يعقوب بن اسحاق ، كتاب الولاة وكتاب القضاة.- بيروت، ١٩٠٨. وكذلك نسخة إلكترونية متوفرة بموقع: (www.islamweb.net)
١٥-المقدسي: محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.- الطبعة الثانية.- ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩.
١٦-المقريزي: أحمد بن علي ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. (نسخة إلكترونية : www.al-eman.com). وأيضاً نسخة إلكترونية من الكتاب غير موافقة للمطبوع.- مصدر الكتاب الوراق، ومتاح بالموسوعة الشاملة على الإنترنت: (www.islamport.com)
١٧-المقريزي: أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار / تحقيق محمد زينهم ومديحه الشرقاوي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧. (الجزء الأول).
وتم الاعتماد على طبعة بولاق، ١٢٧٠ هـ . (الجزء الرابع). وطبعة بولاق.- القاهرة ١٢٧٢ هـ. (الجزء الأول). وأيضاً الجزء الأول (نسخة إلكترونية: www.al-eman.com).

المقالات والأبحاث والدراسات العربية "المطبوعة"

١٨-جمال الشيال، تكوين الشعب المصري الجديد بعد الفتح العربي.- مجلة الثقافة / السنة السابعة.- العدد (٣٣٤)؛ مايو ١٩٤٥.
١٩-جمال بدوي، دراسة بعنوان "شخصية المقوقس".- جريدة أخبار اليوم.- السبت ١٠أبريل ١٩٩٩.
٢٠-سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة.- مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة.- العدد الأول؛ مايو ١٩٥٩. (المجلد ٢١، ص ٧٥)
٢١-السيد الباز العريني، الحسبة والمحتسبون في مصر.- المجلة التاريخية المصرية.- المجلد الثالث/ العدد الثاني؛ أكتوبر ١٩٥٠.
٢٢-عبد الحليم عويس، "الفتح الإسلامي لمصر"، المنار الجديد، عدد يناير سنة ١٩٩٨

٢٣-علي أحمد، دراسة بعنوان " مظاهر التعريب في العصر الأموي".- مجلة التعريب: العدد (٢٠)، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠.- دمشق: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٠.

٢٤-فهمي هويدي، مقال بعنوان " قدرنا أن نعيش معاً!" .- جريدة الأهرام.- العدد ٤٠٩٠٢؛ أول ديسمبر١٩٩٨.

٢٥-محمد الششتاوي أستاذ الآثار الإسلامية والقبطية: مجلة آخر ساعة.- العدد ٣٩١٢؛ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

٢٦-محمد عمارة، طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر.- حراء: مجلة علمية ثقافية.- العدد (٦) يناير - مارس ٢٠٠٧.

٢٧-نبيل بباوي، مقال بعنوان "دلالات وشائج الوحدة الوطنية".- جريدة الأهرام.- العدد ٤١٧٣٧؛ ١٥مارس٢٠٠١.

٢٨-نبيل لوقا بباوي،"هل أحرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندرية".- جريدة الأهرام المصرية/ قضايا و آراء.- العدد ٤٢٦٥٤ بتاريخ ١٨ سبتمبر ٢٠٠٣م.

٢٩-نجم عبد الكريم، زواج قطر الندى الأسطوري.- جريدة الشرق الأوسط.- العدد ٩١٦٨ بتاريخ ٤ يناير ٢٠٠٤.

المقالات والأبحاث والدراسات العربية "الإلكترونية"

٣٠-" القاهرة أعرق مدنيات الشرق" / مجلة مصر.- العدد (٤١) صيف ٢٠٠٦. إصدارات الهيئة العامة للاستعلامات (*http://www.sis.gov.eg/Ar/Story.aspx?sid=3598*)

٣١-"الفسطاط ميناء إسلامي وترسانة"، موقع مصر الخالدة.- متاح بتاريخ ٢ سبتمبر ٢٠٠٩ على الرابط: (*www.eternalegypt.org*)

٣٢-"النظام القضائي في الحضارة الإسلامية"، موقع مقالات إسلام ويب.- منشور بتاريخ ٦ يوليو ٢٠٠٨ على الرابط: (*http://www.islamweb.net/media/index.php*)

٣٣-الأب أنطون فؤاد، الأقباط تحت الحكم الإسلامي: الجزء الأول.- موقع كنيسة الإسكندرية الكاثوليكي.- متاح بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٩ على الرابط: (*www.coptcatholic.net*)

٣٤-أبو عبيدة، نظرات في تاريخ الأقباط.- منتديات الجامع الإسلامية.- متاح بتاريخ ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٧ على الرابط: (*http://www.aljame3.net/ib/*)

٣٥-أحمد تمام، "ابن طولون ودولته في مصر والشام".- إسلام أون لاين نت.- ١/ ١/ ٢٠٠٠ على الرابط: (*www.islamonline.net*)

٣٦-أحمد تمام، مقال بعنوان " عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية".- إسلام أون لاين.- منشور أول يناير ٢٠٠٠ على الرابط: (www.islamonline.net)

٣٧-أحمد تمام، مقال بعنوان " فتح مصر.. أرض الكنانة"، موقع إسلام أون لاين، منشور بتاريخ ١ يناير ٢٠٠٠ على الرابط: (*http://www.islamonline.net*)

٣٨-أحمد حردان، " فن العمارة العباسية في مصر"/ مدونة الشامل للتاريخ والفن الإسلامي.- منشور بتاريخ ٢٤ كانون الأول ٢٠٠٧: (*http://ahmad-hardan.maktoobblog.com*)

٣٩-أحمد صبحي منصور، الوريث خمارويه الطولوني بين الترف والتلف.- صحيفة الحوار المتمدن.- العدد ٢٦٦١ منشور بتاريخ ٢٥ مايو ٢٠٠٩ على الرابط: (*www.ahewar.org*)

٤٠-أحمد صبحي، اضطهاد الأقباط في مصر بعد الفتح، موقع أهل القرآن، على الرابط: (*http://ahl-alquran.com*)

٤١-أسامة عكاشة، مقال بعنوان " هل ما زالت المحروسة.. محروسة؟" ، منشور بجريدة الوفد على الرابط: (*www.alwafd.org*)

٤٢-إسراء محمد عبد ربه، مكتبة الإسكندرية الملكية.- دورية كان التاريخية.- العدد الأول: سبتمبر ٢٠٠٨. ص ٢٩ – ٣٤. (*www.historicalkan.co.nr*)

٤٣-الأشتر النخَعَي.. حياته وشعره/ مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث، على الرابط:(*http://www.tishreen.shern.net*)

٤٤-أشرف صالح محمد ، سيرة الحمام الزاجل التاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع؛ يونيو ٢٠٠٩ . ص ٧٨ – ٨٣ (*www.historicalkan.co.nr*)

٤٥-أشرف صالح، مقال بعنوان "الحكمة الطولونية في مصر".- جريدة شباب مصر: أول جريدة إلكترونية يومية مصرية.- منشور بتاريخ ٢٩ فبراير ٢٠٠٨.- متاح على الرابط: (*www.shbabmisr.com*)

٤٦-أشرف عبد القادر، هل رحب الأقباط بعمرو بن العاص.- صحيفة الحوار المتمدن.- العدد ١٤٧٢؛ ٢٥ فبراير ٢٠٠٦. (*www.ahewar.org*)

٤٧- الأنبا بفنوتيوس، ناظر الإله الإنجيلي القديس مرقس الرسول: القديس والشهيد.- موقع مطرانية سمالوط للأقباط الأرثوذكس.- منشور بتاريخ ٨ مايو ٢٠٠٩ على الرابط:(*www.samaloutdiocese.com*)

٤٨-حسين البربري، المصريون: صحيفة يومية مستقلة، ١ فبراير ٢٠٠٩.(*www.almesryoon.com*)

٤٩-خالد عزب، أقدم مساجد مصر الأثرية: مسجد أحمد بن طولون.- تراث الحضارة الإسلامية.- متاح بتاريخ ٢١ يونيو ٢٠٠٩ على الرابط: (*http://hoics.com/abhath.htm*).

٥٠-راغب السرجاني، أثر الفتح الإسلامي على أوضاع الأقباط.- موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ٥ فبراير ٢٠٠٨ على الرابط: (*www.islamstory.com*)

٥١-راغب السرجاني، دوافع فتح مصر.- موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ١٨ يونيو ٢٠٠٧ على الرابط: (*http://www.islamstory.com/article.php?id=707*)

٥٢-راغب السرجاني، مصر في عهد عمرو بن العاص.- موقع قصة الإسلام:(*www.islamstory.com*)

٥٣-شريف عبد المنعم، مقال بعنوان " الفسطاط: جولة مع عمرو بن العاص".- موقع إسلام أون لاين/ تراث وحضارة.- منشور بتاريخ ٨ مارس ٢٠٠٩ على الرابط:(*www.islamonline.net*)

٥٤-شفيق جاسر، العهدة العمرية.- مجلة الجامعة الإسلامية في المدنية المنورة، متاح على الرابط: (*www.iu.edu.sa/magazine*)

٥٥-شكري شيخاني، مقال بعنوان: الرايات والأعلام.- منشور بموقع دنيا الرأي.- متاح بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠٠٤ على الرابط: (*http://pulpit.alwatanvoice.com/content-10591.html*)

٥٦-عادل جندي، مقال بعنوان "التفسير الجحاوي للتاريخ (٢)".- جريدة إيلاف: يومية - إلكترونية.- منشور بتاريخ ١٧ يوليو ٢٠٠٤ على الرابط: (*http://www.elaph.com*)

٥٧-عادل جندي، مقال بعنوان "الثور الناطح والبقرة الحلوب".- جريدة إيلاف.- ١٧/ ٧/ ٢٠٠٤.(*www.elaph.com*)

٥٨- عادل جندي، مقال بعنوان تلك المواد الخطرة على البيئة (الوطنية)!.- شفاف الشرق الأوسط.- منشور بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٦. (*www.metransparent.com*)

٥٩-عزت أندراوس، هل رحب الأقباط بالغزو العربي الإسلامي؟، ضمن موسوعة تاريخ أقباط مصر: (*www.coptichistory.org*)

٦٠-علي الشمري، "دولة الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب و مصر ٢٥٩- ٥٢٤هـ".- مجلة النبأ.- العدد (٣٨)، رجب ١٤٢٠هـ.- متاح على الرابط: (http://www.annabaa.org)

٦١-فتح مصر.- مفكرة الإسلام.- متاح بتاريخ ٥ أكتوبر ٢٠٠٩ على الرابط: (*www.islammemo.cc*)

٦٢- محمد الكوخي، مقال بعنوان "الفتح الإسلامي أم الغزو العربي".- صحيفة الحوار المتمدن.- العدد ١٩٦٩؛ يوليو ٢٠٠٧. (*www.ahewar.org*)

٦٣-محمد المبارك، مقال بعنوان " الانجازات التنموية الرائدة في عصر الخلافة الراشدة".- منشور بموقع صيد الفوائد.- متاح بتاريخ ٣٠ سبتمبر٢٠٠٩ على الرابط: (*http://www.saaid.net*)

٦٤-محمد المشطاوي، مقال بعنوان " الماوردي .. في ذكرى وفاته".- إسلام أون لاين.- منشور بتاريخ ٢١ أغسطس ٢٠٠١ على الرابط: (*http://www.islamonline.net*)

٦٥- محمد شاهين، السكة وضرب النقود في الدول الإسلامية: موسوعة دهشة(*www.dahsha.com*)

٦٦-محمد علي، مقال بعنوان "العرب ومصر: فتح أم غزو".- مدونة مسلم من مصر.- منشور بتاريخ ٢١ يوليو ٢٠٠٨. (*http://muslim-from-egypt.blogspot.com*)

٦٧-محمد عمارة، مقال بعنوان" حقيقة إسلام الشعب المصري".- المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير/ بحوث ودراسات.- منشور بتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠٠٩ على الرابط:(*http://tanseerel.com*)

٦٨-محمد معابيد، الفتح الإسلامي لمصر (١).- مدونة مصر اليوم:(http://meabed-egypt.blogspot.com)

٦٩-محمود الباشا، " مسجد مدينة العسكر" / مدونة التاريخ المصري.- منشور بتاريخ ١٤ فبراير٢٠٠٧ على الرابط: (http://modyelbasha.jeeran.com).

٧٠-محمود الباشا، مسجد التنور.- مدونة التاريخ المصري.- متاح بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠٠٧ على الرابط: (http://modyelbasha.jeeran.com)

٧١-محمود القاعود، "راسبوتين الثالث وتزييف حقائق التاريخ" .- مدونة أخبار الكنيسة حول العالم.- منشور بتاريخ ١٥ مارس ٢٠٠٩ على الرابط: (http://churchnewss.blogspot.com)

٧٢-محمود الورداني، "أوراق مسكوت عنها وهامش يتحول إلى متن".- مركز الدراسات الاشتراكية.- منشور بتاريخ ١ أبريل ٢٠٠٨: (http://www.e-socialists.net/node/891)

٧٣- مصر في ظل الفتح الإسلامي: رخاء اقتصاديّ وأمان اجتماعيّ وتقدم علميّ.- موقع الألوكة.- منشور بتاريخ ١١ ديسمبر ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.alukah.net/articles)

٧٤- مقال بعنوان " المقوقس مَن هو؟ وهل كان عظيم القبط؟"، منشور في وحدة المعرفة " Knol " بتاريخ ٧ ديسمبر ٢٠٠٨: (http://knol.google.com)

٧٥- مقال بعنوان " إنشاء الفسطاط"، موقع قصة الإسلام.- منشور بتاريخ ٥ فبراير ٢٠٠٨ على الرابط: (www.islamstory.com)

٧٦-مقال بعنوان "عمرو بن العاص.. فتح مصر بعد حصار طويل لحصن بابليون"، متاح بتاريخ ٢١ سبتمبر ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.alarabiya.net/articles/2009/09/18/85246.html)

٧٧-مقال بعنوان (بعد ١٥ سنة عبد العزيز جمال الدين يحققه)، جريدة العربي، العدد ١٠٠٨. نسخة إلكترونية على الرابط: (http://www.al-araby.com/docs/article1195.html)

٧٨- منال سيد، مقال بعنوان " مسجد عمرو بن العاص قلعة العلم ومنارة الإسلام"، شبكة الإعلام العربية.- متاح بتاريخ ١٤ مايو ٢٠٠٨ على الرابط: (http://www.moheet.com)

٧٩- منصور مهران، شبكة الفصيح لعلوم اللغة العربية.- ٥ نوفمبر ٢٠٠٧ على الرابط:(www.alfaseeh.com)

٨٠-نبيل الكرخي، دراسة بعنوان "إحراق مكتبة الإسكندرية بين الأقباط والمسلمين والأرثوذكس".- موقع الباحث الإسلامي نبيل الكرخي.- سبتمبر ٢٠٠٩: (http://nabilalkarkhy.net)

٨١-نعمات مجدي، «خمارويه بن طولون: الفارس الحاكم»، جريدة الرأي.- العدد ١٠٦٧٦، منشور بتاريخ ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٨. (www.alraitv.com).

المراجع العربية "المطبوعة"

٨٢- إبراهيم أحمد العدوي، مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام.- القاهرة: هيئة الآثار المصرية، ١٩٩٢. (سلسله الثقافة الآثرية والتاريخية مشروع المائة كتاب، ١٧)
٨٣- إبراهيم الابياري، أبو المسك كافور.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٢.
٨٤- إبراهيم الابياري، تأريخ القرآن.- القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٩٠.
٨٥- أحمد إبراهيم الشريف، حسن احمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي.- الطبعة الخامسة.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢.
٨٦- أحمد زكي تفاحة، مصادر التشريع الإسلامي و قواعد السلوك العامة.- الطبعة الأولى. - بيروت: دار الكتاب العالمي، ١٩٩٢.
٨٧- أحمد عبد الرازق أحمد، تاريخ وآثار مصر الإسلامية: من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩.
٨٨- أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر وآثارها الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٩٣.
٨٩- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي.- د.ط.- بيروت: دار النهضة العربية،د.ت.
٩٠- أحمد مختار عمر، تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
٩١- الإسكندري وسفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني.- ط٤.- القاهرة: مطبعة المعارف، ١٣٣٨هـ.
٩٢- الأنبا شنودة الثالث، مرقس الرسول: القديس والشهيد .- القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٨٧.
٩٣- أندرو مراد صبحي، العمارة الإسلامية في جامع أحمد بن طولون/ إشراف د.سمير سيف اليزل.- جامعة بنها.- القاهرة: كلية الهندسة بشبرا، ٢٠٠٦. (غير منشور).
٩٤- أنطونيوس الأنطوني، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها. القاهرة: دار الطباعة القومية، ١٩٩٦.
٩٥- أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢.
٩٦- بسام العسلي، عمرو بن العاص.- الطبعة التاسعة.- بيروت: دار النفائس، ١٩٨٥.
٩٧- جاك تاجر، أقباط ومسلمون من الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢.- جيرسي سيتي: الهيئات القبطية بالمهجر، ١٩٨٤.
٩٨- جمال بدوي، الفاطمية: دولة التفاريح والتباريح.- الطبعة الثانية.- القاهرة: دار الشروق،٢٠٠٨.
٩٩- جمال عبد الهادي، فتح مصر ٢٠هـ/ ٦٤١م .- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٩.

١٠٠- جمال عبد الهادي، فتح مصر ٢٠هـ/ ٦٤١م .- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٩.

١٠١- جميل عارف، دخول الإسلام مصر .- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب المصري الحديث، ٢٠٠٦.

١٠٢- حامد سليمان، قصة فتح مصر من القبطية إلى الإسلام: رؤية معاصرة.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ١٩٨٨.

١٠٣- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام.- الطبعة ١٤.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٦. (الجزء الثاني)

١٠٤- حسن إبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦. (سلسلة صفحات من تاريخ مصر ٣٤)

١٠٥- حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية.- الطبعة الثالثة.- القاهرة، ١٩٦٢.

١٠٦- حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية: العصر الطولوني.- القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.

١٠٧- حسين مؤنس، "تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون"، ضمن تاريخ الحضارة المصرية.- القاهرة، د.ت. (المجلد الثاني).

١٠٨- حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية: العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي.- القاهرة: وزارة الثقافة.

١٠٩- حمدنا الله مصطفى، تاريخ مصر الحديث والمعاصر.- القاهرة: جامعة عين شمس،٢٠٠٠.

١١٠- خلاصة تاريخ المسيحية في مصر/ تأليف لجنة التاريخ القبطي.- الطبعة الثالثة.- القاهرة: دار مجلة مرقس، ١٩٩٦.

١١١- رأفت عبد الحميد، "مصر والعرش البيزنطي"، ضمن كتاب مصر وعالم البحر المتوسط / إعداد وتقديم رؤوف عبّاس.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع،١٩٨٦.

١١٢- الراهب القس أثناسيوس المقارى، الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها.-الطبعة الأولى. - القاهرة: مكتبة مجلَّة مرقس، ٢٠٠٧. (الجزء الثَّاني: كنيسة مصر)

١١٣- زكريا أوزون، جناية الشافعي: تخليص الأمة من فقه الأئمة.- الطبعة الأولى.- لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٥.

١١٤- زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر: من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني.- القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٥. (الجزء الأول).

١١٥- سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١. (الجزء الأول)

١١٦- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في العصور الوسطى.- القاهرة، ١٩٨٩.

١١٧- سمر حبيب، المثلية الجنسية عن النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها.- الطبعة الأولى.- حيفا: أصوات، ٢٠٠٨.

١١٨- سمير فراج (ابن الشاطئ)، الدولة الإخشيدية.- الطبعة الأولى.- القاهرة، مركز الراية للنشر والإعلام، ٢٠٠٧. (سلسلة موسوعة التاريخ الإسلامي، ٢٨٧ صفحة).

١١٩- السيد الباز العريني، مصر البيزنطية.- القاهرة، ١٩٦١.

١٢٠- السيد طه أبو سديرة، القبائل اليمنية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الأموي (٢٠-١٣٢هـ/ ٦٤٠ - ٧٥٠م).- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الشعب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨.

١٢١- السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب: تاريخ الدولة العربية.- الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت. (الجزء الثاني)

١٢٢- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون.- القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥.

١٢٣- سيدة إسماعيل كاشف، عبد العزيز بن مروان.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٦. (سلسلة أعلام العرب ٧٠)

١٢٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين.- القاهرة: مطبعة جامعة الملك فؤاد الأول،١٩٥٠.

١٢٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.- الطبعة الثانية.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨. (سلسلة تاريخ المصريين ١٤، ٢٣٤ صفحة).

١٢٦- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.- الطبعة الثانية.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة لكتاب، ١٩٩٤.

١٢٧- شحاتة محمد إسماعيل، دراسات في التاريخ الروماني.- القاهرة ١٩٨٤.

١٢٨- شعبان خليفة، مكتبة الإسكندرية: الحريق والإحياء.- القاهرة، ٢٠٠٢.(سلسلة كتاب الجمهورية)

١٢٩- شفيق شحاتة، التاريخ العام للقانون في مصر القديمة والحديثة.- القاهرة، ١٩٦٣.

١٣٠- صابر محمد دياب، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها.- الطبعة الأولى.- القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٧٦.

١٣١- صفاء حافظ عبد الفتاح، الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة (٢١ – ٢٥٤هـ / ٦٤٢ – ٨٦٨م). الطبعة الأولى.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩١.

١٣٢- عباس شومان، مصادر التشريع الإسلامي.- القاهرة: الدار الثقافة، ٢٠٠٠. (سلسلة الدراسات الفقهية)

١٣٣- عباس محمود العقاد ، عمرو بن العاص.- القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦١.

١٣٤- عباس محمود العقاد، عبقرية عمر.- القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٨٨.

١٣٥- عبد الأمير عبد حسين دكسن، الخلافة الأموية ٥٦- ٦٨هـ/ ٤٨٦-٥٠٧م.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٣.

١٣٦- عبد الحميد العبادي وآخرون، الدولة الإسلامية.-الطبعة الثالثة.- القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٨.

١٣٧- عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية المصرية في مصر القديمة: من فجر التاريخ إلى الفتح العربي.- الطبعة الثانية.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩.

١٣٨- عبد السلام العشري، عمرو بن العاص فاتح مصر.- الطبعة السابعة.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥. (سلسة مشاهير العرب ٢)

١٣٩- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام.- الطبعة الأولى.- بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.

١٤٠- عبد العزيز جمال الدين، تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين: من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦.

١٤١- عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمة، بعض العمران في مصر طوال العصور الوسطى.- المنوفية،د.ت.

١٤٢- عبد المجيد الحفناوي، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية.- الإسكندرية (٤٩٩صفحة).

١٤٣- عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر: التاريخ السياسي.- الطبعة الرابعة.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٤.

١٤٤- علي مبارك، الخطط التوفيقية.- القاهرة: طبعة بولاق، ١٣٠٥هـ .

١٤٥- عمر طوسون، وادي النطرون ورهبانه وأديرته.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.

١٤٦- فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية: من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠. (الجزء الثاني)

١٤٧- فتحي أبو سيف، المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال.- الطبعة الثانية.- القاهرة، ١٩٩٩.

١٤٨- فتحي المرصفاوي، تاريخ القانون المصري، القاهرة ١٩٨٢.

١٤٩- قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٧.

١٥٠- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى.- الطبعة الثانية.- دار المعارف: القاهرة، ١٩٧٩.
١٥١- كريم الشاذلي، أفكار صغيرة لحياة كبيرة.- الطبعة الأولى.- القاهرة، دار أجيال للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.
١٥٢- لطفي عبد الوهاب يحيى، مقدمة لحضارة الإسكندرية: دراسة في حضارة البحر الأبيض.- الطبعة الأولى.- الإسكندرية: مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٥٨.
١٥٣- محمد الخضري، الدولة الأموية.- الطبعة الأولى.- المكتبة العصرية- الدار النموذجية، ٢٠٠٣.
١٥٤- محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي، من التمدن الإسلامي.- الطبعة الأولى.- كربلاء، ١٩٧٧.
١٥٥- محمد حسين هيكل، الفاروق عمر.- الطبعة الخامسة.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢. (٢ جزء في مجلد واحد)
١٥٦- محمد حمدي المناوي، مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠. (الجزء الأول).
١٥٧- محمد شفيق غربال، تكوين مصر عبر العصور.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠. (سلسلة تاريخ المصريين ٤٢)
١٥٨- محمد عبد الحي شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية (٦٠٠- ٧٥٠م).- الطبعة الأولى.- بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧.
١٥٩- محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
١٦٠- محمد عنان، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة.- دار الهلال، ١٩٦٢.
١٦١- محمود أحمد، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية.- القاهرة: ١٩٨٣.
١٦٢- محمود الحويري، مصر في العصور الوسطى: الأوضاع السياسية والحضارية.- طبعة ٢٠٠٣.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣.
١٦٣- مصطفى العبادي، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٦. (٣٥٨صفحة).
١٦٤- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم/ مراجعة درويش الجويدي.- بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٢.
١٦٥- منسي يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية.- القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٨٣.
١٦٦- ناصر الأنصاري، المجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية.- الطبعة الثانية.- القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧.

١٦٧- نبيل لوقا بباوي، الأقباط: هل ساعدوا المسلمين في فتح مصر/ تقديم الشيخ علي عبد الباقي.- الطبعة الأولى.- القاهرة ٢٠٠٩.

١٦٨- نبيل لوقا بباوي، انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء.- القاهرة، د.ت.

١٦٩- نبيه عقل، تاريخ خلافة بني أمية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣.

١٧٠- نريمان عبد الكريم أحمد، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦. (سلسلة تاريخ المصريين، ٩٠)

١٧١- هاشم يحي الملاح، الحسبة في الحضارة الإسلامية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٧.

١٧٢- هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤. (الجزء الأول)

١٧٣- يعقوب نخلة روفيله، تاريخ الأمة القبطية/ تقديم جودت جبره.- الطبعة الثانية.- أوهايو: مؤسسة القديس مرقس لدراسات التاريخ القبطي، ١٩٩٩.

المراجع العربية "الإلكترونية"

١٧٤-"طبيعة واحدة وطبيعتين" ضمن كتاب البابا شنودة، طبيعة المسيح، متاح عبر الموقع الرسمي لكنيسة الأنبا تكلاهيمانوت القبطية الأرثوذكسية: (*http://St-Takla.org*)

١٧٥- إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ.- بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨. مصدر الكتاب الوراق، ومتاح بالموسوعة الشاملة على الإنترنت: (*www.islamport.com*)

١٧٦- أسعد القاسم، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة.- نسخة إلكترونية متاحة بشبكة الشيعة العالمية. (*www.shiaweb.org*)

١٧٧- أشرف صالح محمد سيد، تيبيريوس ثاني الأباطرة الرومان.- الطبعة الإلكترونية الأولى.- بيروت: شركة الكتاب العربي الإلكتروني، ٢٠٠٨. (*www.arabicebook.com*)

١٧٨- أشرف صالح محمد سيد، أصول التاريخ الأوربي الحديث.- الطبعة الإلكترونية الأولى.- الدوحة: دار واتا للنشر الرقمي، ٢٠٠٩. (*www.wata.cc*)

١٧٩- بيجول باسيلي، هل رحب الأقباط بالفتح العربي؟ / مراجعة عبد الكريم بشير .- فرانكفورت، د.ت. نسخة إلكترونية: (*www.answersaboutfaith.com*)

١٨٠- بيجول باسيلي، هل رحب الأقباط بالفتح العربي؟ نسخة إلكترونية: (*www.answersaboutfaith.com*)

١٨١- سليم نجيب، "الكنيسة القبطية وحياة الرهبنة"، ضمن كتاب الأقباط عبر التاريخ، نسخة إلكترونية: (*www.copticnews.ca*)

١٨٢- سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر: حكايات الدخول.. رحلة الانصهار.- القاهرة: كتب عربية، ٢٠٠٦. (*www.kotobarabia.com*)

١٨٣- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.- متاح بتاريخ ١٠ سبتمبر ٢٠٠٩ بموقع الهيئة القبطية الأمريكية / مكتبة الإنترنت الإلكترونية.(*www.amcoptic.com*)

١٨٤- الشيخ الأميني، عيد الغدير في الإسلام. (ج٦). ومتاح نسخة إلكترونية في مكتبة شبكة الشيعة العالمية على الرابط: (*http://www.shiaweb.org/books/eid_al-gadir/index.html*)

١٨٥- الشيخ عباس القمي، الكنى والألقاب/ تقديم محمد هادي الأميني.- نسخة إلكترونية متوفرة بمكتبة تراجم الرجال: الجزء الثاني (*http://www.alhuda5.com/books/rijal*)

١٨٦- قاموس الكتاب المقدس ، مجمع الكنائس الشرقية.- ص١٧٩، ص١٠٣، ص٥٩٧. ومتاح على شبكة الإنترنت: *(http://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books)*

١٨٧- القس زكريا بطرس، تاريخ انشقاق الكنائس.- نسخة إلكترونية على الرابط: (*www.fatherzakaria.com*)

١٨٨- كتاب السنكسار، ضمن تاريخ البطاركة في الكنيسة القبطية: (*http://st-takla.org*)

١٨٩- نوري جعفر، الصّراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام/ تقديم د. حامد حفني داود.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مطبعة دار المعلم للطباعة، ١٩٧٨. (مطبوعات النجاح بالقاهرة، نسخة إلكترونية: (*www.rafed.net*)

المراجع المشتركة "أكثر من مؤلف"

١٩٠- حسن أحمد محمود، سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠. (سلسة الألف كتاب ٢٨٥)

١٩١- عبد الحميد العبادي، محمد مصطفى زيادة، إبراهيم أحمد العدوي، الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها.- الطبعة الثالثة.- القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٨.

المراجع المترجمة

١٩٢- أدولف جروهمان، أوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية/ ترجمة حسن إبراهيم حسن.- القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٣٦ – ١٩٦٧م. (الجزء الثالث)

١٩٣- أرنولد توينبي، تاريخ البشرية/ ترجمة نقولا زيادة.- الطبعة الرابعة.- بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٣.

١٩٤- إسماعيل راجي الفاروقي، ولوس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية/ ترجمة عبد الواحد لؤلؤة/ مراجعة رياض نور الله.- الطبعة الأولى.- الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨.

١٩٥- ألفريد ج.بتلر، فتح العرب لمصر / ترجمة محمد فريد أبو حديد.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.
١٩٦- أندريه كلو، هارون الرشيد ولعبة الأمم/ ترجمة صادق عبد المطلب الموسوي.- الطبعة الأولى.- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.
١٩٧- ترتون، أهل الذمة في الإسلام/ ترجمة حسن حبشي.- القاهرة: دار المعارف،١٩٦٧.
١٩٨- ستانلى لينبول، سيرة القاهرة.- الطبعة الثانية.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١.
١٩٩- عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية/ ترجمة إسحق عبيد.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المشروع القومي للترجمة، العدد ٨٩٢)
٢٠٠- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية/ ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي.- الطبعة الخامسة.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨.
٢٠١- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية/ نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي.- الطبعة الخامسة.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨.
٢٠٢- كتاب مجموعة الشرع الكنيسة أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة/ جمع وترجمة وتنسيق الارشمندريت حنانيا الياس كساب.- منشورات النور ١٩٩٨.
٢٠٣- مولوى، الإدارة العربية / ترجمة إبراهيم العدوي.- القاهرة: ١٩٥٨.
٢٠٤- نورمان كانتور، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية / ترجمة قاسم عبده قاسم.- الطبعة الخامسة.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧.
٢٠٥- هـ.آيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي/ ترجمة عبد اللطيف أحمد علي.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٣.
٢٠٦- يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية/ ت.محمد عبد الهادي.- القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨.

الندوات والمؤتمرات و المحاضرات

٢٠٧- عوض بسيط، "في المسألة القبطية"، ندوة "المسألة القبطية بين الإنكار والتبعية للاستعمار".- القاهرة: مركز الدراسات الاشتراكية. ٣ نوفمبر ٢٠٠٦.
٢٠٨- محاسن الوقاد، محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية الفاطميين/ ألقيت في قسم التاريخ – كلية الآداب.- القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر – ديسمبر) ١٩٩٩. (غير منشورة)
٢٠٩- محمد منير مجاهد، "التمييز الديني في مصر".- منتدى القاهرة الاجتماعي الثالث "مناهضة التمييز الديني والتدخل الأجنبي".- القاهرة: نقابة الصحفيين. (٢٩ مارس – ١ أبريل ٢٠٠٧)

٢١٠- محمود إسماعيل، محاضرات " تاريخ الحضارة العربية الإسلامية" / ألقيت في قسم التاريخ بكلية الآداب.- القاهرة: جامعة عين شمس، خلال الفترة (سبتمبر ١٩٩٩- مايو ٢٠٠٠).

المصادر والمراجع والمقالات الأجنبية "المطبوعة"

211- A.J. Butler, The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of Roman Dominion, Oxford, 1902.
212- Abu-Lughod, Janet L. Cairo: 1001 Years of the City Victorious.- Princeton University Press, 1971
213- Alois Riegl, The Arabesque: Problems of Style. Princeton University Press, 1992.
214- Bury, J. B. (John Bagnell), A history of the later Roman Empire from Arcadius to Irene, 395 A.D. to 800 A.D.-London:Macmillan,1889.
215- Caroline Williams, Islamic Monuments in Cairo: The Practical Guide. Cairo: American University of Cairo Press, 2002.
216- Ch. Diehl, "L'Egypte chrétienne et byzantine": in Histoire de la nation égyptienne.. T. 03. L'Egypte ptolémaïque, 323-30 avant Jésus-Christ. L'Egypte romaine. L'Egypte chrétienne et byzantine, by Gabriel Hanotaux.- Paris : Plon, 1933.
217- David, Rosalie, The Experience of Ancient Egypt.- New York: Routledge, 2000
218- Doris Behrens-Abouseif, Islamic Architecture in Cairo: an introduction.- Leiden: E.J. Brill, 1989.
219- Edith L. Butcher, The Story of The Church of Egypt.-reprint of 1897 edition.- New York : AMS Press Inc, 1975.(Volumes I and II)
220- Eyewitness Travel: Egypt. Dorlin Kindersley Limited, London. 2007.
221- Farhat Dachraoui, Le califat fatimide au Maghreb: (296-362/909-973).- Tunis: Histoire politique et institutions, 1981.
222- Gaston Wiet, " L'Égypte musulmane de la conquète arabe à la conquète ottomane", Précis de l'histoire d'Égypte par divers historiens et archéologues.- Caire: Imprimé par l'Imprimerie de l'Institut franҁis d'archéologie orientale du Caire, 1932.
223- Gaston Wiet, "l' Égypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane", dans Histoire de la Nation Egyptienne/ sous la direction de Gabriel Hanotaux.- Le Caire, 1938. (Vol. 4)
224- Ghosh, Amitav, In an Antique Land (Vintage Books, 1994).
225- Gloria Karnouk, Form and Ornament of the Cairene Bahri Minbar. Annales Islamologiques 17.- 1981.
226- Hasan 'Abd al-Wahhab, Al-Jami' al-Tuluni.- Maj allat al-'Imara 2, 1940.
227- Hohn of Nikiu, Chronique de Jean, évéque de Nikiou.Texte éthiopien. Ed. And transl. H. Zotenberg. Paris: Imprimerie Nationale, 1883.
228- John Hoag, Islamic Architecture. New York: Rizzoli, 1987.
229- K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, vol. II. Oxford University Press. Reprinted by Hacker Art Books, New York, 1979.
230- Kamal el-Masry, Die tulunidische Ornamentik der Moschee des Ahmad Ibn Tulun in Kairo. PhD diss., Johannes-Gutenberg-Universität, Mainz 1964.
231- Lapidus, Ira M., A History of Islamic Societies.- Cambridge University Press. 1988
232- M. H. Lammens, Un gouverneur omaiyade d'Egypte.- Bulletin de l'Institut Egyptien .-Vol. 5; Dec.1908.
233- M. Tarek Swelim, The Mosque of Ibn Tulun: A New Perspective. Ph.D. diss., Harvard University, Cambridge, MA. 1994.

234- Maalouf, Amin, The Crusades Through Arab Eyes.- Al Saqi Books. 1984
235- Mason, Robert B., "New Looks at Old Pots: Results of Recent Multidisciplinary Studies of Glazed Ceramics from the Islamic World". Muqarnas: Annual on Islamic Art and Architecture (Brill Academic Publishers) XII. 1995
236- Maspero & Wite, Materiaux pour servir a la geographie de I'Egypte.- Caire, 1919.
237- Max van Berchem, Notes d'archéologie arabe II. Toulounides et Fatimites. Opera Minora I Geneva: Editions Slatkine, 1978.
238- Milne, J. Grafton, A History Of Egypt Under Roman Rule.- 3rd Edition.- London: Methuen & Co., 1924.
239- Milne, J. Grafton, A History Of Egypt Under Roman Rule.- 3rd Edition.- London: Methuen & Co., 1924
240- Nicholas Warner, The Monuments of Historic Cairo: a map and descriptive catalogue.- Cairo: American University in Cairo Press, 2005.
241- Nicholas Warner. "Guide to the Gayer-Anderson Museum in Cairo." Cairo: Press of the Supreme Council of Antiquities, 2003.
242- Paolo Cuneo, Storia dell'urbanistica: il mondo Islamico. Rome-Bari: Laterza and Figli, 1986.
243- Petersen, Andrew, Dictionary of Islamic Architecture. - New York: Routledge. 1999
244- R.G. 'John' Gayer-Anderson Pasha. "Legends of the House of the Cretan Woman." Cairo and New York: American University in Cairo Press, 2001.
245- Sir Frank M. Stanton, Anglo-Saxon England.- Third Edition.- London: Oxford UniversitPress, 1971.
246- Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages .- London: Methuen & Co., 1901. (Vol. VI.)
247- Stanley Lane-Poole, A history of Egypt in the Middle Ages.- Fourth edition.- London: Frank Cass & Company limited, 1968.
248- Stephen O. Murray and Will Roscoe, Islamic Homosexualities: Culture, History and Literature.- New York: New York University Press, 1997.
249- W.H. Worrell, Short Account of the Copts, P.sl; idem, “Popular Traditions of the Coptic Language”, in American Journal of Semitic languages and literatures.- Chicago: University of Chicago,1937.
250- Yeomans, Richard, The Art and Architecture of Islamic Cairo. Garnet & Ithaca Press. 2006
251- Zaky Mohamed Hassan, Les Tulunides: étude de l'Égypte Musalmane à la fin du IXe siè cle 868-905.-Paris:Établissements busson, 1933.

المصادر والمراجع والمقالات الأجنبية "الإلكترونية"

252- "Abu al-Hasan al-Mawardi", The Window: philosophy on the internet.- available in 5 Nov. 2009 at: (http://www.trincoll.edu/depts/phil/philo/phils/muslim/mawardi.html)
253- Al-Qatta'I (868 – 969 CE), available in 10 Jan 2010: (http://menic.utexas.edu/cairo)
254- Antoniou, Jim. "Historic Cairo – rehabilitation of Cairo's historic monuments". (Cited in March 1998) http://findarticles.com/p/articles
255- Bernard Lewis, The Vanished Library "In response to Lost History of the Lost Library", Reply by Hugh Lloyd-Jones.- Volume 37, Number 14.- available in 27 Sep.1990 at: (http://www.nybooks.com/articles/3517).
256- Ellen Brundige, The Decline of the Library and Museum of Alexandria.- available in 10 Dec.1991 at: (http://www.digital-brilliance.com/kab/alex.htm)

257- Helen Chapin Metz, ed. Egypt: A Country Study. Washington: GPO for the Library of Congress, 1990. (available in 21 September 2009 at: http://countrystudies.us/egypt/)

258- Jarrar, Sabri, András Riedlmayer, and Jeffrey B. Spurr. 1994. Resources for the Study of Islamic Architecture. Cambridge, MA: Aga Khan Program for Islamic Architecture. (http://archnet.org/library/documents/one-document.jsp?document_id=6053.)

259- Preston Chesser, “The Burning of the Library of Alexandria”, available in 23 Oct.2009 at:(http://ehistory.osu.edu/world/articles/ArticleView.cfm?AID=9)

الموسوعات العربية "المطبوعة"

٢٦٠- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧.

٢٦١- سالم سليمان العيسى، المعجم المختصر للوقائع من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠.- الطبعة الأولى.- دمشق: دار النمير للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.

٢٦٢- فؤاد كامل، جلال العشري، الموسوعة الفلسفية المختصرة.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.

٢٦٣- موسوعة تاريخ مصر عبر العصور.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٣.(س تاريخ المصريين، ٦٣)

٢٦٤- موسوعة تاريخ مصر: مصر الإخشيدية / إعداد هشام الجبالي.- القاهرة، المكتب العربي للمعارف، ١٩٩٤.

٢٦٥- موسوعة تاريخ مصر: مصر الإسلامية/ تحرير هشام الجبالي.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ١٩٩٤.

الموسوعات العربية "الإلكترونية"

٢٦٦- عزت أندراوس، موسوعة تاريخ أقباط مصر/ تحت عنوان (العرب المسلمون حرقوا مكتبة الإسكندرية) من خلال الرابط: (*www.coptichistory.org*)

٢٦٧- الموسوعة الإخوانية، مادة فتح مصر.- على الرابط: (*http://www.ikhwan.net/wiki/index.php*)

٢٦٨- الموسوعة البريطانية ، فقرة *Alexandrian Museum*. (*wwwa.britannica.com*)

٢٦٩- الموسوعة الحرة ويكيبيديا- مادة " *Cyrenaica* " (*http://en.wikipedia.org/wiki/Cyrenaica*)

٢٧٠- الموسوعة الحرة: ويكيبيديا، مادة الفتح الإسلامي لمصر: (*http://ar.wikipedia.org*)

٢٧١- الموسوعة العربية: (*http://www.arab-ency.com*)

٢٧٢- الموسوعة الكاثوليكية على الرابط:(*http://en.wikisource.org/wiki/Catholic_Encyclopedia*)

٢٧٣- موسوعة قنشرين للكنائس والأديرة (*http://www.qenshrin.com/church/church.php*)

٢٧٤- موسوعة مساجد مصر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (نسخة إلكترونية)

المواقع الإلكترونية

٢٧٥- مكتبة الخرائط والصور التوضيحية/ موقع تقنيات التعليم بحائل: (www.edu-maps.com)

٢٧٦- موقع أجوبة: (www.agweba.com)

٢٧٧- موقع إسلام ويب/ المكتبة الإسلامية: (www.islamweb.net)

٢٧٨- الموقع الرسمي لكنيسة مارمينا فم الخليج: (www.marmina-fumalkhalig.org)

٢٧٩- موقع المركز الألماني للثقافة والحوار: (http://www.zfkd.org)

٢٨٠- موقع المسالك: (www.almasalik.com)

٢٨١- موقع تاريخ مصر "تاريخ مصر من أجل مستقبل مختلف": (www.egypthistory.net)

٢٨٢- موقع تاريخ مصر/ أماكن مصر التاريخية: (www.egypthistory.net)

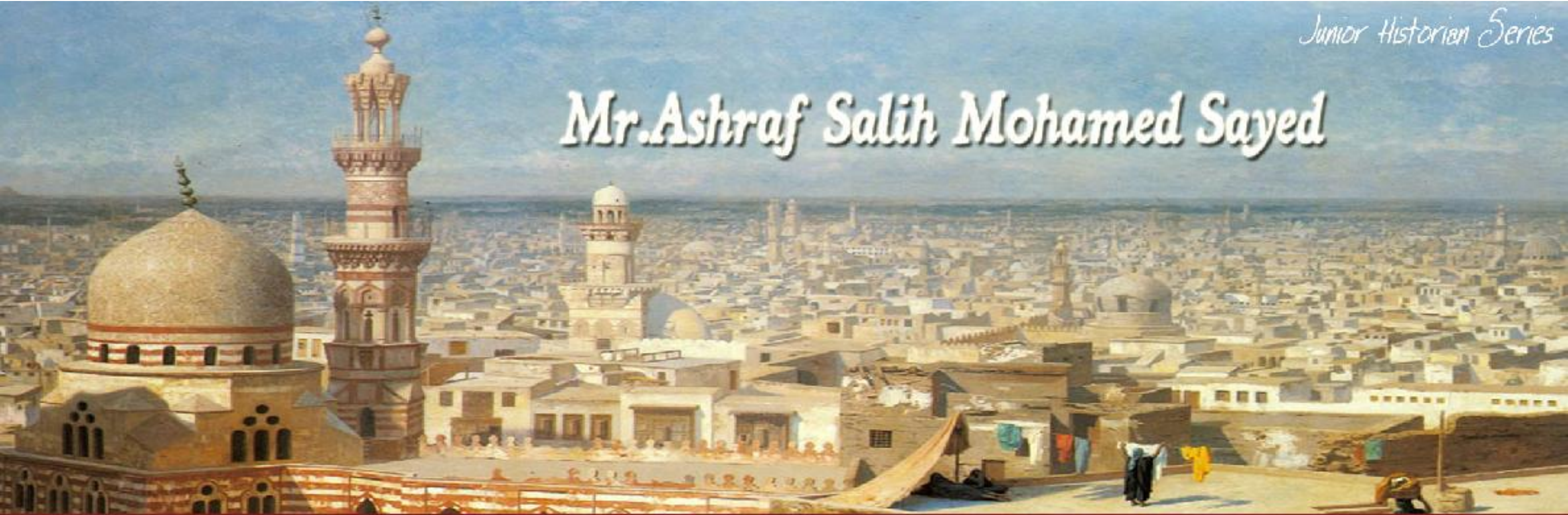
٢٨٣- موقع دليل المسافر: (www.elmesafer.com)

٢٨٤- موقع مصر الخالدة: (www.eternalegypt.org)



Junior Historian Series

Mr.Ashraf Salih Mohamed Sayed



Days of Mahroosa

From The Arab Conquest of Egypt Until The End of The Ikhshidid Dynasty



1431

2010

Alsdaqa E-Publishing House
www.alsdaqa.com